

الأعمال الكاملة

أئمة الفقه التسعة

دار الشروق

طبعة دار الشروق الأولى

١٤١١ هـ - ١٩٩١ م

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤

برقيا : شروق - تلكس : 93091 SHROK UN

بيروت : ص . ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣

برقيا : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE

عبد الرحمن الشرقاوى



الإمام زيد بن على زين العابدين
الإمام جعفر الصادق
أبو حنيفة النعمان
مالك بن أنس
الليث بن سعد
الإمام الشافعي
الإمام أحمد بن حنبل
الإمام ابن حزم
العز عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام

دار الشروق

المحتويات

المقـدمة ٧

زيد بن على زين العابدين ١٣

الإمام جعفر الصادق ٣٥

أبو حنيفة النعمان ٥٣

مالك بن أنس ٧٣

الليث بن سعد ٩٣

الإمام الشافعى ١٢١

الإمام أحمد بن حنبل ١٦٣

الإمام ابن حزم ٢٢٥

العز عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام ٢٨٩

المقدمة

الاسلام عقيدة وشريعة

فأما العقيدة فقوامها التسليم لله، والإيمان به وحده لاشريك له، وبملائكته وكتبه ورسله، وتستند على أركان الإسلام الخمسة، وهى تنظم العلاقة بين الله تعالى والناس وتطهرهم وتزكيهم فيصبح العبد المؤمن حرا أمام الآخرين بقدرعبوديته لله، غنيا عن الناس بقدر فقره إلى الله، عزيزا على نفسه وعلى سواه بقدر إيمانه أن العزة لله جميعا.

أما الشريعة فهدفها تحقيق مصالح البشر، وهى المبادئ التى تنظم المعاملات، وتصوغ الحياة الأفضل، وتتمم مكارم الأخلاق، وتؤلف القلوب على التراحم والمودة، وتصوغ العقول لعمران الأرض وتحقيق السعادة فيها، وتدرب الإنسان على الصالحات من الأعمال، ليصبح الإنسان بحق أخا للإنسان.. !

وإذا كانت العقيدة والشريعة، هما العنصران اللذان يشكلان الدين، فهما عنصران متلازمان لا انفكاك لهما، كالضوء ومصدره.. ولكن العقيدة مع ذلك تعنى المسلمين وحدهم، أما الشريعة التى تنظم التعامل بين البشر، فهى تعم بأحكامها كل الناس مسلمين وغير مسلمين.

وقد أثر الإسلام على نحوما، فى جميع الذين يعيشون على أرض الإسلام، فهو ميراثهم العظيم، مهما تكن دياناتهم.. فقد ترسبت قيمه الفاضلة فى نفوسنا، بلا استثناء، ومازالت أعماق كل واحد منا تشرق فجأة بالروعة، عندما نذكر الأيام الباهرة الذاهبة المضيئة من تاريخ الإسلام، حين أظلت رحمته، وشكلت عدالته مجتمعات كثيرة عبر التاريخ، حين كانت راياته تخفق على الدنيا من ساحل الأطلسى فى الأندلس، إلى أقصى الشرق.

وقد تدربت مبادئ الإسلام على أن تواجه بيئات جديدة غير التى نشأ فيها، وظلت هذه

المبادىء قادرة على العطاء، وتعودت تقديم الإجابات على كل مايواجهها من أسئلة، وبذل الحلول لكل مايستحدث من المشاكل ...

ألف الإسلام هذه القدرة على حل مشاكل البشر وتحقيق مصالحهم عبر أربعة عشر قرنا منذ نشأ أول مجتمع إسلامي في المدينة المنورة تحت قيادة الرسول صلى الله عليه وسلم .

زحف الفرسان الأوائل ليحرروا الشعوب المستعبدة في الامبراطوريات القديمة ورأوا رعايا تلك الإمبراطوريات يدخلون في دين الله أفواجا، تخليصا للنفس من الهوان، وذل الاستعباد، وآلام الظلم .

كانت هذه الفتوحات تحمل في أحشائها جنين حضارة جديدة . فقد كان أولئك الفرسان المسلمون محاربين بواسل هذا حق، وكانوا أيضا دعاة عدل وحضارة وحرية، وكانوا علماء .. فقد كانوا من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو من التابعين ..

وكانت نضارة الدين الجديدة بكل عنفوان تعاليمه تعمر قلوبهم .. وما فتحوا البلاد باحثين عن مغانم، ولكن محررين وهداة ورعين، وحملة مبادئ نشروها بين الناس . وهذا كله كان ميلاد عصر جديد . وجاء من بعدهم خلف عظيم، من أهل الجزيرة العربية أو من أهل البلاد المفتوحة، أحسنوا نشر التعاليم وبرعوا في استنباط الأحكام الشرعية لمستحدثات الأمور، متأثرين بالبيئات الجديدة، محترمين الأعراف والعادات السائدة عندما لا تتعارض مع نصوص الشريعة الإسلامية أو روح تلك الشريعة السمحة .

على أن الإسلام لم ينتشر بالفتح وحده، بل أدى التجار ــ ومنهم علماء ــ دورا كبيرا في نشر الإسلام في كثير من أقطار الأرض، وكان العلماء في ذلك الزمان يعملون بالتجارة والصناعة والزراعة وغيرها من الحرف ليكسبوا من كد أيديهم، ويؤدوا دورهم في نشر تعاليم دينهم ومبادئه في الوقت نفسه .

وقد نشأ من أهل البلاد المفتوحة علماء وفقهاء أثرى بهم الفقه الإسلامي .

وقد أحسست أن من الواجب على أن أنشر صفحات نضال هؤلاء العلماء والفقهاء، وأن أتقصى مواقفهم من الحياة والناس، وأرسم بقدر ماوسعني الجهد صورا لهم أضعها أمام قراء هذا العصر، عسى أن يجدوا فيها المثال الحي، وعسى أن تثير فيهم الهمة، لينهضوا ببعض مانهض به السلف الصالح .

وهؤلاء الذين كتبت عنهم، هم الذين انفعلت بحياتهم وفكرهم واقتحاماتهم الجسور، ونضالهم في سبيل حياة أفضل، وبمواقفهم فهؤلاء اذن ليسواهم كل أئمة الفقه الإسلامي .

منهم من أوجزت في الكتابة عنه ، ومنهم من أطنبت . وماذلك لفضل أحد منهم على الآخر ، فكلهم أصحاب فضل ولكنى وجدت بعضهم قد ظلمه التاريخ ، فلم يعرفه الناس كما ينبغى ، فأضطررت إلى الإفاضة فى الكتابة عنه ، ومنهم من أساء إليه بعض أتباعه فصوروه على غير صورته ، فكان محتما على أن أجلو صورته الصادقة .. أما الآخرون فما يعرفه الناس عنهم كثير، فما تناولت الا مواقفهم التى لم تنشر من قبل على نحو كاف .

ولست أنكر أنى لقيت فى الكتابة عن هؤلاء الأئمة نصبا .. وبعضهم تندر المراجع عنه ، وبعضها قد اختفى .. ولقد أذكر أنى ذهبت إلى جامع الإمام الليث بن سعد ، عسى أن تكون فى الجامع مكتبة بها بعض الكتب عنه .. واستقبلنى القائمون على الجامع أكرم استقبال ، وقالوا إن الإمام كان كريما ، ومن التقاليد إكرام من يزور جامعه . وسألت عن المكتبة فقال لى أحدهم على استحياء : كانت تقام هنا أذكار مرة فى الأسبوع ، ومنعت ، وأهمل الجامع والمكتبة ، فتسلل الماعز فأكل مافى المكتبة من كتب ، منها مخطوطات وكنوز علمية نفيسة ! !

ولقد أردت أن أضع أمام القارئ الذى لايستطيع أن يشترى الموسوعات ، صورة من فقه هؤلاء الأئمة العظام ، ومواقفهم من الحياة وأود أن أذكر بالخير والعرفان تلك الجهود التى بذلها أستاذنا المرحوم الشيخ أبو زهرة رحمه الله ، وجهود المستشار عبد الحليم الجندى قواه الله ومد فى عمره فكلاهما ألف كتبا موسوعية عظيمة عن عدد من أئمة الفقه الإسلامى .. كما أذكر بالخير والعرفان اهتمام المرحوم العالم الشيخ محمد شاكر بشرح الإحكام فى أصول الأحكام لابن حزم الأندلسى .. وأوجه الشكر إلى كل الذين كتبوا عن أئمة الفقه الإسلامى

وأنا بعد أشكر القراء الذين اهتموا بهذا الكتاب قبل أن ينشر كاملا ، عندما كنت أنشره موجزا تحت عنوان شخصيات إسلامية فى السنوات الثلاث الماضية خلال شهر رمضان المعظم

وإن كنت قد قصرت أو نسيت أو أخطأت فى بعض هذه الصفحات ، فإنى لأدعو الله ربنا لا تؤاخذنا بما نسينا أو أخطأنا ..

نفعنا الله جميعا بعلم هؤلاء الأئمة وهيأ لنا أن نتعظ بمواقفهم وجسارتهم فى الحق ، وشجاعتهم على الباطل ، وأن نعمل بما شرحوه وجلوه من مبادئ الإسلام .

والله ولى التوفيق .

عبد الرحمن الشرقاوى

الإمام زيد بن علي زين العابدين

الفقيه الفارس

عاش فى ذلك العصر المدوى بطبول الانتصارات ، ورنين الأبواق العزافة ، وصهيل الخيول الزاحفة ، وصليل السيوف .. فى أوج الفتوحات الإسلامية التى رفعت راية الإسلام على أسوار الصين فى أقصى الشرق إلى الأندلس فى أقصى الغرب ، وخفقت على جنوب فرنسا وعلى جزر البحر الأبيض المتوسط ، فارتفعت منارات الدين الجديد على الجزء الأكبر من العالم الذى عرفه إنسان ذلك الزمان ..

وهو عصر باهر مفعم بالغنى والمتاع ، وبكل مايثير الزهو.

وهو مع ذلك عصر مشوب بالحنين إلى عدالة المسلمين الأوائل وصدقهم وورعهم ..

عصر مفعم بالأسى ، وجلال الذكريات ، وبالأشواق إلى الحرية ..

ينساب فى دوى انتصاراته أنين حزين مكتوم ، ونفثات غيظ كظيم .. وتبلل راياته الخفاقة دماء المظلومين ودموع لاتجف أبدا ، وتمزق أنغام الانتصارات فيه أصداء النحيب والعويل .. !

كانت الدولة الأموية تواصل الفتوحات وترسى قواعد الإمبراطورية الإسلامية ، ولكن الخلفاء مع ذلك كانوا يضطهدون مخالفيهم وحتى ناصحيهم ، و يتتبعون آل بيت الله ومن يتشيعون لهم ليقتلوهم بلا رحمة ! !

كان الخليفة الأموى لايطيق نصيحة ، حتى لقد أعلن هشام بن عبد الملك وهو فى بيت الله الحرام أنه سيقطع رأس من يقول له « اتّق الله » .. !

وما كان المسلمون فى ذلك الزمان يحبون أن يرفعوا الرأس بالعصيان فى وجوه الخلفاء طلبا للعدل أو نهيا عن المنكر، لكيلا يتصدع بنيان تلك الجيوش الموجهة لفتح بلاد جديدة تنشر فيها الاسلام !

ومن هنا نبعت مأساة الإنسان فى ذلك الزمان : ذلك أنه يجب أن يوافق على مايرفض ، و يقبل مايكره ، و يسكت على مايدين ، لأن جيوش الدولة مشتبكة فى حروب مع غير المسلمين ! . .

وهكذا استغل الخلفاء هذا الإحساس المرهف بالمسئولية ، فقهروا كل من يخالفهم أو يعلن عدم الرضا عنهم . .

وهكذا آثر الصمت عدد من علماء المسلمين نجاة بأنفسهم من بطش الحاكمين .. ومامن شيء كان يزعج الحكام مثل حنين الناس الى عصر النبوة ، وزمن الخلفاء الراشدين ، وحب المسلمين الصادق لآل بيت رسول الله (ص) .. وندم الذين تخلوا عن الحسين بن على . كانوا يخافون كل شيء حتى الندم .. !

فى هذا الجو المضطرب الذى يمزقه التناقض بين مايحبه الإنسان ومايكرهه . ، بين مايسر ومايعلن ، ولد زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب .

ولد فى المدينة عام ثمانين للهجرة ، ومازال رجع الأنين على الحسين شهيد كربلاء يملأ الآذان ، ومازالت الفجيعة تغص الحلوق وتحرق الأكباد ! !

ولد ومازالت دماء كربلاء تغشى عيون صناع الفجيعة والمفجوعين على السواء .. ومازالت ذكريات نكبة آل البيت تفرى صدور قوم مؤمنين !

مامن شيء بعد يطفيء النار التى فى الصدور .. حتى القصاص الذى ثأر فيه بعض أشياع الحسين من كل من شاركوا فى مقتل الشهيد العظيم وآل بيته .. حتى هذا القصاص لم يشف غيظ القلوب ! .

استمر الاضطهاد ، وسارت الدولة الأموية على إقصاء آل البيت وألزمتهم المدينة ، فالتزموها لايبرحونها إلا إلى الحج .

وكان عميد آل البيت بعد استشهاد الإمام الحسين رضى الله عنه هو ابنه على زين العابدين .

وقد اختار على زين العابدين بن الحسين أن يعلم الناس وأن يفقّهم بأمور دينهم ، وأخذ أولاده بالنظر فى علوم الدين ، وأعدهم ليكونوا من بعده أئمة صالحين .

وقد كان على زين العابدين هو أصغر آل البيت فى كربلاء .. أنقذه مرضه واستماتة عمته السيدة زينب دفاعا عنه ، وكان القتلة قد ذبحوا آل البيت من الذكور ولم يرحموا أحدا حتى الأطفال ، وشردوا نساء رسول الله فى الفلوات .. ثم ساقوهن فى موكب وحشى من كربلاء إلى دمشق تتقدمهن رأس سيد الشهداء على سن حربة ! !

كل تلك الذكريات الفاجعة ظلت تعيش حية فى أعماق على زين العابدين ، وصورة أبيه لا تفارق عينيه . عبد صالح خرج يطلب العدل للناس ، و يناضل لاسترداد حقوقهم وحريتهم ، و بايعوه على أن ينصروه ليسترد لهم شرفهم وكبرياءهم ، وإذا بهم يخذلونه و يسلمونه وآل بيته الى ظالميهم .. ! !

من أجل ذلك رفض على زين العابدين طلب شيعة آل البيت فى العراق أن ينهض من المدينة كما نهض أبوه .

وصرف زين العابدين عنه أولئك الذين استنهضوه فقد وعى ماحدث لأبيه فى العراق .. وظل يوصى ولديه محمدا الباقر، وزيدا ألا ينخدعا باستنهاض أهل العراق ، ففى مأساة الحسين عبرة ! !

وحين توفى الإمام على زين العابدين ، وترك تلك الحياة المعذبة بكل مافيها ، ترك للناس علما غزيرا ، وترك ابنه الأكبر محمدا راعيا وأستاذا لابنه الأصغر زيد ..

وزيد إذ ذاك فى مقتبل العمر، يتطلع إلى كل شىء بهذا النوع من الدهشة التى نعرفها عندما تثب السنون بنا إلى الشباب ، وتطالعنا الحياة بما لم نعرفه من قبل ! ..

وجد المدينة من حوله تضىء بالقُراء ، ورواة الحديث ، وعلماء الدين .

وكانوا يتذاكرون فيما بينهم ، و يتلقون طالبى العلم من مختلف أرجاء الأرض .. ولكنهم يمسكون ألسنتهم عن جور الحكام ، اتقاء لعسف هؤلاء الحكام الذين ألفوا أن يبطشوا بكل من عرف عنه أنه لايرضى عن سيرتهم .. !

وهكذا كان علماء المدينة منصرفين عن السياسة إلى الدين .

وكلهم مع ذلك يضيق صدره ولاينطق لسانه ! ..

وعجب الفتى زيد كيف يسكتون عن المنكر، ولا يأمرون بالمعروف ! !

وتحدث إلى جعفر ابن أخيه الأكبر محمد .. وكان فى مثل سنه ولكن جعفر بن محمد طلب منه أن يصبر و يصمت ، وبهذا نصحه أخوه وأستاذه محمد .. فقد رخص الله تعالى للمسلم أن يسكت على الظلم ولاينهض لمقاومة البغى والفساد ، إن هو خشى على نفسه أو عرضه أو ماله !

وانصرف زيد إلى الدراسة عدة سنين .

على أن زيدا لم يسكت بعد ! ..

مات أخوه الأكبر محمد الباقر، و بقى هو وابن أخيه جعفر يتذاكران .

وحفظا علوم آل البيت وكل مالديهم من أحاديث ، وكل ماوصل إليهما من علماء المدينة .

ثم رأى زيد أن يترك المدينة بحثا عن الحقيقة فى مدائن أخرى .. وكان قد سمع أن فى العراق مدارس وفلسفات جديدة .

وكان عدد من الصحابة والتابعين قد تفرقوا فى الأمصار.

لقد سمع خلال الحج والعمرة من رجال يعيشون فى البصرة والكوفة فأراد أن يطلب علمهم .. وسمع منهم أنه فى خارج المدينة يُلعن الإمام على كرم الله وجهه وزوجه فاطمة الزهراء رضى الله عنها على منابر المسلمين بأمر حكام الدولة ! !

وعلم أن هؤلاء الحكام يرتكبون كل المظالم والمعاصى التى نهى عنها الإسلام ، والتى جاء الإسلام ليخلص منها شرف الإنسان !

ماصبره على هذا كله ؟ !

ولكن ماحيلته والناس فى المدينة يتقون مواجهة الحاكم المستبد الباطش الباغى ؟ !

على أن المدينة لم تكن هى كل المجتمع الإسلامى .. والمسلمون ليسوا هم كل الناس .. وأمة محمد (ص) ليسوا هم المسلمين وحدهم فقد أرسله الله للبشر كافة .

ورحل زيد إلى البصرة والكوفة .. وهناك وجد مجتمعا آخر غير مجتمع المدينة المنورة .

كانت النفوس تغلى بالسخط والرفض .. وقد نشأت فرق انتشرت إلى أطراف الدولة تتهم معاوية بالكفر، وتدين الذين أيدوه وتحكم على الفقهاء الذين ناصروه وأيدوا ورثته فى الخلافة بأنهم ليسوا من الله فى شىء ، وبأنهم باعوا دينهم بدنيا الحكام وأنهم مرتزقة متنطعون ، وجبناء منافقون ، سكتوا عن الظلم وعن سب على وفاطمة على المنابر منذ أمر بذلك معاوية ! !

وأى مسلم هذا الذى يسكت وخطباء المساجد ينفذون أوامر حكام بنى أمية و يلعنون من على المنابر فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم ، وزوجها على بن أبى طالب الذى كرم الله وجهه والذى دعا له الرسول (ص) : « اللهم وال من والاه وعاد من عاداه » ؟ ! ..

أمسلم يصح إسلامه ، هذا الذى يسكت عن حكام ظلموا الرعية ، واستباحوا مالها ، وعدوا مصالحها وهم أجراؤها ، و يلعنون فاطمة وعليا من فوق المنابر كل جمعة و يؤمون المسلمين فى الصلوات بعد هذا .. ؟ ! !

لم يكن من الممكن أن تمر سيرة حكام بنى أمية فى عدائهم الأعمى لآل البيت ، وعدوانهم الباغى على حقوق الآخرين ، دون أن تثير ثائرة القلوب مهما يكن سلطان البطش والقهر ! ...

من أجل ذلك نشأت جماعات سرية اتجهت إلى أطراف الدولة ، تعمل على الإطاحة بحكم الأمويين . وكانت أقواها تلك التى نشأت فى العراق واتجهت إلى خراسان ..

تفجر تيار السخط فى البصرة والكوفة وسائر الأمصار ، وأخذ أحفاد الذين أسلموا الحسين وخذلوه يستعدون للنهوض ضد حكام بنى أمية .. واعتبروا ثورتهم توبة إلى الله مما فعلوه بالحسين .. واتصلوا بزيد بن على زين العابدين ، وهو فى البصرة والكوفة يختلف إلى العلماء .

على أن زيدا بن على زين العابدين بن الحسين كان مايزال يذكر تحذير أبيه ، ومازالت صور ما صنعه أهل الكوفة بجده الحسين تطوف أمام عينيه .. !

إنه فى أعماق نفسه ليؤمن بأنه مطالب بأن ينهض للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأنه يجب أن يقاوم البدع وأن يحيى السنن .. ولكن كان فى نفسه شىء ما ! .. لم يأت الوقت بعد .. وليس لديه من القوة والعدة والعديد مايواجه به سلطان الأمويين ..

عندما يأتى الوقت سيمحق العصبة الباغية و يدعو لنفسه إماما للمسلمين .

ولن يأتى الوقت حتى يكون لديه مايكفى من الرجال الصادقين الشجعان .. رجال لايخذلونه ولايسلمونه كما صنع أجدادهم مع جده الحسين ! !

وها هو ذا يضطرب بين الكوفة والبصرة والمدينة .. فتى فى نحو الثلاثين فارع مهيب صبوح الوجه ، ضاحك السن ، محب لطيبات الحياة التى أحلها الله لعباده ، عازف مع ذلك عن زخرف الدنيا ، طالب للحقيقة ، مولع بالحكمة ، باتر فى حسمه ، فارس باسل من فرسان الحق !

وفى العراق وجد جماعات مختلفة متطرفة من شيعة آل بيته اضطرهم جور الحكام وظلمهم لآل البيت إلى المبالغة والتطرف .. والتفوا حوله .. منهم جماعة تدعى أن الوحى كان سينزل على الإمام على بن أبى طالب ولكنه أخطأ ! ! وآخرون يواجهون لعن على من على المنابر بصب اللعنات على الشيخين أبى بكر الصديق والفاروق عمر بن الخطاب ! ! ومنهم جماعة تعتقد أن على بن أبى طالب لم يمت ، ولكنه رفع إلى السماء كعيسى بن مريم عليه السلام ! . وكما تعلم من أبيه وأخيه الأكبر محمد الباقر ، حاول أن يرد تلك الجماعات إلى الصواب فلم يستطع ، وحاور رؤساءهم فأنكروا عليه رأيه ، واتهموه يناصب جده الإمام عليا العداء ، فأعلن براءته منهم جميعا .. كما فعل أخوه الأكبر وأبوه من قبل .

وأقبل على الذين اختلفوا إلى دروسه يوضح لهم مزايا الشيخين ، و يذكر بفضلهما على الإسلام ، و يعد أن توليهما الخلافة مشروع وصحيح .. وأعلن على الناس : « كان عليٌّ أفضل الصحابه إلا ان الخلاف فُوِّضت إلى ابى بكر وعمر رضى الله عنهما لمصلحة رأوها ، وقاعدة دينية راعوها .. .. فإن عهد الحروب التى جرت فى أيام النبوة كان قريبا وسيف أمير المؤمنين (على) فى دماء المشركين من قريش لم يجف بعد ، والضغائن فى صدور القوم من طلب الثأر كما هى . فما كانت القلوب تميل إليه كل الميل ولا تنقاد له الرقاب كل الانقياد .

وهكذا تابع أباه وأخاه الأكبر فى توقير الشيخين وعثمان ، وأعلن أن المفضول قد يقدم على الأفضل إذا اقتضت ذلك مصلحة الأمة ، وأنه لايشترط أن يكون الإمام من أولاد على وفاطمة بل يشترط فيه الصلاح ...

وفى البصرة وجد خلافا حادا بين الفقهاء حول موقف مرتكب الكبيرة .. أكافر هو أم فاسق منافق ؟

وحاور هنالك عددا من أفاضل العلماء منهم واصل بن عطاء وأبو حنيفة النعمان ، وقامت بينهم مودة ونشأ احترام متبادل .. حتى لقد صرح أبو حنيفة أنه ماوجد فى البصرة أفضل من زيد بن على

وفى العراق عرف فيمن عرف فرقا تتحاور فيما بينها حول القضاء والقدر .. وحول الإنسان .. أمخير هو يختار مايفعله ، أم أنه مسير مقضىٌّ عليه بما يفعل بلا إرادة منه ولا اختيار ! .

ووجد آخرين يبحثون عن مصادر الأحكام .. من أين يأتون بالحكم إذا عرضت قضية أو مادة أو حالة ولم يجدوا لها حكما فى القرآن أو السنة .

وكان زيد قد تعود عن أبيه وأخيه أن يتلقى العلم من كل مصادره ، وألا يكتفى بعلم شيوخه من آل البيت ، وأن يفتح عقله وقلبه لتمحيص كل الآراء ..

كان فى تلك البيئة الثقافية المضطرمة بالتيارات الفكرية المتعارضة من يرى أن مرتكب الكبيرة كافر ، مخلد فى العذاب

وآخرون يقولون إن مرتكب الكبيرة منافق يظهر غير مايبطن ، فلو كان مؤمنا ماارتكبها .

وآخرون من رأيهم أنه لايضر مع الإيمان معصية ، وأن أمر مرتكب الكبيرة يرجأ الى أن يحاسبه الله ..

وقد أغرى هذا الرأى بعض الناس باقتراف الكبائر ..

وفرقة أخرى رأت مرتكب الكبيرة يستحق العقاب وأمره راجع إلى ربه ..

ولكن الإمام زيدا رأى أن اقتراف الكبيرة منزلة بين الكفر والإيمان .. ويسمى مرتكبها فاسقا .. وهو مسلم لا كافر، ولكنه ليس مؤمنا ، لأن المؤمن ولى الله ومرتكب الكبيرة يعصى الله . ثم إن الإيمان يقتضى الطاعة ، ومرتكب الكبيرة عاص ، ولكن لايخلده الله فى العذاب ، بل يعذبه الله بقدر ذنبه !

أما عن القضاء والقدر وحظ الإنسان من الجبر والاختيار فالإمام زيد يعتبر الإنسان حرا مختارا فيما يفعل وفيما يأخذ أو يدع من طاعة وعصيان ، ذلك أن المعصية ليست قهرا من الله . ولولا هذه الحرية لسقط التكليف ، ولسقط الثواب والعقاب . فالإنسان إذن مسئول عما يفعل . وبمقتضى حريته فى الاختيار يستحق الثواب أو العقاب ، ولكن على الإنسان أن يؤمن بالقضاء والقدر وهذا الإيمان لايلغى حرية الإنسان . وقد روى عن عمر أنه سأل سارقا : « لم سرقت » فقال : « قضى الله على بذلك » . فأمر عمر بقطع يده وبجلده قائلا : « القطع للسرقة والجلد للكذب على الله » !

والقدر هو تقدير الله فى علمه الأزلى ، والقضاء هو حكمه التكليفى . والإنسان حر فى أن يعمل أولا يعمل وهو يحاسبُ بعمله .

وكان الإمام زيد يوضح للناس ماروى عن الرسول (ص) .. فقد شبه الرسول قضاء الله وقدره بوجود الإنسان بين السماء والأرض لايستطيع منهما فكاكا . وشبه حرية الإنسان فى العمل بحريته على الأرض ، فلا السماء والأرض تمليان عليه مايصنع ! !

وشرح موقف الإمام على بن أبى طالب من هؤلاء الذين يحسبون أن أعمال الإنسان هى قضاء لازم وقدر محتوم .. فقد قال الإمام على : « لو كان ذلك لبطل الثواب والعقاب ، والوعد والوعيد ، والأمر والنهى ، ولم تأت لائمة من الله لمذنب ، ولا محمدة لمحسن ، ولم يكن المحسن أولى بالمدح من المسىء ، ولا المسيء أولى بالذم من المحسن . »

ورأى الإمام زيد فى القضاء والقدر شبيه برأى حسن البصرى الذى عرفه الإمام زيد فى العراق .. يقول حسن البصرى : « من لم يؤمن بالله وقضائه وقدره فقد كفر، ومن حمل ذنبه على الله فقد كفر» ..

أما الرأى فى الأمور الجديدة التى تعرض والأقضية التى تستحدث وليس فى الكتاب أو السنة حكم لها ، فقد ذهب الإمام زيد إلى وجوب النظر فى تشابه هذه الأمور الجديدة مع الأمور التى وردت لها أحكام فى الكتاب أو السنة ، فإن تشابهت جميعا ، وتوفرت فيما لم يرد حكمه فى الكتاب أو السنة ذات علة الحكم المنصوص عليه ، طبق الحكم نفسه .. وهذا هو القياس .

على أنه إذا تعارض قياسان أحدهما ظاهر ضعيف ، والآخر قوى غير ظاهر ، وجب الأخذ بما هو أقوى وهذا هو الاستحسان ..

ومهما يكن من شيء فالعبرة فى إجراء الحكم هو رعاية مصالح الأمة لأن تحقيق المصلحة هو قصد الشارع وهدف الشريعة .. وتلك هى المصالح المرسلة .

والإمام زيد فى كل هذا يدعو إلى إعمال العقل فإن لم يمكن الوصول إلى حكم بعد هذا ، فما من سبيل إلى الوصول إلى حكم عادل إلا بإعمال العقل .. فالعقل وحده هو الذى يحكم على الأفعال بالحُسْنِ أو القبح ، وبما يقتضيه اقتراف أيها من ثواب أو عقاب ! !

وكان الحكام يحاولون أن يخنقوا الفكر والرأى ، وأن يعطلوا عمل العقل ، ليفرضوا على الأمة قبول مايفعلون ، زاعمين أنهم خلفاء الله فى الأرض ، مستندين فى تبرير المظالم على بعض المرتزقة من أشباه الفقهاء . وأشباه الرجال ، ممن وضعوهم فى قاعات الملك كأنهم بعض الزينة الزائفة ! ! .. ثم رفعوهم على المنابر يلعنون فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم وزوجها الإمام على بن أبى طالب كلما نودى على الصلاة من يوم الجمعة ! !

وبقدر ماكانت الأمة تحتقر صناع الزيف هؤلاء ، كانت تكبر الفقهاء والعلماء الشرفاء والمفكرين الأحرار من أمثال واصل بن عطاء ، وأبى حنيفة النعمان ، وزيد بن على وابن أخيه جعفر بن محمد الذى عرف بجعفر الصادق .

وكان الخليفة هشام بن عبد الملك بن مروان وعماله على الأمصار يتربصون بهؤلاء جميعا ..

فأما جعفر الصادق وأبو حنيفة وواصل بن عطاء فقد ابتعدوا عن السياسة ، وإن لم يسلموا من أذى هشام وعماله !

ولكن زيد بن على زين العابدين سلك طريقا آخر ..

كان يعرف أن هشام بن عبد الملك يتربص به كما يتربص بالآخرين ، ويضيق بآرائه فى الفقه ، وبدعوته إلى إعمال العقل وتحرير الفكر ، وحماية إرادة الإنسان ، كما يضيق بدعوة الآخرين !

وعلى الرغم من كل ذلك فقد خرج الإمام زيد ليجعل من الفكر حركة .. ومن الثقافة عملا ! !

من الحق أنه ظل كالآخرين متقيا بطش السلطة الغاشمة ، مكتفيا بالاجتهاد فى أمور الدين ، وبالدعوة إلى سيادة سلطان العقل .. ولكنه شعر أن الوقت قد جاء ! ! جاء الوقت لتتحول الكلمات إلى خطوات على طريق الحقيقة !

وأعلن أنه لايحق لمسلم أن يقبل هدية أو عطاء من حاكم مالم يكن هذا الحاكم عادلا يحقق مصالح الأمة . فأحرج بذلك عددا من فقهاء العصر وعلمائه كانوا لا يجدون حرجا من قبول الهدايا والعطاء ..

ثم أذن فى الناس بأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب شرعى وأصل من أصول الدين .

وهكذا انطلق يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر و يدين كل تصرف يخالف الشر يعة و يطالب بالتغيير والإصلاح ، ويهيب بالأمة أن يشحذ كل فرد فيها عقله ليتعرف على الحسن والقبيح وليرفض قبول مايأباه عقله !

وصحبه أحد شيعة آل البيت وهو أبو خالد ، ليدوّن أقوال الإمام ز يد ، وإجاباته على كل مايسأل عنه .

فأمر هشام بن عبد الملك بن مروان بسجن أبى خالد .

وظل أبو خالد فى محبسه حتى مات . على أن حبس أبى خالد لم يرهب الذين التفوا حول الإمام ز يد ، والذى بهرتهم شجاعته فى الحق وقوته على الباطل !

لقد التفوا حوله بكل حبهم لآل بيت رسول الله (ص) ، و بكل ندمهم لأن أسلافهم خذلوا جده الحسين ، و بكل أحلامهم فى أن تعود للناس من جديد تلك الأيام الجميلة الذاهبة المفعمة بالفضائل ، حين أصبح الإمام على أمير المؤمنن ، فإذا الناس لايمتاز أحدهم عن الآخر إلا بالعمل الصالح ، وإذ بعلى يحيى سنة رسول الله (ص) ليجعل الناس سواسية كأسنان المشط لافضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى ، وإذ به يأخذ من الأغنياء مازاد عن حاجة العام ، ليسد به حاجة الفقراء إلى الطعام ، وليبلغ بهم حد الكفاية لاحد الكفاف ..

تلك الأيام الباهرة المشحونة بالخطر و وثبات الأطماع التى شعر فيها الإنسان بحق أنه خليفة الله فى الأرض .

تلك الأيام النبيلة التى كان فيها القرآن والسنة ثم إجماع الصحابه هى مواز ين العلاقات الإنسانية ودستورها بكل ماجاء به الدين الجديد من مكارم الأخلاق .. و بكل ماقصد إليه الشارع الحكيم من تحقيق مصلحة الأمة ..

التف أتباع آل البيت ، والفقهاء الصالحون ، والحر يصون على دينهم ، والزاهدون ، والحالمون بالعدل والمجتمع الفاضل والطهارة .. وكل أعداء الز يف .. التفوا جميعا حول الإمام ز يد .. وأخذ بعضهم يطالب الإمام ز يد بأن يتقدم ليسترد الإمامة وليكون هو الخليفة .. ولينتزع من أظفار البغى حق آل البيت فى إمارة المؤمنين .

ولقد ظن هشام أن الناس إنما فتنوا بزيد لفصاحته ..

وفى الحق أن زيدا كان يملك تلك البلاغة التى امتاز بها آل البيت ، والتى يمنحها الصدق قدرة خارقة على التأثير.

فكتب هشام إلى والى العراق : « امنع أهل الكوفة من حضور مجلس زيد فإن له لسانا أقطع من السيف وأحد من الأسنة وأبلغ من السحر» .

ولم يمتنع الناس عن لقاء زيد على الرغم من كل شىء ! .

وظل زيد يتجول فى أنحاء العراق ، فيرى صورا من المظالم لم يرها من قبل وهو فى المدينة .. واستغاثات المظلومين تستنهضه ، ليدفع عنهم البطش ، وينقذهم من غاشية الفساد ، وليذود عن حرم الدين .

وكان الإمام زيد قد صرح برأيه فى شروط الخلافة وجاهر بأن الخليفة لايكون خليفة لرسول الله وأميرا للمؤمنين وإماما للأمة إلا إذا توفرت له شروط ثلاثة :

ــ الشورى أى ألا ينفرد بالرأى ويستبد فى الحكم
ــ والمبايعة أى أن يختاره الناس بإرادة حرة غير مكرهين ولاخائفين أو تحت الإغراء ، فهذا كله يعطل حرية الإرادة . التى لا تصح البيعة أو الاختيار إلا بها ..
ــ وثالث الشروط هو العدل .. فيقيم الخليفة المجتمع على قواعد الشرع ، ويحقق المساواة بين الناس فى الحقوق والواجبات والفرص ، ولايحكم بهواه ، بل يكون معيار المفاضلة بين الأفراد هو مايقدمون من عمل حسن ..

ولقد أدرك هشام أن هذا الرأى يهز عرشه ويكاد يدكّه دكا .. فحكمه كحكم أسلافه من بنى مروان وبنى سفيان وكل الأمويين لايقوم على الشورى بأصولها الشرعية .. والبيعة لم تصح شرعا لأحد منهم لأنها ليست نتيجة إرادة حرة بل هى بيعة إكراه تحت ضغط القهر أو الإغراء ، ثم إنه لايجرى العدالة كما فرضتها الشريعة !

وها هو ذا الخليفة يظلم الناس بلا حساب .. فماذا يصنع زيد ! .. ماصمته وواجبه الشرعى أن يُحِق الحق ويحارب الباطل ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر؟ !

مازالت استغاثات المظلومين تستصرخه لينهض ذائدا عن حوض الشريعة وحُرمات المسلمين ومصالح الأمة .

واستشعر الخليفة الخطر، وخشى إن هو وثب على زيد أو بطش به أن تشتعل الثورة على بنى مروان .. وكان زيد قد جمع حوله الفقهاء والشباب والصالحين وأهل التقوى والفقراء .. جمع الأمة كلها ولم يبق مع الخليفة غير المرتزقة والمنتفعين والجوارى والندامى والمضحكين وأشباه الرجال ! !

ورأى هشام أن خير مايبطل به تأثير زيد هو اقتلاع ماله فى قلوب الناس من احترام وتقدير.. وتوقير ومهابة !

وإذن فيجب أن تُشوه صورة زيد فى عيون المعجبين به .

أفاضل هو؟ !

أطاهر قنوع نزيه فوق الدنيّة ؟ !

إذن فلتلطخ بالأوحال كل هذه النصاعة التى بهرت الآخرين !

فلْيُسقِط هشام بكل الحيل هيبة زيد أمام الناس ! ..

ألم تقم أركان هذه الدولة على الخديعة منذ التحكيم بين على ومعاوية ؟ .. ألم يكن المكر السيء قواعدها ؟ !

فلينصب هشام الفخاخ لزيد .. فإن لم يقع فيها فليختلق عليه ، ولتكن الأكذوبة ضخمة حتى تذهل الناس فلا يجرؤ أحد على تكذيبها !

وواتت هشام بن عبد الملك بن مروان فرصته ، حين اختلف زيد مع بعض أبناء عمه حول وقف على بن أبى طالب لأيِّهم تكون الولاية .

فأصدر هشام أمره إلى والى المدينة بأن يستدعى المتنازعين أمامه فى المسجد ، وأن يشعل الخصومة بينهما و يطيلها ، وأن يحشد أهل المدينة ليروها ..

وصدع الوالى لأمر الخليفه .. وحضر الناس وجاء الخصمان فأغراهما الوالى بأن يتشاتما ، ليرى الناس الإمام الطاهر وآل البيت كيف يتخاصمون على المال والمنصب وعرض الحياة الدنيا .

ولكن الإمام الطاهر زيد بن على أدرك الخديعة فترك النزاع ، وقال لابن عمه إنه متنازل عن حقه وإنه لن يخاصمه إلى هذا الوالى أبدا .

ثم قال زيد للوالى : « أجمعت ذرية رسول الله لأمرٍ ماكان يجمعهم عليه أبوبكر وعمر ؟ »

وبدلا من أن ينتهى الأمر بتنازل زيد عن الدعوى أشار الوالى إلى أحد المرتزقة من أشباه الرجال وأراذل أتباع بنى أمية ليحرضه بأن يعربد على الإمام الطاهر زيد عف اللسان .

قال الوالى وهو يغرى صنيعته بإهانة زيد : « أما لهذا السفيه أحد ؟ » .. فقال صنيعة الوالى : « يابن أبى تراب وابن حسين السفيه ، أما ترى لوال عليك حقا ولا طاعة ؟ » فرد زيد كاظما غيظه : « اسكت فإنا لا نجيب مثلك .. » فقال الرجل : « ولم ترغب عنى ، فوالله إنى لخير منك ، وأبى خير من أبيك وأمى خير من أمك » فتضاحك زيد وقال : « يامعشر قريش هذا الدين قد ذهب ، أفذهبت الأحساب ؟ فوالله إنه ليذهب دين القوم وماتذهب أحسابهم . » فانتفض من بين القوم عبد الله بن واقد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب بكل حمية جده الأكبر عمر بن الخطاب وانقض على صنيعة بنى أمية قائلا : « كذبت والله .. لهو خير منك نفسا وأبا وأما ومحتدا » فقال الصنيعة : « دعنا منك » . فأخذ حفيد عمر بن الخطاب كفا من حصى فضرب به الأرض وهو يقول للوالى .. « والله مالنا على هذا صبر » ! ..

وترك زيد المدينة مرة أخرى .. وسافر إلى العراق ، حيث شيعة آل البيت وفقهاء العراق ومثقفوها ينصرونه ويمنعونه ، ولا يسمحون لوال كوالى المدينة بأن يهينه أو يغرى به بعض الأراذل المرتزقة .

وكان فى صحبة زيد حين قدم العراق هذه المرة نفر من قرابته من بنى هاشم .. وحسب الخليفة هشام بن مروان بن عبد الملك أن والى العراق سينتهز الفرصة ليهين زيدا أمام أقربائه .. وانتظر هشام ماسيفعله والى العراق بزيد تشويها لصورته أمام الذين جاوزوا فى إعجابهم به كل الحدود .

ولكن والى العراق خالد بن عبد الله القسرى بدلا من أن ينصب الفخاخ للإمام زيد أقام له مآدب التكريم .. !

فأمر الخليفة بعزل خالد وسجنه ، وولى بدلا منه يوسف بن عمر الثقفى وهو فظ غليظ القلب سيء المكر .. فعذب خالدا فى سجنه عذاب شديدا لم يكف عنه ، حتى أذعن خالد لما يريد الوالى الجديد .. أن يدَّعى على زيد أنه خان الأمانة ! !

واستُدعِيَ الإمام إلى الوالى العراقى الجديد .. وقال الوالى الجديد لزيد : « إن خالدا يزعم انه أودعك مالا . » قال زيد : « كان خالد واليا على العراق مكلفا بأن يشتمنى و يشتم آبائى على منبره فكيف يودعنى مالا ؟ » فأرسل إلى خالد فأحضر من مجلسه فقال له الوالى : « هذا زيد قد أنكر أنك أودعته شيئا » فقال خالد للوالى الجديد : « أتريد أن تجمع مع إثمك إثما فى هذا ؟ .. كيف أودعه وأنا أشتمه وأشتم آباءه على المنبر» ! وغضب الوالى الجديد يوسف الثقفى وأعاد خالدا إلى سجنه ليعذب أشد عذاب ، بعد أن أفسد محاولة الإيقاع بالإمام زيد وتشويه صورته أمام الناس ! ! :

وتصايح أهل العراق مستنكرين مايحدث للإمام زيد ، وتعجلوا نهضته لإسقاط الخليفة ودولة بنى أمية جميعا ، ووعدوه أن يجمعوا له مائة ألف مقاتل يبايعونه إماما وخليفة للمسلمين وأميرا للمؤمنين ! وحملت جواسيس هشام إليه هذا النبأ ، فأرسل هشام يطلب زيدا ..

ولما ذهب زيد إلى قصر الخليفة لم يستقبله أول الأمر.. بل أبقاه أياما خارج القصر يطلب اللقاء فلا يجاب إليه .. وحسب الخليفة أنه بهذا السلوك يهين الإمام و يزرى عليه أمام الناس .. !

وأخيرا أذن له فى دخول القصر ، وأمر الخليفة أحد عيونه أن يتبعه وأن يحصى عليه مايقول ..

ورأى زيد قصرا منيفا باهر الغنى فاخر الرياش محلىًّ بعقود مذهّبة ، فزحفت من أعماقه أصداء أنين المطحونين واستغاثات المظلومين . وتخايلت أمام عينيه صور الفقر التى رآها فى كل بلد نزل به ! .

هنا يهدر الدين إذن ! !

أين هذا القصر الباذخ ذو الزخرف والترف الخرافى من بيت الخلافة بالكوفة فى الزمن القديم ، حيث حكم أمير المؤمنين الإمام على دولة عظمى نحو أربعة أعوام ، من بيت صغير من طين هو أدنى بيت من بيوت المسلمين ! ؟ .

إنه لايحق لأحد من المسلمين أن يعيش فى مثل هذا الترف ، قبل أن يحصل كل فرد فى الدولة من مسلمين وغير مسلمين على الكفاية لا الكفاف : المطعم والملبس والمسكن والمركب والدواء والعلم والأمن كل مايكفى حاجاته المشروعة .. وهذا هو الإسلام الحق ! !

أما هنا فتنتهك الشريعة ، وَ يُهْدَر كل ماجاء به الدين القيّم ! ! .. ولكن . ولكن الذى يملك كل هذا المتاع ذليل .. فهو عبد لما يتمتع به ! !

وقال زيد لنفسه بصوت سمعه الحاجب الذى يحصى كلماته : « والله لايحب الدنيا أحد إلا ذل » ..

ورجل الخليفة يحصى مايقول ، ويحصى حركات الدهشة والاستنكار..

ثم صعد زيد إلى هشام ، فلما دخل عليه لم يجد موضعا يجلس فيه ، ولم يفسح له هشام ، فجلس زيد حيث انتهى به المجلس . وسأله هشام عن شىء فحلف له زيد ، فقال هشام : « لا أصدقك » فقال زيد : « إن الله لم يرفع قدر أحد عن أن يرضى بالله ولم يضع قدر أحد عن أن يُرضى بذلك منه . » فقال له هشام مغلظا : « اسكت لا أم لك ! .. بلغنى أنك تذكر الخلافة وتتمناها وأنت ابن أَمَة » ..

إن الخليفة ليذكره بجدته أم أبيه على زين العابدين و يزرى بها ! .. وأم على زين العابدين بن الحسين كانت من بنات كسرى سبيت وأختان لها فى عهد عمر بن الخطاب .. فكانت هى للحسين ابن على فأولدها على بن زين العابدين وكانت الثانية لمحمد بن أبى بكر والثالثة لعبد الله بن عمر.. وعندما استشهد الحسين ، انقطعت امرأته الفارسية تلك لتربية ولدها على زين العابدين بن الحسين ورفضت الزواج . وكانت صغيرة السن ، فائقة الجمال ، حميدة الخصال .

قال زيد لهشام : « إن لك جوابا فإن أحببت أجبتك به ، وإن أحببت أمسكت » .. فقال هشام : « بل أجب » فقال زيد : « إن الأمهات لايقعدن بالرجال عن الغايات . وقد كانت أم إسماعيل أمة لأم أخيه إسحق ، وأخوه ابن صريحة مثلك ، فأختاره الله عليه فأخرج من صلبه خير البشر محمد صلى الله عليه وسلم . فتقول هذا لى وأنا جدى محمد؟ وأنا وابن فاطمة وعلى ! » قال له هشام محنقا : « أخرج .» قال زيد : « أخرج .. ثم لا ترانى إلا حيث تكره .. » .

ومنذ طرده هشام من قصر الخلافه ما رآه هشام بعد إلا حيث يكره ..

فقد عرف الناس بما داربين الخليفة وزيد فجهروا بالسخط على الخليفة ، وأخذوا على الرغم من كل شيء يلعنونه فى أسواق الكوفة هو وأسلافه من الملوك الأمويين ! !

يقول الطبرى : ثم رجع زيد إلى الكوفة فاستخفى فقال له محمد بن على بن أبى طالب حيث أراد الرجوع إلى الكوفه أذكرك الله يازيد لما لحقت بأهلك ولم تقبل قول أحد من هؤلاء الذين يدعونك إلى مايدعونك إليه فإنهم لايفون لك .. فلم يقبل منه ذلك .. وقرر أن يقيم بالكوفة على الرغم من نصيحة أخيه محمد الباقر.

و يقول الإمام الطبرى .. قال أبو مخنف :

فأقبلت الشيعة لما رجع إلى الكوفة يختلفون إليه و يبايعون له حتى أحصى ديوانه خمسة عشر ألف رجل فأقام بالكوفه بضعة عشر شهرا إلا أنه قد خرج منها إلى البصرة نحو شهرين ثم أقبل إلى الكوفة فأقام بها وأرسل إلى أهل السواد وأهل الموصل رجالا يدعون إليه . وتزوج حيث قدم الكوفة ابنة يعقوب ابن عبد الله السلمى أحد بنى فرقد . وتزوج ابنة عبد الله بن ابى العنبس الأزدى . وكان سبب تزوجه إياها أن أمها أم عمرو بنت الصلت كانت ترى رأى الشيعة ، فبلغها مكان زيد فأتته لتسلم عليه . وكانت امرأة جسيمة جميلة لحيمة قد دخلت فى السن إلا أن الكبر لايستبين عليها . فلما دخلت على زيد بن على فسلمت عليه ، ظن أنها شابة فكلمته ، فإذا هى أفصح الناس لسانا وأجمله منظرا ، فسألها عن نسبها فانتسبت له ، وأخبرته ممن هى . فقال لها « هل لك رحمك الله أن تتزوجينى . » قالت :

« أنت والله رحمك الله رغبة لو كان من أمرى التزويج » . قال لها : « ومالذى يمنعك من ذلك ؟ » قالت : « يمنعنى من ذلك أنى قد أسننت . »

فقال لها : « كلا قد رضيت . ماأبعدك من أن تكونى قد أسننت . »

قالت : « رحمك الله . أنا أعلم بنفسى منك وبما أتى على من الدهر. ولو كنت متزوجة يوما من الدهر لما عدلت بك . ولكن لى ابنة أبوها ابن عمى وهى أجمل منى وأنا أزوجكها إن أحببت . »

قال : « رضيت إن تكن مثلك »

قالت : « لكن خالقها ومصورها لم يرض أن يجعلها مثلى ، حتى جعلها أبيض وأوسم وأجسم ، وأحسن منى دلاً وشكلا »

فضحك زيد وقال لها : « رزقت فصاحة ومنطقا حسنا فأين فصاحتها من فصاحتك ؟ »

قالت : « أما هذا فلا علم لى به لأنى نشأت بالحجاز، ونشأت ابنتى بالكوفة فلا أدرى لعل ابنتى أخذت لغة أهلها »

ثم أوعدها موعدا فأتاها فتزوجها ، ثم بنى بها ، فولدت له جارية ، ثم إنها ماتت بعد وكان بها معجبا انتهى حديث الإمام الطبرى .

وكان زيد بن على ينزل بالكوفة منازل شتى فى دار امرأته فى الأزد مرة ، ومرة فى دار أصهاره السلميين .. وفى دور عديد من شيعة آل البيت مرات أخرى .

وظل طوال إقامته بالكوفه يبايعه الناس و يبايع الناس وكانت بيعته : « إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وجهاد الظالمين ودفع المستضعفين وإعطاء المحرومين وقسم هذا الفىء بين أهله بالسواء ، ونصرة آل البيت »

وروع عدداً من أبناء عمه ما هومقدم عليه ، وتذاكروا مأساة جدهم الحسين : بيعة أهل الكوفة له ثم تخليهم عنه .. ثم قتله هو ومن معه على أرض كربلاء !

على أن الناس تداعوا إلى بيعته حتى وصلوا أربعين ألفا فى السلاح والعتاد

وقال له أحد أولاد عمه من خلال الدمع إشفاقا عليه :

« يابن عم .. إن هؤلاء يغرّونك عن نفسك . أليس قد خذلوا من كان أعز عليك منهم ؟ جدك على

ابن أبى طالب حتى قتل ، والحسن من بعده بايعوه ثم وثبوا عليه ؟ أو ليس قد أخرجوا جدك الحسين وحلفوا له وخذلوه وأسلموه ، ولم يرضوا بذلك حتى قتلوه ؟ فلا ترجع إليهم وإنى خائف إن رجعت إلي ألا يكون أحد أشد عليك منهم . وأنت أعلم » ..

ثم أتاه رجل من أصدقائه محبى آل البيت فقال له : « نشدتك بالله : » « كم بايعك ؟ » قا زيد : « أربعون ألفا » . فقال الرجل : « فكم بايع جدك الحسين ؟ » قال زيد : « ثمانون ألفا » فسأله الرجل : « عن عدة من ثبت مع جدك ؟ » . فقال زيد « ثلاثمائة » وأضاف الرجل إن الزم الذى مضى فيه جده الحسين كان أفضل من هذا الزمن وإن جده الحسين كان خيرا منه ومع ذلك خذ أهل الكوفة .

ونصح الرجل زيدا أن يعود إلى المدينة فيلزمها فلن يفى له هؤلاء وقد غدروا بجده . فقال زيد « قد بايعونى ووجبت البيعة فى عنقى وأعناقهم » .

قضى الأمر فقد نهض زيد وما من شيء يمكن أن يقعده بعد !

لقد عزم فليتوكل على الله . ومضى يرد على كل من يعظه أو يحذره بقول الشاعر العربى القديم :

بكرت تخوفنى المنون كأننى
أصبحت عن غرضِ الحياة بمعـ
فأجبتها إن المنية منهل
لابد أن أسقى بكأس المنهـ
فاقنى حياءك لا أبالك واعلمى
أنى أمرؤ سأموت إن لم أقتـ

واتفق زيد مع من بايعوه على أن يخرجوا لجهاد الظالمين فى أول صفر سنة ١٢٢ هـ .

ولكن جواسيس الخليفة هشام بن عبد الملك حملوا إليه النبأ ، فأرسل إلى والى العراق كتابا يؤن فيه :

« إنك لغافل . وإن زيد بن على بالكوفة يبايع له . فألح فى طلبه وأعطه الأمان وإن لم يقب فقاتله » .

وأخذ الوالي يلتمس زيد بن علي في كل البيوت التى يظن أنه ينزل بها فلم يجده ، فقبض الوالى على زعماء مؤيديه وضربهم ، ففزع الباقون ، وإذ ذاك ظهر مضطرا من استخفائه .

وعرف بقية زعماء المؤيدين أن والى العراق يوسف الثقفى لن يتركهم ، وأنه يدس إلى زيد ويستبحث عن أمره ، ويتحرى رؤوس المؤيدين لينكل بهم .

وبدأ زعماء المبايعين يتخاذلون عن الإمام زيد خوفا وطمعا .

ثم اجتمعت جماعة من الرؤوس فقالوا لزيد : « رحمك الله ماقولك فى أبى بكر وعمر؟ » . قال زيد : « رحمهما الله وغفر لهما ، ماسمعت أحدا من أهل بيتى يتبرأ منهما ولايقول فيهما إلا خيرا » . قالوا : « فلم تطالب إذن بدم أهل البيت إلا أن يكونا وثبا على سلطانكم فنزعاه من أيديكم ؟ » . فقال لهم زيد : « إن أشد ماأقوله فيما ذكرتم إنا كنا أحق بسلطان رسول الله صلى الله عليه وسلم من الناس أجمعين وإن القوم استأثروا علينا به ودفعونا عنه ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفرا . قد ولوا فعدلوا فى الناس وحكموا بالكتاب والسنة » . قالوا : « فلَم يظلمك هؤلاء إذا كان أولئك لم يظلموك . فلِمَ تدعو إلى قتال قوم ليسوا لك بظالمين ؟ » فقال : « إن هؤلاء ليسوا كأولئك . إن هؤلاء ظالمون لى ولكم ولأنفسهم . وإنما ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وإلى السنن أن تحيا وإلى البدع أن تطفأ فإن أجبتمونا سعدتم وإن أنتم أبيتم فلست عليكم بوكيل » .

ففارقوه ونقضوا البيعة ، ودعوا الآخرين إلى الانصراف عنه !

ثم إن زيدا جمع من بقى من رؤوس مؤيديه ، وأزمع الخروج كما وعدهم فى أول صفر، غير أن والى العراق بعث إلى هؤلاء قبل الموعد المحدد بشهر، فحبسهم بالمسجد الكبير بالكوفة ، وأغلق أبواب الأسواق على من فيها ، واختار أوسع أصحاب زيد نفوذا فضرب عنقه على باب القصر.. وفزع الباقون . وهكذا اضطر زيد إلى القتال قبل الموعد المحدد بشهر..

وبث فى الناس شعار القتال المتفق عليه : « يامنصور أمت » فلم يجبه إلا نحو مائتين وكان قد بايعه من قبل أربعون ألفا ! .. مائتان من الفقهاء والمثقفين الأحرار..

وظل منادى زيد يناديهمَ « اخرجوا من الذل إلى العز أخرجوا إلى الدين ، فإنكم لستم فى دين ولا دنيا » .

فلم يخرج إليه أحد ..

وتذكر مأساة جده الحسين !

فقال : « أخاف أن يكونوا قد فعلوها حسينية ، أما والله لأقاتلن حتى أموت » . .

وفي الحق أن أهل العراق فعلوها حسينية ! .

وكان قدره معهم هو قدر جده الحسين . . خذلوه فلم ينخذل . . وقرر أن يقاتل حتى الموت دفاعا عن حقوق المضطهدين حتى أولئك الذين خذلوه ، وعن قيم الإسلام ، وشرف الإنسان ! . .

وتقدم الإمام زيد الفقيه الفارس يقود نحو مائتين من فرسان الحقيقة ، وهم بلا مدد ، يقاتلون جيشا كثيفا موصول الأمداد !

وفي بداية المعركة هزموا جناح جيش الأمويين حتى تمزق ، وأوشك الجيش أن ينهزم عنهم ولكن قائدهم أمرهم بأن يرموا زيدا وصحبه بالنبال والسهام عن بعد ، وألا يشتبكوا معهم في قتال ! ! . . لكأنهم يخشون مواجهتم !

ورشقوا جماعة زيد بالنبال ، وخرج رجل على فرس من جيش الأمويين في حماية السهام وسب فاطمة الزهراء بنت رسول الله (ص) سبا قبيحا ، فبكى الإمام زيد حتى ابتلت لحيته وهو يصيح : « أما أحد يغضب لفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ أما أحد يغضب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

فبرز رجل من أصحاب زيد فقتل الفاجر من على فرسه . وحاول الأمويون قتله بالسهام ولكن أصحاب زيد حملوا عليهم حملة باسلة حتى أنقذوا الرجل ، وأحدثوا في الامويين مقتلة عظيمة . . فاحتضنه زيد وقبل ما بين عينيه وهو يقول : « أدركت والله ثأرنا ، أدركت والله شرف الدنيا والآخرة وذخرها » .

ولكن الآلاف من عسكر الأمويين انقضوا يرمون زيدا وصحبه المائتين بالسهام ، حتى نالوا منهم ، وقضوا عليهم . وكان أحد هذه السهام قد أصاب الإمام الفقيه الفارس الطاهر في جبهته ، فمات وصحبه ينتزعون السهم .

ودفن من بقى من صحبه جثمانه في ساقية وردموها .

ولكن الأمويين نبشوا القبر ومثّلوا بجثمانه وصلبوه على جذع نخلة .

كانت هذه هي نهاية فقيد عظيم . . نهاية فاجعة كتبت على كثير من آل البيت . . كما كتبت على جده أبي الشهداء الحسين بن علي .

نهاية فاجعة رائعة مهيبة !

وقضى زيد شهيداً

ولقد كانت ثورته على الظلم والاستبداد هى ثورة الفقهاء المتقين والمثقفين الأحرار المستنيرين .

قال الإمام الأعظم أبوحنيفة عن ثورة زيد : « لقد ضاهاها (شابه) خروج الرسول يوم بدر» فقيل له : « ولم تخلفت عنه ؟ » فرد أبو حنيفة : « حبسنى عنه ودائع الناس ، عرضتها على ابن ليلى فلم يقبل . ولو علمت أن الناس لا يخذلونه كما خذلوا جده لجاهدت معه لأنه إمام حق ، ولكننى أعنته بمالى فبعثت إليه بعشرة آلاف درهم وقلت للرسول ابسط عذرى »

وبعد أن استشهد زيد بن على زين العابدين أصبح عميد آل البيت هو جعفر الصادق .. الذى كان يحض الناس على نصرة عمه زيد .. والذى تولى بعده عبء الإمامة ، ووزع من ماله على ورثة زيد وصحبه ..

« لك الله ياجعفر الصادق ! !

ماأفدح هذا الحمل المثقل بالأحزان ! !

« لك الله ياجعفر الصادق ،،،

الإمام جعفر الصّادق

لم يجمع الناس على حب أحد فى ذلك العصر كما أجمعوا على حب الإمام جعفر بن محمد الذى اشتهر فيهم باسم جعفر الصادق

ذلك أنه كان صافى النفس ، واسع الأفق ، مرهف الحس ، متوقد الذهن ، كبير القلب ، يلتمس فى غضبه الأعذار للآخرين ، حاد البصيرة ، ضاحك السن ، مضيء القسمات ، عذب الحديث حلو المعشر ، سباقا إلى الخير ، بَرًّا طاهرا .

وكان صادق الوعد ، وكان تقيا .

هو من العترة الطاهرة عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم .. جده لأمه هو أبو بكر الصديق وجده لأبيه هو الإمام على بن أبى طالب .. وهو نسب لم يجتمع لأحد غيره !

ولد فى المدينة سنة ٨٠ هـ ومات فيها سنة ١٤٨ هـ .

وخلال هذا العمر المديد أغنى الحياة والفكر بحسن السيرة ، والعلم الغزير ، وإشراقاته الروحية ، واستنباطه العقلى .

وكان مع جلال هذا الحسب متواضعا لله ، يلتقى فى أعماقه علم الصاحبين العظيمين وصلاحهما وحسن بلائهما ، وتراث تقواهما ، ولا يزدهيه على الرغم من ذلك كبرياء من يجمع فى نفس واحدة أطراف ذلك المجد كله ، وتلك الروعة كلها ..!

وعى منذ طفولته نصيحة أبيه الإمام محمد الباقر « ما دخل فى قلب امرئ شىء من الكبر إلا نقص من عقله مثل ما دخله »

تعهده وهو صغير جده لأمه القاسم بن محمد بن أبى بكر بقدر ما تعهده جده لأبيه على زين العابدين ابن الحسين بن على بن أبى طالب .. فإذا به هو صبى يحفظ القرآن و يتقن تفسيره ، ويحفظ الأحاديث والسنة من أوثق مصادرها عن آل البيت ، تواترا عن الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه وعن الصديق رضى الله عنه وعن سائر الصحابة من رواة الأحاديث الصادقين .

وأتاح له توفر هذه المصادر جميعا أن يتقن دراسة الحديث وفهمه ، وأن يكشف ما وضعه المزيفون تزلفا للحاكمين أو خدمة لهذا الطرف أو ذاك من أطراف الصراع السياسى .

ثم نشر من الأحاديث ما حاول الحكام المستبدون إخفاءه لأنه يزلزل أركان الاستبداد ! فقد كان حكام ذلك الزمان يجهدون فى إخفاء ما رواه على بن أبى طالب من السنة .

وانتهى نظر الإمام جعفر إلى أنه لا يوجد حديث شريف يخالف أو يمكن أن يخالف نصوص القرآن الكريم .. وأن كل ما ورد من أحاديث مخالفا لكتاب الله فهو موضوع ينبغى ألا يعتد به .

وكان عصره متوترا مشوبا بالأسى ، تخضب الرايات المنتصرة فيه دماء الشهداء من آل البيت ، و يطفى الأنين الفاجع على عربدة الحكام !

كان عصر الفتوحات الرائعة ، والفزع العظيم والدموع .

فالدولة الأموية تضع العيون والأرصاد على آل البيت منذ استشهاد الإمام الحسين بن على فى كربلاء ..

وهى تضطهدهم وتضطهد أنصارهم ، وتخشى أن ينهض واحد منهم لينتزع الخلافة .

استشهد عمه زيد فى مقتلة بشعة تشبه ما حدث لجده الحسين أبى الشهداء و بكاه الإمام جعفر أحر البكاء .

وكان الإمام جعفر من بين آل البيت هو الإمام الذى تتطلع إليه الانظار: أنظار الذين يكابدون استبداد الحكام ، وأنظار الحكام على السواء !

عرف منذ مطلع صباه أن الإمام على بن أبى طالب رئيس البيت العلوى يلعن على المنابر فى مساجد الدولة فى صلاة الجمعة .. وعلى الرغم من أن أم المؤمنين أم سلمة كانت قد أرسلت الى معاوية تنهاه عن تلك البدعة البشعة وتقول له : « إنكم تلعنون الله ورسوله إذ تلعنون على بن أبى طالب ومن يحبه . وأشهد أن الله ورسوله يحبانه » .. على الرغم من تلك النصيحة ، فقد ظل الإمام على يلعن

على المنابر، وتلعن معه زوجه فاطمة الزهراء بنت رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وسمع جعفر هذه اللعنات طيلة صباه وجزءا من صدر شبابه ، حتى جاء الخليفة الأموى العادل عمر بن عبد العزيز فتبرأ إلى الله من هذا العار، وكان يحمل للإمام على بن أبى طالب ما يحمل لغيره من الخلفاء الراشدين الثلاثة من إجلال وتوقير.. وأمر الخطباء أن يتلوا ــ بدلا من لعن على فى ختام خطبة الجمعة ــ الآية الكريمة التى مازالت تتلى إلى الآن : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى و ينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون »

وطابت نفس جعفر كما طابت نفوس الصالحين وأهل التقوى والعلم بما صنعه الخليفة العادل عمر ابن عبد العزيز، وأعلن الإمام جعفر فى مجلسه إعجابه بالخليفة عمر.. سبط عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

وكان الإمام جعفر منذ رأى بطش الحكام بآل البيت وأنصارهم وبالباحثين عن الحقيقة ومقاومى الاستبداد ، كان قد أخذ بمبدأ التقّية فلم يجهر بالعداء لبنى أمية ، اتقاء شرهم ، وحذر الفتنة ، وهم إذ ذاك غلاظ شداد على من لا يوالونهم .

فآثر أن يهب نفسه للعلم ، وألا يفكر فى النهوض والانقضاض على السلطان الجائر، حقنا لدماء المسلمين ..

ورأى أن خير ما يقاوم به البغى هو الكلمة المضيئة تنير للناس طريق الهداية ، وتزكيهم وتحركهم إلى الدفاع عن حقوق الإنسان التى شرعها الإسلام وإلى حماية مصالح الأمة التى هى هدف الشريعة .

وكان قد تعلم من جده الإمام على زين العابدين بن الحسين عن جده الرسول صلى الله عليه وسلم أن طلب العلم ونشره جهاد فى سبيل الله ، وأن الله تعالى جعل للعلماء مكانة بين الأنبياء والشهداء .

وكان قد رأى جده الإمام زين العابدين رضى الله عنه يخطو فى المسجد حتى يجلس فى حلقة أحد الفقهاء من غير آل البيت . فيقول له أحد الحاضرين : « غفر الله لك . أنت سيد الناس . وتأتى تتخطى خلق الله وأهل العلم من قريش حتى تجلس مع هذا العبد الأسود » فيرد زين العابدين : « إنما يجلس الرجل حيث ينتفع وإن العلم يطلب حيث كان » .

ولقد وعى الصغير دلالة هذا كله ، وانتفع به طيلة حياته .

ثم إن جديه ماتا وتركاه صبيا ليتولى تثقيفه أبوه الإمام محمد الباقر وهو أعلم زمانه بالقرآن وتفسيره

و بالحديث والفقه فنقل إلى ابنه جعفر كل معارفه ، ونقل إليه توقيرا خاصا للشيخين أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب .

وكان أبوه الإمام محمد الباقر يقول : « من جهل فضل أبى بكر وعمر فقد جهل السنة . وأن قوما من العراق يزعمون أنهم يحبوننا و يتناولون أبا بكر وعمر رضى الله عنهما . والذى نفسى بيده لو وليت لتقربت إلى الله بدمائهم . لا نالتنى شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم إن لم أكن أستغفر لهما وأترحم عليهما . إن أعداء الله عنهما لغافلون . »

كما ورث جعفر عن أبيه توقيره لعثمان بن عفان ذى النورين .. وكل صحابة رسول الله رضى الله عنهم .

ولقد مات محمد الباقر وابنه جعفر فى نحو الخامسة والثلاثين ، وقد أتقن معارف آل البيت وأهل السنة وترسبت فى عقله نصائح أبيه « إياك والكسل والضجر فإنهما مفتاح كل شر. إنك إن كسلت لم تؤدِ حقا ، وإن ضجرت لم تصبر على حق » .. « إن طلب العلم مع أداء الفرائض خير من الزهد » .. « إذا صحب العالم الأغنياء فهو صاحب دنيا ، وإذا لزم السلطان من غير ضرورة فهو لص » .. ثم وصيته ألا يصحب خمسة ولا يحادثهم ولا يرافقهم فى طريق : الفاسق والبخيل والكذاب والأحمق وقاطع الرحم لأن الفاسق يبيعه بأدنى متعة ، والبخيل يقطع المال حين الحاجة ، والكذاب كالسراب يبعد القريب و يقرب البعيد ، والأحمق يريد أن ينفع فيضر وقاطع الرحم ملعون فى كتاب الله » .

****

مضى الإمام جعفر الصادق ــ وقد ورث الإمامة عن أبيه ــ بكل ما تعلمه من أبيه وجديه يخوض غمرات الحياة المضطربة .. وفى تلك الأيام عرفت المساجد وندوات العلم فى المدينة المنورة شابا ورعا يتفكر فى خلق السموات والأرض بكل ما أتيح له من معرفة وإشراق روحى ، يرفض الاشتغال بالسياسة اتقاء البطش ، على وجهه شعاع من نور النبوة ..

هداه عكوفه على دراسة القرآن والحديث إلى أن واجب المسلم أن يؤمن عن اقتناع وتدبر وتفكر فى ظواهر الحياة والكون ، فهى دليله إلى الايمان بوحدانية الله .

وهداه هذا التفكير إلى الاهتمام بعلوم الطبيعة والكيمياء والفلك والطب والنبات والأدوية لأنها علوم تحقق مصالح الناس ، وتحرر الفكر ، وتهديه إلى الإيمان العميق الحق الراسخ .

وتتلمذ عليه جابر بن حيان ، وكان أبوه شيعيا قتل دفاعا عن الحقيقة وفى حب آل البيت ، فاصطنع الإمام محمد الباقر والد الإمام جعفر ذلك الفتى اليتيم ، وفقهه فى الدين حتى إذا ورث جعفر الأمانة أخذ بيد جابر بن حيان وتعهده وحثه على دراسة علوم الحياة وذوده بمعمل وأمره أن ييسر كتاباته لينتفع بها الناس .. وخصص له وقتا فى كل يوم يتدارسان فيه علوم الطبيعة والكيمياء والطب ، وكشف له من تبصره بالفقه كثيرا من المعارف العلمية وهداه بالمعارف العلمية إلى التمكن من الفقه .

وعلم وهو فى المدينة أن فى العراق مذاهب تدعو إلى الإلحاد والزندقة .. فخرج يناقش زعماء هذا المذهب .. لم يقعد مكتفيا بالحكم عليهم بالكفر، أو يصب اللعنات عليهم ، بل ناقشهم بمنطقهم ، ليثبت لهم وجود الله ، وقادهم مما يعلمون إلى ما لا يعلمون .

واشتهر فى ذلك الزمان طبيب هندى برع فى علوم الطب والصيدلة فحرص الإمام جعفر على أن يلتقى به و يتعرف إلى علمه . وتبادلا المعارف معا ثم أخذ يحاوره فى الإسلام وفى إثبات وجود الله .

بهذه الحكمة والموعظة الحسنة عاش الإمام جعفر يدعو إلى سبيل ربه فأقنع كثيرا من الزنادقة والملحدين والمنكرين والوثنيين بالاسلام فاسلموا وحسن إسلامهم وأضافوا بفكرهم ثراء إلى الفقه وإلى العلوم فى ذلك الزمان ..

آمن بالتجربة والنظر العقلى والجدل طريقا إلى الإيمان وسلحته معرفته الواسعة العميقة بالعلوم فى الاستدلال والإقناع ، وجذب أصحاب العقول المبتكرة إلى الدين .. وهو مع انشغاله بكل ذلك ، كان يتحرى أحوال الناس ، ويحمل على كتفه جرابا فيه طعام ومال فيوزع على أصحاب الحاجة ، دون أن يدع أحدا يعرف على من يتصدق !

ولكم أساء اليه بعض صنائع الحكام الذين خشوا التفاف الناس حوله فما قابل الإساءة إلا بالإحسان وهو يردد قول الله تعالى ! « ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك و بينه عداوة كأنه ولى حميم » .

وفى الحق انه أستطاع أن يحول كل الذين دُسُّوا عليه ليسيئوا إليه إلى أولياء حميمين .

كان يزدرى الانتقام و يعلم الناس فضيلة العفو مرددا قول جده رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما زاد عبد بالعفو إلا عزا »

****

ولكن أقارب جعفر لم يتركوه لما هو فيه من علم ودراسه ليؤدى دوره فى تنو ير العقول .

فقد حاولوا أكثر من مرة أن يقحموا عليه السياسة .

ودعوه إلى الثورة على الدولة الأموية ، واجتمعت عليه الألسنة تلح ليتولى أمر الخلافة ، فرفض وصرفهم عما هم آخذون فيه .

فعادوا يطالبونه بالبيعة لواحد منهم ولكنه لم يوافق ..

وكانت الثورة ضد حكم الدولة الأموية تشتد ، ووميض النار خلل الرماد يوشك أن يكون له ضرام .

وكان بعض المنتسبين إلى الفقه والثقافة وعلوم الدين ، قد صانعوا حكام بنى أمية وزينوا لهم الاستبداد وأفتوا لهم بأنهم ظل الله فى الأرض ، وأنهم لا يسألون عما يفعلون ! ..

وقد ساء رأى الناس فى هذه الفئة من المنتسبين إلى الفقه والعلم ، لأنهم باعوا شرفهم بالمناصب والجاه .

وكان الصادق من أكثر الناس حرصا على حماية الأمة من سموم هؤلاء المرتزقة

وفى الحق أن الحكام الأمويين كانوا يحسنون مكافأة هؤلاء المتملقين ، فيجزلون لهم العطاء و يولون بعضهم .

وكان بعض هؤلاء الولاة يحب أن يبدو فقيها عالمًا على الرغم من جهله المركب ، وقد تعود أحد هؤلاء المرتزقة المنافقين أن يتقرب إلى الخليفة الاموى بلعن الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وسب فاطمة الزهراء رضى الله عنها .. بعد أن كان الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز قد أبطل تلك الأحدوثة الشائنة : سب على وفاطمة !! ولكن عمر بن عبد العزيز كان قد مات بكل عدله وحزمه وصفائه ، وما بقى فى الدولة من رجال إلا هذا الصنف من الضالين وصناع الضلال !!

وعرف الصادق أن ذلك الفقيه المرتزق الذى كان قد كوفىء بتعيينه واليا ، مازال يسب عليا وفاطمة ويهدد الناس إن خالفوه . والناس قد أسكتهم الخوف !

وإذ بالامام الصادق يذهب و يستمع له ثم ينتفض مقاطعا المنافق المرتزق و يكشف للناس جهله ونفاقه ، و يوضح للناس وهو يعظهم أن مثل هذا المنافق الذى يبيع شرفه وضميره بالمنصب أو بالجاه أو المال ، و يبيع آخرته بدنياه ، إنما هو ضال مضلل وهو أبين الناس خسرانا يوم القيامة ، وأن محض افترءاته وكشف جهله واجب .

حقا .. ما كان الإمام الصادق يستطيع أن يسكت عن كل هذا التزييف على أنه ما من شيء كان يوجع الإمام الصادق مثل انحدار الذين ينتسبون إلى العلم والثقافة والفقه والدين إلى حضيض النفاق، والمراءاة، والانحناء، وبيع الضمير!!

وما كان أنشط النخاسين فى التقاط من ارتضوا أن يصبحوا عبيدا وإماء .. لقد شعر الإمام الصادق منذ استشهاد عمه الإمام زيد أنه يعيش فى نهاية عصر!

إنها نهاية عصر .. حقا ..!

****

وانتهى العصر ..

سقطت دولة بنى أمية وأرسل الثوار الى جعفر الصادق رسالة يطالبونه فيها أن يقبل البيعة ليصبح هو الخليفة

وجاءته الرسالة وهو مشغول فى تأملاته ودراساته وتجاربه فأحرق الرسالة ولم يرد ..

كان يحلق فى سماء المعرفة، يضرب فى أغوار العلم، ويشعر أنه أقوى من الملك .. أى ملك فى الأرض!! وأنه باستمراره فى دوره العلمى أنفع للناس!

كان يقول: «من طلب الرياسة هلك» على أن الرياسة ظلت تطلبه .. وهو يرفض!

وإذ رفض الخلافة .. بايع الناس أبا العباس حفيد عبد الله بن عباس بن عبد المطلب وبنو العباس هم بنو عمومة العلويين وتأمل الإمام الصادق فيمن يحيط بالخليفة الجديد!!

لقد انتهى عصر .. هذا حق ..

انتهى بكل خيره وشره، وجاء عصر جديد يتطلع فيه الناس إلى الحرية، والنظافة، والطهارة والعدل، فإذا بالمنافقين الذين زينوا الاستبداد لبعض الأمويين وشرعوا لهم العدوان والطغيان يحيطون بأبى العباس مؤسس الدولة الجديدة .. الدولة العباسية.

ومات أبو العباس .. وورثه الخليفة المنصور وإذ بهؤلاء المنافقين يحيطون بالخليفة الثانى فى العصر الجديد!! وإذ بهم يوسوسون له بالآراء نفسها، وإذ بهم يوهمونه أنه فوق الحساب لأنه ظل الله فى الأرض!! حتى لقد جعلوا المنصور يحمل الناس على تقبيل الأرض بين يديه!! إنهم أشباه رجال اشتهر

عنهم الجهل والتخلف والغباء والحمق ووجهوا كل نشاطهم للنفاق !! نفوس كريهة زرية مهينة محتقرة !!

وحكم الصاذق على العهد الجديد بمن يمثلونه و يفيدون منه !!

أي أمل للناس في الخليفة وقد أصبحت الشورى لذوى الضمائر المتهرئة والألسنة المستهلكة ؟ لقد مضوا يدعون إلى التقشف باسم الإسلام ويحببون الفقر إلى الناس باسم الدين ، لينصرف المستبدون إلى جمع المال ، و ينصرفوا هم إلى الارتزاق !!

لقد شرعوا للبغى وأحدثوا خرقا فى الاسلام !!

لقد أرادوا من الأمة أن تواجه إسراف الطبقة الحاكمة لا باستخلاص الحق المعلوم الذى شرعه الله ، بل بالزهد فى كل شيء ! والانصراف عن كل حق !

ثم وصل فجور هؤلاء المرتزقة إلى آخر مدى فوضعوا الأحاديث النبوية لخدمة الطبقة الحاكمة ! حتى الأحاديث الشريفة لم تسلم من تزييفهم !!

وعلى الرغم من كل هذه المظالم ، وعلى الرغم مما عاناه الإمام جعفر من آلام وهو يعيش محنة خيبة الأمل فى النظام الجديد ، فانه ظل آخذا بالتقية قائلا : « التقية دينى ودين آبائى » والتقية ألا يجهر المرء بما يعتقد اتقاء للأذى أو حتى تتحسن الظروف . والأصل فى التقية هو قول الله تعالى : « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين.. ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة » .

****

وكان الخليفة المنصور قد غالى فى القسوة على مخالفيه .. ومنهم بعض آل البيت من العلويين

والإمام الصادق يسكت تقية .. ولكنه آثر مع ذلك أن ينصح الخليفة بالحسنى فقال له : « عليك بالحلم فإنه ركن العلم . فإن كنت تفعل ماتقدر عليه كنت كمن أحب أن يذكر بالصولة . واعلم أنك إن عاقبت مستحقا لم تكن غاية ماتوصف به إلا العدل .

وهكذا مضى الإمام الصادق يؤدى دوره فى تنوير الناس حكاما ومحكومين .. والخصومة تشتجر حول القضاء والقدر، والجبر والاختيار، فيقول الإمام للناس : « إن الله أراد بنا أشياء ، وأراد منا

أشياء .. فما أراده الله بنا طواه عنا ، وما أراده منا أظهره لنا .. فما بالنا نشتغل بما أراده بنا عما أراده منا ؟! »

وكان هذا لا يروق للطبقة الحاكمة ، ولا للمتنطعين والمرتزقة من المنتسبين إلى العلم والفقه .

ذهب الإمام جعفر الصادق إلى أن القول بالجبر ضد الشرع ، لأنه لا حساب ولا عقاب إذا لم يكن للمرء حرية اختيار ما يفعل ..

وإلا فمن أين تنبع المسئولية إن لم تكن للإنسان حرية الفعل ؟!

وهكذا مضى الإمام الصادق بكل إيمانه بدوره ، يعلم الناس بعض ما خفى عنهم من تفسير القرآن ووجد أن الامراء والولاة يقترفون الظلم ، و يأكلون ما ليس لهم من حقوق الرعية ثم يستغفرون الله !! ويحسبون أن الله سيتوب عليهم !! فمضى يشرح معنى الاستغفار مفسرا بضع آيات من سورة نوح : « فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال و بنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا » فالاستغفار إذن يجلب السعادة والغنى .

ولكن الاستغفار الحق ليس هو ترديد الكلمة باللسان ، ولكنها توبة القلب ، وإعمال العقل ، والعمل الصالح الذى يحقق خير الأمة ..

الاستغفار أن تمتثل لأمر الله تعالى بالعدل والإحسان .

ذلك أن المرء يجب أن يفكر فى الله بكل ما يملك العقل من قدرات ، ليعرف الله و يعرف كيف يتقيه وكيف يحقق أهداف شرائعه .. وما أهداف الشرائع إلا تحقيق المصلحة للبشر وإعمار الارض ..

ولقد سأله أحد الناس : يا ابن بنت رسول الله . لقد قال تعالى « أدعونى أستجب لكم فما لنا ندعوه فلا يجيب ؟ فقال له الإمام : « لأنك تدعو من لا تعرف .. »

إنه يطالب الناس أن يفكروا ليعرفوا الله .. أن يعرفوا الله بعقولهم ليستقر إيمانهم على أساس وطيد .

كان الإمام على غزارة علمه متواضعا رقيقا مع كل من يعرف ومن لا يعرف .. وكم تلقى من اساءات من بعض الحمقى والأغبياء وذوى النفوس المعقدة أو الضمائر العفنة أو ذوى الفظاظة ، فما قابلها إلا بالابتسام أو الصبر! . كان يتمثل قول الله تعالى : وأعرض عن الجاهلين » .

وكان يكره الخصومة و يسعى جهده إلى الصلح فإن عرف أن هناك خصومة على مال تبرع من ماله خفية ليعطى طالب المال .. وكان يقول : « لا يتم المعروف إلا بثلاثة بتعجيله وتصغيره وستره » .

ناضل الإمام الصادق لإقرار التسامح الدينى ولإرساء قواعد شريفة للتعامل بين المسلمين وأهل الكتاب من نصارى ويهود ، وكان حربا على التعصب الذى يسىء إلى الشريعة وإلى إنسانية الإنسان !!

ذلك أنه وجد بعض المتنطعين والأراذل يحاولون أن يسيئوا معاملة المسيحيين ، فأثبت عليهم مخالفة قواعد الشرع وأوامر الرسول صلى الله عليه وسلم ، لأن الاسلام أمر المسلمين بأن يتعايشوا مع المسيحيين ، إخوانا متحابين ، وألا يكرهوا الناس على أن يكونوا مسلمين ، فلا إكراه فى الدين .

يجب أن يترك أهل الكتاب وما يدينون به فقد نهى الإسلام عن إثارة الفتنة فى الدين والفتنة أشد من القتل ولقد أمر الرسول عليه السلام باحترام حرية العقيدة واحترام أهل الكتاب فمن لم يتعامل معهم كما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم فليس من الإسلام فى شىء ، ولو زعم فى تنطعه وتعصبه أنه رجل شرع أو أنه أفقه الناس !!

ولقد أعادت هيبة الإمام الصادق ، كثيرا من الذين انحرفوا إلى حظيرة الدين .. فتعايش المسلمون والمسيحيون إخوانا متحابين كما أمر الله ورسوله .

****

وهذا التسامح الذى ينبع من فهم عميق للإسلام كان صفة أصيلة فى الإمام .. فقد كان يدعو الله أن يغفر لمن أساء إليه .. وما عرف عنه أنه انتقم من أحد فقد كان يرى فى الانتقام مع القدرة ذلا .. وأن الصبر عفو يثاب عليه المرء .. من أجل ذلك ما غضب من إساءة أو من اغتياب ..

وقد امتدت سماحته إلى الذين يخدمونه .. تلك السماحة التى تخالجها الرقة والعذوبة .. كان له غلام كسول يحب النوم ، فأرسله يوما فى حاجة فغاب وخشى الإمام أن يكون الغلام قد أصابه مكروه ، فخرج يبحث عنه ، فوجده نائما فى بعض الطريق .. فجلس الإمام عند رأسه ، وأخذ يوقظه برفق حتى استيقظ فقال له ضاحكا « تنام الليل والنهار . ؟ ! لك الليل ولنا النهار ! »

لكل هذا الصدق والصفاء فى التعامل مع الحياة والناس والأشياء .. لكل هذه السماحة والعذوبة والرقة والتسامح ، ولإشراقه الروحى الرائع ، وذكائه المتوقد الخارق وبجسارته فى الدفاع عن الحق ، وقوته على الباطل ، و بكل ما تمتع به من طهارة وسمو وخلق عظيم .. التف الناس على اختلاف آرائهم حول الإمام الصادق جعفر بن محمد وكما كان حكام بنى أمية يراقبون التفاف الناس حوله بفزع ، أخذ الخليفة العباسى « المنصور» يراقب الامام جعفر متوجسا من جيشان العواطف نحوه ، وإعجاب الناس به .. !!

كان المنصور يعرف بتجربته الخاصة أن الامام جعفر بن محمد عازف عن الاشتغال بالسياسة، وكان يعرف أن الامام رفض إهابة الشيعة به أن ينهض، ورفض إلحاحهم بالبيعة، ولكن المنصور مع ذلك ما كان ليستريح لالتفاف الناس حول الصادق فى كل مكان. فى المدينة حيث يقيم وفى العراق حيث يلم ليعلم الناس أو ليحاور الزنادقة والملحدين وأصحاب الآراء الذين يخالفونه فى أمور الدين..

نقل الناس إلى الخليفة أن أحد فصحاء الزنادقة وفجارهم قد التقى بالإمام جعفر، فعجز، الرجل عن الحوار، فسأله الإمام الصادق: «ما يمنعك من الكلام؟» فقال الرجل إجلالا لك ومهابة. وما ينطق لسانى بين يديك. فإنى شاهدت العلماء وناظرت المتكلمين، فما داخلتنى هيبتك».

أخذ المنصور يتربص بالإمام جعفر. وعرف أن الامام يحارب الزهاد.. وكانت جماعات الزهاد تحبب إلى الناس الفقر، وتدعوهم إلى العزوف عن الدنيا، وإلى عدم التفكر فى شئونهم.. وقد شجع حكام بنى أمية هذه الجماعات ليصرفوا الناس عن التفكير فى المظالم، و يصرفوهم عن المقارنة بين غنى الحكام وفقر المحكومين.. وشجع بنو العباس هذا الاتجاه إلى الزهد حتى لقد قويت الدعوة إلى الانصراف عن هموم الحياة..

ورأى الإمام جعفر أن هذه الدعوة تزيد الأغنياء غنى والفقراء فقرا وأنها ليست من الله فى شىء.. فهى تزين للفرد ألا يهتم بمصلحة الأمة، وألا يحاسب الحكام، وتتيح للحكام أن يعطلوا الشورى وهى أساس الحكم فى الاسلام.

ولقد انخدع بعض الصالحين بهذا الاتجاه إلى تمجيد الفقر، فنادوا بتحريم الطيبات من الرزق وزينة الحياة التى أحلها الله لعباده، حتى أن أحد الصالحين من الفقهاء رأى الإمام الصادق فى ثوب حسن فأنكر هذا قائلا: «هذا ليس من لباسك» فقال له الإمام الصادق: «اسمع مني ما أقول لك. فإنه خير لك آجلا أو عاجلا إن أنت مت على السنة والحق ولم تمت على البدعة. أخبرك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فى زمان مقفر مجدب فأما إذا أقبلت الدنيا فأحق أهلها أبرارها لا فجارها، ومؤمنوها لا منافقوها».

ومضى الإمام الصادق يناقش الزاهدين فالزهد كما يفهمه الإمام الصادق هو «الاكتفاء بالحلال لا التجرد من الحلال».

ورأى المنصور فى الدعوة ضد الزهد والفقر تحريضا لعامة المسلمين على أن يستمتعوا بحقوقهم فى المال، ودعوة إلى إثارة التمرد..

ولكن المنصور سكت وظل يراقب الإمام جعفر بن محمد .. ما عساه يصنع بعد ؟ ! لعله يسكت !!

ولكن الإمام جعفر ظل يناضل بالكلمة دفاعا عن كل آرائه وعن حرية العقل والإرادة وشرف المثقفين .. ورأى التفاف بعض الطيبين الفقهاء حول الحكام من غير ضرورة ، خوفا أو طمعا فقال للناس : « إذا رأيتم الفقهاء قد ركبوا للسلاطين فاتهموهم .. » وتخوف كثير من الفقهاء بعد هذا من مخالطة السلاطين والحكام من غير ضرورة .. !

ثم إنه أخذ ينشر من فتاوى الإمام على وأقضيته ما حرص الحكام والمستغلون على إخفائه .. فأفتى بأنه لا يحق للمسلم أن يدخر أكثر من قوت عام إذا كان فى الأمة صاحب حاجة .. حاجة إلى طعام أو مسكن أو كساء أو علاج أو دواء أو ما يركبه !! ..

وأفتى بأن السارق إذا اضطر إلى السرقة لأنه لا يعمل ، فولى الأمر هو المسئول وهو الآثم .. فإذا سرق السارق لأنه لا يحصل على الأجر الذى يكفيه هو وعياله ، فالذى يستغله أولى بقطع اليد !

****

وكان استبداد المنصور قد استشرى ، وكما فعل الحكام الأمويون من قبل ، بطش المنصور بكل من يخالف رأيه ووجه بطشه إلى آل البيت .. فقد ناهضه بعض أقربائه من آل البيت ، فقتلهم شر قتلة .. واتهم جعفر بن محمد بأنه يحرض عليه ، وبأنه يطمع فى الخلافة على الرغم من أنه يعلم أن الإمام لا طمع له فى الملك .

وخشى المنصور أن يصنع مع الإمام جعفر كما صنع الخليفة الأموى مع عمه الإمام زيد بن على !

وآثر المنصور أن يناقش جعفر فاستدعاه إلى العراق واتهمه بأنه يريد الخلافة .. فقال له الصادق : « والله ما فعلت شيئا من ذلك ولقد كنت فى ولاية بنى أمية وأنت تعلم أنهم أعدى الخلق لنا ولكم وإنهم لا حق لهم فى هذا الأمر فوالله ما بغيت عليهم ولا بلغهم عنى شىء مع جفائهم الذى كان لى فكيف أصنع هذا الآن وأنت ابن عمى وأمس الخلق بى رحما . »

فقال المنصور: « أظنك صادقا »

وعاد الإمام الصادق إلى المدينة مكرما ..

كان ما يغيظ المنصور حقا هو فكر الإمام الصادق والتفاف الناس حوله ، وتوقيرهم إياه ..

والمنصور لا يجهل أن أحد كبار فقهاء العصر دخل على الخليفة وإلى جواره الصادق فما اهتم بالخليفة ، وجعل كل اهتمامه بالإمام الصادق ، وقال الرجل : « أخذني من هيبة جعفر الصادق ما لم يأخذني من هيبة الخليفة » .

على أن الصادق عاد إلى المدينة لا ليسكن ، بل ليواصل دوره الثقافى الجليل ومن عجب أن المنصور، على الرغم من ضيقه بآراء الإمام ما كان يملك إلا أن يجلة ، ويقول عنه أنه : « بحر موّاج لا يدرك طرفه ولا يبلغ عمقه » .. ولكن المنصور حاول أن يحرج الإمام الصادق ، فاستدعى أبا حنيفة النعمان وقال له : « فتن الناس جعفر بن محمد فهيىء له من المسائل الشداد » .. ثم استدعى الإمام الصادق وأبا حنيفة وجلس الناس وما انفك أبو حنيفة يسأل الإمام فى أربعين مسألة ، والإمام يجيبه عن كل مسألة ، فيقول فيها رأى فقهاء الحجاز، ورأى فقهاء العراق ، ورأى فقهاء آل البيت ورأيه هو.

وطرب أبو حنيفة وقال عن الإمام جعفر « أنه أعلم الناس فهو أعلمهم باختلاف الفقهاء »

وصحبه أبو حنيفة النعمان بعد ذلك مدة سنتين يتلقى عنه العلم ..!

****

ما كان توجس المنصور وشكوكه هو كل ما يعانى منه الإمام الصادق فقد كابد تطرف بعض فرق الشيعة وسبهم للشيخين أبى بكر وعمر ولعثمان بن عفان ، وشططهم فى تمجيد بعض آل البيت وفى تمجيده هو نفسه إلى حد العبادة ، وتحللهم من التكاليف الدينية .. فأعلن البراءة منهم واتهمهم بالشرك بالله ، وأثبت عليهم الكفر ودعا الناس إلى نبذهم .. كان هؤلاء من المتعصبين ضعاف العقول ، أو من المندسين لتشويه آل البيت أو من أعداء الاسلام وآل البيت جميعا !

على أن الإمام الصادق على الرغم من شدته على هؤلاء كان رفيقا فى تعامله مع الفقهاء الذين يختلفون معه مهما تكن مذاهبهم واتجاهاتهم ، داعيا إلى التقريب بين الآراء ، مقاوما باسلا للطائفية ، وكم بذل من جهد للقضاء على الخصومة فى الدين ، وعلى التعصب بكل صوره وأشكاله !

وكان يعتمد فى حواره على الأدلة العلمية ، وعلى الاستقراء والاستنباط ، لا على المسلمات ..

نادى بتحكيم العقل حيث لا يوجد حكم فى الكتاب أو السنة .. فبما أن هدف الشريعة هو تحقيق المصلحة للبشر ، وبما أن العقل قادر على معرفة الخير والشر وتمييز الحسن من القبيح ، فإن العقل يهدى الى ما فيه المنفعة والخير فيؤخذ ، وإلى ما فيه الضرر فيترك .

وهو يعتمد على العقل والتدبر ليصل المسلم الى الإيمان .

لقد أمر الله بالعدل والإحسان ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغي .. والعقل هو الذى يحدد للإنسان كيف يجرى العدل والإحسان ، وكيف يقاوم الفحشاء والمنكر والبغى ، وكيف ينفذ التكاليف الشرعية بما يرضى الله ، وهو الذى يقر الإيمان فى القلوب ..

والعقل هو الذى يقود الانسان إلى معرفة ما هو مباح عندما لا يوجد نص ، وإلى معرفة المصلحة التى هى هدف الشريعة .. ليكون تحقيق المصلحة هو أساس الحكم ومناطه ..

وقد هداه نظره وتأمله الى القول بحرية الإرادة ، وإلى الدفاع عن حرية الرأى التى هى أساس قدرة الانسان على تنفيذ أمر الله تعالى بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر! ..

وحرية الانسان ، هى أساس مسئوليته .. مسئوليته أمام الله تعالى ، يحاسبه على ما يفعله لا على قضاء الله فيه .. فالله تعالى يسأل الإنسان « لماذا كفرت ؟ لماذا أذنبت ؟ ولكنه لا يسأله لماذا مرضت ؟ ..»

****

وهكذا عاش الإمام فى المدينة يعلم الناس ويجتهد فى استنباط أصول الفقه .

وعلى الرغم من أن كل هذه الاراء لم تكن تروق الخليفة المنصور، فقد كان الخليفة حريصا على أن يقرب منه الإمام جعفر.. ولقد أرسل إليه الخليفة يوما يسأله : « لم لا تغشانا كما يغشانا الناس ؟ » فكتب إليه الإمام جعفر: « ليس لنا ما نخافك من أجله ، ولا عندك من أمر الآخرة ما نرجوك له ، ولا أنت فى نعمة فنهنئك ، ولا نراها نقمة فنعزيك » .. فكتب إليه المنصور: « تصحبنا لتنصحنا » .. فأجابه الإمام الصادق : « من أراد الدنيا لا ينصحك ومن أراد الآخرة لا يصحبك » .

ولم يرق هذا للمنصور، فاستدعاه واتهمه بأنه يجمع الزكاة وجمع الزكاة حق للخليفة وحده فهو إذن يدعو لنفسه !.. وشهد ضد الإمام شاهد زور.. فكذب الإمام أقوال الشاهد ، فطلب المنصور من الإمام أن يحلف بالطلاق ، ولكنه رفض فقد كان يفتى بأن الحلف بالطلاق لا يجوز. وقال إنه لن يحلف بغير الله فقال له الخليفة محتدا ، « لا تتفقه على » .. فقال الإمام هادئا مبتسما : « وأين يذهب الفقه منى ؟ .» ثم إن الإمام طلب من الشاهد أن يحلف على دعواه فحلف شاهد الزور.. وكان الخليفة قد اقتنع بأن الإمام صادق فى قوله .. فقد عرفه الجميع بالصدق .. وروع شاهد الزور وكبر عليه أن يفترى على هذا الإمام الطاهر،

وكبر عليه أن يحلف كذبا .. وها هو ذا آخر الأمر يجد الخليفة غاضبا عليه !! فما كسب شيئا بعد ! وسقط الرجل ميتا .. وحمل عن مجلس الخليفة .. أما الإمام فقد دعا للرجل بالرحمة ، وحطت ذبابة على وجه الخليفة لم يفلح فى إبعادها إذ كانت تعود فتحط على وجهه .. فسأل : « لماذا خلق الله الذباب ؟» فقال الإمام : « ليذل به الجبابرة » .

فقال له الخليفة متلطفا وجلا : « سر من غدك إلى حرم جدك إن اخترت ذلك ، وإن اخترت المقام عندنا لم نأل فى إكرامك و برك فوالله لا قبلت قول أحد فيك بعدها أبدا »

وخرج الإمام إلى حرم جده فى المدينة المنورة .. وهو إذ ذاك شيخ قد جاوز الخامسة والستين .. وأقام بالمدينة لا يبرحها ، يعلم الناس و يفقههم ، و يواصل وضع أصول الفقه و يشرع للفقهاء كيف يستنبطون الأحكام عندما لا يجدون الحكم فى الكتاب أو السنة .

****

وفى الثامنة والستين مات الإمام الصادق .

وعندما عرف الخليفة المنصور، أخذ يبكى حتى اخضلت لحيته ، وهو يقول : « إن سيد الناس وعالمهم و بقية الأخيار منهم توفى .. ان جعفر ممن قال الله فيهم : ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا .. »

مات الإمام جعفر الصادق إمام الشيعة وشيخ أهل السنة بعد أن ترك ثروة من الفقه والعلم والتأملات ، وأنشأ فى الحياة الفكرية تيارا جديدا خصبا أعلى فيه العقل والنظر والتأمل والعلم .. وجمع المعارف كلها وعلوم الدنيا والدين .

عادت النفس مطمئنة إلى ربها راضية مرضية ، وقد خلف الإمام فى كل البلاد مئات الفقهاء السنيين يروون عنه و يعلمون الناس فقهه وشروحه وآراءه ، فضلا عن فقهاء الشيعة توفى الإمام جعفر الصادق الذى درس عليه الإمام مالك وروى عنه أبو حنيفة النعمان وتعلم منه ، وصحبه سنتين كاملتين قال عنها أبو حنيفة النعمان : لولا السنتان لهلك النعمان .

أبو حنيفة النعمان

الإمام الشهيد

لم يختلف الناس على رجل كما اختلفت آراؤهم فى أبى حنيفة النعمان ..

تغالى البعض فى تقديره حتى زعم أنه أوتى الحكمة كلها ، وأنه يتلقى علمه عن الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يشبه الرؤ يا أو الرؤ ية !

واشتط الآخرون فى كراهيته ، حتى لقد اتهموه بالمروق عن الدين ، و بالإلحاد والزندقة ، و باستيراد المبادىء الهدامة من الديانات الوثنية ومن عباد النار..

وأعمى العداء آخر ين ، فأذاعوا عنه أنه مجوسى مدسوس على الإسلام ليحدث خرقا فى الإسلام !!

كان هذا التصرف فى الأحكام المتناقضة هوطابع العصر الذى عاش فيه أبو حنيفة ، وهو فى الوقت نفسه نتيجة سلوك الشيخ وسيرته واقتحاماته الفكر ية الجسور..

ذلك أنه كان يدعوإلى الأخذ بالرأى لا يبالى فى رأيه بأحد ..

فقد كان عارفا بأحوال الحياة ، مستوعبا كل ثقافة من سبقوه ومن عاصروه ، خبيرا بالرجال ، شديدا على أهل الباطل ، مر ير السخر ية بالمز يفين ، لاذعا مع المنافقين من متعاطى الفقه والعلم والثقافة فى عصره ..

وهو عصر غر يب حقا .. عصر مليء بالتطرفات ..

هو ذلك العصر الباهر من الفتوحات والثراء الفكرى .. عصر الأئمة العظام : محمد الباقر وز يد بن على وجعفر الصادق ومالك بن أنس والليث بن سعد .. وهو فى الوقت نفسه عصر الصعاليك الكبار، والمنافقين والمز يفين .. !!

عصر عامر بالبطولات والأحلام والخطر والغنى الروحى والاقتحام ، والمتاع .. !

عصر يدوّى على الرغم من كل شىء بأصداء المأساة ، تفعمه الأحزان ، ملتهب بالأشواق الى العدل و بالحنين إلى الرحمة والصدق والإحسان و بالشجن !..

فى ذلك العصر ولد أبو حنيفة النعمان بالكوفة سنة ٨٠ هـ من أسرة فارسية ، وسمى النعمان تيمنا بأحد ملوك الفرس ...

من أجل ذلك كبر على المتعصبين العرب أن يبرز فيهم فقيه غير عربى الأصل .. حاول بعض محبيه أن يفتعل له نسبا عربيا .. ولكنه كان لا يحفل بهذا كله فقد كان يعرف أن الاسلام قد سوى بين الجميع ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم احتضن سلمان الفارسى و بلالا الحبشى ، وكانا من خيرة الصحابة حتى لقد كان الرسول يقول « سلمان منا أهل البيت » وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول عن بلال : « سيدنا بلال » .

ولقد شهد أبو حنيفة فى طفولته فظائع الحَجّاج والى العراق و بطشه بكل من يعارض الأمويين حتى الفقهاء الأجلاء ، فدخل فى نفسه منذ صباه عزوف عن الأمويين واستنكار لاستبدادهم ، ورفض للطغيان .. ثم إنه ورث عن أبيه وأمه حبا لآل البيت فما كان فى ذلك العصر رجال ينبذون التفرقة بين المسلمين العرب وغير العرب إلا آل البيت .

وقد تمكن حب آل البيت من قلبه عندما تعرف على أئمتهم وتلقى عنهم ، وعندما عاين أشكال الاضطهاد التى يكابدونها فى كل نهار وليل !.. حتى لقد شاهد الإمام الصادق واقفا يستمع إليه وهو يفتى فى المدينة فوقف قائلا : « يابن رسول الله ، لا يرانى الله جالسا وأنت واقف » .

وكان أبوه تاجرا كبيرا فعمل معه وهو صبى ، وأخذ يختلف إلى السوق ويحاور التجار الكبار ليتعلم أصول التجارة وأسرارها ، حتى لفت نظر أحد الفقهاء فنصحه أن يختلف إلى العلماء فقال أبو حنيفة : « إنى قليل الاختلاف إليهم » فقال له الفقيه الكبير: « عليك بالنظر فى العلم ومجالسة العلماء فإنى أرى فيك يقظة وفطنة » .

ومنذ ذلك اليوم وهب الفتى نفسه للعلم ، واتصل بالعلماء ولم تنقطع تلك الصلة حتى آخر يوم فى حياته .. ولكم عانى وعانى منه الآخرون فى هذا الميدان الجديد الذى استنفر كل مواهبه وذكائه و براعته !!

****

وانطلق الفتى الأسمر الطويل النحيل بحلة فاخرة ، يسبقه عطره ، و يدفعه الظمأ إلى المعرفة ، يرتاد حلقات العلماء فى مسجد الكوفة .. وكان بعضها يتدارس أصول العقائد (علم الكلام) ، و بعضها للأحاديث النبوية ، و بعضها للفقه وأكثرها للقرآن الكريم ..

ثم مضى ينشد العلم فى حلقات البصرة .

وبهرته حلقة علماء الكلام ، لما كان يثور فيها من جدل مستعر يرضى فتونه .

ولزم أهل الكلام زمنا ثم عدل عنهم إلى الحلقات الأخرى .. فقد اكتشف عندما نضج أن السلف كانوا أعلم بأصول العقائد ولم يجادلوا فيها ، فلا خير فى هذا الجدل . ومن الخير أن يهتم بالتفقه فى القرآن الكريم والحديث .

وانتهت به رحلاته بين البصرة والكوفة إلى العودة إلى موطنه بالكوفة ، وإلى الاستقرار فى حلقات الفقه ، لمواجهة الأقضية الحديثة التى استحدثت فى عصره ، ولدراسة طرائق استنباط الأحكام .

وكان أبوه قد مات ، وترك له بالكوفة متجرا كبيرا للحرير يدر عليه ربحا ضخما ، فرأى أبو حنيفة أن يشرك معه تاجرا آخر ، ليكون لديه من الوقت ما يكفى لطلب العلم وللتفقه فى الدين ولإعمال الفكر فى استنباط الأحكام ..

ودرس على عدة شيوخ فى مسجد الكوفة ثم استقر عند شيخ واحد فلزمه .. حتى إذا ما ألّم بالشيخ ما جعله يغيب عن الكوفة ، نصب أبا حنيفة شيخا على الحلقة حتى يعود .. وكانت نفس أبى حنيفة تنازعه أن يستقل هو بحلقة ، ولكنه عندما جلس مكان أستاذه سئل فى مسائل لم تعرض له من قبل ، فأجاب عليها وكانت ستين مسألة

وعندما عاد شيخه عرض عليه الإجابات ، فوافقه على أربعين ، وخالفه فى عشرين .. فأقسم أبو حنيفة ألا يفارق شيخه حتى يموت .

ومات الشيخ وأبو حنيفة فى الأربعين ، فأصبح أبو حنيفة شيخا للحلقة ، وكان قد دارس علماء آخرين فى رحلات إلى البصرة وإلى مكة والمدينة خلال الحج والزيارة ، وأفاد من علمهم ، و بادلهم الرأى ، ونشأت بينه و بين بعضهم مودات ، كما انفجرت خصومات .

و وزع وقته بين التجارة والعلم .. وأفادته التجارة فى الفقه ، و وضع أصول التعامل التجارى على أساس وطيد من الدين ..

كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه هو مثله الأعلى فى التجارة : حسن التعامل ، والتقوى ،

والربح المعقول الذى يدفع شبهة الربا ..

جاءته امرأة تبيع له ثوبا من الحرير وطلبت ثمنا له مائة .. وعندما فحص الثوب قال لها « هو خير من ذلك » فزادت مائة .. ثم زادت حتى طلبت أربعمائة فقال لها : « هو خير من ذلك » فقالت : أتهزأ بى ؟ فقال لها : « هاتى رجلا يقوّمه » فجاءت برجل فقوّمه بخمسمائة ..

وأرادت امرأة أخرى أن تشترى منه ثوبا فقال « خذيه بأربعة دراهم » فقالت له : « لا تسخر منى وأنا عجوز، فقال لها « إنى اشتريت ثوبين فبعت أحداهما برأس المال إلا أربعة دراهم ، فبقى هذا الثوب على أربعة دراهم » .

وذهب إلى حلقة العلم يوما ، وترك شريكه فى المتجر، وأعلمه أن ثوبا معينا من الحرير به عيب خفى ، وأن عليه أن يوضح العيب لمن يشتريه .

أما الشريك فباع الثوب دون أن يوضح العيب ! ..

وظل أبو حنيفة يبحث عن المشترى ليدلّه على العيب ، و يرد إليه بعض الثمن ، ولكنه لم يجده ، فتصدق بثمن الثوب كله ، وانفصل عن شريكه ..

بهذا الحَرَج كان يتعامل فى تجارته مع الناس ، وفى فهمه للنصوص ، وفى استنباطه للقواعد والأحكام ..

وعلى الرغم من أنه كان يكسب أرباحا طائلة ، فقد كان لا يكنز المال .. فهو ينفق أمواله على الفقراء من أصدقائه وتلاميذه .

يحتفظ بما يكفيه لنفقة عام و يوزع الباقى على الفقراء والمعسرين .. فإذا عرف أن أحدا فى ضيق ، أسرع اليه ، وألقى إليه بصرة على بابه ، ونبهه إلى أنه وضع على بابه شيئا ، و يسرع قبل أن يفتح صاحب الحاجة الصرة ..

وكان على ورعه وتقواه واسع الأفق مع المخطئين .. كان له جار يسكر فى الليل و يرفع عقيرته بالغناء :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا

ليوم كريهة وسداد ثغر

وكان صوت الجار يفسد الليل على أبى حنيفة .. حتى إذا كانت ليلة سكت فيها صوت الجار

السكير، فلما أصبح الصباح سأل عنه فعلم أنه فى السجن متهما بالسكر.. وركب أبو حنيفة إلى الوالى فأطلق سراح السكير.

وعندما عادا معا سأله أبو حنيفة « يا فتى هل أضعناك ؟» فقال له « بل حفظتنى رعاك الله ».

ومازال به أبو حنيفة حتى أقلع عن الخمر. وأصبح من رواد حلقات العلم ثم تفقه وصار من فقهاء الكوفة .

****

وكان أبو حنيفة يدعو أصحابه إلى الاهتمام بمظهرهم .. وكان إذا قام للصلاة لبس أفخر ثيابه وتعطر، لأنه سيقف بين يدى الله .

ورأى مرة أحد جلسائه فى ثياب رثة ، فدس فى يده ألف درهم وهمس : أصلح بها حالك « فقال الرجل » لست أحتاج إليها وأنا موسر وإنما هو الزهد فى الدنيا فقال أبو حنيفة : أما بلغك الحديث : إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده ؟

وكان شديد التواضع ، كثير الصمت ، يقتصد فى الكلام ، ولا يقول إلا إذا سئل ، وإذا أغلظ إليه أحد أثناء الجدال صبر عليه . وإذا دخلت إليه امرأة تستفتيه قام من الحلقة وأسدل دونها سترا ، ليحفظها من عيون الرجال ، وأجابها عما تسأل .. نبع هذا التقدير الكبير للمرأة من حبه العميق لأمه ، وحرصه الدائب على أن يرضيها ، ثم من فهمه الواعى للإسلام ، واتباعه اليقظ للسنة ، واجتهاداته الذكية .. وقد قاده اجتهاده إلى الإفتاء بأن الإسلام يبيح للمرأة حق تولى كل الوظائف العامة بلا استثناء .. حتى القضاء !

ولقد كان فى حرصه على إرضاء أمه . يحملها على دابة ، و يسير بها الأميال ، لتصلى خلف أحد الفقهاء يرى هو نفسه أن أبا حنيفة أفضل منه ، لأن الأم كانت تعتقد بفضل ذلك الفقيه !

وكانت الأم لا ترضى بفتوى ابنها أحيانا ، فتأمره أن يحملها إلى أحد الوعاظ ، فيقودها إليه عن طيب خاطر.. ولقد قال لها الواعظ يوما : « كيف أفتيك ومعك فقيه الكوفة ؟»

ومع ذلك فقد ظل أبو حنيفة حريصا على إرضائها ، لا يرد لها طلبا ، حتى إذا عذب فى سبيل رأيه ، طلبت منه أمه أن يتفرغ للتجارة و ينصرف عن الفقه وقالت له : « ما خير علم يصيبك بهذا الضياع ؟» فقال لها : « إنهم ير يدوننى على الدنيا وأنا أر يد الآخرة وإننى أختار عذابهم على عذاب الله .»

ولكم تحمل أبو حنيفة من عذاب !!

كان مخالفوه فى الرأى يغرون به السفهاء والمتعصبين والمتهوسين و يدفعونهم إلى اتهامه بالكفر، وإلى التهجم عليه ، فيقابلهم بالابتسام .

ولقد ظل أحد هؤلاء السفهاء يشتمه ، فلم يتوقف الإمام ليرد عليه ، وعندما فرغ من درسه وقام ، ظل السفيه يطارده بالسباب ، والإمام لا يلتفت إليه ، حتى إذا بلغ داره توقف عند باب الدار قائلا للسفيه : « هذه دارى فأتم كلامك حتى لا يبقى عندك شيء أو يفوتك سباب فأنا أريد أن أدخل دارى » . . !

****

كان خصوم أبى حنيفة صنفين : بعض الفقهاء ممن وجدوا انصراف الناس عن حلقاتهم إلى حلقة أبى حنيفة ، وحكام ذلك الزمان .

أما أعداء أبى حنيفة من الفقهاء فقد كان على رأسهم ابن أبى ليلى وتابعه شبرمة .

كان أعداؤه فقهاء للدولة فى العصر الأموى ، حتى إذا جاء العصر العباسى تحولوا إلى الحكام الجدد ، واحتالوا عليهم بالنفاق حتى أصبحوا هم أهل الشورى ، يزينون للحكام الجدد كل ما زينوه للحكام السابقين من طغيان وعدوان و بغى واستغلال و بطش بالمعارضين . . واصطنعوا من الآراء الفقهية ، وقبلوا من الأحاديث الضعيفة أو الموضوعة ما يسند الطبقة الحاكمة والمستغلين ، وما يصرف الناس عنهم عن أمور الدنيا ، وعن سياسة حياتهم ، لينقطع الناس إلى التقشف ، و يتركوا مستغليهم يستبدون و يعمهون !

وكان أبو حنيفة يحتفظ باستقلاله أمام الحكام فيحترمه الحكام . . وهو يلبس أغلى الفراء فى الشتاء ، و يتحلى طوال العام بثياب فاخرة ، و يتعطر ، و يتنعم بالطيبات من الرزق ، و بزينة الحياة التى أحلها الله لعباده . .

وكان يقاوم كما قاوم أستاذه وصديقه الإمام جعفر الصادق من قبل بدعة تزيين التقشف والانصراف عن هموم الحياة ، وترك الأمر كله لطبقة بعينها تملك وتستغل وتحكم وتستبد !

على أن ميل أبى حنيفة إلى الأئمة من آل البيت أوغر عليه صدور الأمويين والعباسيين على السواء .

ففى العصر الأموى قالوا « أَنْ تكون كافرا أو مشركا خير من أن تكون علويا » . .

وفى العصر العباسى توالت المحن على العلويين ، وأبو حنيفة يفتى بأن العلويين أصحاب حق ..

على أنه مال إلى العباسيين أول الأمر ، وتوسم فيهم الخير ، ولكنه إذ وجد الفقهاء الذين نافقوا الأمويين وزينوا لهم العدوان ، هم الذين يشيرون على الخلفاء العباسيين ، أصابته خيبة الأمل فيهم .. ثم إن العباسيين بطشوا بأبناء عمومتهم العلويين ، فساء رأى أبى حنيفة فى العباسيين .

وأبو حنيفة على الرغم من سماحته لا يسكت عن خطأ الفقهاء من الذين جعلوا كل همهم نفاق الحكام وإرضاءهم .. كان بعضهم يفتى فى المسجد إلى جوار حلقة أبى حنيفة ، فإذا أخطأ انبرى له أبو حنيفة يكشف ذلك الخطأ ، و يعلن الصواب على الناس .

وكان ينتقد أخطاء ابن أبى ليلى نقدا أوغر عليه صدر الرجل .. حتى نقد حكما فاحش الخطأ فانفجر غضب ابن أبى ليلى .. « وذلك أن امرأة مجنونة قالت لرجل : « يا بن الزانيين » فأقام عليها ابن أبى ليلى الحد فى المسجد ، وجلدها قائمة ، وأقام عليها حدّين حداً لقذف الأب وحدًّا لقذف الأم .

و بلغ ذلك أبا حنيفة فقال : أخطأ ابن أبى ليلى فى عدة مواضع : أقام الحد فى المسجد ولا تقام الحدود فى المساجد . وضربها قائمة والنساء يضربن قعودا . وضرب لأبيه حدا ولأمه حدا ولو أن رجلا قذف جماعة كان عليه غير حد واحد ، فلا يجمع بين حدين . والمجنونة ليس عليها حد . وحدّ لأبويه وهما غائبان ولم يحضرا فيدعيا ..

وذهب ابن أبى ليلى إلى الخليفة يشكو أبا حنيفة ، واتهمه بأنه لا يفتأ يهينه ، و يظهره للناس بمظهر الجاهل ، وفى ذلك إهانة للخليفة نفسه لأن ابن أبى ليلى إنما عن الخليفة فى القضاء ويحكم بين الناس ..!

وأصدر الخليفة أمرا بمنع أبى حنيفة من التعليق على أحكام القضاة ، وبمنعه من الفتوى .. حتى إذا احتاج الخليفة إلى رأى فى أمر معقد لا يطمئن فيه إلى فتاوى الفقهاء من متملقيه ، أرسل يستفتى أبا حنيفة ، فامتنع عن الفتوى إلا أن يأذن الخليفة له فى أن يفتى للناس جميعا . فأذن له .

وعاد يفتى ، وعاد ينتقد الأحكام ! .

وأراد الخليفة المنصور أن يكتب عقدا محكما فلم يسعفه الفقهاء الذين يصانعونه ، فلجأ إلى ابى حنيفة فأملى العقد من فوره فأزرى الفقهاء من بطانة الخليفة بما صنعه حسدا من عند أنفسهم . ولكن الخليفة زجرهم ، وصرح بأن أبا حنيفة هو أفقه الجميع ، وإن كان ليكره مواقفه وآراءه .

وعندما وقع خلاف بين الخليفة المنصور وزوجته لأنه أراد أن يتزوج عليها ، أراد أن يحتكما إلى

فقيه ، فرفضت الزوجة الاحتكام إلى قاضى القضاة ابن أبى ليلى أو إلى تابعه شبرمة أو إلى أحد الفقهاء من بطانة المنصور!

وطلبت أبا حنيفة .

وعندما حضر أبو حنيفة أبدى الخليفة رأيه أن من حقه الزواج لأن الله أحل للمسلم الزواج بأربع ، والتمتع بمن يشاء من الإماء مما ملكت يمينه .

فرد أبو حنيفة : « إنما أحل الله هذا لأهل العدل . فمن لم يعدل فواحدة . قال الله تعالى : (فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة) . فينبغى علينا أن نتأدب بأدب الله ونتعظ بمواعظه .

وضاق الخليفة بفتواه . ولكنه أخذ بها .

وخرج أبو حنيفة إلى داره . فأرسلت له زوجة الخليفة خادما ومعه مال كثير وأحمال من الثياب الفاخرة النادرة ، وجارية حسناء ، وحمار مصرى فاره هدايا لأبى حنيفة .

فقال أبو حنيفة للخادم : « أقرئها سلامى . وقل لها إنى ناضلت عن دينى وقمت بذلك المقام لوجه الله . لم أرد بذلك تقربا إلى أحد ولا التمست به دنيا . ورد الجارية الحسناء والثياب والمال والحمار المصرى جميعا .

كان أبو حنيفة لا يقف عند النصوص ، وإنما يبحث فى دلالاتها ، ويحاول أن يواجه بالأحكام ما يقع من أحداث ، وما يتوقع حدوثه من الاقضية والحالات .

الواقع والمتوقع هما ما كان يعنى باستنباط الأحكام لمواجهتها إن لم يجد نصا فى الكتاب أو السنة أو الإجماع

وكان يناظر الفقهاء ببديهة حاضرة يقلب الرأى على وجوهه ، و يفترض ، و يستقرئ و يستنبط ، ويحسن الخلوص إلى الغاية ، والخلاص من المأزق ، و يلزم المناظر الحجة .

وهو مع ذلك يقول : « ربما كان ما قلته خطأ كله ، لا الصواب كله » .

ولقد اقتحم عليه الحلقة فى يوم عدد من الخوارج على رأسهم قائدهم وفقيههم ، وكان الخوارج يقتلون مخالفيهم . وكانوا يقتلون من أقر على بن أبى طالب على التحكيم . وكان أبو حنيفة يؤيد عليا و يقره على التحكيم . وخيّره شيخ الخوارج بين التوبة أو القتل ، فسأله أبو حنيفة أن يناظروه ، فرضى ،

فقال له «فإن اختلفنا ؟ قال الخارجي نحكم بيننا رجلاً .. فضحك أبو حنيفة قائلا : أنت بهذا تجيز التحكيم .»

فانصرف عنه الخوارج وتركوه سالما .

****

وكم من مرة خرج من المأزق بسرعة بديهته وسعة حيلته وقوة حجته ..!

ولكنه لم يستطع أن يفلت من مصائد أعدائه من المرتزقة فى بلاط الأمراء ..

كانت صلابته ، واحترام الحكام له ، وإيثارهم إياه على الفقهاء المرتزقة من بطانتهم ، تثير هؤلاء الفقهاء وتحرك حسدهم .. فأوغروا صدور الحكام حتى أوقعوا به . وحاولوا أن يقتنصوه بفضائله .

إنه لشجاع فى الحق .. وإذن فلينصبوا له شركا من جسارته وتقواه ..!

إن مواقفه فى تأييد آل البيت لتؤجج غضب الحكام عليه .

ثم كانت آراؤه تزيد سخطهم عليه اشتعالا : فقد نادى بالرأى إن لم يكن هناك نص فى الكتاب أو السنة ، واتجه فى استنباط الأحكام إلى إلحاق الأمور غير المنصوص على أحكامها بما نص على حكمه فى حدود ما يحقق مصلحة الأمة و يتسق مع عرف البلد وعاداته ، إن لم تخالف هذه العادات والأعراف روح الشريعة أو نصوصها .

أما عن مواقفه فى تأييد آل البيت فقد أعلن أن العلويين أولى بالحكم من العباسيين ، وجاهر بالانحياز الى العلويين . ولم يكتم هذا الميل قط ، وظل يذيعه بلا تهيب .!

على أن الموقف ليس جديدا عليه . فقد أيد ثورة الإمام زيد بن على زين العابدين بن الحسين أيام الحكم الأموى . وسمى خروج زيد جهادا فى سبيل الله ، وشبهه بيوم بدر وحاول أن يخرج مع الإمام زيد ، ولكن كانت لديه ودائع للناس أراد أن يسلمها لابن أبى ليلى فرفض . ولم يجد أبو حنيفة إلا ماله يجاهد به فأرسل إلى الإمام زيد مالا كثيرا يمير به جيشه و يقويه .

وحين ولى العباسيون أيدهم أول الأمر ، ولكنهم بطشوا بمعارضيهم ، وصادروا حرية الرأى ، ونكّلوا بالعلويين ، ونكلوا عن العدل الذى بايعهم عليه ، فأعلن عدم رضاه عنهم فى حلقات الدروس .. وكان المنصور قد جمع رؤس العلويين وسجنهم . وصادر أموالهم وأراضيهم ،

ثار العلويون بقيادة محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم بن عبد الله ، فبعث المنصور جيشا ضخما

ليحصد العلويين .

أعلن أبو حنيفة تأييده للثورة ، و بكى مصائر العلويين بعد أن نجح المنصور فى إخماد الثورة والقضاء على قائديها وفتك بأهل المدينة المنورة الذين أيدوا الثورة ..

وكان عبد الله بن الحسن شيخ أبى حنيفة والد محمد النفس الزكية وإبراهيم فى سجن المنصور يعذب حتى الموت ،

وحين مات أعلن أبو حنيفة فى حلقته أن واحدا من أفضل أهل الزمان قد استشهد فى سجنه . و بكاه وأبكى عليه .

وأما آراؤه التى أشعلت سخط الحاكم وحاشيته عليه فهى تلك التى استنبطها بالقياس حتى لقد اتهمه بعض الفقهاء من خصومه بأنه يفضل القياس على الحديث .

وما كان هذا صحيحا فقد رأى أبو حنيفة ظاهرة خطيرة ، فأراد أن ينجو بدينه منها ، و ينجّى معه الناس : ذلك أنه خلال الصراعين السياسي والاجتماعى ، انتشر وضع الحديث خدمة لهذا الجانب أو ذاك ، وتأييدا لهذه المصلحة أو تلك ، فوقف أبو حنيفة من الحديث موقف أستاذه وصديقه الإمام جعفر الصادق .. تحرى الرواة وصدقهم ، وتحرى معانى الأحاديث ، ورفض منها ما يشك فى صدق رواتها وتقواهم ، أو ما يخالف نصا قرآنيا ، أو سنة مشهورة ، أو مقصدا واضحا من مقاصد الشريعة . وقد فحص الأحاديث الموجودة فى عصره وكانت عشرات الآلاف فلم يصح فى نظره منها إلا نحو سبعة عشر .

وذهب إلى أن القياس الصحيح يحقق مقاصد الشارع ، ويجعل الأحكام أصوب وهو خير من الاعتماد على أحاديث غير صحيحة .. وللقياس ضوابط هى تحقيق المصلحة وهذا هو هدف الشريعة .

لقد كان تحرج أبى حنيفة وذمته وتقواه هى العوامل التى دفعته إلى الحذر فى قبول الأحاديث إذا شك فى صحتها على أى نحو، وكان عليه إذن أن يجد طريقا آخر لاستنباط الأحكام الجديدة قياسا على أحكام ثابتة فى القرآن الكريم أو السنة الصحيحة أو أقوال الصحابة السابقين من أهل الفتيا كعمر ابن الخطاب وعلى بن أبى طالب وعبد الله بن مسعود .. وكان عبد الله بن مسعود يفضل أن يفتى باجتهاده بدلا من أن يسند إلى الرسول صلى الله عليه وسلم حديثا لا يرى عين اليقين أنه حديث صحيح .

وقد جد فى عصر أبى حنيفة كثير من الحوادث والأقضية والأحوال ، بعد اتساع الدولة وتشابك الأمور، وظهور ألوان كثيرة خصبة من النشاط التجارى والاجتماعي ، و واجه الإمام هذا كله بالاجتهاد

لاستنباط الأحكام التى تضبط العلاقات

وما كان يبتدع فى قياسه كما رماه خصومه ، وما كان يهدر السنة كما حاول ابن أبى ليلى وتابعه شبرمة أن يصوراه كيدا له ، بل كان منهجه هو قياس « المسألة على أخرى ليردها إلى أصل من أصول الكتاب والسنة واتفاق الأئمة .. فيجتهد ». وقد لخص هو منهجه فى استنباط الأحكام فى وصية لأحد تلاميذه ممن تولوا القضاء .. قال : « إذا أشكل عليك شىء فارحل إلى الكتاب والسنة والإجماع ، فإن وجدت ذلك ظاهرا فاعمل به ، وإن لم تجده ظاهرا فرده إلى النظائر واستشهد عليه بالأصول ، ثم اعمل بما كان إلى الأصول أقرب وبها أشبه » .

****

وقاده هذا الاجتهاد إلى عديد من الآراء الحرة : الدعوة إلى المساواة بين الرجل والمرأة ، فى عصر بدأت المرأة فيه تتحول إلى حريم للمتاع !

فأفتى بأن للبالغة أن تزوج نفسها .. وهى حرة فى اختيار زوجها

كما أفتى بعدم جواز الحجر على أحد ، لأن فى الحجر إهدار للآدمية وسحقا للإرادة ..

وأفتى بعدم جواز الحجر على أموال المدين ، حتى لو استغرقت الديون كل ثروته . لأن فى هذا مصادرة لحريته ..

وفى كل أمر من أمور الحياة تتعرض فيه حرية الإنسان لأى قيد ، أفتى الإمام أبو حنيفة باحترام الحرية وكفالتها ، لأن فى ضياع حرية الإنسان أذى لا يعدله أذى ..

لقد أفتى بكل ما ييسر الدين والحياة على الإنسان فذهب إلى أن الشك لا يلغى اليقين ، وضرب لذلك مثلا بأن من توضأ ثم شك فى أن حدثا نقض وضوءه ، ظل على وضوئه ، فشكه لا يضيع يقينه .

وأفتى بأنه لا يحق لأحد أن يمنع المالك من التصرف فى ملكه .

ولا يحق لأحد أن يحكم على مسلم بالكفر ما ظل على إيمانه بالله ورسوله حتى لو ارتكب المعاصى . ومن كَفّر مسلما فهو آثم .

وأفتى بأن قراءة الإمام فى الصلاة تغنى عن قراءة المصلين خلفه ، فتصح صلاتهم دون قراءتهم إكتفاء بقراءة الإمام وحده

ولقد أثار هذا الرأى بعض الناس ، فذهبوا إلى الإمام ليحاوروه فى رأيه فقال لهم « لا يمكننى مناظرة الجميع فولوا أعلمكم » فاختاروا واحدا منهم ليتكلم عنهم . وسألهم أبو حنيفة إن كانوا يوافقون على أنه إذا ناظر من اختاروه يكون قد ناظرهم جميعا ، فوافقوا ، فقال لهم أبو حنيفة : « وهكذا نحن اخترنا الإمام فقراءته قراءتنا وهو ينوب عنا » فانصرفوا مقتنعين .

ودعا إلى ضرورة العفو عن المخطىء إن لم تثبت عليه أدلة الإدانة ثبوتا قطعيا لا يشوبه الشك أو الظن ، إعتمادا على أن الرسول صلى الله عليه وسلم أمر بدرء الحدود قدر المستطاع .. فالحدود تدرأ بالشبهات « فإن كان للمذنب مخرج أخلى سبيله . وأن يخطىء الإمام فى العفو خير من أن يخطىء فى العقوبة » .

وهو يطالب الناس بأن يسألوا فى العلم بلا حرج ، على أن يُحسنوا السؤال . وكان يقول : « حسن السؤال نصف العلم »

وهو فى اجتهاده يعرف مكانته ، إن كان واثقا بنفسه ، معتزا بكبريائه العلمى على الرغم من تواضعه الشديد .

ولقد سئل : « إذا قلت قولا وظهر خبر لرسول الله يخالف قولك ؟ قال : « أترك قولى بخبر رسول الله وكل ما صح عن رسول الله فهو على العين والرأس . فقال السائل : فإذا كان قول الصحابى يخالف قولك ؟» . قال : أترك قولى بقول الصحابى « فقال السائل :» فإذا كان قول التابعى يخالف قولك ؟ . قال أبو حنيفة : « إذا كان التابعى رجلا فأنا رجل » .

ويروى عنه أنه ذهب إلى المدينة المنورة فجادل الإمام مالك بن أنس يوما فى أمور اختلفا عليها وحضر المناظرة الإمام الليث بن سعد إمام مصر وهو الإمام الذى عاش فى عصر الإمام جعفر الصادق وأبى حنيفة والإمام مالك وقال عنه أحد الفقهاء المتأخرين إنه حقا أفقه الناس ولكن المصريين أضاعوه فلم يحفظوا فقهه واستمرت المناظرة طويلا حتى عرق الإمام مالك . وعندما خرج أبو حنيفة قال مالك لصديقه الليث : إنه لفقيه يا مصرى !

****

قام فقه الإمام أبى حنيفه على احترام حرية الإدارة ذلك أن أفدح ضرر يصيب الإنسان هو تقييد حريته أو مصادرتها .. وكل أحكامه وآرائه قائمة على أن هذه الحرية يجب صيانتها شرعا ، وأن سوء استخدام الحرية أخف ضررا من تقييدها .!

فإساءة الفتاة البالغة فى اختيار زوجها أخف ضررا من قهرها على زواج بمن لا تريده . وسوء

استخدام السفيه لماله ، يمكن علاجه بإبطال التصرفات الضارة به ، أما الحجر على حريته فهو إهدار لإنسانيته ، وهو ضرر لا يصلحه شيء !! وعلى أية حال فأذى الحجر أخطر من أذى ضياع المال ــ فالحجر إيذاء للنفس ، وإهدار للارادة ، واعتداء على إنسانية الانسان !!

وأبو حنيفة لا يجيز الوقف إلا للمساجد لأن الوقف أو الحبس يقيد حرية المالك فى التصرف .. بل إن الإمام إمعانا منه فى الدفاع عن الحرية لا يجيز للقاضى أن يقيد حرية المالك ، حتى إذا أساء التصرف على نحو يهدد الغير .. وهو يطالب بأن يترك هذا كله للشعور بالتعاون الاجتماعى الذى يجب أن يسود أفراد الأمة .. فيحترم كل منهم حرية الآخرين ، ويمارس حريته بما لا يمس مصالح الغير أو حريته هذا أمر يجب أن يترك للناس فيما بينهم ولا سبيل للحاكم أو القضاء إلى التدخل لتقييد حرية المرء فى التصرف مهما يكن من شيء !

ولقد جاءه رجل يشكو جاره لأنه حفر بئرا بجوار جداره مما يؤثر فى بيت الشاكى ، فطلب أبو حنيفة من الشاكى أن يحدث جاره ليردم البئر، ويحفرها فى مكان آخر، فقال الرجل : « حدثته فامتنع ظالما » . فقال أبو حنيفة : « فاحفر فى دارك بالوعة فى مقابل بئره « وفعل الرجل ، فاندفع ماء البئر الى البالوعة ، فاضطر الجار أن يردم البئر، ويحفرها فى مكان بعيد عن جدار الشاكى .

وهكذا مضى أبو حنيفة يوضح للناس ما فى تعاليم الإسلام من احترام للحرية والإرادة ، معتمدا على الكتاب ، والسنة الصحيحة ، والرأى الذى يستنبطه بالقياس ، مراعيا تحقيق المصلحة ، أو الأعراف التى لا تتعارض مع قواعد الإسلام ومبادئه

وقد أغنت آراؤه فى الفقه وجدان الناس ، وأيقظت ضمائرهم ، وحركتهم للدفاع عن حرياتهم فى التصرفات ، متمسكين فى ممارستهم للحرية بمبادئ الدين وأصوله ..

وكانت هذه الآراء كلها تناقض روح العصر الذى عاش فيه وهو عصر يقوم نظام الحكم فيه على تكفير الخصوم ، وإهدار دمائهم ، وتقييد الحريات ، وإطلاق يد الحاكم ، وتمكين ذوى السطوة من الضعفاء .

من أجل ذلك اتهمه خصومه من الفقهاء أصحاب المناصب بالخروج عن الاسلام ..!

ثم إنه أفتى بتحريم الخروج لقتال المسلمين والفتك بهم .

وبهذا صرف بعض قواد الجيش فى عصره عن حرب العلويين وخصوم الحكام ومعارضى آرائهم .!

ومن ذلك ان الحسن بن قحطبة أحد قواد المنصور دخل على أبى حنيفة يسأله : « أيتوب الله على ؟ »

وكان الحسن هذا قد قاد جيوشا للمنصور فقتل العلويين وخصوم العباسيين فقال له أبو حنيفة : « إذا علم الله تعالى أنك نادم على ما فعلت ، فلو خيرت بين قتل مسلم وقتل نفسك لاخترت ذلك على قتله ، وتجعل مع الله عهدا على ألا تعود لقتل المسلمين ، فإن وفيت فهي توبتك » ، فقال القائد إني فعلت ذلك وعاهدت الله على ألا أعود إلى قتل مسلم » ثم ثار العلويون فأمر المنصور القائد أن يفتك بهم ، فجاء القائد إلى أبي حنيفة يسأله الرأى فقال له أبو حنيفة « فقد جاء أوان توبتك . إن وفيت بما عاهدت فأنت تائب وإلا أُخِذْتَ بالأول والآخر» .

فامتنع القائد عن تنفيذ أمر المنصور، وسلم نفسه الى العقاب وهو القتل ، إذ دخل على المنصور فقال انه لن يقتل المسلمين بعد ! فغضب الخليفة عليه وأمر بقتله ، حتى استشفع له أخوه قائلا « إننا لننكر عقله منذ سنة ، وأنه قد جن »

وسأل الخليفة عمن يخالط القائد المتمرد فقيل : إنه يتردد على أبي حنيفة !

وأسرها الخليفة لأبي حنيفة .

على أن خصوم أبي حنيفة انتهزوا الفرصة فأوغروا صدر الخليفة وأوحوا إليه أن يقضى على أبي حنيفة واتهموه بإثارة الفتنة ، وتثبيط قواد الجيش ، وتأليب العامة على ولى الأمر، وتكوين حلقة من الفقهاء كلهم يدعو إلى الثورة على الخليفة .

وكان من هؤلاء الخصوم فقيه أفتى للناس بأن تلاميذ أبي حنيفة خارجون على ولى الأمر ومرتدون عن الإسلام فأن يقال إن بالحى خَمّاراً خير من أن يقال إن فيه أحدا من أصحاب أبي حنيفة ..

وكان منهم فقيه آخر عرف وهو في الحج أن أحد أصحاب أبي حنيفة سيصلى بالناس فلم يستطع كظم غيظه وصاح : « الآن يطيب لى الموت » ..!

****

ورفض أبو حنيفة أن يقبل المناصب .. عرض عليه الأمويون منصب القاضى ، فرفضه فسجنوه وعذبوه في السجن .. وظلوا يضربونه كل يوم بالسياط حتى ورم رأسه .. ومع ذلك فلم يقبل المنصب .. لأنه كان يرى أن تحمل المسئولية في عهد يعتبر هو حاكميه ظالمين مغتصبين ، إنما هو مشاركة في الظلم وإقرار للاغتصاب ..

وفي السجن تذكر أمه الحزينة فبكى .. وسأله جاره في السجن عما يبكيه وهو الفقيه الجليل الصلب ، فقال من خلال دموعه : « والله ما أوجعتني السياط . بل تذكرت أمي فآلمتنى دموعها . »

وساءت صحته في السجن . وبدأت الثورة تتجمع ضد الخليفة الأموى احتجاجا على ما يحدث لأبى حنيفة فأطلق سراحه

ولم يعد له مقام فى الكوفة التى شهدت عذابه .. فترك مسقط رأسه ، ومرح شبابه ، بكل ما فيها من ذكريات عزيزة وآمال عذبة ، وأقام بالحجاز حتى سقطت الدولة الأموية ، فعاد إلى موطنه !

ولكن العباسيين لم يتركوه .. فمنذ شعر بخيبة الأمل فيهم لبغيهم واضطهادهم للعلويين ، واصطناعهم المرتزقة من الفقهاء ، بدأ يجهر برأيه فى استبدادهم وطغيانهم .

ورفض كل هداياهم ، كما رفض هدايا الأمويين من قبل .

وعرضوا عليه منصب قاضى القضاه فأبى .. وتمسك بالتفرغ للعلم

قالوا له أنه قد حَصّل من العلم ما يجعله فى غنى عنه فرد : « من ظن أنه يستغنى عن العلم فَلْيَبْكِ على نفسه .

بعد أن فرغ من بناء بغداد ، وأقام فيها معتزا بها ، حرص على أن يجعل أكبر فقهاء العراق قاضى القضاة فيها . وكان أبوحنيفة قد أصبح أكبر الفقهاء بالعراق حتى سماه أتباعه ومريدوه : الإمام الأعظم . ولكن الإمام صمم على الرفض .

كان يعرف ما ينتظره .. فابن أبى ليلى لا يكف عن الكيد له ، وهو لا يغفر لأبى حنيفة ما يوجهه من نقد لاذع لأحكامه .

وقد ضم ابن أبى ليلى إليه حاجب الخليفة ووزيره الأول ، وكان أبوحنيفة قد أحرجه وكشف أكاذيبه أمام الخليفة فى محاورة حاول فيها الوزير الأول أن يوقع بالإمام ففضحه الإمام وأفسد حيلته .

وقد أفتى أبو حنيفة بأن الوزير لا تصح شهادته لأنه يقول للخليفة أنا عبدك « فإن صدق فهو عبد ولا شهادة له . وإن كذب فلا شهادة لكاذب » !!

وقد أخذ أحد تلاميذ أبى حنيفة بهذا النظر فيما بعد حين ولى القضاء فرد شهادة الوزير الأول لخليفة آخر ، لأنه قبل الأرض بين يدى الخليفة قائلا له : أنا عبدك !

****

اتسعت الفتوحات حتى أصبح البحر الابيض المتوسط بحيرة إسلامية ، وحتى ارتفعت الراية الإسلامية فوق شرق أوروبا وجنوبها والأندلس ، وكل بلاد العالم التى عرفها إنسان ذلك العصر ..

وعلى الرغم من ازدهار الحضارة ، فقد شغل رجال الحاشية بالكيد لأبى حنيفة يظاهرهم بعض الفقهاء أصحاب المناصب وأهل الحظوة عند الخليفة .

وأخذ الوزير الأول يكيد عند الخليفة لأبى حنيفة . وانتهز فرصة خروج أهل الموصل على الخليفة ، وكانوا قد شرطوا على أنفسهم إن هم خرجوا على الخليفة أن تباح دماؤهم وأموالهم . وأرسل الخليفة الى ابن شبرمة وابن أبى ليلى ليسألها رأى الدين فى أهل الموصل ، وكان قد أعد جيشا للفتك بهم . واقترح الوزير الأول على الخليفة أن يدعو أبا حنيفة وكان يعرف أن تقواه وشجاعته وكل فضائله ستقوده إلى مخالفة رأى الخليفة . وحضر الفقهاء الثلاثة فسألهم عن حكم الشرع فى أهل الموصل . وسكت أبو حنيفة وأفتى الآخران بأن أهل الموصل يستحقون الفتك بهم !..

وأفتى أبو حنيفة بأن الخليفة لا يحق له الفتك بأهل الموصل ، لأنهم بإباحتهم أرواحهم وأموالهم إنما أباحوا ما لايملكون .

وسأل : « لو أن امراة أباحت نفسها بغير عقد زواج أتحل لمن وهبته نفسها ؟ فقال له الخليفة « لا » .. فطلب الإمام أبو حنيفة منه أن يكف عن أهل الموصل فدمهم حرام عليه ، وأن يوجه الجيش إلى حماية الثغور ، أو إلى فتح جديد لنشر الإسلام ، بدلا من أن يضرب به المسلمين .

وضاق به الخليفة وأمره أن ينصرف .. ومن حول الخليفة أعداء الإمام يستفزونه للبطش به وفى مقدمتهم ابن أبى ليلى قاضى القضاة وتابعه شبرمة

ومضى أبو حنيفة إلى داره وهو يقول لصحبه : « إن ابن أبى ليلى ليستحل منى مالا أستحله من حيوان !»

وفى الحق أن ابن أبى ليلى وشبرمة والعصبة المعادية لأبى حنيفة فى قصر الخليفة زينت للخليفة أن يقهر أبا حنيفة على قبول ما يعرضه عليه من مناصب ، فإذا أبى فقد امتنع عن أداء واجب شرعى فحق عليه العقاب ، ووجب أن يشهر به فى الأمة ، لأنه يتخلى عن خدمتها .!

واقترحوا على الخليفة أن يبدأ فيمتحن ولاءه ، فيرسل إليه هدية

وكانوا يعرفون سلفا أن الإمام أبا حنيفة لن يقبل الهدية ..!

وأرسل له الخليفة مالا كثيرا وجارية .. فرد الهدية شاكرا ..

ثم أرسل الخليفة إليه يلح عليه فى ولاية القضاء أو فى أن يكون مفتيا للدولة يرجع إليه القضاة فيما يصعب عليهم القضاء فيه .. بما أنه يكثر من لوم القضاة على أحكامهم ، و يكشف للعامة جهل شيخهم

ابن أبى ليلى وتابعه شبرمة !

ورفض أبو حنيفة .. فاستدعاه الخليفة يسأله عن سبب رفضه فقال له : « والله ما أنا بمأمون الرضا فكيف أكون مأمون الغضب ؟ ولو اتجه الحكم عليك ثم هددتنى أن تغرقنى فى الفرات أو الحكم عليك لاخترت أن أغرق . ثم إن تلك حاشية يحتاجون إلى من يكرمهم لك ، فلا أصلح لذلك . »

وكانت الحاشية كلها تحيط بالخليفة ، وعلى رأسها وزيره الأول والفقيهان ابن أبى ليلى وابن شبرمه ، فأبدوا التذمر وبان عليهم استنكار ما يقوله الإمام أبو حنيفه ، فقال الخليفة محنقا : « كذبت » .

فقال أبو حنيفة فى هدوء قد حكمت على نفسك . كيف يحل لك أن تولى قاضيا على أمانتك وهو كاذب ؟!

وبعد قليل سأله الخليفة عن سبب رفض هداياه .. فقال له أبو حنيفة أنها من بيت مال المسلمين ولا حق فى بيت المال إلا للمقاتلين أو الفقراء أو العاملين فى الدولة بأجر وهو ليس واحدا من هؤلاء !

فأمر الخليفة بحبسه . وبضربه بالسياط حتى يقبل منصب قاضى قضاة بغداد .

وها هو شيخ فى السبعين أثقلته المعارك والدسائس والهموم ، ومكابدة الفقه والعلم والتحرج .. ها هو ذا يضرب ، و يظل يضرب بالسياط فى قبو سجن مظلم ، ورسل الخليفة يعرضون عليه هدايا الخليفة ، ومنصب القضاء والإفتاء .. وهو يرفض .. فيعاد إلى السجن ليعذب من جديد .. و يكررون العرض ، وهو يكرر الرفض داعيا الله : « اللهم أبعد عنى شرهم بقدرتك » .

وظل فى سجنه يعرضون عليه الجاه والمنصب والمال فيأبى .. و يعذب من جديد !

وتدهورت صحته ، وأشرف على الهلاك .

وخشى معذبوه أن يخرج فيروى للناس ما قاسى فى السجن ، فيثور الناس !.

وقرروا أن يتخلصوا منه فدسوا له السم ،

وأخرجوه وهو يعانى سكرات الموت ، وما عاد يستطيع أن يروى لأحد شيئا بعد !!

وحين شعر بأنها النهاية أوصى بأن يدفن فى أرض طيبة لم يغتصبها الخليفة أو أحد رجاله . وهكذا مات فارس الرأى الذى عرف فى السنوات الأخيرة من حياته باسم الإمام الأعظم .

وشيعه خمسون ألفا من أهل العراق واضطر الخليفة أن يصلى على الإمام الذى استقر الى الأبد فى ركن هادئ من الدنيا لم يشبه غصب ، والخليفة يهمهم : « من يعذرنى من أبى حنيفة حيا وميتا ؟» .

وهكذا مضى ببطل الفكر الشجاع شهيدا لحرية الرأى فى محنة من العذاب لم يعرفها أحد من الفقهاء من بعده حتى كانت محنة الإمام أحمد بن حنبل إمام أهل السنة .. فى عصر زرى كذلك العصر .. عصر تحكمه الدسائس والسموم وسياط الجلادين ، على الرغم من روعة الفتوحات العسكرية ، وانتصارات العقل الإنسانى ، و يبطش فيه المزيفون برهبان الحرية وفرسان الفكر..

وتظل المنارات الشامخة فيه مضيئة على الرغم من كل شىء ، تقدم للإنسانية جيلا بعد جيل عطاء خالدا من شعاع المعرفة ، والقوة ، وجسارة الكلمة الصادقة الأبية الفاضلة .. !

مَالِكُ بْن أنس

عاشق المدينة.. وَإمَام الحرمَين

اجتمعت الاسرة الصغيرة ذات مساء ، كما تعودت بعد كل صلاة عشاء ، تتذاكر أمور الحياة والدين ، فيحكى الأب عما صادفه وجه النهار فى متجره الصغير الذى يبيع فيه الحرير ،وعما عرض له خلال البيع والشراء من واقعات ، و يشرح لأولاده ولأم البنين ما حفظه عن أبيه عن جده الصحابى من أحاديث وآثار، و يأخذ الأسرة باستيعاب ما يقول .

وفى تلك الليله ألقى الأب سؤالا فى الدين على أفراد أسرته فأحسنوا الإجابة الا ولده الاصغر مالكا ..

كان فى نحو العاشرة ، قد حفظ القرآن و بعض الأحاديث ، وامتلأت آفاقه بنور الكلمات ، ولكن عقله لم يكن قد استطاع أن يعى ما فيها .. وكان مالك لنضارة سنه يحب أن يرتع و يلعب .

وغضب أنس على ولده الصغير مالك لأنه أخطأ فى الإجابة على سؤال فى الدين ، ونهره لأنه مشغول باللعب مع الحمام ، وهذا يلهيه عن العلم ! .

و بكى الصبى كما لم يبك من قبل ، وفزع إلى أحضان أمه يسألها الحماية والنصيحة ، و يستعينها على ما هو فيه .

ونشطت أمه من غدها بعد صلاة الفجر فأدخلته الحمام ، وطيبته وألبسته أحسن ثياب وعممته ، ودفعت به إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلتقى العلم ، واختارت له حلقة « ربيعة » من بين سبعين حلقة تلتف حول أعمدة المسجد النبوى يقوم عليها سبعون من أساطين العلم .. « وربيعة » هو حينذاك أكبر فقيه يجتهد رأيه ليستنبط الحكم عندما لايجده فى نص قطعى الدلالة .. وهو أكثر العلماء دعوة إلى الإجتهاد والأخذ بالرأى من أجل ذلك سمى ربيعة الرأى .

و يتعود الصبى بعد ذلك طيلة حياته أن يستحم و يتطيب و يلبس خير ثيابه كلما جلس يتعلم أو ليعلم :

ولكم عجب رواد المسجد لذلك الصبى الأشقر يفوح منه الطيب فى عمامة الشيوخ وهو يمسك بلوح يكتب فيه كل ما يقوله « ربيعة » و يشرب بعينيه وأذنيه مسائل صعبة من اجتهاد ربيعة الذى لم يكن يروى أحاديث يمكن أن تحفظ ، بل يلقى بفتاوى واستنباطات يحتاج فهمها إلى عقل ناضج ، ورأس كبير جدير بالعمامة التى يحملها .

ومنذ ذلك اليوم من أوائل القرن الثانى للهجرة أخذ مالك نفسه بالمشقة فى طلب العلم ..

نصحته أمه أن يذهب إلى المسجد النبوى ، فيجلس إلى « ربيعة » ليأخذ من علمه قبل أدبه .. وكان ربيعة مشهورا فى المدينه بفقه الرأى .. ولكن الصبى لم يعكف على ربيعة وحده ، فقد بهره ما فى الحلقات الأخرى من فنون المعارف .. فتنقل بين حلقات الفقهاء .. يحفظ القرآن و يصغ إلى تفسيره فى هذه الحلقة أو تلك .. ثم ينتقل إلى حلقات أخرى فيحفظ منها الأحاديث النبوية و يستوعب تأويل الأحاديث .و يتلقى فتاوى الصحابه من شيخ ، والرد على ما يثار من أفكار وآراء فى العقائد من شيخ آخر .. ثم يعود إلى ربيعة او غيره من الشيوخ الذى يجد لديهم علما أغزر .

كان يحمل معه حشيه تقيه برد المسجد إذا كان الشتاء ، وما كان يكتفى بما يتعلم فى المسجد بل يلتمس الشيوخ دورهم يستزيد من علمهم و يصبر على ما فى بعضهم من حدة .. ولقد ينتظر أحد الشيوخ فى الطريق ساعات ما يجد فيها شجرة تقيه الهاجرة حتى إذا رأى الشيخ يعود إلى داره انتظر لحظة ثم قرع عليه بابه . ولقد يملأ أكمامه بالتمر يهديه لجارية أحد الفقهاء لتمكنه من الخلوص الى المعلم المنشود .

وكان مالك إذا جلس ليستمع للأحاديث وهو صبى يحمل معه خيطا فيعقد مع كل حديث عقدة .. حتى إذا كان آخر النهار ، أعاد على نفسه الأحاديث وعد العقد ، فإن وجد نفسه قد نسى شيئا قرع باب شيخه الذى سمع منه الأحاديث فيحفظ منه ما نسى .

انقطع مالك لطلب العلم ، ومات عائله وشب الفتى وأصبح عليه أن يعول نفسه وزوجته و بنته .. وكانت به تجارة بأربعمائة دينار ورثها عن أبيه ، ولكنه كان مشغولا عنها بطلب العلم فكسدت تجارته ، واضطر إلى أن يبيع خشبا من سقف بيته ليعيش هو وأسرته بثمنه ، وكان الجوع يعضه و يعض زوجه وابنته فتصرخ الطفلة من الجوع طيلة ليلها . فيدير أبوها الرحى ولايسمع الجيران صراخها ..

ولما قد بلغ أوج شبابه ، وجد نفسه عاجزا عن توفير ما يكفى أهل بيته إلا أن يضحى بطلب العلم ..

فانفجرت أول صرخاته اجتهاده وناشد الحاكمين أن يمكنوا أهل العلم من التفرغ للعلم ، وأن يجرواعليهم رواتب تكفل لهم الحياة الكريمة ..

غير أن أحدا لم يلتفت إليه ، فقد كانت الدولة الأموية التى عاش شبابه فى ظلها مشغولة بتثبيت أركانها ، وبتألف قلوب شيوخ أهل العلم دون شبابهم .

والتقى به فى تلك الفترة طالب علم شاب من أهل مصر هو الليث بن سعد .. كان قد ألف أن يحج ما بين عام وعام و يزور المدينة ويجلس إلى حلقات الفقهاء فى الحرم النبوى ، وقد أعجب كل واحد منهما بذكاء صاحبه ونشأت بينهما علاقة احترام متبادل ، وألقى الله فى قلبيهما مودة ورحمة ... ولاحظ الليث بن سعد أن صديقه ـ على الرغم من أناقة ثيابه ونظافتها ، وعلى الرغم من رائحة المسك والطيب التى تسبقه فقير جهد الفقر ، وإن كان ليدارى فقره تعففا وإباء ! ..

وكان الليث واسع الغنى ، فمنح صاحبه مالا كثيرا وأقسم عليه أن يقبله .

وعاد الليث إلى وطنه مصر وظل بها يصل صاحبه مالك بن أنس بالهدايا بالمال ، حتى أصلح الله حال مالك ووجد من الخلفاء من يستجيب إلى ندائه المتصل أن تجرى الرواتب على أهل العلم .

ولقد سئل مالك عن عدم السعى فى طلب الرزق والانقطاع إلى العلم فقال :
« لايبلغ أحد ما يريد من هذا العلم حتى يضر به الفقر ويؤثره على كل حال . ومن طلب هذا الأمر صبر عليه » .

وفى الحق أنه ظل طالب علم بعد أن أصبح فقيها كبيرا يسعى إليه الناس من كل أقطار الأرض وإلى أن توفى سنة ١٧٩هـ وهو فى نحو السادسة والثمانين

ولقد ظل يعلم الناس ، عندما جلس للعلم ، أن يتحرجوا فى الفتيا وفى إبداء آرائهم ، فإذا كان الفقيه غير متثبت مما يقول فعليه فى شجاعة أن يعترف بأنه لايدرى . ذلك أن الفتيا لون من البلاء لأهل العلم .

فمن حسب نفسه قد أوتى العلم كله ، فهو الجاهل حقا .. وشر الناس مكانا هو من يضع نفسه فى مكان ليس أهلا له . وإن رأى الناس غير ذلك ، فصاحب العلم أدرى بنفسه ، وللرأى أمانته .

ويحكى أن رجلا جاءه من أقصى الغرب موفدا من أحد فقهائها ، ليسأل مالك بن أنس عن مسألة .. فقال مالك : **« أخبر الذى أرسلك ألا علم لى بها »** فأخبره الرجل أنه جاء من مسيرة ستة أشهر ليسأل عن هذه المسألة . فقال مالك : **« ماأدرى وما ابتلينا بهذه المسألة فى بلدنا وما سمعنا**

أحدا من أشياخنا تكلم فيها ولكن تعود غدا » . وظل مالك يفكر فى المسألة و يقرأ مايمكن أن يتصل بها حتى إذا كان الغد جاءه الرجل فقال له مالك : « سألتنى وما أدرى ماهى » فقال الرجل « ليس على وجه الارض أعلم منك وما جئتك من مسيرة أشهر إلا لذلك » فقال مالك : لاأحسن .

بهذه الأناة والتحرج كان مالك يعالج الفتيا .

ولقد عاش، فى المدينة المنورة طيلة حياته منذ ولد فيها نحو سنة ٩٣ هـ إلى أن ثوى تحت ثراها آخر الدهر. لم يبرحها قط إلا لحج أو عمرة ..

كان مالك يجد فى المدينة ريح النبوة ، ونفحات علوية من أنفاس الرسول حتى لكأنه يستنشق كل خفقه من أنسام مدينة الرسول جلال الأيام الباهرة الخالية : أيام النور والوحى والبطولات والفرقان .

ومازال أهل المدينة يصغون كما كانوا يصغون فى زمن رسول الله « صلى الله عليه وسلم » والصحابة الأوائل .. إنهم ليتوارثون سنته الشريفة فى القول والعمل الآباء عن الاجداد .. آلافا عن آلاف حتى لقد صح عنده أن عمل أهل المدينة فى عصره سنة مؤكدة ، وأنه أولى بالاعتبار عند الفتيات والقضاء من أحاديث الآحاد ..

إنه لعاشق لمدينة رسول الله كما لم يعشق أحد مدينة من قبل ولا من بعد ، يكاد يحمل لها من التعظيم ما يحمله للرسول « صلى الله عليه وسلم » نفسه ولصحابته . حكى الشافعى أنه رأى على باب مالك هدايا من خيل خراسانية و بغال مصرية فقال الشافعى « ما أحسن هذه الأفراس والبغال « فقال مالك : « هى لك فخذها جميعا « قال الشافعى : « ألا تبقى لك منها دابة تركبها ؟ » قال مالك : « إنى لأستحى من الله تعالى أن أطأ تربة فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بحافر دابة » .

وفى الحق أن الحياة فى المدينة كانت تناسب طبيعة مالك .. فقد ظلت المدينة بعيدا عن مضطربة التيارات الفكرية التى تصطحب غيرها من مدائن المسلمين ، فهى تعيش على السنن المتوارثة وتنأى بنفسها عن صراع العقائد ، والجدل الفلسفى ، وكلام الباحثين فيما وراء الغيب ، وكل ما انتجته ترجمة الفلسفات اليونانية والهندية والفارسية إنها حقا قرية مؤمنة ورب غفور.. ومالك بن أنس رجل يحب الدعة وينشد السكينة ، و يعكف على الدرس المطمئن . وهو يكره الجدل واللجاج والصخب والمناظرة ، والكلام فيما لاينفع الناس فى حياة كل يوم .

وكان يقول لمن سافر لمن يريدون الجدل فى العقائد « تجادلوا .. وكلما جاء رجل أجدل من

رجل تركنا مانزل به جبريل ، وغير الإنسان دينه » .

وكان مالك لايحب أن يخوض غمرات الصراع السياسى .. وكانت المدينة بالقياس إلى غيرها من بلاد المسلمين أكثرهن بعدا عن الثورات والفتن ومناهضة الحكام .

ولقد بلغ نفوره من الجدل حدا جعله يصد عنه هارون الرشيد عندما لقيه فى المدينة وطلب منه أن يناظر أبا يوسف صاحب أبى حنيفة .

فقال مالك مغضبا : « إن العلم ليس كالتحريش بين البهائم والديكة » ..

كان مالك يعتقد أن الجدال فى الدين مفسدة للدين . وقال : « إن الجدل يبعد المتجادلين عن حقيقة الدين . إن المراء والجدل فى الدين يذهبان بنور العلم من قلب المؤمن « وسئل » « **رجل له علم بالسنة ألا يجادل عنها ؟ فقال « يخبر بالسنة فان قبل منه ، والا سكت . »**

على أن الافكار الجديدة اقتحمت على مالك وأهل المدينة حياتهم ، وفرضت عليهم النظر فيها ، فقد كان أصحابها يذهبون إلى الحجاز للحج والعمرة وللزيارة .. وكان على مالك وأهل العلماء فى المدينة ان يناظروا فيا هومطروح من أفكار وكلام . صفات الله . كيف يرى يوم القيامة وخلق القرآن .. والقدر والجبر والاختيار . وفرضت القضايا نفسها على فقهاء الحجاز ... أما مالك فقال : « الكلام فى الدين أكرهه وأنهى عنه ولم يزل أهل بلدنا (المدينة) يكرهونه و ينهون عنه .. نحو الكلام فى القدر والجبر ونحو ذلك ولا أحب الكلام الا فيا تحته عمل . « وماتحته عمل من الدين هومايفيد الناس فى دنياهم وآخرتهم .. هو الفقه الذى يحكم أعمال الناس و يرد الفروع إلى الأصول . أما العقائد فقد نهى عن الجدل فيها وقد فسر مالك كل آية تتحدث عن العداوة ـــ والبغضاء التى تقع بين عباد الله ، بأنها الخصومات للجدل فى الدين .

وكان مالك يتساءل عن جدوى هذه الأفكار المبتدعة عن ذات الله وصفاته والجبر والأختيار؟ وخلق القرآن ؟

وما عساها تحقق من مصالح أو تدفع من مضار؟

إنه لأولى بأهل العلم أن يشتغلوا بالحكمة ... والحكمة التى جاءت كثيرا فى القرآن هى ـــ فى رأى مالك ـــ فى دين الله والعمل به ..

ولقد أطلق مالك على أصحاب الكلام فى العقائد والجبر ونحو ذلك من أصحاب بدع وقال عنهم إنه

ماعرف أشد منهم سخفا ولاحمقا ..فما جدوى الكلام فيما يتكلمون فيه ؟ ماذا يحقق جدل كهذا من مصالح للعباد ؟..

إن المعتقدات يجب ألا تكون موضع كلام وعلى المسلم العاقل أن يسلم بها تسليما مطلقا ، وان يجعل همه إلى ماوراء ذلك مما ينفع الناس ، ويمكث فى الأرض يدفع عنهم الضرر والمفاسد ، و يضبط لهم علاقاتهم وحياتهم ومعاشهم بما يستنبط به من أحكام الشريعة

فليسأل أهل العلم أنفسهم ما هومقصد الشريعة الإسلامية وماهدفها ؟..... وليتقوا الله حق تقاته وهم يجيبون على هذه المسألة ... أهو فى الشريعة الإسلامية أن يتخاصم الناس و يتمارون حول القدر وخلق القرآن ورؤية الله والجبر والاختيار؟ ... وبهذا تنصرف العقول عن التفكير فيما ينفع الناس ؟.. لابل إن هدف الشريعة هوإقامة العمران فى هذا العالم وتحقيق مصالح العباد فى الدنيا والآخرة ..

من أجل ذلك فقد وجب على العلماء والفقهاء أن يبصروا الناس بما يحقق المصلحة و يقيم عمارة العالم . وبما يدرأ عنهم المفاسد وبما يضبط أمورهم على اركان ركنية من العدل والتقوى وصلاح الأمور.

والأحكام التى تحقق مقاصد الشريعة منصوص عليها فى القرآن والحديث ، ويجب التعرف عليها بكل طرائق الفهم والتفسير، وتدبر ما وضح وما خفى من دلالات النصوص ، فإن لم يسعف النص فى مواجهة ما يستجد من أحداث ، فلينظر الفقيه فى إجماع الصحابة ليستخلص الحكم ، ففى إجماع الصحابة حجة كالسنة المؤكدة ، فإن لم يجد الفقيه مايشفى فلينظر فى عمل أهل المدينة لانهم تلقوه آلافا عن آلاف عن الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته .. فإن كان ماستجد من قضايا لاحكم له عند أهل المدينة فليقس الفقيه ليطبق على القضية الجديدة حكم قضية سابقة واورد به نص إن توفرت العلة فى القضيتين فإن تعارض هذا القياس مع مصلحة فليفضل الحكم الذى يحقق المصلحة استحسانا له .. فهو الأحسن . وإن لم يسعفه القياس فلينظر فى عرف الناس وعاداتهم إن لم يكن مخالفا لما أحله .. فإن لم يجد فلينظر أين المصلحة .. وليجعل تحقيق المصلحة هومناط الحكم .

على أن مالك بن أنس لم يوفق إلى هذه الافكار و يدلى إلا بعد أن أصبح صاحب حلقة يدرس فيها ..

فها هو ذا مالك بن أنس تجرى به السنون لتعدو الأربعين ، وقد يلزم الفقهاء نحوثلاثين عاما ، فتلقى عنهم الأحاديث النبوية ، وحمصها وحقق إسنادها وتدارس معهم ماينبغى لاستنباط الأحكام التى تواجه قضايا لم تعرض من قبل ، وتعلم منهم الكتاب والحكمة ، وتفكر فى خلق السموات والارض وأحوال العباد ، وتدارس معاملات الناس ، فتكون له رأى خاص ، واستقل بنظره فى كل أمور الدنيا

والآخرة اتبع فى بعضه السنة وأفكار السلف الصالح وعمل أهل المدينة وأعرافها وعاداتها .

واستنبط الأحكام فى بعضه الآخر بما يحقق المنفعة و يدرأ المفسدة .

جاء الوقت الذى ينبغى له فيه أن يجلس إلى أحد أعمدة الحرم النبوى ، ويجعل له حلقة خاصة يفتى فيها للناس و يعلمهم مما علم رشدا و يطرح عليهم ماتكون له من فقه وما استقر عنده من تأو يل الأحاديث .

وكان مالك قبل أن يجلس ليعلم الناس و يفتيهم ، قد اختلف مع استاذه ربيعة ، فرأى مالك أن يستقل بحلقة ، اقترحها عليه مشايعوه ، غير أنه لم يفعلها من فوره بل طلب على سبعين من أصحاب الحلقات والشيوخ فى المسجد النبوى ، يعرض عليهم فقهه ، و يستأذنهم فى أن يجلس ليعلم الناس .

وأجازه له أساتذته لم يختلف على إجازته أحد ، اختار المكان الذى كان يجلس فيه عمر بن الخطاب ليستروح منه جلال الأيام الرائعة الماضية ، حين كان كل الصحابة يعيشون فى المدينة المنورة .. أمسكهم فيها عمر لايبرحونها إلا بإذنه ، لكى يعلموا الناس ، ولكى يستشيرهم إذا احتاج الامر، ولكيلا يفتن بهم أهل الاقطار الأخرى من حديثى العهد بالإسلام .

وكان أنس بن مالك من قبل قد اختار سكنا له دار الصحابى عبد الله بن مسعود ، ليخفق منه القلب بنبضات عصر النبوة .. ذلك العصر المضىء بنور الإيمان والمعرفة والشوق المقدس العظيم إلى صياغة عالم جديد من الطهارة والإخاء والنبل والعدالة والحر ية والسكينة والنعيم ..

ولقد أثث مالك بن أنس داره بأجمل أثاث ، وز ينها بأحسن ز ينة وملأ أجواءها بعرف البخور المعطر. ذلك أن الحياة أقبلت عليه .. فنال راتبا كبيرا من بيت المال ، ثم توالت عليه هدايا الخلفاء فقد اقتنع الخلفاء برأيه فى أن أهل العلم يجب ألا يشغلوا عنه بالسعى فى طلب الرزق ، بل يجب أن يكون لهم نصيب من بيت المال ، فينالوا منه رواتب منتظمة كبيرة ، كما ينال قواد الجيش الذين يقومون على حماية الأمة وسد الثغور... فنشر العلم سد للثغور الروحية أمام الجهل ، والتوفير على نشر العلم جهاد . وإذن فينبغى أن يكون لكل من العالم وطالب العلم جزاء المجاهدين كل بقدر مايكفيه .

إن العلماء ليحمون أرواح الناس وعقولهم من الضلال ، فن واجب ولى الأمر أن يوفر لهم من المال مايكفل لهم الحياة الكريمة والمظهر اللائق الحسن كخير ماينعم به الولاة والأمراء وحماة الثغور.

على أنه كان يغدق من راتبه ومما يتلقى من هدايا على الفقراء من طلاب العلم يعطيهم ماتيسر من المال و يطعمهم أشهى طعام .. وكان حفيا بمأكله يختار الأطايب من كل صنف وكان مولعا بالفاكهة وخاصة الموز و يقول عنه : « لاشىء أكثر شبها بثمرات أهل الجنه منه ، لا تطلبه فى شتاء ولاصيف إلا

وجدته .. قال تعالى «أكلها دائم وظلها» .

وكان يحض تلاميذه على الاهتمام بحسن التغذية ، فالغذاء الجيد يبني الجسم السليم .. والعقل السليم فى الجسم السليم . ومكايد العلم تحتاج إلى عقول نشطة تصونها أجساد قوية ..

وهكذا عاش منذ بدأ يجلس للإفتاء والتدريس : جسد قوى ، وعقل نفاذ .. طعام حسن ومسكن جيد وثياب أنيقة بيضاء من خير ماتنتجه مصر وخراسان وعدن .

وألف الناس كلما دخلوا المسجد النبوى بعد صلاة الفجر أن يجدوا رجلا مهيبا طويلا فارعا أشقر ، أبيض الوجه ، واسع العينين ، أشم الانف ، كبير اللحية ، مفتول الشارب ، يتخذ مكانه فى هدوء ، ويتحدث فى صوت عميق صادق مستندا إلى عمود ومن حوله حلقة من تلاميذه ، كأن على رؤوسهم الطير. فإذا دخل غريب وألقى السلام لم يرد عليه أحد إلا همسا .. فإذا سأل ماهذا ؟ قيل له فى صوت خفيض إنه الإمام مالك بن أنس .

فقد كان يفيض إذا تكلم ، وينفذ بصدقه إلى القلوب .. ولم يكن جهير الصوت ، فكان تلاميذه يكادون يمسكون بأنفاسهم لكيلا يفوتهم حرف مما يقول .

وكان قد خصص أياما لشرح الأحاديث النبوية الشريفة ، وأياما للمسائل والفتيا .. فإذا سأله أحد فى أمر لم يقع ولكنه متوقع ، قال له : **«سل عما يكون ودع ما لايكون»** .

ذلك أنه كان يرى أن كثرة الفروض مفسدة ، وفيما يقع من الحوادث والقضايا الجديدة مايكفى ومايغنى عما هو متوقع ..

وعندما تقدمت به السن ، عقد حلقات الدرس فى بيته الواسعة ذات الأثاث الفاخر.

ترك مجاملة الناس التى اشتهر بها « وترك حضور الجنازات ، فكان يأتى أصحابها فيعزيهم ، ثم ترك ذلك كله ، فلم يكن يشهد الصلوات فى المسجد ولا الجمعة » وكان إذا عوتب فى ذلك قال : «ليس كل الناس يقدر أن يتكلم بعذره» .

ذلك أنه لم يفض لأحد بسر مرضه الذى أقعده عن المسجد والناس إلا فراش الموت وكان مرضه هو سلس البول . وعندما اشتد عليه المرض بعد أن جاوز الثمانين كره أن يخرج من داره .

وكان له فى بيته مجلسان فى السنوات الثمانى الأخيرة من حياته : فقال أحد تلاميذه : « إنه كان عندما انتقل درسه إلى بيته ، إذا أتاه الناس تخرج لهم الجارية فتقول لهم : يقول لكم الشيخ أتريدون الحديث أم المسائل ؟ فإن قالوا المسائل خرج إليهم فأفتاهم ، وإن قالوا الحديث قال لهم اجلسوا ، ودخل

مغسله فاغتسل وتطيب ، ولبس ثيابا جددا ، ولبس ساجه (وهي غطاء للرأس كالتاج) وتعمم ، فتلقى له المنصه . فيخرج إليهم وقد لبس وتطيب وعليه الخشوع ، و يوضع عود فلا يزال يبخر حتى يفرغ من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

ولكم كان حريصا على أن ينتقى الأحاديث .

وعلى الرغم من كثرة الأحاديث التى حفظها ، فلم يكن يحدث بهن جميعا .. ولقد قيل له إن أحد الفقهاء يحدث بأحاديث ليست عندك فقال مالك لو أنى حدثت بكل ماعندى لكأنى إذن لأحمق ثم أضاف : لقد خرجت منى أحاديث لوددت لو أنى ضربت بكل حديث منها سوطا ولم أحدث بها « من أجل ذلك قال عنه تلميذه الشافعى : **إذا جاء الحديث فمالك النجم الثاقب » .**

وبهذا الحرج فى الحديث كان يتحرج فى الفتوى .. فلا يقول هذا حلال وهذا حرام إلا إذا كان هناك نص قطعى الدلالة .

وفيما عدا هذا يقول : أظن ثم يعقب فتواه مستشهدا بالآية الكريمة : « إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين » .

ولقد عاتبه بعض تلاميذه على تحرجه فى الفتوى ، فاستعبر و بكى وهو يقول : إنى أخاف أن يكون لى منها يوم وأى يوم . **وقال يوما لأحد تلاميذه : ليس فى العلم شىء خفيف . أما سمعت قول الله تعالى : « إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا ؟ فالعلم كله ثقيل وخاصة مايسأل عنه يوم القيامه . »**

ولقد عاتبه بعض الناس فى عنايته الفائقة بأثاث البيت ، وبملبسه ومأكله فقال : « **أما البيت فهو نسب الإنسان . ثم إنى لا أحب لامرئ أنعم الله عليه إلا يرى أثر نعمته عليه وخاصة أهل العلم » .** كان يرى فى أن البيت الجيد راحة للنفس والبدن ، وأن الطعام الجيد يعين على نشاط الذهن ، وأن حسن الثياب يكسب المرء ثقة بالذات وإحساسا بالسعادة .

وهكذا عاش يستمتع بزينة الحياة الدنيا التى أحلها الله لعباده والطيبات من الرزق ، نائيا بنفسه عن السياسة ، راغبا عن مصاولة الحكام وإن كانوا ظالمين حتى لقد أفتى بوجوب الطاعة للحاكم حتى إن كان ظالما . ولا ينبغى الخروج عليه بالفتنة بل يسعى إلى تغييره بالموعظة الحسنة وبالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لأن ظلم ساعة خلال الفتنة شر من جور حاكم ظالم طيلة حياته . والحاكم الظالم يسلط الله عليه ماهو شر منه والله يرمى ظالما بظالم .

وعلى هذا سار أيام الأمويين ، ثم فى دولة العباسيين .. يحاول جهده أن يكون على الحياد .

ولكنه على الرغم من كل شيء لم يعش بمنجاه عن بطش الذين أفتى بوجوب ـــ طاعتهم من الحكام مهما يظلمون .

لم يهاجم الأمويين فأصابه منهم خير كثير ثم جاء العباسيون فزادوه من الخيرات .. وأصبح الإمام مالك رجلا غنيا ، يعيش في دعة وسعة ويمنح كل وقته للعلم . ذلك أنه لم يمدح على بن أبى طالب ولم يساند حقه فى الخلافة .. وكان مدح على هو مايغيظ الخلفاء الأمويين العباسيين .

وآثر الحياد ، وترك السياسة ، وأشفق على نفسه وعلى أهل المدينة بما رأى فى شبابه من مذابح بعد ثورة الخوارج ونهضة الإمام زيد بن على زين العابدين ، على أن السياسة لم تتركه ولم ينفعه حياد . ! .

وهو يشرح فى المسجد الحديث الشريف : ليس على مستكره يمين .. « ويبين للناس أن من طلق مكرها لا يقع منه طلاق ، إذ بأحد أحفاد الحسن بن على وهو محمد النفس الزكية ، يثور على الخليفة المنصور، لأنه أخذ البيعة لنفسه قسرا فبايعه الناس مستكرهين .

وإذ ببعض الناس فى المدينة ينتقض بيعته للمنصور وينضم لمحمد النفس الزكية إعمالا لهذا الحديث وتطبيقا للسنة .
وأرسل والى المدينة إلى الإمام مالك أن يكف عن الكلام فى هذا الحديث ، وأن يكتمه عن الناس ، لأنه يحرضهم على الثورة ونقض البيعة .

ولكن الإمام مالك أبى أن يكتم هذا العلم ، فكاتم العلم ملعون وظل يفسر الحديث غير آبه بتهديد والى المدينه ، وأطلق الحكم الذى جاء به الحديث على كل صور الإكراه فى المعاملات والحياة .

فأمر والى المدينة رجاله فضربوا مالكا أسواطا ، ثم جذبوه جذبا غليظا من يده ، وجروه منها فانخلع كتفه .. ثم أعادوه إلى داره وألزموه الإقامة بها . لايخرج منها حتى للصلاة ولايلقى فيها احد .

وفزع الناس فى المدينة إلى الله يشكون الظالم ، وثار سخطهم على الوالى والخليفة نفسه وغضب الفقهاء والعلماء من كل الأنصار والأقطار. فها هو ذا عالم يلتزم الحياد ، ينأى بنفسه عن السياسة ودوران دولاتها ، ويعكف على العلم ويشرح للناس حديثا نبويا صحيحا ، ويبصرهم بأحكام هذا الحديث فإذا بالدولة بكل قوتها تبطش به ، وهو عالم لايملك إلا قوة العلم ومايستطيع بعد كتمان هذا العلم ؟ ..

وأخذ الناس يلعنون والى المدينة والخليفة المنصور الذى ولاه .. ويتهمون الخليفة نفسه .

وقمع المنصور ثورة النفس الزكية ، وقتله هو وآل بيته وصحبه وأتباعه شر قتلة ومثل بأجسادهم .. واستقر له الأمر.

فاستقدم الخليفة المنصور مالكا ليسترضيه ولكن مالكا لم يقم ولم يبرح محبسه فى منزله .

فأمر المنصور والى المدينة فأطلق سراح مالك .. ثم جاء المنصور بنفسه من العراق إلى الحجاز فى موسم الحج ، واستقبل الإمام مالك بن أنس . وقال الخليفة معتذرا : « أنا أمرت بالذى كان ولا عملته . انه لايزال أهل الحرمين بخير ما كنت بين أظهرهم ، وإنى أخالك أمانا لهم من عذاب ، ولقد رفع الله بك عنهم سطوة عظيمة فإنهم أسرع الناس إلى الفتن » .

ثم أضاف الخليفة أنه استحضر والى المدينة مهانا وحبسه فى ضيق ، وأمر بالإيغال فى إهانته ، وأن ينزل به من العقوبة أضعاف مانال منها الإمام مالك بن أنس .

فقال الإمام مالك : « عافى الله أمير المؤمنين وأكرم مثواه فقد عفوت عنه لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنك . » قال الخليفة المنصور: « فعفا الله عنك ووصلك » .. ووهبه المنصور مالا كثيرا وهدايا ثمينه ثم أضاف :

« إن رابك ريب من عامل (والى) المدينة أو مكة أو عمال (أى ولاة) الحجاز فى ذاتك أو ذات غيرك ، أو سوء أو شر بالرعية فاكتب إلى أنزل بهم مايستحقونه . »

على أن الإمام مالك بن أنس لم يكتب إلى الخليفة ، على الرغم مما سمع وعاين من شر بالرعية فى جميع أنحاء الحجاز، بل اكتفى بتوجيه النصح والموعظة الحسنة إلى هؤلاء الولاه .

على أن الخليفة المنصور لم يترك الحجاز حتى طلب من الإمام مالك أن يضع كتابا يتضمن أحاديث الرسول وأقضية الصحابة وآثارهم ، ليكون قانونا تطبقه الدولة فى كل أقطارها بدلا من ترك الأمر لخلافات المجتهدين والقضاة والفقهاء .. وكان ابن المقفع الكاتب قد أشار على الخليفة من قبل بإصلاح القضاء وتوحيد القانون فى كل أرجاء الدولة ...

قال المنصور للإمام مالك : « ضع للناس كتابا أحملهم عليه » فحاول مالك أن يعتذر عن المهمة ولكن المنصور ألح : « ضعه فما أحد اليوم أعلم منك » فقال مالك : « إن الناس تفرقوا فى البلاد فأفتى كل مصر « أى قطر» بما رأى فلأهل المدينة قول ، ولأهل العراق قول تعددا فيه طورهم « فقال الخليفة المنصور: « أما أهل العراق فلا أقبل منهم ، فالعلم علم أهل المدينة » فقال مالك : « إن أهل العراق لايرضون علمنا » فقال المنصور: « يضرب عليه عامتهم بالسيف وتقطع عليه ظهورهم بالسياط »

واقتنع مالك برأى الخليفة ، لأنه هو نفسه كان فكر من قبل ، أن يجمع الأحاديث النبوية فى كتاب يضم مع الأحاديث آثار الصحابة ، ليجتمع المجتهدون والفقهاء والقضاه على رأى واحد وانقطع الإمام عاكفا على إعداد الكتاب وأخذ يكتب و ينقح ويحذف أضعاف مايثبت ، و ينقح مايثبت وأسمى كتابه الموطأ .

والموطأ لغة هو المنقح .

ولبث ينقح فى الكتاب سنين عددا ، وخلال تلك السنين أخرج منافسوه من علماء المدينه كتبا كثيرة فى الأحاديث وآثار الصحابه أسموها الموطآت ، وسبقوه بها .. فقيل لمالك : شغلت نفسك بعمل هذا الكتاب وقد شركك فيه الناس وعملوا أمثاله . وأخرجوا ماعملوا فقال : « إئتونى بما عملوا .. فأتوا بها فلما فرغ من النظر فيها ـــ قال : » لايرتفع إلا ماأريد به وجه الله . اما تلك الكتب فكأنما ألقيت فى الآبار ومايسمع بشيء منها يذكر بعد ذلك ..

وفى الحق أن شيئا من تلك الكتب لم يذكر بعد ، وكأنما ألقيت فى الآبار ..

أما كتاب الموطأ فقد أنجزه مالك بعد أن قضى المنصور وجاء بعده خليفة وخليفة ثم جاء هارون الرشيد فأراد أن يعلق كتاب الموطأ فى الكعبة ولكن الإمام مالك بن أنس أبى .

والإمام مالك بن أنس من أفقه الناس بالحديث وآثار الصحابة .. والرأى عنده سنة فقد وعى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : أنا أقضى بينكم بالرأى فيما لم ينزل فيه وحى .. ونقل الإمام مالك عن الرسول عليه السلام كان يشاور أصحابه و يأخذ برأيهم .. ونقل من آرائه أن قبلة الصائم لا تفطر ، فقد سئلت زوجة أم المؤمنين أم سلمه عن قبلة الصائم فقال لها هل اخبرت أنى أقبل وأنا صائم ؟ .. وحفظ الامام مالك من آراء الرسول صلى الله عليه وسلم **انه ذهب إليه رجل ينكر ولده لأن امرأته جاءت به أسود والأب أبيض والأم بيضاء ، فقال له الرسول عليه السلام هل لك إبل ؟ قال : نعم قال : فما ألوانها قال : « حمر » فسأله عما إن كان فيها « رمادى » فقال الرجل : « نعم فسأله الرسول صلى الله عليه وسلم » من أين ؟ : فقال الرجل : « لعله نزعة عرق . فقال الرسول عليه السلام وهذا لعله نزعة عرق » .**

وعى مالك هذا الاجتهاد من الرسول ، و وعى صورا عربية أخرى من أخذه بمشورة الصحابة فيما لم ينزل فيه وحى ، فاجتهد مالك هو الاخر معتمدا على حسن الفقه بالقرآن الكريم ، وعمق العلم بالناسخ والمنسوخ ، ودلالات النصوص ظاهرها وخفيها ، وأسرار الأحكام فى القرآن ، وحسن معرفة الأحاديث وآثار الصحابة ..

وقد عرف كل آثار الصحابة إلا فقه الامام على بن أبى طالب ، إذ صادره الامو يون وحجبوه ، وطارده العباسيون .. غير أن ذلك الفقه كان فى حدود آل البيت وشيعتهم ، وفى كتب يتداولونها خفية .

ولقد أتيح للإمام مالك أن يعرف الإمام جعفر الصادق صداقة وتدارس معا .. وعمل كل واحد منهما تقديرا عظيما لصاحبه .

وفى الحق أن الامام مالك قد أفاد من صحبة الإمام جعفر الصادق ــ وأخذ الاعتماد على العقل فيما لم يرد فيه نص ــ غير أنه أسماه بالاستحسان أو المصلحة المرسلة ــ فقضى بما يحقق مقاصد الشر يعة من توفير المصلحة وجلب النفع ودفع الضرر وبما الى الحرام .. واعتبر المصلحة العامة فوق المصلحة الخاصة ، و وازن بين المصالح وماأولاها بالرعاية لتكون هى مناط الحكم .

وكما أعطى أعمال العقل لفقه الإمام الصادق ثراء وتجددا ، فقد أثرى الفقه المالكى باعتماد المصلحة أساسا للحكم حيث لانص ..

و يقول الإمام مالك عن علاقته بالإمام جعفر الصادق : « كنت آتى **جعفر بن محمد ، وكان كثير المزاح والتبسم فإذا ذكر عنده النبى صلى الله عليه وسلم اخضر واصفر. ولقد اختلفت اليه زمانا فما كنت أراه إلا على ثلاث خصال : إما مصليا وإما صائما وإما يقرأ القرآن ، ومارأيته قط يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا على الطهارة ولايتكلم فيما لايعنيه . وكان من العلماء الزهاد العباد الذين يخشون الله . ومارأيته قط إلا يخرج الوسادة من تحته ويجعلها تحتى** » .

أفاد الإمام مالك من صحبة الإمام جعفر وأخذ عنه كثيرا من طرق استنباط الحكم و وجوه الرأى وأخذ عنه بعض الاحكام فى المعاملات ، وأخذ الاعتماد على شاهد دون شاهدين ، إذا حلف المدعى اليمين وكما أخذ من الإمام الصادق جعفر بن محمد اخذ من أبيه الإمام محمد الباقر بن على ز ين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب ..

لزم مالك مجلس الإمام محمد الباقر وابنه الإمام جعفر وتعلم منهما على الرغم من ان رأيه فى الإمام على بن ابى طالب كرم الله وجهه لايرضى آل البيت وشيعتهم .. فقد فضل عليه أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضى الله عنهم وجعل الإمام عليا كرم الله وجهه ورضى الله عنه كسائر الصحابة ..

ولئن أغضب هذا الرأى آل البيت والشيعة جميعا ، انه ليرضى الخلفاء الأمو يين الذين أنكروا حق على ونازعوه الخلافة واغتصبوها منه ، وذبحوا الحسين وآله فى كر بلاء ، وذبحوا كل من ثار من آل البيت

كزيد بن علي بن الحسين .. افى هذا الرأى يرضى الخلفاء الأمويين كما أرضى من بعدهم الخلفاء العباسيين الذين رأوا أن الخلافة تحق لبنى العباس عم النبى صلى الله عليه وسلم ولاتحق لبنى على وفاطمة .. وأغروا أحد الشعراء بأن يقول إن بنى البنات (يعنون فاطمة الزهراء رضى الله عنها) لايرثن بل يرث الأعمام (يعنون العباس) : أنى يكون وليس ذلك بكائن لبنى البنات وارثة الاعمام .

وقد كان رأى مالك بن انس حريا ، بأن يعطف عليه قلوب الخلفاء الأمويين والعباسيين وهذا ماكان .

غير أن الإمام مالك بن أنس لم ينافق الخلفاء ، واذا كان لم يجهر بالاحتجاج على مظالمهم ، فقد اختار أن يوجه إليهم الموعظة الحسنة كلما اقتضى ــ كلما لقيهم فى موسم الحج أو فى زيارة الحرم النبوى . وأنكر عليه أحد تلاميذه أنه يتصل بالأمراء و بالخلفاء لأنهم ظالمون ومايبنغى أن يتصل بهم رجل صالح كالإمام مالك بن أنس .. فرد مالك : « حق على كل مسلم أو رجل جعل الله فى صدره شيئا من العلم والفقه ان يدخل على ذى سلطان يأمره بالخير و ينهاه عن الشر » وربما يستشير السلطان من لاينبغى فخير أن يدخل عليه العلماء الصالحون ..

وعندما ألح عليه تلاميذه فى إنكار علاقاته بالخلفاء والامراء قال : « **لولا أنى آتيتهم مارأت للنبى صلى الله عليه وسلم فى هذه المدينه سنة معمول بها** » .

وفى الحق انه كان يعظمهم أحسن موعظة ، الموعظة الحسنة لأولى الامر خير من الثورة عليهم واشتعال الفتنة التى لا تصيب الذين ظلموا خاصة فقد تلتهم الظالمين والضحايا والأبرياء جميعا .

كان مالك .. يسر النصيحة إلى ولى الأمر بحيث لايحرجه أمام الرعية و يصوغها بحيث تقع موقعا حسنا .

رأى أحدهم يذهب إلى الحج فى موكب فخيم وسرف الترف باد عليه فقال له : **كان عمر بن الخطاب على فضله ينفخ النار تحت القدر حتى يخرج الدخان من لحيته وقد رضى الناس منك بدون هذا .**

وقال لآخر : « افتقد أمور الرعية ، فإنك مسئول عنهم ، فإن عمر بن الخطاب قال والذى نفسى بيده لو هلك جمل بشاطئ الفرات ضياعا لظننت ان الله يسألنى عنه يوم القيامه » .

وكتب لخليفة آخر: « **احذر يوما لاينجيك فيه إلا عملك وليكن لك أسوة بمن قد مضى من سلفك « وعليك بتقوى الله »** .

وكان أحد الولاة يزور الإمام مالك بن أنس فى بيته ، و يسأله النصيحه .. فأثنى على الوالى بعض الحاضرين ، فغضب مالك ، وكان بعيد الغضب ، وصاح فى الوالى — وقلما كان يصيح — :

« إياك أن يغرك هؤلاء بثنائهم عليك ، فإن من أثنى عليك وقال فيك من الخير ماليس فيك ، أوشك ان يقول فيك ، من الشر ماليس فيك .. إنك أنت أعرف بنفسك منهم .. ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « احثوا التراب فى وجوه المداحين » .

وكان عليه الصلاة والسلام يعظ صحابته ان كثرة المدح تضيع الممدوح .

وعندما بلغ مالك من الكبر عتيا كانت شهرته طبقت الآفاق حقا ، وكان يلزم بيته فى السنوات الأخيرة لايخرج إلا نادرا واضطر إلى أن يتخذ له حاجبا ينظم دخول الناس كما يصنع الخلفاء ، وقد اتخذ له بيتا آخر واسعا غير دار بن مسعود فيه عدد من الجوارى الحسان والخدم .

وكان يحرجه أن يرفض استقبال أحد ، وله أصدقاء كثير. واستخلص العبرة من كل حياته الماضية وأفضى بنصيحة إلى أحد تلاميذه ليبثها فى الناس من بعده :

« إياكم ورق الاحرار» .

سأله تلميذه : « ومارق الأحرار؟ » قال الإمام مالك « كثرة الإخوان .. فإن كنت قاضيا ظلمت أو اتهمت بالظلم ، وإن كنت عالما ضاع وقتك » .

وكان مالك يشكو كثرة الاصدقاء ، إذ لاحيله له معهم ، فلا هو يستطيع أن يردهم عنه ، ولا هم يتركونه يعمل أو يعتكف فى داره للعلم كما ينبغى له ..

ومهما يكن من أمر فقد أغنى مالك الفقه الإسلامى برأيه فى المصلحة وجعلها مناط الاحكام وأساسه فيما لم يرد فيه نص ملزم بالإباحه أو المنع ، وفى أخذه بالذرائع فما يؤدى إلى الحلال حلال ، ومايؤدى إلى الحرام حرام .. فأنت حر فى ملكك ولكنك فى حريتك يجب ألا تضر غيرك فإذا حفرت بئرا خلف بابك يؤدى إلى سقوط الداخل إليك وهلاكه فهذا حرام .. لأن حفر البئر ذريعة لإهلاك الغير فهو ممتنع . والبيع باقساط ترفع الثمن الأصلى الذى تدفعه معجلا ذريعة إلى الربا فهو حرام ويجب على ولى الأمر منعه .. فالأقساط يجب أن تكون ذريعة للتيسير على المشترى لا ذريعة لقهر على اقتراف الربا ، وحمله على دفع ثمن أكبر.

وبهذا النظر حرم الإحتكار لأنه يحقق مصلحة لفرد أو لأفراد قلائل ويجلب الضرر على الآخرين ..
فالمحتكر يغالى فى السعر كيفما شاء ، وعامة الناس مضطرون إلى قبول مايفرضه وفى هذا ضرر بهم كبير والمحتكر ملعون ، بنص الحديث الشريف .

ومن أخذ الإمام مالك فى فتاواه وآرائه بالقرآن والسنة والإجماع وعمل أهل المدينة ورعاية المصالح أفتى بأمور كثيرة خالفه فيها بعض العلماء والفقهاء والمجتهدين .

فقد أفتى مالك بحق الزوجة فى الطلاق إذا لم ينفق عليها زوجها ، او إذا ظهر لها عيب فيه لم تكن تعرفه وقت العقد .. عيب أى عيب جسديا كان أم حقيقيا ..

وأفتى أن ديون الله ـ كالزكاة ونحوها وما يمكن أن نسميه بالضرائب فى أيامنا هذه لا تؤخذ من التركة إلا اذا اعترف المورث بها قبل وفاته .. وحتى إذا ثبتت هذه الديون بأى طريق آخر من طرق الإثبات ، فديون العباد مقدمة عليها .. لأن العباد «والأفراد» يضارون بعدم دفع ديونهم أكثر من الدولة .. أما عن ديون الله كالزكاة فالله غفور رحيم .

وأفتى بأن الحمل قد يستمر فى بطن أمه ثلاث سنوات . ولقد سخر منه بعض خصومه وزعموا أنه يشجع على الفساد نساء غير صالحات من المطلقات أو ممن يغيب أو يموت عنهن الأزواج .

وأفتى بأن من يبنى جدارا فى ملكه ليمنع الشمس والهواء عن جاره ، معتد آثم يجب هدم جداره ، وإن زعم أنه يقصد حماية أهل بيته من أعين الجيران .

وأفتى بعدم جواز صيام سته من شوال (وهى مانسميه بسته الأيام البيض) . ورفض الاعتراف بالحديث الخاص بهذا الصيام وأنكره ..

وصيام سته أيام من شوال ، يؤدى إلى زيادة رمضان .

وهذا الامتناع عن صيام سته من شوال هومايعمل به أهل المدينه .. سنة عن الرسول اخذوها آلاف عن آلاف أولى بالاتباع من حديث نقله آحاد عن آحاد

وأفتى مالك بوجوب وضع ضوابط لحق الرجل فى الطلاق وفى الزواج بأكثر من واحدة بحيث لا تضار الزوجة او الاولاد ، وبحيث تكون مصلحة الأسرة هى العلة والأساس والأجدر بالرعاية .

وأفتى مالك بأن الأعراف والعادات يجب احترامها فى استنباط الأحكام مالم تتعارض مع نص صريح قطعى الدلالة .

وأفتى بأن المحظور يجوز أن يقترف لأن فيه دفعا لمضرة أكبر..

إنه ليرى الشريعة مبنية على جلب المنافع والبعد عما يكون طريق إلى المفاسد .. فكل وسيلة من وسائل العمل يجب أن ينظر إلى نتائجها فإن كانت النتيجة مصلحة فالعمل مباح وإن كانت فسادا وجب منع هذا العمل .

ولقد ذاع فقه مالك فى كل الأمصار والأقطار، وكان فى هذا الفقه مايحمل له عناصر التجديد كالأخذ بمراعاة تحقيق المصلحة إن لم يوجد نص يبيح أو يمنع ، وهو نظر أخذه من فقه الإمام جعفر الصادق بإعماله العقل فى استنباط الحكم حيث لايكون نص ، وحكم العقل يقضى بالبحث عما يجلب المنفعة و يبعد الضرر. تحقيقا لمقاصد الشريعة .

وقد نما فقه مالك واتبعه وأغناه كثير من المفكرين والمجتهدين والفقهاء من بعده منهم فيلسوف الأندلس ابن رشد ..

غير أن بعض معاصرى مالك عارضوه معارضة عنيفة وخالفه ونقده بعض أصحابه منهم الليث بن سعد فقيه مصر، وتلميذه الشافعى ..

ولقد أرسل إليه صاحبه الليث بن سعد رسالة طويلة ذكره فيها بأن عمل المدينة لم يعد سنة بعد ولايمكن اتباعه بعد عصر الرسول والخلفاء الراشدين فالصحابه خرجوا من المدينه بعد مقتل عمر، وتفرقوا فى الأمصار، و بثوا فيها فقههم ..

لقد كان أوائل أهل المدينه فى زمن الرسول عليه السلام هم خير الأوائل أما أواخرهم فى زمن مالك ، فلم يعودوا كذلك بعد .. ولم ينس الإمام الليث بن سعد فقيه مصر أن يسأل صاحبه الإمام مالك بن أنس إن كان فى حاجة إلى مال !

ومهما يكن من أمر الخلاف بين مالك وتلاميذه ، فقد عاش مذهب الإمام مالك وتجدد حتى لقد أخذت قوانين الأحوال الشخصية فى مصر منذ مطلع هذا القرن الميلادى حتى القوانين الأخيرة ١٩٧٩ ميلادية من هذا المذهب .

على أن الذين خالفوا الإمام مالك بن أنس من صحبه وتلاميذه كانوا يحملون له كل الإجلال والتقدير والاحترام ..

قال عنه تلميذه الشافعى : إذ ذكر الحديث فالك هو النجم الثاقب .

أما صاحبه الليث بن سعد الذى صاحبه عمرا طويلا ، وراسله ، ووصله بالمال والهدايا ، واختلف معه آخر الأمر، فقد قال عنه أثناء الخلاف وعلى الرغم من الخلاف «مالك وعاء العلم .»

الليث بن سَعد

فقيه أهل مصر والنوبة

فى ليلة النصف من شعبان المكرم من العام الثالث والتسعين للهجرة(٩٣ هـ) . ولد الليث بن سعد فى قرية قلقشندة ، من أعمال مركز طوخ ، بمحافظة القليوبية على مقربة من عاصمة مصر.

والمصريون يعتبرون ليلة النصف من شعبان ليلة مباركة ، وإذن فقد تفاءل أهل الوليد بمقدمه فى تلك الليلة ، وتفاءل أهل القرية جميعا بهذا القادم الجديد ابن عميد الأسرة الغنية الذى كان يفيض بكرمه على كل من حوله .

ويشاء الله أن يتوفى الليث فى ذات الليلة المكرمة .. ليلة النصف من شعبان سنة مائة وخمس وسبعين للهجرة(١٧٥ هـ) بعد أن ملأ الدنيا من حوله ، بالخير، والعلم ، والمعرفة ، وآداب السلوك ، وأسباب المحبة ، على مدى اثنين وثمانين عاما .

وما بين سنة ٩٣ هـ وسنة ١٧٥ هـ ، عرفت مصر دولات وحكاما ، وابتليت ، بالطغاة من خلفاء وولاة ، وأنعم الله عليها فيما أنعم بخلافة عمر بن عبد العزيز، ابن حلوان من ضواحى الفسطاط ،

وهو الذى عرف بالعدل ، والحكمة ، وحسن سياسة الأمور، وتقوى الله ، حتى لقد كان يلقب بخامس الخلفاء الراشدين بعد أبى بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم .

ولقد شهد الليث منذ طفولته مظاهر الجور، وبطش الولاة ، حتى لقد استقر فى نفس الصبى كره للحكم والحكام .. ثم شهد وهو دون العاشرة عدل الخليفة الرشيد عمر بن عبد العزيز، وصور الرخاء التى عمت مصر، حتى لم يعد فيها من يستحق أن تصرف عليه الزكاة ،

فنهضت الحكومة بتكاليف زواج الشباب ، من مهور ومآدب واحتفالات ، لا تفرق فى ذلك بين المسلمين وغير المسلمين من أهل الكتاب .

وكانت قلقشندة ككل قرى دلتا النيل ، بلدا طيب الهواء ، خصب الأرض ، غنيا بالثمرات والخيرات ... تشتهر بجودة الفاكهة .

تفتحت عين الصبى منذ وعى الحياة على خضرة الأرض ، وانسياب النهر ، وروعة الحقول والبساتين ، والحدائق ، وامتلأت رئته الصغيرة بعبق الأزهار ، فنشأ يحب الجمال .

ولعله من أجل ذلك عندما شب وتعلم القرآن الكريم وحفظ الحديث ، روى أول ماروى من أحاديث : « إن الله جميل يحب الجمال » أكسبته مرائى الجمال فى قريته صفاء العقل والذوق والنفس ، وحبا للحياة والناس .

فما مد بصره قط وهو صغير إلا رأى انفساح الأرض أمامه بألوان الزرع والزهر ، حيث يستلقى الأفق على خضرة الحقول أو غابات الشجر والنخيل ، وما ألقى السمع قط إلا ليسمع همس الطبيعة وأصوات الماء والشجر ، وشدو الطيور عليها . كان يصحو ليستقبل النهار مع شعاع كل يوم جديد .. وما استنشق الا العبير ! لم يعرف ألم الحاجة طيلة حياته ، ولم يمسسه قرح من مطالب الدنيا ، وعاش ما عاش متمتعا بكل ما أحله الله من متاع فى هذه الأرض .

كان أبوه واسع الغنى ، يملك فى قلقشندة وما حولها ضيعة واسعة خصبة ، تنتج خير الثمرات من زرع وفاكهة .. لديه المال والبنون ، زينة الحياة الدنيا .

وكان الأب يدرك أن العلم هو خير ما يزين الرجل العاقل .. وقد نال الأب قسطا من التعليم ، ولكنه قرر أن يجعل ابنه زينة الحياة الدنيا بحق ، فوفر له كل ما يتاح من علوم ذلك الزمان .. !

وعائلة الليث مصرية تنحدر من المصريين القدماء .. وقد دخلت فى الإسلام وتعلمت اللغة العربية منذ الفتح الإسلامى .

وأخذ الأجداد أبناءهم وأحفادهم بالتفقه فى الإسلام ، و بإتقان لغة الدين الجديد الذى دخلوا فيه .. حتى لقد اشتهرت عائلات كثيرة منها عائلة الليث بحفظ القرآن والحديث والشعر والأخبار وفصاحة اللسان .

وكان العرب يطلقون على الذين أسلموا من أبناء البلاد المفتوحة اسم « الموالى » أما الذين لم يسلموا من أهل الكتاب فهم الذميون أو أهل الذمة ..

وعلى الرغم من أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد ترك صوتا عظيما يعظ و يعلم حسن السيرة بين الناس منذ قال لهم :« الناس سواسية كأسنان المشط ولا فرق بين عربى ولا أعجمى إلا بالتقوى » .

وعلى الرغم من وضوح هذه التعاليم ، فقد كانت العصبية القبلية تملى أحيانا على بعض الولاة إيثار المسلمين العرب الفاتحين على المسلمين من أهل البلاد المفتوحة .. أى الموالى .

وهو إيثار لا يرد فى توزيع الأموال أو رعاية الحقوق .. ولكنه يفلت عفو الخاطر فى التقدير الأدبى .

وما كان يمكن أن يرد هذا التمييز فى توزيع الثروات ، لأن عمر بن الخطاب أخذ بمشورة على بن أبى طالب فوزع الأرض فى البلاد المفتوحة على من يزرعونها ، وأخذ منهم نصيب الدولة .. وهكذا كان من بين الموالى أغنياء ، ومنهم أسرة الليث ..

وما كان يمكن أن يرد هذا التمييز فى الحقوق والواجبات ، لأن مثل هذا التمييز يخالف مبادئ الإسلام كما أوردتها نصوص القرآن والسنة . ولكنها مشاعر تفلت على نحو ما فى تقلب القلوب .

من أجل حرص بعض الموالى على أن يتفوقوا .. ولقد تفوقوا حقا .

ولكم ضاق خلفاء بنى أمية بتفوق الموالى على العرب حتى فى اللغة والفقة !

وكان على وبنوه يحسنون تقدير الموالى . وكان من أبرز هؤلاء الموالى الليث بن سعد الذى حفظ القرآن فى قريته ، وهو صبى ، وحفظ كل ما وصل إليه من أحاديث نبوية وكل ما عرفه العصر من تراث الشعر العربى وعلوم اللغة العربية وآثار الخلفاء .

حتى إذا كان فى مطلع الشباب وقد استوعب كل ما يمكن أن يصل إلى قريته من معرفة ، وجهه أبوه الى الفسطاط ليعلم علمها و يثقف نفسه بمعارفها ..

زوده أبوه بكل ما ينبغى أن يتزود به طالب علم يجب أن يتفرغ نهاره وليله للعلم ، ولا يشغله عنه شاغل من هموم الحياة والعيش !

وها هو ذا فتى فارع القامة مليح الوجه و تضىء الابتسامة فى سمرة محياه ، مطمئن النفس ، ناعم البال ، فى ثياب جميلة . يفوح منه العطر والطيب ، تغشى سكينته توترات الشوق إلى المعرفة ، نشيط الخطى ، مرح ، حسن الصوت ، مشتعل الأعماق ، متوقد الذهن ، يختلج على الرغم من الدعة بالرغبة الجانحة إلى اقتحام المجهول ، واستيعاب كل ما تخفيه الحياة والكلمات من الأسرار... ها هو ذا بكل

فتوته التى تثب به من الصبا إلى الشباب ، فتى من القرية يخوض ليل المدينة الكبيرة المضىء بالثقافة والمعرفة .

واتجه إلى جامع عمرو وهو أول مسجد جامع أنشأه المسلمون فى أفريقية ، وجامع عمرو منارة للعلم ، مازال يشع منها ما درسه فيه أبو ذر الغفارى وعبد الله بن عمرو ، وسائر الصحابة الذين جاءوا إلى مصر منذ الفتح الإسلامى ، وعلموا الناس أمور الدين وفقهوهم بالقرآن والسنة . ومازال يتردد فى جنبات هذا الجامع الكبير أسلوب مصرى لتلاوة القرآن يختلف عن أساليب التلاوة فى العواصم الإسلامية الأخرى .

وفى جامع عمرو حلقات كثيرة لدراسة القرآن وتفسيره ، ودراسة الأحاديث والسنة والفقه ، ترك فيها كل صحابى أثرا ..

وفى الجامع إلى جوار ذلك حلقات لدراسة علوم اللغة العربية .. وعلوم اللغة هى أدوات فهم القرآن والحديث ، وفى الفسطاط حلقات أخرى لدراسة كل ما كان فى مصر من معارف الأقدمين : من مصريين ويونان ورومان وفرس وهنود ، وكل معطيات الحضارات التى تزخر بها مصر ..

وبهذا تميزت عاصمة مصر عن سائر مدائن الأرض .

وأتيح للشاب المتطلع إلى المعرفة أن ينهل من الثقافات المختلفة كما لم يتح لفقيه آخر من معاصريه خارج مصر.

كانت اللغة القبطية لا تزال حية ، وإذ كانت تطورا للغة المصرية القديمة (الهيروغلوفيه) ، فقد نقلت كل الإعجاز المصرى القديم فى علوم الفلك والطب والرياضيات والطبيعيات والهندسة ونقلت تراث اليونان والرومان وغيرهم .. ولقد نقل بعض هذا التراث إلى اللغة العربية فأتيح لطلاب العلم أن يعرفوا ، وماظل من تلك المعارف فى اللغة القبطية كانت معرفته ميسرة للمثقفين المصريين من مسلمين وأقباط الذين أصبحت اللغة العربية لسانهم بحق ، ولكنهم ظلوا على معرفة باللغة المصرية التى كانت لغتهم قبل الفتح الإسلامى .

كانت اللغة العربية لم تنتشر فى مصر بعد ، فاللغة القبطية هى السائدة ، وكان الليث يتقن اللغتين . العربية لغة الإسلام ، والقبطية لغة آبائه الأولين ، وكان إلى هذا يتقن اليونانية واللاتينيه ، وهما من لغات الميراث الحضارى .

وقد أتاح التعرف إلى ميراث علوم الأسلاف ، واستيعاب معطيات الحضارة المطروحة على العقل المصرى .. أتاح هذا كله للشاب غنى فريدا فى الثقافة . !

حتى إذا أحس أنه قوى مكين ، عكف على كل الحلقات فى جامع عمرو يتلقى التفسير والحديث والفقة .

وكان الصحابة الذين جاءوا إلى مصر أحد رجلين : رجل يتمسك بالقرآن والسنة ، و يفتى الناس فى أمور دنياهم بما يجد في القرآن والسنة ، فإن لم يجد أثرا لايفتى على الإطلاق .. ورجل آخر كان يجتهد رأيه وهو يواجه أمورا جديدة فى بيئة جديدة وحالات لم يرد لها حكم فى القرآن أو السنة

وتلقى أتباع هؤلاء الصحابة عنهم .. وأخذوا هذا العلم بقوة .. فاشتد بعضهم فى التمسك بالنصوص ورفض الاجتهاد بالرأى . ! وغالى الآخرون فى الاعتماد على الرأى ، وافترضوا قضايا لم تحدث واستنبطوا لها أحكاما ، حتى لقد وقعوا فى شواذ الفتيا . !

والطالب الشاب يعكف على حلقات هؤلاء وهؤلاء ليتقن علوم القرآن والحديث ، و يعنى بأسرار اللغة عناية خاصة فائقة ، لأنه يدرك أنها هى الأداة لحسن نصوص القرآن والأحاديث

وفى الحق أنه فى بحثه الظامئ عن الحقيقة وأسرار المعرفة ، كان قد ضاق بخلافات شيوخ الحلقات . ورأى غلوا فى كلا الحزبين .. فالمتمسكون بالنصوص لايخرجون عنها .. متشددون تشددا قد يستحيل معه مواجهة الحالات المستحدثة التى لم يرد فى حكمها نص قطعى .. ! وأصحاب الرأى يتساهلون تساهلا قد يدعو إلى الخطأ فى الحكم ، أو إحداث الاضطراب فى الشريعة !

ورأى الطالب الشاب أن يستقل بالنظر فالمتشددون فى التمسك بالنصوص يعتمدون على الآية الكريمة :« ولو ردوه إلى الله والرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ..» ، هذا حق .

وأصحاب الرأى يقولون إن الرسول صلى الله عليه وسلم قد اجتهد رأيه فيما لم ينزل فيه قرآن .. وصحابته قد اجتهدوا فى حياته وأقرهم على اجتهادهم .. وهذا كله حق أيضا .. ! فما الغلو إذن فى الاقتصار على النص أو الاعتماد على الرأى .. ! ؟

على أن الليث ادرك أن النصوص ليست ظاهرا فحسب .. ليست كلمات .. بل هى روح .. لها دلالات وفحوى وعلل . وإذن فالذى يتقن اللغة العربية ، و يتقن معرفة أسرار بلاغتها

حرى بأن يفهم النصوصن ظاهرها وروحها .. ثم إن الأحاديث النبوية تفسر كثيرا من نصوص القرآن ..وفى السنة تفصيل لما أجمله القرآن .. وتبيان لما خفى منه عن المدارك ..

وفهم الأحاديث النبوية يقتضي أيضا حسن فهم أسرار اللغة العربية وروحها .. وليس كل عربى بقادر على إدراك معاني الأحاديث ، أوفهم ما أنزله الله بلسان عربى مبين . فهذا الأمر يستلزم إتقانا خاصا وتذوقا خاصا للغة .

من أجل ذلك عكف الليث ــ بعد أن حفظ القرآن والأحاديث ــ على حفظ الشعر العربى الذى قيل قبل نزول الوحى بالقرآن وخلال نزوله ، ليدرك أسرار اللغة جميعا .. ولقد كان يروقه أحيانا بعض أبيات من الغزل فيتغنى بها .. ولقد سمعه أحد شيوخه فقال له :

« هذا مباح ولكن لا تفعله فسيكون لك فى الفقه شأن » ولكنه عاش يتغنى بما يروق له من شعر. وكان جميل الصوت ..على أنه قرر وهو يحضر الحلقات فى جامع عمرو أن يتخذ له مذهبا وسطا بين أهل النصوص وأهل الرأى .

ومر عام وهو عاكف على درسه ، يحفظ و يتأمل و ينظر فى روح كل نص حفظه .. وقد ترك لحيته لتكبر، عسى أن يدارى بكبر اللحية صغر السن .. !

وأخذ يذيع مذهبه بين زملائه الطلاب فى مواجهة أساتذته من أصحاب الحديث وأصحاب الرأى .

وكان عجبا أن يهتدى شاب فى نحو السادسة عشرة من عمره إلى نظر مستقل بين أهل الحديث وأهل الرأى .. ! ولقد ناقش فى ذلك أحد شيوخ الحلقات من أهل الحديث فنهره !

وناظر غيره فنهروه جميعا ، وألزموه التمسك بالحديث والعدول عن الرأى فقال :« تعلموا الحلم قبل العلم ! وظل طوال حياته كلما جادل أهل الحديث يكرر عليهم هذا القول ..

وأعجب به زملاؤه الطلاب ، وبدأوا يلتفون حوله ، وشجعته حماستهم له ، وكلما زادوه تشجيعا ، زاد عكوفا على العلم والنظر فيه ..

وكان زملاؤه يلقون عليه المسائل ، فيظل يمعن النظر حتى يجد جوابا . وكانت إجاباته تبهرهم .. وما كا يعجل للإجابة بل يتريث لها .

وفى الحق أنه تألف قلوبهم بحسن أدبه ، وظرفه ، ودماثة خلقه ، وسعة علمه .. و بكرمه !

فإذا لاحظ فقر أحد زملائه وصله بالمال سرا ، ولقد يلاحظ بقع الحبر على ثوب زميل آخر فيهديه ثوبا جديدا .

وإن وجد فيهم من يبعد مسكنه عن جامع عمرو ويجهده السير إلى حلقات الدرس أهداه دابة .. ولكي لا يحرج المحتاج من زملائه كان يزعم لهم أنه يقدم للواحد منهم قرضا حسنا يرده عندما يكبر و يتكسب !

وأغراه زملاؤه بأن يتخذ لنفسه حلقة ولكنه تهيب أن يجلس مجلس الأستاذ . ولقد علم أحد أشياخه أن الناس يستفتونه ، فيفتي ، و يرضون عن فتياه .. فناداه الشيخ وشجعه على الإفتاء .

ولكن الليث استحى لأنه صغير السن ، ثم لأنه من الموالى ، وهذا الأمر يجب أن يكون للعرب !

وإذ ذاك قال له الشيخ أما سمعت عما كان بين الخليفة هشام بن عبد الملك و بين الفقيه شهاب الزهري ؟ فقال الليث« لا »

فقال الشيخ إن الخليفة سأل الزهرى وهو أفقه أهل هذا العصر ، عن العلماء الذين يسودون أهل الحجاز وأهل اليمن وأهل الشام وأهل مصر وأهل خراسان

فذكر له الزهرى أسماءهم .والخليفة يسأل عن كل واحد من العرب هو أم من الموالى . فيقول الزهرى من الموالى فقال الخليفة مغضبا :« والله لتسودن الموالى على العرب حتى يخطب لها على المنابر والعرب تحتها . »

فقال شهاب الزهرى : إنما هو أمر الله ودينه فمن حفظه ساد ومن ضيعه سقط ! هذا هو رأى الزهرى وليس له فى العلماء نظير

ولكن الليث لم يجلس للإفتاء ، وصمم على ألا يجلس حتى يبلغ من السن مبلغا يؤهله لذلك ، وحتى يصل من العلم ، واستقلال النظر إلى ما يقنع به فقهاء العرب والموالى على السواء .. إنه لم يتعلم من أئمة العصر خارج مصر بعد .. ولكم يعنّيه الشوق إلى معرفة ما عندهم .. ولقد أغراه ما سمعه من أستاذه عن الزهرى بالسفر إليه ليتعلم منه ولكنه فوجىء بموت أبيه . عليه الآن أن ينهض بأمور الأسرة بعد أبيه .وأن يدير أمور ثروته الواسعة ..

وعاد إلى قريته فإذا بالوالى قد أمر بهدم بيت الأسرة ! فأعاد الليث بناء البيت ، فهدم الوالى الدار مرة أخرى .و بناها الليث فهدمها الوالى مرة ثالثة .. !

وبات الشاب مهموما .. أنه ليحمل على منكبيه أعباء الأسرة، وادارة الضيعة التي ورثها . وهموم العلم والمذهب الجديد الذى يريد أن يصوغه محكما وسطا بين أهل الرأى وأهل الحديث .. كل هذا ، واضطهاد الوالي أيضا .. !! ولكن لماذا يضطهده الوالى العربى إلى هذا الحد ؟ ! لأنه خرج عن طاعة بعض الشيوخ من أهل السنة ممن ينحاز لهم الوالى ؟ .. أم لأن الوالى كان عدوا لأبيه ، ولم يستطع أن ينال من الأب فى حياته ؟

أم لأن الليث أحد الموالى الذين يوشكون أن يظهروا ويغلبوا بعلمهم فقهاء العرب ؟ !

أم لأن الليث يميل إلى على بن أبى طالب .. والوالى يصانع الخليفة عدو على ؟ ! ولكن مصر كلها تميل إلى على بن أبى طالب كرم الله وجهه ..

إن هذا السلوك مهما يكن سببه يجافى روح الإسلام .. إن هذا الوالى ليس من الله فى شيء . فما الحيلة معه ؟ ! ..

ثلاث ليال متتاليات .. كلما أصلح الليث بناء داره أرسل الخليفة فى الليل من يهدمها ! إن الوالى ليستضعف الليث حقا ! وثقلت عليه الهموم ، فجاءه فى المنام من يقول له :« قم ياليث فاقرأ قوله تعالى :(ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين) .

فأصبح الليث وقد أصيب الوالى بالفلج ، فأوصى كل من حوله بألايظلموا الليث ، وأن يحسنوا صحبته .. ومات الوالى بعد أيام قلائل ..

وتسامع الناس القصة ، وامتلأت بها أروقة جامع عمرو ، وانتشرت فى الأسواق ، وقال بعض زملائه الطلاب وبعض شيوخه الذين غاضبوه من قبل :« لقد دافع الله عن الليث ..إن الله يدافع عن الذين آمنوا ..»

وفى الحق أنه كان دمث الخلق ، حسن السيرة بين الناس ، وكان طيب المعشر، كريما سخيا .. وكان سريا .. !

ولقد رآه أحد شيوخه يتضاحك مع زملائه الطلاب فى خفة ، ويطلق قهقهة عالية فى رحاب المسجد بعد الدرس ، ويضرب الأرض بقدمه .. وكان هذا الشيخ متزمتا ، قد غاضب الليث من قبل ، لأنه يحاول ابتداع مذهب موفق بين الرأى والسنة ، فتقدم الشيخ إلى الليث متوددا ، وقال له ناصحا فى رفق :« يا بنى لا تفعل هذا فإنك إمام منظور إليك . »

وبعد ثلاثة أعوام خرج الليث إلى الحج والعمرة ، وكان فى العشرين من عمره ، وزار المدينة بعد

الحج .. وكان الفقهاء من كل الأمصار والأقطار يجتمعون فى الحج ثم فى الحرم النبوى فيتبادلون الرأى ..

وهناك بحث الليث عن شهاب الزهرى ليجلس إليه .. والتقى به ، وتلقى منه ، وناظره ، وطرح الليث عليه ما انتهى إليه من نظر. ووجد الليث فى الزهرى من عمق الفكر وسعة العلم ودقة الفهم مالم يجد فى أحد قط ، فأكبره إكبارا شديدا حتى يمسك له بالركاب .. وكانت فى الليث ما فى العلماء من عزة نفس ، فلم يصدق أصحاب الليث أنه يمسك لأحد بالركاب .. وسأله صديق مستنكرا أتمسك بركاب الزهرى فقال الليث :« نعم للعلم . فأما لغير ذلك فلا .. والله ما فعلته بأحد قط .. »

وفى الحجاز التقى بعدد من فقهاء العصر من أهل السنة وأهل الرأى على السواء ، وجلس إليهم وفى حلقة ربيعة الرأى تعرف بمالك بن أنس ، وهو فى مثل سنه ، وتبادلا الرأى بعد الحلقة

وكان مالك فى ذلك الوقت طالب علم فى نحو العشرين ، يكابد فى سبيل طلب العلم .. وأدرك الليث أن صاحبه يعانى الفقر، فأخذ يحتال ليصله بالمال ، ولكنه لم يكن يعرف كيف يبدأ

على أنهما تلازما فى حلقة ربيعة ، وتلازما بعد الحلقة يتدارسان ، و يتبادلان الرأى فيما حصلاه ، وألف كل منهما صاحبه ، ونشأت بينهما مودة ، فأرسل مالك طبقا فيه رطب إلى الليث ، فقبل الليث الهدية شاكرا ، ورد الطبق مملوءا بالدنانير.

وعاد الليث إلى مصر، واتصلت الرسائل بينه وبين مالك ودعاه لزيارة مصر ولكن مالك ابن أنس لم يستطع . وتعود الليث أن يزوره فى المدينة كلما ذهب للحج أو العمرة وزيارة الحرم النبوى .

وقد ظل الليث يصل مالك بن أنس بمائة دينار كل عام ، وكتب مالك إليه ان عليه دينار، فأرسل إليه الليث خمسمائة دينار.. والدينار فى ذلك الزمان كان يكفى لكسوة رجل أو لشراء دابة ... ولم ينقطع عطاء الليث لمالك حتى أصاب مالك عطاء الخلفاء وأصبح ثريا .. ومع ذلك فقد واظب الليث عن سؤال مالك عن حاجته حتى فى الرسائل التى تضمنت خلافاتهما الفقهية .

على أن الليث فى رحلاته العلمية لم يستفد علما جديدا فحسب بل أفاد أيضا ، ولفت إليه الأنظار.

سأله أحد شيوخ الزمان بعد مناظرة طويلة :« كم عمرك ؟ » فقال الليث :« عشرون » فقال الشيخ ، ولكنك تحمل علم ابن الستين ولحية ابن الأربعين !

وكان الليث كلما سمع عن فقيه فى أى بلد ، شد إليه الرحال .. حتى عندما تقدمت به السن ، فقد سافر بعد الستين إلى العراق ينشد العلم عند فقيه أ صغر منه سنا ..وسمع عن فقيهاآخر نزل بالإسكندرية فركب النيل إليه ولكنه وجده قد مات ، فبكى !

حّصل الليث إذن علمه من كل فقهاء عصره لم يأل فى ذلك جهدا ، ولم يقعده طول السفر..

وكان ربما استأثر بأحد هؤلاء الفقهاءسمع عن نافع مولى عبد الله بن عمر فاحتال حتى لقيه بالحجاز.. وكانت فى نافع حدة ، ولكنه استراح إلى الليث ، ولزمه الليث لايبرحه طيلة إقامته بالحجاز، يحفظ عنه الأحاديث وفتاوى الصحابه ، ويحاوره فى الفقه .

وقد لقيه فى دكان علاف فتحاورا برهة ، حتى مر بها ابن لهيعة وهومصرى من أصحاب الليث ــ صارفيا بعد قاضيا لمصرــ فسأل عن نافع :« من هذا ؟ » فهمس الليث :« هو مولى لنا »

حتى إذا عاد إلى مصر، جعل الليث يحدث عن نافع ، فسأل ابن لهيعة منكرا« وأين لقيته ؟ »

فقال الليث ضاحكا :« أما رأيت العبد الذى كان فى دكان العلاف ؟ هو ذاك »

وغضب معه ابن لهيعة ، لأنه أخفى عنه نافعا مولى عبد الله بن عمر

ولكن الليث لم يطق خصامه ، فنقل إليه ما حفظه عن نافع ، وما داربينهما من حوارفى كل أمور الفقه .. ثم إن ابن لهيعة ولى قضاء مصر براتب قدره ثلا ثون دينارا فى الشهر وهو أكبر راتب بعد راتب الوالى . واحترقت دار ابن لهيعة وكتبه فعوضه عنها الليث بن سعد بألف دينار!

وعندما عاد الليث إلى مصر بعد أول رحلة للحج ، بنى دارا كبيرة فى الفسطاط لها نحوعشرين بابا .. ! وجعل فيها حديقة ملأها بالأشجار والزهر والريحان ، وكانت الريح تحمل عطرها إلى ما حولها .. وملأ داره بما استطاع الوصول إليه من كتب .. وفتحها لأصحاب الحاجات ولأصدقائه .. كان يدعو أصدقاءه إلى الطعام و يضع الدنانيرفى الفالوذج ، فن أكل منهم أكثرنال دنانير أكثر.. !

كان يقوم الليل إلا قليلا ، حتى إذا أقبل الفجر، خرج على فرسه إلى جامع عمرو يحضر الحلقات ، ويحفظ و يدرس ، و يتحرى أحوال أصدقائه من له حاجة ، و يفتى الناس من غيرأن يجلس فى المفتى أو الأستاذ .. فقد كان ولايزال يتهيب هذا المقعد ، على الرغم أنه جمع من العلم ما يؤهله له .

و بعد العصر كان يرتدى أجمل ثيابه و يتعطر، ويمشى فى الحدائق والأسواق ، أوعلى شط النيل .. !

وسمع مالك بما يصنعه الليث : تمتعه بأطيب الطعام ، وتزينه بأبهى الثياب ، وخروجه للنزهة فى الحدائق والأسواق ، فكتب مالك إليه معاتبا :« بلغنى أنك تأكل الرقاق وتلبس الرقاق(أى الثياب الرقيقة الفاخرة) وتمشى فى الأسواق » .

فكتب إليه الليث :« قال الله تعالى : قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون »

وعلى الرغم من نقد مالك ، قد ظل الليث يأكل الرقاق وما يستطيب من طعام ، و يلبس الرقاق وأبهى الثياب ، ويمشى فى الأسواق ، و يتنزه فى الحدائق على شاطىء النيل ، و يقتنى أفخر الدواب من حمير مصر و بغالها وأفراس بلاد العرب ، ويهدى منها أصدقاءه ولقد أهدى مالك بن أنس عددا منها ، وكان يحتفى بسروجها و برادعها و يوشى اللجام كما تعود أن يهديه كل عام من أجود كتان مصر ما يكفيه طوال العام .

وكان عند الليث ثياب بعدد أيام السنة ، فما يلبس الثوب يومين متتالين .. ولعل مالك بن أنس اقتنع برد الليث فشرع هو الآخر يعنى بملبسه ومأكله .

على أن الليث لم يستمتع وحده بطيبات الحياة .. فقد كان يوزع على أهل العلم ،وأصحابه ، وجيرانه ، ومن يعرف أنه صاحب حاجة .. كان يوزع المال ويهدى الطعام والثياب والدواب .. وما أكل وحده قط

وكان يطعم فى كل يوم ثلثمائة من الفقراء والمساكين ، غير الصحاب وأهل العلم يطعمهم من أطيب ما يطعم هو الرقاق ، واللحوم ، وحلوى(هريسة) بعسل النحل وسمن البقر، واللوز بالسكر..

وعاش عمره يعطى السائل أكثر مما يسأل .

طلبت منه امرأة رطلا من عسل لتعالج ابنها ، فى وقت شح فيه العسل ، فأمر كاتبه أن يعطيها مرطا من عسل(والمرط نحو مائة وعشرين رطلا) ، فقال كاتبه :« سألتك رطلا أتعطيها مرطا ؟ » فقال الليث :« سألتنا على قدرها ونحن نعطيها على قدرنا » ..

كانت له ضيعة بالفرما(قرب بورسعيد) يأتيه خراجها ، فلا يدخله داره ، بل يجلس أمام أحد أبوابها العشرين وقد جعل المال فى صرر يوزعها جميعا صرة بعد صرة وكان لايتصدق بأقل

من خمسين دينارا .. ذلك أنه كان يحسن استثمار أرضه الواسعة الخصبة حتى لقد كانت تدر عليه نحو عشرين ألف دينار كل عام ..

وعلى الرغم من هذا الثراء الضخم فما وجبت عليه زكاة قط .. فما حال الحول عليه وعنده دينار واحد .. اذ كان ينفق كل دخله : يحيا حياة مترفة بما أحل الله له ، و يقتنى أغلى الكتب وأندرها ، مهما يكلفه الحصول عليها

وكان عقله موسوعة من المعارف من علوم الشريعة والأدب واللغة والفلسفة والطبيعيات والرياضيات .. وحتى الطب !

وكان يعنى بصحته أبلغ عناية حتى ليبدو أصغر من سنه بأعوام .. ذلك أنه كان يكد ، و يتبع سنة الرسول عليه الصلاة والسلام فى العناية بالصحة ، فيعطى بدنه حقه من الراحة .. وإن لبدنك عليك حقا و يعطى قلبه حظه من المرح ، فإن القلوب لتصدأ ومن الواجب الترويح عنها ، ويمنح عقله ونفسه ما يحتاجان إليه من سكينة وهدوء . وقد هداه علمه بالطب إلى وجوب الرضا بقضاء الله وتجنب الانفعالات فهى التى تتلف الصحة ..

كان يحب أن يعيش سعيدا ، ويحب أن يسعد الذين يعيشون من حوله . من أجل ذلك ينفق على الآخرين ليسعدهم .. و يرى أن صاحب المال مستخلف فيه لينفقه فيما يرضى الله ورسوله وفيما يسعد الناس .

كان شعاره« أحسن كما أحسن الله إليك ولا تنس نصيبك من الدينا » ويحسن فهمه لهذه الآية الكريمة تمتع بالحلال من الطيبات ، وأمتع الآخرين .

من أجل ذلك نادى الليث بأنه ليس من حق أحد أن يحتفظ بمال إلا إذا بلغ الناس حد الكفاية والحكام وولاة الأمور مسئولون أمام الله عن أن يوفرو للناس جميعا حد الكفاية لاحد الكفاف ..

وحد الكفاف هو ما يحفظ للناس حياتهم من الطعام والشراب ، أما حد الكفاية فهو ما يكفى كل حاجات الناس من جودة الطعام والشراب ، والمسكن الصالح المريح ، والدواب التى تحملهم ، والعلم الذى ينقذهم من الضلال ، وسداد ديونهم .. وكل ما يوفر الحياة المريحة الكريمة للإنسان !

وقد استنبط الليث هذه الأحكام من فهم عميق لنصوص القرآن الكريم والسنة ، ومن إعماله الفكر واجتهاده بالرأى ..

أنكره خلفاء بنى أمية ، وضاقوا بآرائه وكانوا ينحازون للعرب ضد الموالى ، على الرغم من أن

الخليفة العربى الأموى عمر بن عبد العزيز كان يقوم الناس على أساس علمهم ، حتى لقد نهر الذين ينكرون على الموالى حق الفتيا قائلا : ما ذنبى إن كانت الموالى تسمو بأنفسها صعدا وأنتم لا تسمون » .

واذ دالت دولة بنى أمية وجاءت دولة بنى العباس ، ظهرت أحاديث نبوية كثيرة كان الناس يتداولونها سرا

وهكذا أذاع العباسيون حديثا للرسول عليه الصلاة والسلام يقول فيه للعرب : « **لايجيئنى الناس بالأعمال وتجيئوننى بالأنساب » إن أكرمكم عند الله أتقاكم .**

ونشر فقهاء الموالى على الناس فضائل بلال الحبشى ، وسلمان الفارسى ، وصهيب الرومى . وكلهم له سابقه .. فى الإسلام .. حتى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يقول بلال سيدنا

وأذاعوا ما كان من الإمام على كرم الله وجهه من تكريم للموالى ، وتقويمه للناس بقدر علمهم وصلاحهم وتقواهم ، لذلك أحبه الموالى وشايعه أغلبهم .. ولعله من أجل تسوية الإمام على بين العرب والموالى ، وجعله العلم والتقوى والصلاح أساس المفاضلة ، لعله من أجل ذلك ، كره بنو أمية الموالى — إلا عمر بن عبد العزيز — كراهية منهم لأشياع الإمام على ، وانحيازا منهم للعرب ، حتى لقد صرخ أحد خلفائهم ! ! أكل علماء الأمصار من الموالى ؟ ! تكاد نفسى تخرج ولا أسمع عن فقيه واحد عربى ! وهكذا شعر الموالى عندما جاء العباسيون ، أن زمن التفرقة قد ولى إلى غير رجعة . احتفى بنو العباس بالموالى و بالغوا فى الاحتفاء بهم ..

واذن فقد جاء الوقت الذى يستطيع فيه الليث بن سعد أن يجلس فى جامع عمرو، ليعلم الناس ، وليفتى لهم فى أمور الدين ، والحياة

وكان قد أخذ مكانته بين فقهاء عصره على الرغم من شبابه .. فما كان قد بلغ الثلاثين ، عندما جلس يعلم و يفتى

وكان فقهاء عصره من جميع الأمصار، قد التقوا به ، معلمين ومناظرين ، فى رحلاته المتكررة إلى الحجاز حاجا ومعتمرا ، وزائرا للحرم النبوى ، وطالب علم فى الوقت نفسه .. مناظرا يرعى آداب المناظرة ، ويخلب المستمعين بفصاحة اللسان ، ونصاعة البيان ، وعمق الإدارك ، وحسن الخطاب ، مع توقد الذهن ، وسرعة البديهة ، وذكاء الاستنباط .. حتى لقد كان ربيعة الرأى أستاذه لايحسب حساب أحد من الفقهاء أو التلاميذ إلا الليث بن سعد .. ذلك الوجيه المصرى !

ولقد سمع به الخليفة العباسي المنصور، فاستدعاه ليقابله فى بيت المقدس وكان للمنصور ولع بالعلم والأدب ، وناظره المنصور، فأعجب به .. وعرض أن يوليه مصر ولكن الليث يريد أن يحيا حياته بعيدا عن هموم المسئولية السياسية ، متفرغا للعلم !

خجل أن يصرح بعذره للخليفة ، وتعلل بأنه لايصلح لهذا قائلا :« يا أمير المؤمنين . إنى أضعف من ذلك إنى رجل من الموالى » فقال المنصور:«ما بك من ضعف معى ، ولكن ضعفت نيتك فى العمل عن ذلك لى .. لقد أعجبتنى .. أكثر الله فى الرعية من أمثالك . »

وأجزل له المنصور العطاء ، فوزع الليث كل ما أخذه على المحتاجين قبل أن يبرح ..

وعاد إلى مصر فى موكب فخيم يصحبه ثناء المنصور عليه .

ولقد نصح المنصور لأهل العلم فى العراق وسائر الأمصار أن يذهبوا إلى الفسطاط ، فيتلقوا عن هذا الفقيه المصرى الشاب الذى لم يلق المنصور أفقه منه بالشريعة ، ولا أحفظ منه للحديث ، ولا أحد منه بصيرة أو أذكى جنانا أو أفصح لسانا ، ولاأعدل أو أعف ، أو أوسع علما بمعارف الأوائل وحكمتهم ، ولا قدرة على الاستنباط ،ولاأسلم منه رأيا .. ! ثم إن المنصور أرسل إلى والى مصر وقاضيها أن يستشيروا الليث بن سعد فى كل أمورهما .

وكبر على بعض الفقهاء العرب أن يضع المنصور احد الموالى فى هذه المكانة فوق الوالى العربى والقاضى العربى ، فأخذوا يكيدون لليث بن سعد حسدا من عند أنفسهم وأرسل أحدهم إلى الخليفة المنصور:أمير المؤمنين تلاف مصر! فإن أميرها ليث بن سعد ! !

عسى أن يتوهم الخليفة أن الليث بن سعد يستغل رضا الخليفة عنه ، ليتعالى على الوالى والقاضى ، فأصدر الخليفة أمرا وأعلنه على الملأ أن الليث بن سعد هو أعلم رجال عصره بالشريعة واللغة والشعر، وهو أكثرهم تحريا للعدل وتوقيا للشبهات تحرجا وعفة .. وهو من أجل ذلك ينصبه كبيرا للديار المصرية ورئيسها ، بحيث لايقضى فى مصر شىء إلا بمشورته ، ويصبح الوالى والقاضى تحت أمر مشورته ..

ثم إن الخليفة زجر هؤلاء العرب المتعصبين لعروبتهم ، المنكرين على الموالى حسن بلائهم وارتفاع مكانتهم ، واستشهد فى زجرهم بقول رسول صلى الله عليه وسلم : ياأيها الناس إن الله قد أذهب عنكم حمية الجاهلية ، وتعاظمها بآبائها . فالناس رجلان : بر تقى ، كريم على الله ،فاسق شقى ، هين على الله ، والناس كلهم بنو آدم .

هكذا أعلن الخليفة تأييده للموالى ، ودعم الليث بن سعد دعما حاسما

ولكن الليث أحسن استخدام هذه الثقة لإفادة الرعية .. فما كان يفرض رأيه على الوالى أو القاضى مهما يختلف معهما ، ولكنه إن وجد فى أوامر الوالى أوقضاء القاضى ما يظلم أحد ا كتب إلى الخليفة فيأخذ برأى الليث .

وكان أشد ما يسوء الليث بن سعد من ولاة الأمر أن يقبل أحدهم هدية ، وكان يجهر فى مجالسه أنه إذا دخلت الهدية من الباب ، خرجت العدالة من النافذة .. !

وكان ينصح كل صاحب منصب ألا يقبل هدية من أحد من الرعية ، وإن لم يكن للمهدىْ حاجة ، فإذا قبل صاحب المنصب النصيحة ورفض الهدية شكره ، أما إذا أبى ، كتب للخليفة فعزله

وقد عاتب أحد المعزولين الليث بن سعد فقال : « نصحتك فلم تنتصح ، ومصلحة الرعية أولى وما صبرى على ظلم الرعية ؟ » وكان المعزول لايملك إلا راتبه ، فأجرى عليه الليث راتبه من ماله الخاص !

وتمضى الحياة بالليث وهو يهب كل وقته للدرس والعلم والفتيا ومواساة الناس .

تعلم من أحد شيوخه ألا يغشى مجالس الولاة ، فكان إذا استدعاه أحد الولاة ليسأله عن شىء من العلم رد عليه الليث بقول شيخه : « أئتنى أنت ، فإن مجيئك إلى زين لك ومجيئى إليك شين على »

وهكذا كان أولو الأمر يذهبون هم إليه .

وقد أحسن تقسيم وقته بين مشاغله العديدة .. وقسم إلى أربعة مجالس يجلس فيها ، فالمجلس الأول للوالى والقاضى وأولياء الأمور يسألونه المشورة أو يسمعون رأيه فى سيرتهم وأحكامهم . فإذا انتهى هذا المجلس عقد مجلسه الثانى لأهل الحديث ، يسمع منهم ، و يشرح للمستمعين ما يحفظ من أحاديث و يقول : « نحّوا أصحاب الحوانيت ، فإن قلوبهم معلقة بأسواقهم » .

وفى الحق أنه كان حريصا على أن يكون مجلس الحديث لأهل الحديث وحدهم ، فيتذاكر معهم أسانيد الأحاديث وصحتها ومعانيها وروحها وفحواها ، فما كان لغيرهم مكان !

فإذا فرغ من هذا المجلس ، عقد مجلسا للناس كافة ، يسميه مجلس المسائل ، وهو مجلس للفتيا .. يسأله الناس فيما يعرض لهم من أمور الحياة ، فيجيب مستوحيا القرآن فى فتاواه ، فإن لم يجد لجأ إلى السنة ، فإن لم يجد الاجابة فى النصوص ، التمس الجواب فى إجماع الصحابة — وكان من رأيه أن إجماع

الصحابة نادرا ، فإن لم يجد ، اجتهد رأيه ، ولجأ إلى القياس وإلى العادات والعرف مالم تخالف نصا

أما مجلسه الرابع فكان فى داره ، وهو مخصص لحاجات الناس .. وهذا المجلس كان يستهلك إيراده السنوى الكبير.

أما استثمار أرضه ، فقد كان له وكيل هو كاتبه يقوم عنه بأمر الأرض

لقد صح رأى الليث عندما اعتذر عن ولاية مصر ليتفرغ للعلم .. فقد استقام له الآن فقه خاص ، استقل فيه عن فقه ربيعة الرأى ، أستاذه وخالف به فقه أكبر عالمين فى عصره وهما أبو حنيفة النعمان ومالك بن أنس صديقه .

وقد التقى الليث بأبى حنيفة فى مجلس مالك بن أنس فى المدينة .. ودخل الليث على مالك ذات ليلة من الشتاء فوجده يمسح عرقه وقد انصرف من عنده أبوحنيفة فسأله عن سبب هذا العرق والبرد شديد فقال مالك « **عرقت مع أبى حنيفة ، إنه لفقيه يامصرى** » وكان مالك لايحب الجدل وأبو حنيفة مولع به . وسأل الليث أبا حنيفة عن رأيه فى مالك فأثنى عليه أطيب ثناء .

على أن الليث كان ينكر على أبى حنيفة توسعه فى الأخذ بالرأى ولجوءه إلى الحيل لاستنباط الحكم ،و إن كان معجبا بذكاء أبى حنيفة ، وسرعة بديهته .. ولقد سمع به قبل أن يلقاه ، وتمنى أن يراه .. ورآه لأول مرة فى المسجد الحرام ، قبل أن يلتقى به عند مالك فى المدينة .. رأى حلقة عليها الناس ، فإذا هى حلقة أبى حنيفة ، فجلس يستمع إليه فأقبل رجل فقال : يا أبا حنيفة إنى رجل من أهل خراسان كثير المال ، وإن لى أبنا ليس بالمحمود وليس لى ولد غيره إن زوجته طلق وإن سريته أعتق »

(وسريته أى وهبته جارية تعيش معه كالزوجة) وقد عجزت عن هذا فهل من حيلة ؟« فأسرع أبو حنيفة مجيبا . اشتر لنفسك الجارية التى يرضاها هو، ثم زوجها منه ، فإن طلق رجعت مملوكتك إليك ، وإن أعتق أعتق مالا يملك » .

ويقول الليث عن جواب أبى حنيفة: فوالله ما أعجبنى قوله بأكثر مما أعجبنى سرعة جوابه ..

لقد رأى الليث أن أبا حنيفة ما كان ينبغى أن يجيب بمثل تلك السرعة ، ولا أن يلجأ لمثل تلك الحيلة ! !

اختلف الليث مع أبى حنيفة فى كثير من الآراء ، وأشهر خلاف بينهما هو الرأى فى

الوقف .. فقد كان أبو حنيفة لا يجيز الوقف .. لأنه يرى فى حبس المال قيدا وضررا ..

وبهذا الرأى أخذ أحد قضاة مصر، فنبهه الليث إلى خطأ هذا الرأى، وإلى مخالفته للسنة .. ولكن القاضى ظل يحكم بإبطال الوقف .. فجاءه الليث فى مجلس القضاء، فرفع القاضى المجلس، فقال الليث: إنما جئت إليك مخاصما، فقال له القاضى: «فى ماذا» قال الليث «فى أحباس المسلمين (أى أوقافهم) لقد حبس (أى وقف) رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان وعلى فمن بقى بعد هؤلاء؟

ولم يقتنع القاضى، فكتب الليث إلى الخليفة بشأنه: والله إنا لم ننكر عليه شيئا، غير أنه أحدث أحكاما لا نعرفها!

فأمر الخليفة بعزل القاضى، فجاء القاضى إلى الليث فى مجلسه، وأخبره بأمر العزل وأضاف: « والله لو أمرتنى بالخروج لخرجت»

فقال له الليث بصوت يسمعه الجميع: والله إنك لعفيف عن أموال الناس، ولكنك تخالف الرسول صلى الله عليه وسلم فما تصلح للقضاء.

وهكذا عاش الليث يصحح ما يراه خطأ من أحكام القضاء، أو أوامر الحكام، أو ما استقر فى عقول الناس ..

رأى الناس فى مصر ينتقصون عثمان بن عفان رضى الله عنه ــ ومن مصر انفجرت الثورة على عثمان ــ فنهى الناس عن ذلك، وأوضح لهم فضائل عثمان بقيادة ابن أبى بكر وحسن بلائه فى الإسلام ومنزلته عند رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم إن أحد ولاة مصر هدم الكنائس.

فكتب إلى الخليفة طالبا عزل الوالى لأنه مبتدع، مخالف لروح الإسلام. فعزله الخليفة بجريمته، وأشار على الوالى الجديد أن يعيد بناء ما هدم من الكنائس، وأن يبنى كنائس جديدة كلما طلب ذلك المسيحيون فى مصر، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «استوصوا بالقبط خيرا» ولأن أكثر الكنائس التى كانت قائمة بمصر إنما بناها الصحابة، ممن قادوا جيش الفتح الإسلامى.

وإجماع مثل هذا العدد من الصحابة هو فى قوة السنة، فما كانوا ليجمعوا على أمر إلا لأنهم تعلموه من الرسول.

إن عمر بن الخطاب أبى أن يصلى فى الكنيسة ببيت المقدس كيلا يصنعها مسلم بعده، ولكى تظل للكنائس حرية العبادة فيها، واستقلالها.

ثم إن عمر بن الخطاب عاهد المسيحيين فى بيت المقدس على حماية أنفسهم وأموالهم وعقيدتهم وكنائسهم وأوقاف هذه الكنائس وأموالها، وأقر الصحابة بالإجماع. فهذا الصنيع حجة على المسلمين إلى آخر الزمان.

ومن قبل عمر، حذر الرسول صلى الله عليه وسلم من إيذاء أهل، الذمة. وهم أصحاب البلاد المفتوحة من أهل الكتاب الذين لم يدخلوا الإسلام بل احتفظوا بدينهم. فهم فى ذمة الله ورسوله.

وفى الحديث الشريف: «من آذى ذميا حد (عوقب) يوم القيامة بسياط من نار» وفى حديث شريف آخر: « من آذى ذميا فأنا خصمه »

وبهذا وجه عمر إلى عمرو بن العاص فاتح مصر: « إحذر أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم خصمك »

كما احتج الإمام الليث على من هدم الكنائس بقوله تعالى « ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها » ثم وعيده تعالى « لهم فى الدنيا خزى وفى الآخرة عذاب عظيم » والآية نزلت فى الروم الذين فتحوا بيت المقدس، فمنعوا الصلوات وأحرقوا الكنيسة، فلم يوجد نصرانى إلا أنهك ضربا!

بهذا الفكر المستنير انطلق الإمام الليث يعظ المسلمين، و يوثق العلاقات بين مواطنيه فى مصر من مسلمين وأقباط، ليكونوا رحماء بينهم، وكانت له هو نفسه مودات وصداقات مع الأقباط .. وعرف الأقباط صدق الأخوة من المسلمين بحسن إسلامهم.

على أن هذا كله أغضب المتعصبين من الفقهاء وصغار الحكام، وهم قلة حقا ولكنهم كانوا فى بعض مواقع التأثير.. وما كانوا لينالوا من الإمام وهو حى يملأ الحياة من حوله بالمحبة والخير ونور العلم، فانتظروا حتى إذا مات وثبوا على ذكراه، وثاروا على فقهه، وحاولوا أن يطمسوا كل آثاره، وأن يهيلوا التراب على آرائه وأفكاره .. !!

أصبح الليث بحق سيد الفقهاء، اشتهر بحسن الرأى، ونفاذ البصيرة، و بتفسير القرآن بروح النصوص، دون الوقوف عند الظاهر.. حتى لقد ألمت بالرشيد نائبة .. لم يجد له أحد من فقهاء العصر مخرجا منها إلا الليث ..

روى لؤلؤ خادم الرشيد قال : جرى كلام بين الرشيد وزوجته زبيدة وهي بنت عمه .. فقال الرشيد لها أنت طالق إن لم أدخل الجنة ثم ندم فجمع الفقهاء فاختلفوا .. ثم أرسل إلى البلدان فاستحضروا علماءها إليه .. فلما اجتمعوا جلس لهم فسألهم ، فاختلفوا و بقى شيخ لم يتكلم ، وكان فى آخر المجلس ، وهو الليث بن سعد .. فسأله فقال : إذا أخلى أمير المؤمنين مجلسه كلمته .

فصرفهم ، ثم طلب الليث من الرشيد أن يحضر مصحفا ،فأحضر المصحف .وقال الليث : « تصفحه يا أمير المؤمنين حتى تصل إلى سورة الرحمن فاقرأها . ففعل ، فلما انتهى إلى قوله تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان ، أمسك ياأمير المؤمنين .قل والله .. فاشتد ذلك على الخليفة . قال الليث قل والله إنى اخاف مقام ربى .. فقال ذلك . فقال : ياأمير المؤمنين فهما جنتان وليست بجنة واحدة .

وكانت زبيدة تسمع هى وجواريها خلف ستار. فارتفع التصفيق والفرح من وراء الستر. فقال الرشيد : أحسنت والله . فأمر له الرشيد بجوائز وخلع وآلاف الدنانير، وأمرت له زبيدة ، بمثلها وأقطعه الرشيد أرض الجيزة كلها ، وهى من أخصب أرض مصر.

فسأله الرشيد : ياليث ما صلاح بلدكم ؟

قال : ياأمير المؤمنين صلاح بلدنا بإجراء النيل وإصلاح أميرها ، ومن رأس العين يأتى الكدر، فإذا صفا رأس العين صفت السواقى : فقال الرشيد صدقت . فأمر الرشيد ألا يتصرف أحد فى مصر إلا بأمر الليث بن سعد .

عاد الليث بن سعد ، وقد ارتفعت مكانته ، فقد بهر الناس حتى الفقهاء بحذقه وفهمه لروح الآية ، وبحسن تخريجه ،

وعاد بإقطاع الجيزة فتضاعفت ثروته ، كان دخله عشرين ألف دينار فى العام ، فأصبح نحو مائة ألف .. فازداد تنعما وتمتعا بزينة الحياة التى أحلها الله لعباده والطيبات من الرزق .. وازداد شبابا وعافية ، وازداد سخاء

كان يطعم ثلثمائة مسكين كل يوم ، فلما حصل على خراج إقطاع الجيزة ، أمر بإطعام ثلثمائة مسكين بعد كل صلاة !

قيل له إن سلوكه ذاك إسراف ومجلبة للفقر، فرد ، بأن الله لايحب المسرفين هذا حق ، وما هذا الذى حصل عليه من الرشيد إلا رزق ساقه الله وفيه حق لكل صاحب حاجة .. والله تعالى يلعن الكانزين ، و ينذرهم بعذاب عظيم ، حيث تكوى وجوهم وجنوبهم فى نار جهنم بما

كنزوا من ذهب وفضة .. ثم إنه لايحيا وحده ، بل فى مجتمع يجب أن يكون كل افراده سعداء ، لكى يشعر هو نفسه بمعنى السعادة ! ! ثم قال لهم :« ولا تنسوا الفضل بينكم وحسبه هو من الغنى ما يكفيه هو وعياله ليحيوا حياة موفورة سهلة ممتعة ..أما ما زاد عن ذلك ، فيجب أن يوجه لكفاية الآخرين وإسعادهم .. ثم ضحك واستشهد بعجز بيت من شعر امرئ القيس : وحسبك من غنى شبع ورى ! ..

وهكذا أصبح مايتردد عليه أحد إلا أطعمه ، وقدم إليه الهدايا ، وأدخله فى نفقة عياله ، وما ينصرف عنه أحد إلا منحه مالا ..

ولم ينس نصيبه من الدنيا ! ! روى عنه أحد معاصريه ممن كانوا يترددون عليه .. قفلنا مع الليث بن سعد من الاسكندرية وكان معه ثلاث سفائن ، سفينة فيها مطبخه ، وسفينة فيها عياله ، وسفينة فيها ضيوفه . وكان إذا حضرته الصلاة يخرج إلى الشط فيصلى .

وذهب بعض أصحابه إلى مالك فى المدينة يسألونه فى بعض مسائل اختلف حولها مع الليث ، فلم يقابلهم مالك فقالوا : ليس هذا كصاحبنا« فسمعهم مالك فأمر بإدخالهم وسألهم » :من صاحبكم ؟ قالوا : الليث بن سعد قال مالك : تشبهونني برجل كتبت إليه فى قليل من عصفر مصر نصبغ به ثياب صبياننا فأنفذ إلينا منه ما صبغنا به ثياب صبياننا وثياب جيراننا ، وبعنا الفضل بألف دينار؟ وكان الليث قد أرسل إلى مالك حمل ثلا ثين بعيرا !

وكان خلاف الليث ومالك فى الفقه مثالا للحرص على الحقيقة ، وشجاعة العالم ، فى مواجهة الخطأ ، وقدرته على الرجوع إلى الحق . قال الليث : أحصيت على مالك سبعين مسألة قال فيها برأيه وكلها مخالفة لسنة الرسول صلى الله عليه وسلم .

وقد اعترف بأنه أخطا فى بعضها . من هذه المسائل أن الجنين يستقر فى بطن أمه ثلاث سنوات وهذا مخالف للعقل ، والعلم والطب .. وليس فى الشرع ما يخالف العقل .. ورأى مالك هذا يفتح باب الفساد للنساء اللا تى يغيب عنهن الزوج بالطلاق أو الوفاة أو السفر أو لأى سبب آخر. وتقبل مالك نقد الليث ولم يعد يفتى بهذا .

ومن هذه المسائل استغلال الأرض المزروعة بالإيجار، فالليث يرى أن الرسول عليه الصلاة والسلام نهى ذلك فعلى صاحب الأرض أن يعمل فيها أو يستغلها بالمزارعة و يقسم الثمرات بينه و بين العاملين . فله نسبة منها لاتجحف حق العاملين ولا تظلمهم ..

وقيل ومن هذه المسائل أن مالك بن أنس كان يرى أن ديون العباد فى التركة أولى بالأداء

من دين الله كالزكاة ، فحق العباد أولى بالرعاية من حق الله ، دفعا للمضرة ، أما الله تعالى فهو غفور رحيم ، والليث يرى أن الزكاة واجب أولى بالأداء لأنها حق الله والعباد معا .

ومنها الكفاءة في الزواج ، فمالك يعتد بالنسب ، فلا يصح زواج القرشي بغير القرشية أو العربي بغير العربية .. أما الليث فالمعول عنده على الإسلام .. فكل مسلم كفء لكل مسلمة .. والقول بغير ذلك يخالف القرآن « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ويخالف الحديث : « لافضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى » .

ولقد كان الإمام الليث بن سعد والإمام مالك بن أنس يتحاوران حول ما يختلفان فيه ، على ضيق مالك بالمناظرة .. وكثيرا ماكانايتبادلان الرسائل حول المسائل المختلف عليها .. وقد لايرد مالك على بعض آراء الليث فيفهم الليث أن صاحبه عدل عن رأيه أو يرسل إليه سائلا عن سبب امتناعه عن الرد .

وقد حفظ التاريخ رسالتين كاملتين ، تصوران التقدير والاحترام والعواطف المتبادلة بين الرجلين ، على الرغم من حدة الخلاف . كتب الإمام مالك إلى الأمام الليث : من مالك بن سعد . سلام عليك .. فإنى أحمد الله اليك الذى لاإله إلا هو. أما بعد . عصمنا الله وإياك بطاعته في السر والعلانية وعافانا وإياكم من كل مكروه .

واعلم رحمك الله أنه بلغنى أنك تفتى الناس بأشياء مختلفة ، مخالفة لما عليه الناس عندنا ، وأنت – فى أمانتك وفضلك ، ومنزلتك من أهل بلدك ، وحاجة من قبلك إليك ، واعتمادهم على ما جاءهم منك – حقيق بأن تخاف على نفسك ، وتتبع ما ترجو النجاة باتباعه فإن الله تعالى يقول : والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعدلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم . وقال تعالى : فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب .

فإنما الناس تبع لأهل المدينة . إليها كانت الهجرة وبها تنزل القرآن ، وأحل ، الحلال ، وحرم الحرام ، إذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم يحضرون الوحى والتنزيل و يأمرهم فيطيعون ، و يسن لهم فيتبعونه حتى توفاه الله . واختار له ما عنده . صلوات الله وسلامه عليه ورحمته و بركاته .

ثم قام من بعده اتبع الناس له من أمته ممن ولى الأمر من بعده بما نزل بهم فما علموه أنفذوه وما لم يكن عندهم فيه علم سألوا عنه .

ويمضى الإمام مالك يسوق الحجج على أنه لايجوز لأحد أن يخالف عمل أهل المدينة ، فعمل أهل المدينة بمثابة السنة المتواترة ، وإذن فلايحق لإمام فى مكانة الليث وفقهه أن يفتى بما يخالف عمل أهل المدينة .

ثم يختم رسالته :« فانظر رحمك الله فيما كتبت إليك لنفسك واعلم أنى أرجو ألا يكون دعائى إلى ما كتبت به إليك إلا النصيحة لله وحده ، والنظر فأنت تعلم أنى لم آلك نصحا . وفقنا الله وإياك لطاعته وطاعة رسوله فى كل أمر وعلى كل حال . والسلام عليكم ورحمة الله .

فرد عليه برسالة طويلة جاء فيها« سلام عليك » . فإنى أحمد الله إليك الذى لاإله إلا هو. أما بعد . عافانا الله وإياك وأحسن لنا العاقبه فى الدنيا والآخرة . .قد بلغنى كتابك تذكر فيه من صلاح حالكم الذى يسرنى ، فأدام الله ذلك لكم وأتمه بالعون على شكره والزيادة من إحسانه . . »

ثم قال :« بلغك أنى أفتى الناس بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندكم ، وأنى يحق لى الخوف على نفسى لاعتماد من قبلى على ما أفتيهم به ، وإن الناس تبع لأهل المدينة التى كانت إليها الهجرة وبها نزل القرآن وقد أصبت بالذى كتبت من ذلك إن شاء الله . . ووقع منى بالموقع الذى تحب ، وما أجد أحد ا ينسب إليه العلم أكره لشواذ الفتيا ولاأشد تفضيلا لعلماء أهل المدينة الذين مضوا ، ولاأخذ لفتياهم فيما اتفقوا عليه منى والحمد لله الذى لاشريك له » . أما ما ذكرت من مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، ونزول القرآن بها عليه بين ظهرى أصحابه وما علمهم الله منه ، وأن الناس صاروا تبعا لهم فيه ، فكما ذكرت . وأما ما ذكرت من قول الله تعالى(والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم).

فإن كثيرا من أولئك السابقين الأولين خرجوا إلى الجهاد فى سبيل الله ابتغاء مرضاة الله ، فجندوا الأجناد واجتمع إليهم الناس ، فأظهروا بين ظهرانيهم كتاب الله وسنة نبيه ، ولم يكتموا شيئا علموه ،

وكان فى كل جند منهم طائفة يعلمون كتاب الله وسنة نبيه ، ويجتهدون برأيهم فيما لم يفسره لهم القرآن والسنة ، وتقدمهم أبو بكر وعمر وعثمان الذين اختارهم المسلمون لأنفسهم ولم يكن أولئك الثلاثة مضيعين لأجناد المسلمين ولاغافلين عنهم ، بل كانوا يكتبون فى الأمر اليسير ــ لإقامة الدين والحذر من الاختلاف ــ بكتاب الله وسنة نبيه ، فلم يتركوا أمرا فسره القرآن أو عمل به النبى صلى الله عليه وسلم أو ائتمروا فيه بعده إلا علموهوه .

فإذا جاء أمر عمل فيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمصر والشام والعراق على عهد أبى

بكر وعمر وعثمان ، ولم يزالوا عليه حتى قبضوا لم يأمروهم بغيره . فلا نراه يجوز لأجناد المسلمين أن يحدثوا اليوم أمرا لم يعمل به سلفهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين لهم مع أن أصحاب رسول صلى الله عليه وسلم قد اختلفوا بعد فى الفتيا فى أشياء كثيرة ولولا أنى قد عرفت أن قد علمتها كتبت بها إليك . ثم اختلف التابعون بعد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم »

الزهرى وربيعة الرأى .. وخلاف مالك والليث وعبد العزيز بن عبد الله مع ربيعة أستاذهم .

ثم أخذ الليث يحصى على مالك أخطاءه وأخطاء أهل المدينة .

« من ذلك القضاء بشهادة شاهد ويمين صاحب الحق وقد عرفت أنه لم يزل يقضى بالمدينة به . ولم يقض به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بالشام وبحمص ولا بمصر ولا بالعراق ولم يكتب به إليهم الخلفاء الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان وعلى . ثم ولى عمر بن عبد العزيز وكان كما قد علمت فى إحياء السنن والحد فى إقامة الدين ، والإصابة فى الرأى ، والعلم بما مضى من أمر الناس ، فكتب إليه رزيق بن الحكم إنك كنت تقضى فى المدينة بشهادة الشاهد الواحد ويمين صاحب الحق فكتب إليه إنا كنا نقضى بذلك فى المدينة فوجدت أهل الشام على غير ذلك . فلا تقض إلا بشهادة رجلين عدلين أو رجل وامرأتين .

واستطرد الليث : « ومن ذلك أن أهل المدينة يقضون فى صدقات النساء أنها متى شاءت أن تتكلم فى مؤخر صداقها تكلمت فدفع إليها ... ولم يقض أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا من بعدهم لامرأة بصداقها المؤخر إلا أن يفرق بينهما موت أو طلاق فتقوم على حقها .

ثم مضى يقول : وقد أبلغنا عنكم شيئامن الفتيا مستكرها ، وقد كنت كتبت إليك فى بعضها فلم تجبنى فى كتابى ، فتخوفت أن تكون استثقلت ذلك فتركت الكتابة إليك فى شىء مما أنكره ، وفيما أوردت فيه على رأيك .. »

ومن فتيا مالك التى بلغت الليث فأنكرها ، أن الشريكين فى المال لاتجب عليهما الزكاة ، حتى يكون لكل واحد منهما ما تجب فيه الزكاة ، وفى رأى عمر بن الخطاب أنه تجب عليهما الزكاة بالسوية . وبهذا أخذ الليث ، ومن ذلك قول مالك بالجمع بين صلاة المغرب وصلاة العشاء فى حالة المطر واختلف الليث معه فى جواز الجمع .

ومن ذلك صلاة الاستسقاء ، ومالك يقدم الصلاة على الخطبة ، ورأى الليث أنها كالجمعة تتقدم فيها الخطبة والدعاء على الصلاة .

ثم قال له فى نهاية الرسالة« فلم يكن ينبغى لك أن تخالف الأمة أجمعين وقد تركت أشياء كثيرة من أشباه هذا . وأنا أحب توفيق الله إياك وطول بقائك ، لما أرجو للناس فى ذلك من المنفعة ، وما أخاف من الضيعة إذا ذهب مثلك ، مع استئناسى بمكانك وإن نأت الدار، فهذه منزلتك عندى ورأيى فيك فاستيقنه .. ولا تترك الكتابة إلى عن حالك وحال ولدك وأهلك ، وحاجة إن كانت لك أو لأحد يوصل بك . فإنى آمر بذلك .. فنسأل الله أن يرزقنا وإياكم شكر ما أولانا ، وتمام ما أنعم به علينا . والسلام عليك ورحمة الله . »

فى الحق أن الرسالة صورة من أدب الخلاف فى ذلك الزمان على ان هناك مسائل فرعية أخرى اختلف عليها الصديقان خلافا شديدا .

منها أن الإمام مالك بن أنس أجاز ضرب المتهم بالسرقة للحصول على اعترافه ، حماية للأموال ، مما يحقق مصلحة عامة هى أولى بالرعاية من مصلحة المضروب !

وتساءل الليث فإذا ثبت أن المتهم برىء ؟ ! إن حماية البرىء أولى من عقاب المذنب .. ولأن يفلت عشرة مذنبين خير من ظلم برىء واحد ثم إن الضرب فى ذاته عقوبة لايقضى بها إلا بعد ثبوت الجريمة ، وإلا فالضارب والآمر بالضرب ومن أفتى بجوازه .. كلهم مسئولون .

كما اختلف الصديقان فى حكم الشركاء فى جريمة القتل ..فذهب مالك إلى قتل جميع الشركاء كالفاعل الأصلى .. وهذا هو القصاص .. أما الليث فرأى أن هذا يخالف روح آيات القصاص فالمقصود بالقصاص هو الفاعل الأصلى ، وعقابه فى جريمة القتل هو القتل . أما الشركاء فقد أخذ فيهم الليث بحكم الإمام على وهو الحبس مدى الحياة حتى الموت .

ولا ريب أن أساس كل الخلافات بين الإمام الليث والإمام مالك هو الخلاف بين منهج كل منهما فى استنباط الحكم ما لم يكن النص واضحا قطعى الدلالة .. فالإمام مالك يرد الحديث الذى يرويه صحابى واحد ، ويأخذ بعمل أهل المدينة أو بما يستحسنه ويراه محققا للمصلحة .. أما الإمام الليث فيأخذ بالأحاديث التى يرويها الآحاد ، ويقول اننا لو فتحنا باب الاستحسان والمصالح فما هى الضوابط ؟ .أكلما بدا للمفتى أو القاضى أن رأيا ما أحسن أو أرعى للمصلحة أخذنا به ؟ وإذن تتناقض الفتاوى فى المسألة الواحدة ! ! فلا عاصم إلا ضبط الأحكام التى لم يرد بها نص قطعى بقبول الحديث الذى يرويه الصحابى الواحد مادام هذا الحديث يوافق روح القرآن ، ويوافق روح السنة ، ولايخالف العقل ، أو يجافى مقاصد الشرع .

فإذا لم يكن فى أحاديث الآحاد أو اقوال الصحابة أحكام تواجه الأمور المستحدثة ،وتنطبق على

الأقضيه الجديدة ، فلا غنى عن القياس .. وهو أضبط المعايير وأحراها بتحقيق العدل .

وذلك بأن نطبق الأحكام التى أوردتها النصوص على كل ما يشابهها من أقضية ومسائل وأمور إذا اتحدت العلل .وبهذا النظر واجه الليث ما استحدث من قضايا الناس فى مصر ومسائلهم .. **وهكذا استطاع أن يمهد الطريق الوسط بين فقه السنة وفقه الرأى .**

وعلى هذا سار الشافعى من بعده عندما جاء إلى مصر. لم يكن الحوار بين الصاحبين بلا جدوى ، وما ضاع سدى ، فقد عدل مالك عن آرائه أو صححها .

أما الليث فأخذ نفسه بالبحث عن الأحاديث التى تحض على مكارم الأخلاق والتى ترسم صورة المجتمع الفاضل الذى تسوده العدالة والمودة والرخاء ، و يشعر الإنسان فيه بأنه أخ للإنسان .. !

وكان يجتمع فيه مع الناس فى مجلسه بجامع عمرو ، فى داره بالفسطاط أو بقريته قلقشندة ، أو على ظهر السفينة وهو بين الفسطاط والإسكندرية .. فى كل مكان كان يحدث الناس بهذه الأحاديث التى تدفعهم إلى الجهاد من أجل حياة افضل ، والتى تحض على مكارم الأخلاق .

ولكنه لم يكن يحدث بكل ما يعرف من أحاديث .. بل يختار ما يطمئن إلى صحته ، وما يتثبت هو من صدوره عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

ولم يكن يكتب كل ما يتحدث به فقيل له :**إنا نسمع منك الأحاديث ليست فى كتبك .. فقال ــ وكان على ظهر مركب ــ لو كتبت ما فى صدرى فى كتبى ما وسعه هذا المركب .**

ولقد يعدل عن الرأى إذا تبين له أنه خطأ وأن هناك رأيا أوجه منه . تكلم مرة فى مسألة فقال له رجل : فى كتبك غير هذا .. فقال الإمام الليث .. : « فى كتبنا ما إذا مر بنا هذ بناه بعقولنا وألسنتنا »

ظل الشيخ يعلم الناس ، و يرعى أهل العلم و يتصدق على ذوى الحاجات ، و يسدد الدين عمن يثقله الدين ، و يعمر البيوت ، ويحسن كما أحسن الله إليه ، و يعين الآخرين .. ولم ينقطع يوما عن حلقته فى مسجد عمرو أو فى بيته حتى بلغ الثانية والثمانين ، وهو محتفظ بقوة البدن وصحوة الفكر.

وأذن الله أن يتوفاه إليه فمرض أياما قلائل لم يرهق خلالها بمرضه أحدا .. ثم جاءه أمر الله فتوفى فى ليلة النصف من شعبان عام ١٧٥ هــ وكان قد ملأ الدنيا بحسن سيرته بين الناس بالعلم والحكمة .

وشيعت جموع عديدة ما اجتمع بمدينة الفسطاط مثلها من قبل ولا من بعد ! . قال طالب علم لأبيه وهما ينصرفان من جنازة الإمام الليث : ياأبت .. كأن كل واحد من هؤلاء الناس صاحب الجنازة :فقال« **يابنى .. كان عالما حسن العقل كثير الأفضال .يا بنى لا ترى مثله أبدا** » .

قال عنه أحد الفقهاء : « كان الليث أفقه من مالك ولكن الحظوة كانت لمالك . ولقد حزن لفقد الإمام بن سعد كل فقهاء عصره ، وقال المسلمون فى كل أقطار الأرض : « ذهب سيد الفقهاء » .

أما المصريون فقد بكوه أحر بكاء ولكنهم أضاعوه .. ! وذلك بأنهم لم يكتبوا تفسيره للقرآن أو الحديث ولا فقهه ! أما ما كتبه هو فقد عمل حساده من القضاة والولاة على إخفائه كما أخفى كتبه بعض المتعصبين .. !

وبعد وفاة الإمام الليث بأعوام جاء الإمام الشافعى إلى مصر يعيش فيها ويلتمس فقه الإمام الليث فلم يجد منه ما يريد .. ! .

قال الشافعى : « ما فاتنى أحد فأسفت عليه كالليث بن سعد » .

ونظر فيما بقى من آثاره فقال : الليث أفقه من مالك إلا أن قومه أضاعوه وتلاميذه لم يقوموا به » .

ثم ذهب الإمام الشافعى إلى قبر الإمام الليث فصلى .. ودعا له بالرحمة . وقف طويلا يتأمل فى صمت كل تلك الحياة الضخمة العريضة الزاخرة .. ذلك العقل الرائع المتوهج الخصب ، وذلك القلب الذى جعل حياة الناس من حوله نعيما خالصا ، وملأها سكينة وأملا ... الإضطرام ، والمودة ، والخير ، والعطاء ، بلا حدود والحب الخارق للبشر ، والرغبة المقدسة فى إسعاد الآخرين والتقوى .. لم يبق من كل هذه الروعة شىء .. حتى الذكرى ؟ ! .. فما من كتاب واحد يحفظ آثار فكره ، واجتهاداته المضيئة .

واستعبر الشافعى وبكى ، وهو يقول من خلال الدمع : « لله أنت ياإمام ... ! ... لقد حزت أربع خصال لم يكملهن عالم:العلم ، والعمل ، والزهد ، والكرم » .

الإمام الشافعي

قاضي الشريعة - وخطيب الفقهاء

على الرغم من أن الإمام الشافعي لم يكن قاضيا فى مصر قط ، فإن أهل مصر يسمونه «قاضى الشريعة» .. ومازال العديد من أصحاب الحاجات الذين لم ينالوا حظا من التعليم يتجهون إلى ضريح الإمام الشافعى فى الحى المعروف باسمه فى القاهرة ، فيقدمون الظلامات ، ويسألون الله تعالى أن يقضى لهم حاجاتهم ، ويرد عنهم الظلم ، متوسلين بالإمام الشافعى قاضى الشريعة .

وقد شاع بين أهل مصر أن الإمام الشافعى هو قاضى الشريعة ، منذ قدم إلى مصر عام ١٩٩ هـ ، وهو يخطو إلى الخمسين ، رجلا طويلا ممشوق القامة ، فارسا ، أسمر كأبناء النيل ، بشوشا ضاحك الوجه . مهذب اللحية ، يصبغ لحيته وشعره بالحناء اتباعا للسنة ، عذب الحديث ، رخيم الصوت ، يشع البريق من عينيه بصفاء الود لمن يراه ، على الرغم مما يثقل جفنيه من آثار السهر ، وطول التأمل وإعمال الفكر ، وكثرة التجوال بروحه وجسده بحثا عن حقائق الشريعة ! ! .. فى ثياب خشنة نظيفة ، متكئا على عصا غليظة ، كأنه حاج ورع أو جواب آفاق .. !

وفى الحق أن المصريين لم يخطئوا فى إطلاق اسم قاضي الشريعة على الإمام الشافعي ، فما كاد يطأ أرض مصر حتى بحث عن قبر الإمام الليث بن سعد فوقف عليه مستعبرا .. ثم بحث عن آراء الليث وفقهه . فوجد المتعصبين من أعداء الليث وحساده ، قد أخفوا كل كتبه تحت التراب أو أحرقوها .. ! وظل يبحث عن كتاب «مسائل الفقه» الذي كتبه الليث بيده ، وكتاب التاريخ وكتابه في التفسير والحديث ، وكتبه عن منابع النيل ، وتاريخ مصر قبل الإسلام ، بما حوت من أساطير وروايات تصور تاريخ الفكر المصري ومقومات شخصية أهل مصر ... فلم يعثر الشافعى على شيء من ذلك كله إلا بعض مسائل وآراء واجتهادات حفظها بعض تلاميذ الإمام الليث ، وكان الشافعي قد لقي أحدهم في

المدينة ، وأحدهم في اليمن فتلقى عنهما بعض فقه الليث ..

وأدرك المصريون أن هذا الإمام الجديد ، سيحيى علم إمامهم الراحل الليث بن سعد الذى كادت آثاره أن تندثر ولما يمض على رحيله غير ثلاثة أو أربعة أعوام !!

وكان أكثر ما أعجب المصريين من إمامهم الليث حرصه على الشريعة ، بحيث يتحرى في كل فتوى أن يقيس على نص قرآني ، أو على سنة ثابتة ، أو إجماع صحيح إن لم يجد ما يطلب في النصوص أو الإجماع ، بحيث يسد الطريق على من يستنبطون الحكم بما يستحسنون أو بما يرونه محققا للمصلحة .. ويشرعون بهذا السلوك فى الفتيا للولاة أو القضاة الظالمين أن يحكموا بالهوى .. !!

هاهو ذا إذن إمام جديد يريد أن يحيى آثار الليث ، وأن يلزم أصول الشريعة فيما يستنبط من أحكام، وهو يضيف إلى فقه الليث اجتهاده الخاص ، ويجادل عن الشريعة ويعلن للناس منذ اتخاذ مجلسه للفتيا في جامع عمرو بالفسطاط أن القرآن فيه حكم كل شيء ، وأن السنة تفصيل وبيان لما فى القرآن بكل أوجه البيان ، فعلى من أراد أن يجتهد أن يكون عليما بالقرآن والسنة ، وقضايا الصحابة وإجماعهم ، فقيها باللغة العربية ، وبأسرار البلاغة فيها ، وبقواعد نحوها . ولن يبلغ هذا العلم حتى يكون قد حفظ الشعر الذي قاله العرب قبل الإسلام ، وبالعربية التي كان يتحدث بها البدو وقت نزول القرآن .

فقد اعترف ابن عباس وهو عليم بالتفسير أنه لم يفهم قول الله تعالى : « فاطر السموات والأرض » حتى سمع بدوية تقول عن وليدها : « أنا فطرته » ، تعني أنشأته واوجدته .. فعلم أن كلمة فاطر بمعنى : منشىء أى خالق . فإذا اجتمع لرجل علم ذلك كله من قرآن وسنة وأقوال الصحابة ، وفقه اللغة العربية حق له أن يجتهد !

والاجتهاد هو بذل الجهد ، ففيه مشقة .. فإذا اجتهد العالم ليجد حكما أو ليصدر فتوى فليبحث أول الأمر في الكتاب والسنة ، لأن الكتاب ـ وما السنة إلا بيان له ـ فيه كل الأوامر والنواهى ، وما كان ربك ليترك الناس سدى بلا أمر ولا نهى .. فإن اجتهد العالم فهو عالم وفقيه .. فإن لم يجد الفقيه في الكتاب والسنة أو إجماع الصحابة حكما ينطبق على الأمر الذي يعرض له فعليه بالقياس .. ولا قياس مع نص قياس إلا على نص .. ولا سبيل غير القياس إلى استنباط الأحكام التي تواجه الأمور المستحدثة التي لا نص علي حكمها ..

بهذا النظر جاء الإمام الشافعى إلى مصر ..

على أن الحياة في مصر طالعته بفقه جديد مما أثر على الليث بن سعد ... واجهته بكثير من الأمور

المستحدثة التي لم يواجه مثلها من قبل ..

وكان الشافعي حين قدم إلى مصر وأقام بها حتى توفي فيها سنة ٢٠٤ هـ ، كان عالما ويحفظ القرآن والحديث و يعرف إجماع الصحابة و يتقن اللغة العربية وعلومها وآدابها .. كان كل أولئك ، وكان بعد رجلا عرك الحياة و بلاها ، وتجول في كثير من البلاد ، واجتهد وأصبح صاحب مذهب ؛ ونشأت له من خلال هذه التجارب كلها مودات وعداوات .. كثير الأسفار ينتقل هنا وهناك ليتعلم هو و يعلم الآخرين ..

عرف الحياة منذ ولد جهادا متصلا في سبيل العيش وفي سبيل العلم ..

ومن الحق أنه قدم مصر وله مذهب في الفقه ولكنه لم يكد يقيم في مصر، حتى غيَّر كثيرا من آرائه ، وأعاد كتابة كتبه

فقد عرف في مصر مالم يكن قد عرفه من قبل .. صحت عنده أحاديث كثيرة سمعها لأول مرة في مصر، نقلا عن الإمام الليث .

وبهره ما استطاع أن يصل إليه وأن يتعلمه من فقه الليث وآرائه وفتاواه

وعرف آراء جديدة للإمام علي بن أبي طالب لم يتح له الاطلاع عليها من قبل ...

ثم أنه عرف حضارة وتقاليد وأعرافا كلها جديدة عليه ، ليس كمثلها شيء مما رأى في مكة أو المدينة أو اليمن أو سوريا أو العراق ..

عاين انطلاقا في الفكر مع التمسك بروح الشريعة ، وتحررا في الرأى مع التزام مقاصد الشارع ، ورأى أن مالك بن أنس يخالفه بعض الفقهاء في مصر متأثرين بإمامهم الليث بن سعد ؛ وماكان يعرف أن الإمام مالك بن أنس يخالفه أحد من قبل إلا في ست عشرة مسألة . خالفه فيها أهل الرأى بالعراق..

وناظر بعض تلاميذ الليث في خلاف أمامهم مع أستاذه مالك وأقنعه رأى الليث ، وهاله مارأى وسمع من تعصب بعض أتباع مالك في مصر ومايليها من المغرب العربي كله والأندلس للإمام مالك ، حتى لقد كان الناس في المغرب والأندلس يتبركون بملابس للإمام مالك أخذها منه أحد تلاميذه ، فكانوا إذا دهمهم الجفاف وتأخر المطر، وصلوا صلاة الاستسقاء اتجهوا إلى قلنسوة للإمام مالك يستسقون بها.. !

ورأى الشافعي في مصر أتباع الإمام الليث يسخرون بهذا كله ، و يتهمون صانعيه بإحياء الوثنية ، و بالشرك بالله تعالى ...

وسمع سخرية أتباع الإمام الليث من أتباع الإمام مالك حين يتناظرون .. إذ يروى أتباع الإمام الليث الحديث الشريف عن سنده إلى أن يقولوا قال رسول الله صلي الله عليه وسلم ، فيرد أتباع الإمام مالك «قال أستاذنا وشيخنا الإمام مالك» .. فيقول أتباع الليث : «نقول لكم قال الرسول عليه الصلاة والسلام فتقولون بإزائه قال الإمام مالك ؟ أجعلتموه في مقام الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم ؟ .. لو كان الإمام مالك رضى الله عنه حيا لأفتى بأنكم ارتددتم عن الإسلام» .

كان المصريون يجلون الإمام مالك بن أنس ، على الرغم من أنهم يأخذون بآراء إمامهم الليث بن سعد في خلافه مع الإمام مالك .. ولكنهم كانوا يضيقون بتعصب بعض أتباعه ، و يعتبرون تعصبهم وشططهم خروجا على منهج الإمام مالك ، وإساءة لذكراه ، وهو الذي عاش يحمل في كل سيرته تقاليد السماحة الإسلامية وتراث الحكمة والموعظة الحسنة ..

رأى الشافعي عناصر جديدة من الرأى والفكر والحضارة في مصر ، واطلع على ماأنتجته المدرسة المصرية في الفقة بزعامة الإمام الليث سيد الفقهاء ، فبدأ يعيد النظر في كثير من آرائه .. و بصفة خاصة تلك التي اتبع فيها أستاذه مالك .. أو التي تأثر فيها بفقه أهل المدينة وإمامها مالك .. فألف كتابا فيما اختلف فيه مع مالك .. ولكنه استحيا أن يصدره . ومازال قريب العهد من الجلوس إلى مالك مجلس التلميذ .. وأبقى الكتاب ينظر فيه و يعدل عاما بأسره ثم أصدره .. وعندما عوتب في هذا قال : «إن أرسطو تعلم الحكمة من أفلاطون ثم خالفه قائلا إن أفلاطون صديقي والحق صديقي فإذا تنازعنا فالحق أولى بالصداقة» .

بهر الشافعي إذن بما شاهد في مصر من مظاهر الحضارة والتقدم والتزاوج الفكرى بين الإسلام ومعطيات الحضارات التي تشكل الوجدان المصري : الحضارات القبطية والمصرية القديمة واليونانية . وهو مالم يعرفه من قبل .. ثم الفهم العميق لروح الشريعة الإسلامية ، وتطويع الأحكام لكل مقتضيات الحاجة الإنسانية المشروعة ، مما يقيم المجتمع الفاضل الذى هو هدف الشريعة ومقصدها الأسمى ..

حتى إذا انتهى الإمام الشافعى من إعادة صياغة كتبه وتصحيح آرائه على أساس العنصر الجديد الذي تدخل في صياغة وجدانه وعقله . أعلن للناس أن آراءه ليست إلا التي كتبها في مصر . أما كتبه السابقة فلا يحق لأحد أن ينسبها إليه .. وكتب بذلك إلى أقرب أصحابه وتلاميذه إليه أحمد بن حنبل فكان الإمام أحمد يقول : «خذوا عن أستاذنا الشافعي ماكتبه في مصر» .

ولكن الشافعي لم يصل إلى ماوصل إليه إلا بعد مشقات جسام عبر رحلة عمر كابد فيها الأهوال ، حتى لقد رأى الموت رأى العين ذات مرة .

وقضى عمره كله في العيش الضنك على الرغم من ارتفاع همته ولقد عبرعن ذلك بقوله :

وأحـق خـلـق الله بـالهـم امـرؤ
ذو همـة يـبلى بـعـيـش ضـيـق

ولد الشافعي سنة ١٥٠ هـ في غزة وهي السنة التي توفي فيها أبوحنيفة إمام أهل الرأى في العراق وفي هذا تمازح أحد الفقهاء من المذهب الحنفي وفقيه من المذهب الشافعي قال الحنفي «إمامكم كان مخفيا حتى ذهب إمامنا» فقال صاحبه : «ونحن الشافعية نقول لما ظهر إمامنا هرب إمامكم» .

ولد في عصر كثر فيه الجدل بين أهل الحديث وأهل الرأى . وتعصب كل فريق ضد الآخر، فكان من أهل الحديث من يرفض الرأى إطلاقا ، ومن أهل الرأى من لايتقن حفظ عدد صالح من الأحاديث . .

وهو عصر ميز بين العالم والفقيه ، أو بين العلم والفقه : فالعلم هو حفظ القرآن والأحاديث وآثار الصحابة ... أما الفقه فهو إعمال الفكر والاجتهاد والتأمل وشحذ العقل لاستنباط حكم شرعي فيما لانص فيه .. وقد يجمع الرجل الواحد بين العلم والفقه وهؤلاء هم الأئمة العظام والفقه

وقد روى عن أحد التابعين قوله : « مارأيت أفقه من ابن عمر، ولاأعلم من ابن عباس »

وكان أهل الحديث يقفون عند النصوص لايعدونها فإن لم يجدوا حكما فيها ، لايفتون .

وأما أهل الرأى فقد نظروا في عطل الأحكام ، واستنبطوا من النصوص أحكاما لما لم يرد نص على حكمه ، إعمالا للعقل ، وإلحاقا للأمور بأشباهها ونظائرها إذا توفرت علة الحكم .

وقد بلغ من وقوف بعض أهل الحديث عند ظاهر النص حدا أثار بهم سخرية أهل الرأى ، و بلغ من انطلاق أهل الرأى في استنباط الأحكام حدا جعل أهل الحديث يتهمونهم ! !

وقد سأل أحد أهل الرأى واحدا من أهل الحديث في أمر طفل وطفلة رضعا معا من ضرع شاة ثم كبرا ، أيجوز لهما الزواج .

فقال صاحب الحديث : تثبت بينهما حرمة الرضاع «فسأله صاحب الرأى : «بأى نص» فقال صاحب الحديث : «بقوله صلي الله عليه وسلم كل صبيين اجتمعا على ثدى واحد حرم أحدهما على الآخر «فقال صاحب الرأى ضاحكا : « قال الرسول صلي الله عليه وسلم اجتمعا على ثدى واحد لاعلى ضرع واحد» إنما يثبت الحديث بين الآدميين لا بين شاة وآدمى . فلو أنك أعملت العقل والرأى ماأخطأت . وماسويت بين المرأة والنعجة !

وكـان أصـحـاب الـرأى يتهمون أصحاب الحديث « بالعجز عن النظر ، و بأنه كلما أورد عليهم أحد مـن أصحاب الرأى سؤالا أو إشكالا بقوا متحيرين » . ومن أجل ذلك فهم ليسوا أنصارا للسنة ، بل إن أهل الرأى أكثر انتصارا للسنة واتباعا لها من هؤلاء الذين يزعمون أنهم أهل السنة !

أما أهل الحديث فاتهموا أهل الرأى بأنهم يأخذون بالظن ..

على أن مـالـك بـن أنـس إمـام أهـل الحديث لم يكن يرى هذا الرأى في الإمام أبى حنيفة إمام أهل الـرأى فـقـد قـال فيه : « اجتمعت مع أبي حنيفة وجلسنا أوقاتا وكلمته في مسائل كثيرة فما رأيت رجلا أفقه منه ولا أغوص منه على معنى وحجه .

« ولـكـن أتـبـاع الإمـامين كـان فيهـم مـن يـتـعـصـب لشيخه ، ومن هؤلاء الأتباع من كان يشغب على الآخـر .. حتى لـقـد عـيـروا أبـا حنيفة ببعض حيله ، وإن كان مالك ليضحك كلما ذكرها ، ذلك « أن الموالي وهـم المـسـلـمـون من أهل البلاد المفتوحة » قدموا الكوفة وكان لرجل منهم امرأة فائقة الجمال ، فـتـعـلـق بها رجـل كـوفي . وادعـى أنهـا زوجـته ، وادعت المرأة أيضا ذلك : وعجز المولى زوج المرأة عن البينة ، فعرضت القضية على أبي حنيفة .. وكان من رأى أهل الحديث أن المرأة للكوفي ولكن أبا حنيفة لم يطمئن إلى الأخذ بهذا الظاهر كما صنع أهل الحديث .

ورأى أن يحقق الأمر بنفسه ... وشك في ادعاء الزوجة والكوفي فأخذ جماعة من الناس ومعهم بعض أهـل الحـديـث ، وذهـبـوا إلى حيـث كـان ينزل الموالي فنبحت كلابهم وهمت أن تهاجمهم كما تفعل مع الـغـربـاء .. ثم عاد أبو حنيفة وأخذ الزوجة ومعها شهود من أهل الحديث ، وأمر الزوجة أن تدخل وحدها إلى مـنـازل المـوالي . فـلـما قـربـت بصبص الكلاب حولها . كما تفعل بأصحابها فقال أبو حنيفة : « ظهر الحق » . فانقادت المرأة للحق واعترفت أنها كذبت .. وعادت إلى زوجها . وسخر أهل الرأى من أهل الحديث في هذه القضية ...

على هـذا الـنـحـو كان الخلاف بين أهل الحديث وأهل الرأى .. حتى أن الشافعى عندما بدأ يطلب الـعـلم في مجالس أهل الحديث ، جلس بعد الدرس فى بيت صاحب له يتناشدان الشعر ، فأتى الشافعى على شعر الهذليين وقال لصاحبه : « لا تعلم بهذا أحدا من أهل الحديث فإنهم لا يحتملون هذا » ذلك أن أهـل الحـديث كان فيهم من يغلو فيرى في حفظ الشعر ودراسة الأدب علما غير نافع .. فالعلم النافع عند هذا النفر هو القرآن والحديث وآثار الصحابة فحسب ..

أخذ الشافعى يناطح هذا كله .. و يقاوم التعصب للحديث وللرأى جميعا ..

ليكون هدف المناظرة هو الوصول إلى حقائق الشريعة ، لا غَلَبة المتناظر على خصمه ..

ولكنه على الرغم من ذلك انحاز إلى أهل الحديث أول الأمر ، وخاصم فيهم أهل الرأى ، حتى إذا استقر به المقام في مصر تلك السنوات الأخيرة من حياته القصيرة (١٥٠ ــ ٢٠٤هــ) تعلم أن الإمام الليث كان قد اهتدى إلى مذهب وسط بين أهل الحديث وأهل الرأى ، معتمدا على استيعاب يقظ لروح الشريعة ومقاصدها ، فأعجب بأصول مذهب الليث وفروعه وزاد عليه وأضاف ، ونقّح في خمس سنوات عاشها في مصر كل ماكان قد كتبه طيلة حياته من قبل . وعرف ماكتبه في مصر باسم « المذهب الجديد »

والشافعى هو محمد بن أدريس بن العباس بن شافع (وقد نسب إلى هذا الجد) ابن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن المطّلب بن عبد مناف . .

والمطّلب هو شقيق هاشم بن عبد مناف . . وهاشم هو أبو عبد المطلب جد النبي صلي الله عليه وسلم وكان هاشم يقود رحلة الشتاء إلى الشام بقافلة قريش في الجاهلية ومات ودفن بغزة .

أما والدة الشافعى فهي حفيدة أخت السيدة فاطمة أم الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

وكان الشافعي يقول : «علي بن أبي طالب ابن عمى وابن خالتي .

فهو قرشى الأب والأم وكان أبوه فقيرا خرج من مكة يلتمس سعة من العيش في المدينة . ولكنه لم يجد مايريد ، فخرج بأهله إلى غزة ، ومات بها بعد مولد ابنه محمد بنحو عامين .

ولم تطق الأم المقام في غزة بعد وفاة زوجها ، فحملت وليدها محمدا إلى عسقلان وهو ابن عامين ، وكان يرابط بها جيش من المسلمين ، وكانت عسقلان تسمى إذ ذاك (عروس الشام) « وخيرها دافق والعيش بها رائق »

غير أن العيش لم يرق للأرملة الصغيرة في عسقلان ، فحملت ابنها محمدا إلى مكة موطنها وموطن آبائه وأجداده ، ليعيش في قومه قريش ، ولينال نصيبه من المال ، وهو سهم ذوى القربى ولكن حظه من هذا المال كان ضئيلا لم يسمح له ولأمه إلا بحياة خشنة ، عرف خلالها الحرمان منذ نعومة أظفاره .

وعندما شب الطفل ألحقته أمه بمكتب في مكة . ولكنها لم تجد أجر المعلم . «فكان المعلم يقصر في تعليم الصبي إلا أن المعلم كلما علم صبيا شيئا كان الشافعى يتلقف ذلك الكلام . ثم إذا قام المعلم من مكانه أخذ الشافعى يعلم الصبيان تلك الأشياء فنظر المعلم فرأى الشافعى يكفيه من أمر الصبيان أكثر من الأجرة التي يطمع بها منه فترك طلب الأجرة واستمرت هذه الأحوال حتى تعلم الشافعى القرآن كله وهو ابن سبع سنوات . »

ثم وجهته أمه إلي إتقان تلاوة القرآن وتجويده وتفسيره على شيوخ التفسير والترتيل والتجويد في المسجد الحرام .. حتى إذا بلغ الثالثة عشرة ، كان قد أتقن القرآن حفظا وترتيلا وإدراكا لما يقرأ بقدر مايتيحه عمره .

وكان عذب الصوت .. في ترتيله خشوع . وإيقاع حزين تخالجه الرهبة من خشية الله .. فكان حين يقرأ القرآن في المسجد الحرام يتساقط الناس بين يديه . و يكثر عجيجهم بالبكاء من حسن صوته . فإذا رأى ذلك أمسك .

بعد ذلك اتجه إلى حفظ الحديث ، ولزم حلقات شيوخ التفسير وأهل الحديث . وكان الورق غالي الثمن ، فكان يلتقط العظام العريضة فيكتب عليها ، أو يذهب إلى الديوان فيجمع الأوراق المهملة التي ألقي بها . فيكتب على ظهرها ..

كان يجد مشقة في الحصول على ورق الكتابة ، فاعتمد على الحفظ وهكذا تكونت له حافظة قوية .. حتى لقد كان يحفظ كل مايُلقى عليه .

لاحظ أثناء إقامته في مكة أن لغة قريش قد دخلها الغريب من كلمات وتعبيرات المسلمين الجدد من الموالي غير العرب . فلم يعد لسانها هو اللسان العربي المبين .. !

ثم إنه في تأمله للقرآن والأحاديث شعر بأنه في حاجة إلى زاد لغوى كبير ، وإلى تفهم أعمق لمعاني الكلمات وأسرار التراكيب .. وكان يشهد دروس الليث بن سعد إمام مصر وهو حينذاك فقيه كبير يتحلق حوله الطلاب في المسجد الحرام كلما جاء حاجا أو معتمرا ...

في إحدي حلقات الليث إلى جوار مقام إبراهيم ، نصح مستمعيه أن يتقنوا اللغة وأسرار بلاغتها وفنون آدابها . وأن يحفظوا الشعر الذي سبق نزول القرآن الكريم وعاصره ليحسنوا فهم معاني الكتاب المنزل والأحاديث ..

ولكم نصح الإمام الليث مستمعيه أن يخرجوا إلى البادية فيتعلموا كلام (هذيل) ويحفظوا شعرهم .. فهذيل هم أفصح العرب ، وشعر الهذليين عامر بكنوز اللغة .

ولقد حفظ الليث نفسه أشعار الهذليين ... واستشهد بها في تفسير بعض كلمات القرآن . كما فعل ابن عباس من قبل وهو شيخ المفسرين .

وخرج الفتى محمد بن أدريس الشافعي إلى بادية قريبة من مكة وعاش في مضارب خيامهم ، يحفظ عنهم أشعارهم وتراكيبهم اللغوية ، يرحل برحيلهم ، و ينزل بنزولهم و يتعلم منهم .

ثم رجع إلى مكة ينشد أشعارهم ، و يذكر عنهم الأخبار.. كما قال هو نفسه حتى أن الأصمعي وهو شيخ اللغويين قال وهو في أوج شهرته : «صححت أشعار الهذليين على فتى من قريش يقال له محمد بن أدريس ..

لزم الشافعي هذيلا نحو عشر سنين ، عكف فيها على دراسة اللغة وآدابها . وحفظ الشعر ، وتعلم منهم الرماية والفروسية و برع فيهما ، حتى لقد كان يأخذ بأذن الفرس وهو يجري فيثب عليه في براعة وتمكن . !

وأتقن الرمى ، حتى قال عندما تقدم به العمر: «كانت همتي فى شيئين : في الرمي والعلم فصرت في الرمي بحيث أصيب عشرة من عشرة «ثم سكت عن العلم ، فقال أحد الحاضرين : » أنت والله في العلم أكبر منك في الرمي »

عاد من البادية إذن فارسا متفوقا في البداية في الرماية ، ناصع البيان ، في صدره إلى جوار القرآن والحديث ، ثروة ضخمة من الشعر والآداب والأخبار والفقه واللغة

وعاد يجلس إلى حلقات شيوخه في المسجد الحرام .

جلس إلى أهل الحديث . والمفسرين من أتباع ابن عباس . وإلى العلماء والفقهاء من أتباع الإمام جعفر الصادق .. وكانوا جميعا ينبعون من علم الإمام علي بن أبى طالب .

وعلى الرغم من أنه قد جاوز العشرين ، وأصبح يملك القدرة على اختيار شيوخه في المسجد الحرام ، فقد تعود أن يسأل أمه النصيحة ، فتشير عليه بأسماء الشيوخ الذين ينبغي له أن يلزمهم .. وكانت أمه حافظة للقرآن والحديث ، بصيرة بأحكام الشريعة . ولقد ردت قاضى مكة حين استدعاها للشهادة هي وامرأة أخرى وأراد أن يفرق بينهما ، فطلبت أن تشهد الواحدة أمام الأخرى . وذكرته بالآية الكريمة : أن تضل إحداهما . فُتذكّر إحداهما الأخرى » .

وكان الشافعي بارا بوالدته .. مستمعا لنصائحها وقد وجهته إلى فقه الإمام علي بن أبي طالب ، ونصحته أن يلتمسه من تلاميذ ابن عباس وتلاميذ الإمام جعفر الصادق .. وكان مقاتل بن سليمان هو أعلاهم شأنا وأبصرهم بالقرآن وتفسيره و بالحديث والفقه ..

وقد توقف الشافعي وهو ينظر في تفسير القرآن عند آية : «وقد خاب من دساها » ...

ولم يعرف معنى كلمة دسّاها ، فلم تكن قد عرضت له من قبل . ولم يجد الكلمة فيما تعلم من لغة العرب . وخرج إلى ظاهر مكة يسأل فيها بطنا من هذيل ، وهم أفصح العرب ، فلم يجد عندهم جوابا .

وطاف علـى شيـوخ الحلـقات من أهل الأثر ومفسرى القرآن ، فلم يظفر بجواب شاف .. وهَمَّهُ الأمر وَغمَّه ، فلاذ بأمه يسألها النصيحة فوجهته إلى مقاتل بن سليمان تلميذ الإمام الصادق وذهب الشافعي إلى حلقة مقاتل بن سليمان فقال له مقاتل : دسّاها من لغة السودان «ومعناها أغواها ...

اكـتـمـل للـشافعي علم حسن بالقرآن والحديث وآثار الصحابة ، وثراء لغوى يفتح مغاليق المعاني ، وذوق أدبي يتيح له أن يدرك لطائف البلاغة وأسرار البيان .

وقال له أحد شيوخه : «آن لك أن تفتي» .

ولـكـن الـشـافعي تهيب الفتيا ، فما كان إلا شابا صغيرا في سن أبناء المفتين من أصحاب الحلقات في المسجد الحرام ... وهوبعد لم يحصل على كل مايريد من فقه المدينة ، حيث يشع علم الإمام مالك ، ولا من فـقـه الـعـراق حيـث مـازال صدى جليل من آراء الإمام الراحل أبي حنيفة يدوى في جنبات المسجـد الـكـبير بالكوفة ، وحلقات بغداد ، وحيث مازال تلاميذه أبويوسف ومحمد بن الحسن وغيرهما يجادلون عن إمامهم و يضيفون إلى تراثه الجدلي

ثم إن الـفـتـي لم يـعـرف كما يـنـبغي فقه الأوزاعي بالشام ، ولافقه الإمام الليث بمصر .. هذا الفقه الذي اتـسـم بالتوفيق بين أهل الرأى وأهل الحديث ، والذي يحترم الحزبين جميعا ، يتميز بعمق الإدراك لروح الشريعة ومقاصد الشارع ، و يواجه في يسر معجز كل مايطرحه العصر من مسائل وقضايا .

وقـرر أن يـرحـل فـى طـلـب الـفـقـه من كل مدارسه ، كما رحل من قبل يلتمس الفصحى من خير منابعها

واستأذن أمه أن يرحل إلى المدينة المنورة ليدرس على الإمام مالك فأذنت له ..

كـان الـفـتـى إذ ذاك فـي نحـو الـعـشـرين ، خلبه مالك حين جاء إلى المسجد الحرام فألقى بعض الدروس ، وأخذته هيبة مالك وحسن معرفته بالحديث .

وعـرف عـن مـالك أنه على الرغم من سماحته ، صارم في عمله ، لا يبيح وقته للناس ، ولايستقبل من يطرق باب داره خلال ساعات العمل أو الراحة ..

ولكن الشافعي لايريد أن يكتفي بحضور دروس مالك في المسجد النبوى ، وهي مباحة للعامة ، بل يريد أن يلزمه ليتلقى منه علمه ، وليتاح له أن يسأله ويحاوره ...

ومالك لايأذن بالحوار في دروسه و يطرد من حلقته كل من خالف تقاليد الدرس .. !!

مالسبيل إلى الإمام مالك إذن ! ؟

قرر الشافعي أن يحسن إعداد نفسه للقاء الإمام مالك ... فبحث عن كتابه « الموطأ » الذي أخرجه مالك منذ حين واضعا فيه كل فقهه وكل ماصح عنده من الأحاديث النبوية الشريفة .

ووجد الشافعي نسخا من الكتاب ولكنها غالية الثمن ، وهو رقيق الحال .. فاستعار الكتاب من أحد شيوخه في مكة وعكف عليه النهار والليل ، حتى حفظ الكتاب. ، بحافظته المدربة التي تعود الاعتماد عليها منذ كان لايجد ثمن الورق . ومنذ كان يدرس بالمكتب وهو صبي .

وزاده حفظ كتاب « الموطأ » شوقا إلى لقاء الإمام مالك وإلى صحبته .. !

وجهزته أمه للسفر إلى المدينة و باعت في ذلك بعض أثاث الدار..

إنها لهجرة في سبيل العلم فهي في سبيل الله

ورأت أمه أن تسهل له لقاء مالك ، فوسطت بعض أقاربها إلى والي مكة ، ليعطي ولدها كتابا إلى والي المدينة ، عسى أن يتوسط للشافعي فيلقى مالكا و يلزمه .

ويحكي الشافعي عن هذه التجربة بعد أن أخذ كتاب توصية من والي مكة إلى والى المدينة وإلى الإمام مالك .

قال الشافعي : «فقدمت المدينة ، فأبلغت الكتاب إلى الوالي فلما قرأه قال : يافتى إن مشيي من جوف مكة إلى جوف المدينة حافيا راجلا أهون علي من المشي إلى باب مالك بن أنس . فلست أرى الذل حتى أقف على بابه . فقلت : أصلح الله الأمير. إن رأى الأمير يوجه إليه ليحضر. فقال : هيهات ليت أني لو ركبت أنا ومن معي ، وأصابنا من تراب العقيق نلنا بعض حاجتنا .. ! فواعدته العصر، وركبنا جميعا فوالله لكان كما قال . لقد أصابنا من تراب العقيق ، (والعقيق حي بالمدينة يسكنه مالك) فتقدم رجل منا فقرع الباب فخرجت إلينا جارية سوداء فقال لها الأمير: (قولي لمولاك إني بالباب ، فدخلت فأبطأت ــ ثم خرجت فقالت : إن مولاى يقرئك السلام و يقول إن كانت لديك مسألة فارفعها في رقعة يخرج إليك الجواب . وإن كان للحديث فقد عرفت يوم المجلس فانصرف ، فقال لها : قولي له إن معي كتاب والي مكة إليه في حاجة مهمة . فدخلت وخرجت وفي يدها كرسي . فوضعته ثم إذا بمالك قد خرج ، وعليه المهابة والوقار وهو شيخ طويل مسنون اللحية ، فجلس وهو متطلس (يلبس الطيلسان) فرفع إليه الوالي الكتاب . فبلغ إلي هذا (أن هذا رجل يهمني أمره وحاله فتحدثه وتفعل وتصنع) فرمى الكتاب من يده ثم قال : سبحان الله . أوصار علم رسول الله صلي الله عليه وسلم يؤخذ

بالرسائل ؟ ! فرأيت الوالي قد تهيب أن يكلمه . فتقدمت وقلت : أصلحك الله . إني رجل مطلبي «من بني المطلب» وحدثته عن حالى وقصتي ... فلما سمع كلامي نظر إلي ، وكان لمالك فراسة فقال : ماسمك : قلت محمد فقال : «يامحمد إنه سيكون لك شأن وأى شأن . إن الله تعالى قد ألقى على قلبك نورا فلا تطفئه بالمعصية . إذا ماجاء الغد تجيء ويجيء مايقْرأ لك» . فغدوت عليه ومعي «الموطأ» وابتدأت أن أقرأ ظاهرا (من الحافظة) والكتاب فى يدى . فكلما تهيبت مالكا وأردت أن أقطع ، أعجبه حسن قراءتي وإعرابي فيقول : (يافتى زد) ، حتى قرأته عليه في أيام يسيرة .»

ومنذ ذلك اللقاء عام ١٧٠ هـ لزم الشافعي مالكا حتى مات الإمام مالك عام ١٧٩هـ .

لم يتركه الشافعي إلا ليزور أمه بمكة . أو ليقوم برحلة إلى إحدى عواصم العلم والفقه .. وكان يستأذن شيخه مالك بن أنس فإذا أذن له جهزه بزاد ومال ودعا الله له .

وفي المدينة التقى الشافعي بمحمد بن الحسن تلميذ أبي حنيفة وشيخ أهل الرأى فى العراق ، والتقى ببعض تلاميذ جعفر الصادق ، وتعلم منهم بعض فقه الإمام الصادق وأقضية الإمام علي كرم الله وجهه .. وتعلم من مذهب الإمام الصادق أن العقل هو أقوى أدوات الاستنباط حين لايكون نص .العقل وحده هو أداة فهم النصوص لا الا تباع ولا التقليد !

وتعلم من تلاميذ الإمام الصادق رأى الإمام في حقيقة العلم .. فالعلم ليس حفظ القرآن والحديث ومعرفة الآثار فحسب ، ولكنه يشمل كل العلوم الطبيعية والرياضية التي تفسر ظواهر الكون وتكشف عن قدرة الخالق .

وهكذا قرر أن يتعلم تلك العلوم الطبيعية والرياضية ، فتعلم من خلال رحلاته علوم الكيمياء والطب والفيزياء وتعلم الحساب والعلوم التي تجري عليها التجارة وعلم الفلك والتنجيم وهو فرع من العلوم الرياضية . وتعلم الفراسة ، ومارسها .

وقد تعرف إلى عدد من فقهاء مصر من تلاميذ الليث ، وكان من عادتهم بعد الحج أن يزوروا المدينة ليصلوا في الحرم النبوي وليسمعوا لمالك . وقد أملى الشافعي «الموطأ» على بعضهم ونشأت بينه وبينهم صداقة انتفع بها عندما هاجر إلى مصر ومنهم ابن عبد الحكم .

ولقد رأى يوما فى الروضة الشريفة بين القبر والمنبر فتى جميل الوجه نظيف الثياب حسن الصلاة ، فتوسم فيه خيرا ، وحدثه فعرف أنه من الكوفة بالعراق فسأله : «من العالم بها والمتكلم في نص كتاب الله عز وجل ، والمفتي بأخبار رسول الله صلي الله عليه وسلم» فقال : «محمد بن الحسن وأبو يوسف صاحبا أبي حنيفة» : فقال الشافعي : «ومتى عزمتم تظعنون ؟» فقال الشاب : غداة عند انفجار

الفجر»

وذهب الشافعي إلى شيخه ليستأذنه أن يرحل في طلب العلم ، فقال له شيخه مالك : العلم فائدة يرجع منها إلى عائدة . ألم تعلم بأن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يطلب ؟ »

فلما كان السحر وانفجر الفجر ، سار مالك مودعا تلميذه الشافعي عند محطة القوافل بالبقيع خارج المدينة

وصاح مالك يسأل عمن يؤجر راحلة إلى الكوفة ، فقال له تلميذه الشافعي : «لِمَ تكترى لي راحلة ولاشيء معك ولاشيء معي ؟ «فقال مالك له : » لما انصرفت عني البارحة بعد صلاة العشاء الآخرة ، قرع علي قارع الباب ، فخرجت إليه ، فسألني قبول هدية فقبلتها فدفع إلي صرة فيها مائة مثقال وقد أتيتك بنصفها وجعلت النصف لعيالي » . وكان الطارق هو أحد تلاميذ الإمام الليث ، حمّله الليث هذه الهدية لصديقه الإمام مالك وكان الليث قد تعود أن يصل مالكا بالهدايا الثمينة والمال الكثير

خرج الشافعي من المدينة وهو شاب فى الثانية والعشرين ، فوصل الكوفة بعد رحلة شاقة استغرقت أربعة وعشرين يوما ، فاستضافه محمد بن الحسن ، وتحاورا فى الفقه ، وحضر حلقاته وحلقات زميله أبي يوسف

وكتب الشافعي كل ماوجد عند صاحبي أبي حنيفة من فقه الإمام الأعظم ، وعند ماترك الكوفة كان معه من الكتب حمل بعير.

ثم طاف في بلاد فارس ، والتقى بشيوخها وجرت بينه وبينهم محاورات ، ثم سافر الى ديار ربيعة ومضر ، وألَمَّ ببعض قبائل البدو ، فأصاب ماعندهم من الفصحى .. وطاف في هذه الرحلة ببغداد وشمال العراق والأناضول وحَرَّان ثم سافر إلى بلاد الشام وزار أمه بمكة ..

وعاد بعد عامين إلى المدينة وقد تزود بكثير من المعارف وكان يسأل طوال الرحلة عن أخبار شيخه مالك ، فعرف أنه قد اتسعت أرزاقه وأصاب الغنى ، فقد أجرى عليه الخليفة راتبا كبيرا ، ووصله بالأموال والهدايا الثمينة ..

وقصد الشافعى الحرم النبوى ، وبينما هو يتهيأ للجلوس فى المسجد فى حلقة الإمام مالك ، إذ فاح عطر فى المسجد فتهامس من فى المسجد إنه مالك .. ورأى مالك يدخل المسجد وحوله جماعة يحملون ذيله حتى جلس على كرسيه الذى أعد له من قبل وعليه حشية ومن حوله الدفاتر . وبدأ مالك درسه فطرح مسألة على تلاميذه فلم يجبه أحد . وظل يطرح مسائل وما من مجيب . ! فضاق صدر الشافعى ،

فنظر إلى رجل بجانبه ، وهمس إليه بالجواب .. واستمر مالك يسأل والرجل يجيب بما يهمس إليه الشافعي فسأل مالك من أين لك هذا العلم ؟ فقال الرجل : « إن بجانبي شابا يقول لي الجواب » . فاستدعى مالك ذلك الشاب فإذا هو الشافعي.. ولم يكن مالك قد استطاع أن يراه في زحام الحلقة. فرحب به مالك ، وضمه إلى صدره ، ونزل عن كرسيه وقال له : « أتمم أنت هذا الباب » .

رضي مالك عن شرح تلميذه الشافعي ، وما انتهى الدرس ، حتى أخذه إلى بيته وأغدق عليه .

وحكى الشافعي لأستاذه عن كل ما تعلمه ولقيه في رحلته من طرائف .

حكى له عن تجربته مع علم الفراسة ، وكان مالك ينصح تلميذه ألا ينصرف إلى غير علوم الشريعة ، وما يعين على الفقه بها وفهم النصوص واستنباط الأحكام ، والاهتمام باللغة وآدابها ، وحفظ أخبار العرب وأيامهم ، وحفظ الشعر الجاهلي ، لأن كل أولئك أدوات لفهم نصوص القرآن والأحاديث .. أما الفراسة ففي نفس مالك شيء منها .. !

حكى الشافعي لشيخه مروحا عنه بعض ما صادفه مع علم الفراسة .. فقد مر في رحلته برجل يقف في فناء بيته ، وهو رجل أزرق العينين بارز الجبين ، وتأمل الشافعي ملامحه ، وقال لنفسه : « إن علم الفراسة يدل على أن هذا الرجل لئيم خبيث . وكان الشافعي مجهدا يلتمس مكانا يستريح فيه . قال الشافعي : «سألت الرجل هل من منزل ؟ » قال : « نعم » . وأنزلني فما رأيت أكرم منه! وبعث إلى بعشاء طيب » وعلف لدابتي ، وفراش ولحاف . فقلت : « أعلم الفراسة دل على غاية دناءة هذا الرجل وأنا لم أشاهد منه إلا خيرا . فهذا العلم باطل ! ولما أصبحت قلت للغلام : أسرج الدابة . فلما أردت الخروج قلت للرجل : إذا قدمت مكة ومررت بذي طوى فاسأل عن منزل محمد بن أدريس : فقال الرجل أعبد أبيك أنا ؟ ! أين ثمن الذي تكلفت لك البارحة ؟ ! قلت : وما هو ؟ قال: اشتريت لك بدرهمين طعاما ، وأداما بكذا وعطرا بكذا ، وعلف دابتك بكذا ، واللحاف بكذا .. قلت: ياغلام أعطه . فهل بقي شيء ؟ قال كراء المنزل فاني وسعت عليك وضيقت على نفسي .

فضحك مالك .. وأكمل الشافعي : فعظم اعتقادي في علم الفراسة ولم يجبه مالك بغير الضحكات .. وقلما كان يضحك !

****

عاد الشافعي من هذه الرحلة باحترام كبير للإمام أبي حنيفة النعمان فقد قرأه على صاحبيه أبي يوسف ومحمد بن الحسن ، وأعجب بطريقته في الحوار والاستنباط ، وبسعة أفقه ، وروى عنه كثيرا من حيله ، ودافع عنه .

وكانوا فى الحجاز يهاجمون أبا حنيفة ويتهمونه بأنه لا يحسن علم الحديث ، فدافع عنه الشافعى ووضعه فى مكانه ، وعلمهم أن الناس « في الفقه عيال على أبى حنيفة » .

استقر الشافعى بالمدينة تلميذا للإمام مالك ، ثم بدأت تستقيم له طريقة في الجدل ، فهو يلقى بالحجة دون أن يرفع صوته ، ويقول لمجادله : « خذ مكاني وآخذ مكانك » .. ويقول الرأى ، والرأى المضاد ، حتى ينتهي من هذا الأسلوب الجدلى إلى الحقيقة .

وأخذ ينتصف لأهل الرأى من أهل الحديث ، وينصف أهل الحديث من أهل الرأى ، ويقاوم التعصب المذهبي..

عاش فى ظل الإمام مالك ورعايته حتى مات الإمام مالك سنة ١٧٩ هـ والشافعي في نحو التاسعة والعشرين . وبكى الشافعي أستاذه الإمام مالك بن أنس أحر بكاء وعكف على قراءة القرآن ملتمسا العزاء.. وشعر أنه أصبح غريبا فى المدينة » .

لم تطب له الحياة بعد بالمدينة بعد أن توفي شيخه ..

وبدأ يبحث عن مكان يعمل فيه عملا يعيش منه.. وعاد إلى أمه بمكة ، مودعا المدينة من خلال الدمع.

وكان والى اليمن قد أقبل إلى الحجاز في ذلك الوقت . فتوسط بعض أقرباء الشافعي من القرشيين عند والي اليمن ، فصحبه معه إلى اليمن ووكل إليه عملا .

لم يكن عند أم الشافعي ما تساعد به ابنها ليتزود في سفره هذا ، وليقيم في اليمن حتى يقبض راتبه، فرهنت دارا كانت لها بمكة ، وسافرت معه .

ولقد غضب منه أحد شيوخه بمكة وعنّفه لأنه يترك الفقه من أجل الوظيفة بقوله : « تجالسوننا وتسمعون منا ، فإذا ظهر لأحدكم شيء دخل فيه ؟ » .

وتولى الشافعي عملا مهما في نجران باليمن، وهناك عاود دراسة علوم الفراسة التي كانت مزدهرة باليمن، حتي تفوق فيها .

وجلس إلى بعض شيوخ الشيعة باليمن فتلقى منهم، ولزم يحيى بن حسان تلميذ الليث بن سعد المصرى وصاحبه ، فأخذ عنه كل ما انتهى إليه من فقه الليث .

وقام الشافعي بعمله في نجران خير قيام ، وأحبه الناس لعدله ، ولتمسكه بالشريعة ، وإغلاقه باب المجاملة والملق

ثم انه وجد حاكم نجران يظلم الناس. ، فقاوم الحاكم ووقف فى المسجد يحض الناس على مقاومته ، وأخذ يضرب لهم الأمثال لما يجب أن تكون عليه سيرة الحاكم بالإمام علي بن أبي طالب وسيرته فى الخلافة ، فأثار عليه أعداء كثيرين من الذين رفض مجاملتهم

ووشي حاكم نجران بالشافعي ، ودس عليه أنه أسس حزبا علويا يعد للثورة على الخليفة ، ليولي أحد أحفاد الإمام علي ، بدلا من هارون الرشيد ، وأنه يؤيد الحفيد في الثورة على الرشيد .

وكان العباسيون غلاظا على العلويين ، يسفحون دماءهم بالظن . فقد كانوا يعرفون أن كثيرين يرون العلويين أحق منهم ومن الأمويين بالخلافة .

فزع الرشيد من قراءة كتاب والي نجران وخاصة من قوله عن الشافعي : « لاأمر لي معه ولانهي ، فهويعمل بلسانه مالا يقدرعليه المقاتل بسيفه » .

وفى الحق أن الشافعي ماكان يخفى حبه لعلي وللطالبيين ، فقد قيل له يوما : خالفت علي ابن أبى طالب رضي الله عنه فيا قلت » . فقال لمناظره « اثبت لي هذا عن علي بن أبي طالب حتى أضع خدى في التراب وأقول قد أخطأت وأرجع عن قولي إلى قوله »

ووجد في اليمن كثيرا من الطالبيين ، وحضر مجالس العلم معهم ولكنه كان يستمع ولا يتكلم فإذا سئل في ذلك قال : لا أتكلم في مجلس يحضره أحدهم وهم أحق بالكلام مني ولهم الرياسة والفضل » .

وهكذا شاع عنه حبه لبني على ، والطالبيين جميعا .

قيل له إنك لمتشيع تشايع علي بن أبي طالب وتشايع بنيه من بعده ومنهم الثائر العلوى على الرشيد .. فقال : «ياقوم ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم لايؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين ؟ وقال عليه الصلاة والسلام : إن أوليائى من عترتى المتقون ، فإذا كان واجبا علي أن أحب قرابتي وذوى رحمي إذا كانوا من المتقين ، أليس من الدين أن أحب قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كانوا من المتقين ؟ «وكتب والى نجران مرة أخرى إلى هارون الرشيد أن الشافعى يؤلب عليه الأمة وأنه يقود تسعة من الثوار ، يوالون الثائر العلوي الذى يطالب بالخلافة .

فأرسل الرشيد إلى والى نجران أن يرسل إليه الثوار مهانين فى الأصفاد .

كانوا تسعة على رأسهم الشافعى ووضع الحديد فى أرجلهم وأعناقهم تنفيذا لأمر الرشيد وسيقوا إليه مهانين ...

كان الشافعى فى الرابعة والثلاثين ، فارسا ، بطلا فى رياضة الرمي ، جلدا قوى البنيان ، ولكنه جهد من الرحلة والإهانة .

وأدخلوهم على الرشيد وإلى جواره محمد بن الحسن قاضى الدولة ، الذى تلقى عنه الشافعى من قبل فى الكوفة .

وكان الشافعى يدعو بهمهمة يسمعها الحاضرون : « الله يالطيف أسألك اللطف فيما جرت به المقادير ».

أنكر التسعة تهمة الثورة على الرشيد ، ولكنه أمر بقطع رءوسهم جميعا وسأله التاسع أن يمهله حتى يكتب لأمه فليس لها غيره ، وأقسم أنه برىء من الإعداد للثورة على الرشيد ، ولكن الرشيد أمر بقطع رأسه .

كل هذا والشافعى فى الأصفاد : الأغلال فى عنقه والحديد فى قدميه ، ورأسه بالرغم من كل ذلك شامخ .

وبالله كان مجهدا .

وها هو ذا يرى الموت رأى العين ، ولكنه على الرغم من كل شىء ثابت الجنان ، عميق الإيمان لا يملك إلا أن يدعو الله بالنجاة ...

وعندما انتهى الرشيد من قتل الرجل التاسع ، قال الشافعى : « السلام عليك ياأمير المؤمنين وبركاته.. » ولم يقل ورحمة الله .

فقال الرشيد : « وعليك السلام ورحمة الله وبركاته بدأت بسنة لم تؤمر بإقامتها ، ورددنا عليك فريضة قامت بذاتها ، ومن العجب أن تتكلم فى مجلسى بغير أمرى » .

قال الشافعى : « إن الله تعالى قال فى كتابه العزيز (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا) وهو الذى إذ وعد وفى ، فقد مكنك فى أرضه وأمننى بعد خوفى حيث رددت

السلام بقولك » وعليك رحمة الله «فقد شملتنى رحمة الله بفضلك ياأمير المؤمنين »

فقال الرشيد : «وماعذرك من بعد أن ظهر أن صاحبك ــ يعنى الثائر العلوى طِغي علينا و بغى ، واتبعه الأرذلون وكنت أنت الرئيس عليهم ؟

فقال الشافعى : «أما وقد استنطقتنى ياأمير المؤمنين فسأتكلم بالعدل والإنصاف . لكن الكلام مع ثقل الحديد صعب فإن جدت على بفكه أفصحت عن نفسى . وإن كانت الأخرى فيدك العليا و يدى السفلى والله غني حميد »

فأمر الرشيد بفك الحديد عنه ، وأجلسه .

وقال الشافعي : حاشا لله أن أكون ذلك الرجل ، قال تعالى : (ياأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا . .) لقد أفك المبلغ فيا بلغك وإن لى حرمة الإسلام وذمة النسب وكفى بهما وسيلة . . وأنت أحق من أخذ بكتاب الله . أنت ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم الذائد عن دينه الحامي عن ملته وأنا ياأمير المؤمنين لست بطالبي ولاعلوى وإنما أُدْخِلتُ فى القوم بغيا عليّ أنا رجل من بنى المطلب ابن عبد مناف . . أنا محمد بن أدريس بن عثمان بن شافع بن السائب . .

فقاطعه الرشيد : «أنت محمد بن أدريس ؟

فقال الشافعى : «ولى مع ذلك حظ مع العلم والفقه ، والقاضى يعرف ذلك ،

وكان محمد بن الحسن الذي استضاف الشافعى فى الكوفة من قبل ، قد أصبح قاضى الدولة ، يجلس بجوار الرشيد فقال له الرشيد : «ماذكرك لى محمد بن الحسن » ثم التفت إلى القاضى وسأله : يامحمد . . مايقول هذا أهوكما يقوله ؟ . فقال بن الحسن إن له من العلم شأنا كبيرا . وليس الذى رُفِعَ عليه من شأنه

قال الرشيد : فخذه حتى أنظر فى أمره .

وهكذا نجا الشافعى برأسه ... وخرج إلى بيت محمد بن الحسن ضيفا عليه . .

ومازال محمد بن الحسن بالخليفة ، حتى رضى عن الشافعى ، واستدعاه ليمتحن علمه .

وعقد له مجلسا من أهل العلم والفقه والرياضيات والطبيعيات والكيمياء والطب .

قال الرشيد : «إنا نراعى حق قرابتك وعلمك فكيف علمك ياشافعى بكتاب الله عز وجل فإنه أولى الأشياء أن يُبْتَدَأ به ؟

فقال الشافعى : عن أى كتاب من كتب الله تسألنى ياأمير المؤمنين فإن الله قد أنزل كتبا كثيرة ؟

فقال الرشيد ؛ «أحسنت . لكن إنما أسالك عن كتاب الله تعالى المنزل على ابن عمى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال الشافعى : «إن علوم القرآن الكريم كثيرة فهل تسألنى عن محكمه أو متشابهه أو عن تقديمه أو تأخيره أو عن ناسخه أو منسوخه ؟ .

فأعجب الرشيد وأهل المجلس بجواب الشافعى .

ثم أخذ الرشيد يسأله عن سائر العلوم الطبيعية والرياضية من طب وكيمياء وفلك وتنجيم وفراسة . .

فصفق الحاضرون إعجابا بحسن إجاباته ، وأجازه الرشيد بخمسين ألف دينار ، فقبلها الشافعى شاكرا ، وخرج إلى دار مضيفه ، فلحق به أحد كبار رجال الدولة فقدم إليه صرة كبيرة بها دنانير ذهبية ، فردها الشافعى قائلا : «لا أقبل عطاء ممن هو دوني إنما أقبل العطاء من الخليفة وحده»

عاد الشافعي إلى دار مضيفه محمد بن الحسن ، يتأمل كل الذى دار بينه و بين الخليفة .

تعلم الشافعى من المحنة ألا يزج بنفسه فى صراع سياسى .

وحاول محمد بن الحسن أن يجذبه ليكون فى صف بنى العباس ، بدلا من بنى على ، ولكنه آثر العافية وأقسم ألا يخوض غمرات الصراع السياسى ، وألا يقبل منصبا فى الدولة ، فلن يهب نفسه لشىء بعد أعظم من العلم والفقه .. واعترف أنه أخطأ حين قبل المنصب فى اليمن ، فزج بنفسه فيما ليس من شأنه .

وعكف على دراسة الطب والعلوم الطبيعية والرياضية يستكمل مافاته منها ، واهتم بالرياضة البدنية ، وعاد يتدرب على الرمى وركوب الخيل ، وقسم وقته بين هذا كله و بين دراساته الفقهية ودراسة ماترجم من ثقافات المصريين القدماء القبط واليونان والفرس والهند .

واتخذ لنفسه دارا ، و بدأ يدرس فقه العراق على يد محمد بن الحسن تلميذ الإمام أبى حنيفة .

لقد درس هذا الفقه مرة عندما كان فى نحو العشرين ، وهاهوذا اليوم فى نحو الخامسة والثلاثين وقد أكسبته السنون خبرة ، وأنضجت الدراسة والمعاناة والتأملات عقله وقلبه ، يعيد دراسة فقه أبى حنيفة وغيره من فقهاء العراق .

و يبذل فى كل أولئك من الجهد ماجعل الطبيب يحذره من السل .

صاحب الشافعي محمدا يتلقى منه فقه أهل الرأى ، ولم يجد فى ذلك غضاضة ، فقد كان دائما مشوقا إلى المعرفة ، وإلى المزيد من العلم ـ وكان يقول : « من حسب أنه علم فقد ضل وجهل »

ولزم الشافعى حلقة محمد بن الحسن فى بغداد ، وشاهد فى الحلقة مخالفة لمالك ، وهجوما على آرائه ، وكان يستحى أن يواجه محمدا فى الحلقة بخلافه معه حول الإمام مالك ، فما يكاد محمد ينصرف عن حلقته ، حتى يسرع الشافعى فى مناظرة تلاميذ محمد ، مدافعا عن فقه الإمام مالك ، وعن أهل السنة ، حتى لقد أطلقوا عليه فى العراق اسم «ناصر السنة »

وعرف محمد أن الشافعي يناظر فى غيابه ، فأصر محمد على أن يناظره الشافعى .

وأبى الشافعي خجلا من محمد ، ولكن محمدا ألح عليه فتناظرا فى رأى الإمام مالك فى الاكتفاء بشاهد واحد مع اليمين

وظهر الشافعى على محمد فى المناظرة

ثم رجع الشافعى عن هذا الرأى عندما رحل إلى مصر ، وسمع من تلاميذ الإمام الليث حجة شيخهم فى التمسك بشاهدين .. فأخذ الشافعي برأى الليث ...

أعجب محمد بالشافعى ، وولع بمناظراته . وأعجب الشافعي بعلم محمد و بخلقه العلمي ، فما كان يغضب إذا غلبه مناظر ، وماأسرع ما كان يعترف لمناظره بالصواب إن اقتنع بحجته .

قال عنه الشافعى : مارأيت أحدا سئل فى مسألة فيها نظر إلا رأيت الكراهة فى وجهه إلا محمد بن الحسن » .

وقد بلغ من حب محمد للشافعى ، أنه كان على موعد مع الخليفة ، وإذ بالشافعي أمام دار محمد ، فنزل محمد عن دابته ، وقال لغلامه اذهب فاعتذر. وأخذ بيد الشافعى ، فقال الشافعى : «لنا وقت غير هذا «فقال محمد « لا »

ودخل به داره يتناظران و يتدارسان

وعلى الرغم من أن محمدا من أهل الرأى من أتباع أبى حنيفة والشافعي من أتباع مالك شيخ أهل السنة ـــ و بين أبى حنيفة ومالك خلاف كبير فى الأصول والفروع ـــ على الرغم من ذلك فإن محمدا كان يمدح لتلاميذه علم الشافعى وسألوه لماذا يؤثر الشافعي عليهم على الرغم من خلافهما فقال : لتأنيه وتثبته فى السؤال والاستماع .

أثـرت الحيـاة الـفـكـر ية فى بغداد ثراء عظيما بمحاورات الشافعى ومحمد بن الحسن ، وكانت مثالا لأدب المناظرة، وبراعة المتناظر ين .

لكم كان الشافعي عفيف اللسان فهو لايسىء إلى أحد ولايحب أن يذكر أحد بسوء أمامه .

قال له أحد أصحابه فلان كذاب . فقال : لا تقل (كذاب) بل قل حديثه غير صحيح »

وكان يعظ أصحابه : «نزهوا أسماعكم عن استماع الخنا كما تنزهون ألسنتكم عن النطق به . فإن المستمع شر يك القائل .

والشافعى على الرغم من خلافه مع أبى حنيفة إمام الرأى كان إذا سئل عن مكانته بين فقهاء العراق ــ ومنهم أهل الحديث ــ قال : «سيدهم»

ولعل أروع محاوراته مع محمد بن الحسن . هى تلك التى دارت حول الغصب

قال محمد للشافعي : «بلغنا أنك تخالفنا فى مسائل الغصب «فقال الشافعي» أصلحك الله إنما هو شىء أتكلم به فى المناظرة فإنى أُجلّك عن المناظرة

ولكن محمدا صمّم على أن يناظره

فسأله : «ماتقول فى رجل غصب ساحة و بنى عليها بناء وأنفق عليها ألف دينار، فجاء صاحب الساحة وأقام شاهدين على أنها ملكه ؟

قال الشافعى : «أقول لصاحب الساحة ترضى أن تأخذ قيمتها ؟ فإن رضى ، وإلا قلعت البناء ودفعت ساحته إليه .

قال محمد : فما تقول فى رجل غصب لوحا من خشب فأدخله فى سفينته ووصلت السفينة إلى لجة البحر، فأتى صاحب اللوح بشاهدين عدلين . أكنت تنزع اللوح من السفينة ؟

قال الشافعى «لا»

قال محمد : «الله أكبر تركت قولك ! ثم ماتقول فى رجل غصب خيطا فجرحوا بطنه فخاطوا بذلك الخيط تلك الجراحة . فجاء صاحب الخيط بشاهدين عدلين أن هذا الخيط مغصوب أكنت تنزع الخيط من بطنه ؟

قال الشافعى «لا»

فقال محمد : « الله أكبر . تركت قولك » .

فقال الشافعي : أرأيت لو كان اللوح لوح نفسه (لوح صاحب السفينة) وأراد أن ينزع ذلك اللوح من السفينة حال كونها فى لجة البحر ، أمباح له ذلك أم يحرم عليه ؟

قال محمد : « يحرم عليه » .

فسأل الشافعى : « أرأيث لو جاء مالك الساحة وأراد أن يهدم البناء أيحرم عليه ذلك أم يباح ؟

فأجاب محمد : « بل يباح » .

قال الشافعى : « رحمك الله فكيف تقيس مباحا على محرم ؟ » .

قال محمد : فكيف يصنع بصاحب السفينة ؟

قال الشافعى آمره أن يسيرها إلى أقرب السواحل ، ثم أقول له انزع اللوح وادفعه لصاحبه .

قال محمد : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « لا ضرر ولا ضرار فى الإسلام » .

قال الشافعى : من ضره ؟ هو ضر نفسه ثم سأل الشافعى : « ما تقول فى رجل من الأشراف غصب جارية لرجل من الزنج فى غاية الرذالة » .

ثم أولدها عشرة كلهم قضاة سادات أشراف خطباء . فأتى صاحب الجارية بشاهدين عدلين أن هذه الجارية التى هى أم هؤلاء الأولاد مملوكة له ماذا تعمل ؟

قال محمد : أحكم بأن أولئك الأولاد مماليك لذلك الرجل .

قال الشافعى أنشدك الله أى هذين أعظم ضررا أن تقلع البناء وترد الساحة لمالكها أو أن تحكم برق هؤلاء الأولاد ؟

فسكت محمد بن الحسن ، أما تلاميذه فى الحلقة فمالوا إلى رأى الشافعى .

****

أقام الشافعى فى بغداد أعواما ثلاثا . استوعب فيها كل معطياتها من العلوم الطبيعية والدينية والرياضية والفقهية ، وناظر فقهاءها ، وقرأ عليهم كتاب الإمام مالك « الموطأ » ، ودافع عن أهل الحديث ، وأفاد من أهل الرأى .

وشعر آخر الأمر بالشوق إلى مكة ، و بأنه قد جمع من المعارف مايؤهله لأن يجلس فى المسجد الحرام مجلس المفتى والأستاذ وشيخ الحلقة

وكانت مناظراته قد أعجبت الرشيد ، فعرض عليه أن يوليه القضاء فى أى مكان يريد ، أو يجعله واليا على أى قطر يختار .

ولكن الشافعى استأذن الرشيد فى أن يتفرغ للعلم ، وأن يعود إلى مكة ليعيش بين أهله من قريش و ينشر ماتعلمه بين الناس .

وأذن له الرشيد .

عاد الشافعي إلى أم القرى . فاتخذ له مجلسا للفتوى والتدريس فى فناء بئر زمزم بجوار مقام إبراهيم خليل الله ... وهو المجلس الذى اختاره من قبل فى عصر الصحابة ، عبد الله بن عباس مفسر القرآن الكريم ، وأحد الذين حفظوا فقه الإمام على بن أبى طالب وأقضيته ، وكان نائبه على الحجاز عندما كان الإمام على كرم الله وجهه أميرا للمؤمنين . يحكم الدولة الإسلامية الغنية من الكوفة فى بيت هو من أدنى بيوت المسلمين

عاد الشافعى من بغداد ، ولايزال فى أذنيه طنين من ضجيج المناظرات .. وقد أتاح له مقامه الطويل هناك أن يقترب من أهل الرأى ، وأن يُقربَ أهل السنة من الرأى .. وأن يقنع بعض أهل الرأى بما عند أصحاب السنة ..

ومازالت صور من محاوراته مع محمد بن الحسن تلح عليه ..

فى حواره مع محمد بن الحسن شيخ أهل الرأى فى العراق بعد الإمام أبى حنيفة كان الشافعى يحاول أن يقرب المذهبين ، وكان مفتونا بذلك الطريق الوسط الذى اختطه الإمام الليث بن سعد المصرى بين أصحاب الرأى وأهل السنة .

إنه لايستطيع اليوم أن ينحاز إلى أى الحزبين .. فكيف استطاع الإمام الليث أن يجد هذا المنهج الوسط ؟

كانت آراء الليث قد انتهت إلى الشافعى منذ كان فى اليمن ، ولكنه كان فى حاجة إلى المزيد ، ولابد من السفر إلى مصر ليتلقى العلم من إمامها الليث بن سعد

ولكن أهله فى مكة أم القرى يستبقونه .

وإذن فليقم فى مكة أم القرى حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا . وحتى يؤذن له بالسفر إلى مصر .

لقد أصبح الآن يملك من عطايا هارون الرشيد مايسمح له بالتفرغ الكامل للعلم .

وأنفق نصف ماحمله من العراق على فقراء مكة ، تنفيذا لوصية أمه : أن يتصدق على الفقراء بنصف ما معه كلما قدم إلى أم القرى .

وهاهوذا الآن إمام يجلس للتدريس والإفتاء . ثابتا ، راسخا ، مطمئن النفس

وجعل مجلسه فى المسجد الحرام ساعات قليلة بعد الفجر. أما بقية النهار والليل فقد خصصه للتأمل ، ولاستنباط منهج فى الفقه .

لكم هونادم لأنه أضاع وقته ، إذ قبل وظيفة فى اليمن فدخل فيا ليس من شأنه على حساب ماكان ينبغى أن يحصل من معرفة ، ويشيع من علم ، وعلى حساب طلب الحقيقة والحكمة ..

على أن الوقت لم يفت بعد ، وعليه أن يعوض مافات .. إنه لَعمل النهار والليل إذن ..

إنه ليفسر القرآن ويستنبط دلالات آياته ، ويدرس الناسخ والمنسوخ ، ويدرس السنة ومكانها من القرآن ، ويتعرف على صحيح الأحاديث من باطلها ، فى عصر كثر فيه وضع الأحاديث إما مشايعة للفرق السياسية المتناحرة ، وإما كيدا للإسلام ، وإما غفلة من وضاع الحديث أو ناقليه حتى لقد صح عنده أن بعض الذين سمعوا الأحاديث كانوا يسمعون بعضها فيكتفون به ، وقد يكون فيا لم يسمعوه منها ماينسخ مانقلوه .

ثم أخذ يفكر فى كيفية استخراج الأحكام إن لم يكن هناك نص فى القرآن أو السنة وكيف يجتهد المجتهد وماضوابط الرأى .

ووضع كتابا أسماه « الرسالة » فيه القواعد الكلية العامة لاستنباط الأحكام وأسس هذا الاستنباط ، وأعاد النظر فيه فنقحه واختصر منه ولكنه لم يطمئن إلى نشره ، فرأى أن يتركه بعض الوقت عسى أن يعيد النظر فيه ، بعد طرح مافيه من أفكار على أهل حلقته ، ومناظرة شيوخ مكة وعلماء الأمصار الذين يفدون إلى البيت الحرام .

وطال مقامه بأم القرى هذه المرة ، وطابت له فيها الحياة ، وجذب إليه الكثيرين من رواد الحلقات الأخرى فى المسجد الحرام .

وجلس إليه أحمد بن حنبل فأعجب به ، فذهب أحمد إلى صحابه الذين يلتمسون العلم فى حلقات

أخرى بالمسجد الحرام وأغراهم بالذهاب إلى حلقة الشافعى . و يروى أحد أصحاب ابن حنبل : « قمت فأتى بى أحمد بن حنبل إلى فناء زمزم ، فإذا هناك رجل عليه ثياب بيض ، تعلو وجهه السمرة ، حسن السمت ، حسن العقل ، وأجلسنى أحمد بن حنبل إلى جانبه

وقال أحمد ابن حنبل لصاحبه : « اقتبس من هذا الرجل فإنه مارأت عيناى مثله ، فإن فاتنا لن نعوضه أبدا » .

ثم عاد االشافعى من جديد إلى كتابه الرسالة ، يتأمله ويهذبه حتى استقام له علم أصول الفقه ، فرأى أن يذهب إلى العراق يعرض على شيوخه هذا العلم الجديد و يناظرهم فيه .

كان قد جاوز الخامسة والأربعين ، وقد أصبحت له بمكة مدرسة وأتباع . وقد أطلقوا عليه فى مكة « المفتى المكى » ، و « العالم المكى » .

وجلس فى حلقة بجامع بغداد ، يشرح للناس ماوصل إليه فى « الرسالة » من أصول

وهناك بهر بعلمه الفقهاء والتلاميذ ..

ذلك أنه قد انتهى إلى أن القرآن الكريم قد جمع الأحكام وجاءت السنة شرحا وتبيانا لما فى القرآن ..

فعلى المجتهد أن يبحث عن الحكم فى القرآن أو السنة .. فان لم يجد ففى إجماع الصحابة .. إجماع الصحابة فى كل الأقطار لا فى المدينة المنورة وحدها ، بحيث لايصح إجماع إلا إذا اتفق عليه كل الصحابة

فإن لم يجد المجتهد حكما فى كل ذلك ، فعليه أن يبحث فى علة الحكم الواردة بالنص ، و يلحق بهذا الحكم مايتشابه معه فى العلة من القضايا الجديدة ، وهذا هو القياس ، وبهذا أرضى الشافعى أهل الرأى وأهل الحديث جميعا .

احتفلت به بغداد كما لم تحتفل بفقيه زائر من قبل ، وفرح به تلميذه أحمد بن حنبل الذى كان ألف أن يختلف إلى حلقته و يلزمه كلما زار مكة حاجا أو معتمرا ، قاصدا إليها على قدميه .. وتمنى التلميذ على أستاذه أن يقيم فى بغداد سنوات فينشر علمه و يؤسس فيها مدرسة فقهية جديدة .

ولكن الحياة لم تطب للشافعى فى بغداد .. لكم تغيرت بغداد خلال هذه السنوات الطوال التى أقامها الشافعى فى مكة .. !

لم تعد بعد هى بغداد التى أحبها .. مات خير أصدقائه محمد بن الحسن ، ولحق به آخرون ، وسجن الباقون أو تركوا العراق ، وذهب الرشيد ، فاضطربت الأمور بعد موته .. اختلف أولاده .. وحارب الأخ أخاه على الخلافة .. فقد ولى الأمين ولم يكد يستقر على العرش حتى وثب عليه أخوه المأمون فقتله ، وتولى مكانه .

ومازالت أصداء النواح على البرامكة تملأ آفاق بغداد ، منذ نكبهم الرشيد . وهم أقرب الناس إليه ، وأعمل فيهم السيف وآلات التعذيب حتى لايرى فوق ظهرها برمكيا

ثم إن الرشيد بطش بكل معارضيه ، ومازالوا تحت الأصفاد فى كهف سحيق .. وماانفك من بين رجال العلم من يكيد لمخالفيه فى الرأى ويحاول أن يوقع بهم عند المأمون ، الخليفة الذهبى ..

وشيء جديد يشغل مجالس الفقه عما ينبغى أن تشغل به مما يفيد الناس فى دنياهم .. فالأفكار التى تطرح على ندوات العلم والفقه هى صفات الله وعلاقتها بذات الله تعالى .. والجبر والاختيار.

ثم إن العناية بالقرآن الكريم قد عدلت عن تدبر آياته وفهم الأحكام منها ، وتحرى مقاصدها بما يضبط معاملات الناس وسيرتهم فى دينهم ودنياهم ، وانصرف العلماء والفقهاء إلا قليلا إلى مناقشة صفة القرآن الكريم : أقديم هو أم مخلوق ؟

جدل نهى الصحابة عنه ، وانصراف عن مصالح العباد ، ومباحث ماكانت تشغل حلقات العلم والفقه من قبل ، بل كانت تعرض لتختفى ، فها هى ذى الآن تسيطر على العقول والقلوب . ! وهكذا كله غير ماينبغى أن يشغل المسلمون ! ! إن هذا لشيء عجيب ..

وعلى الرغم من الازدهار الحضارى الفائق ، فقد أحس الشافعى أن الجسارة الفكرية فى مواجهة مقتضيات الحياة باستنباط الأحكام قد بدأت تنحسر ، ليزحف مدّ جسارة زائفة ، هى الجرأة على الشريعة نفسها ، وشغْل الناس بما لاينفعهم فى مواجهة حياة كل يوم .

يواكب هذا كله دعوة ملحة إلى الزهد فيما أحله الله لعباده ، وحض الناس على القناعة بالفقر، ليكنز الكانزون ، و يستمتعوا دون الرعية حتى بما حرم الله .. !

لم تعد بغداد هى المدينة التى أحبها الشافعى من قبل ، وأفاد من مناظراته لعلمائها ، وأتقن فيها علوم الطب والفلك ، والفقه .

وإذن مابقاؤه فى بغداد ! ؟

وإلى من يأنس فيها ؟ !

ومع من يقضى وقته ! ؟

لقد ألف حين زارها فى المرة الماضية أن ينفق وقته مع صفيه وأستاذه محمد بن الحسن .. أين رفاق ذلك الزمان من العلماء والفقهاء ؟ لاأحد بعد !

والإنسان يحب من المدائن تلك التى يجد فيها الراحة والألفة ، وحسن الصحبة ، وجمال الرفقة .. ولكنه الآن فى بغداد لايجد من يأنس إليه غير أحمد بن حنبل . إنه لأحب تلاميذه إليه حقا ، وما يقيم الشافعى عليه فى بغداد الآن إلا من أجل أحمد بن حنبل ..

ومر عليه شهران فى بغداد ، واستدعاه المأمون ، فعرض عليه أن يوليه منصب قاضى القضاة ، وهو فى المنصب الذى كان يشغله محمد بن الحسن أيام الرشيد ، ولكن الشافعى كان قد آلى على نفسه ألا يتولى منصبا ، وأن يخصص كل وقته للفقه ، فإن وجد متسعا من الوقت فليخصصه للشعر ، وماأقل ماكان يجد الوقت لممارسة هذا الفن الحبيب إليه ! .. وماأكثر ماكان يخشى أن يُعرف عنه أنه قد أدركته حرفة الشعر فينبذه الفقهاء المتزمتون . ؟

****

وتلقى دعوة إلى زيارة مصر من واليها الجديد ، ومن أحد تلاميذه الذين أملى عليهم « الموطأ » فى مكة من قبل ، وألف استقباله فى كل موسم حج ، وقد أصبح تلميذه هذا الآن فقيها ذا شأن فى مصر وتاجرا واسع الغنى وهو ابن عبد الحكم .

لقد طوف الشافعى فى الآفاق وعرف الدنيا وعرف الناس ، زار اليمن والعراق والشام وفارس والأناضول ، إلا البلد الذى سمع فيه من علم وحكمة ، وتمنى أن يزوره .. زار كل عواصم الفقه ... إلا مصر .. !

وتاقت نفسه إلى زيارة مصر .. إنه يعرف أن أول كتاب ترجم إلى اللغة العربية هو كتاب مصرى فى الطب ، ترجمه فى صدر الأسلام عالم قبطى من أهل مصر .. وقد تعلم الشافعى من هذا الكتاب ... وهو يعرف أن حكماء اليونان الذين بهرته أفكارهم وكل آثارهم ، قد تعلموا الحكمة والطب والفلسفة والرياضيات فى مصر القديمة .. وهو يعرف أن مصر من بين كل البلاد المفتوحة هى البلد الوحيد الذي عرف عقيدة التوحيد قبل الديانات السماوية .. من يدرى .. ربما كان بها رسل وأنبياء ممن لم يتحدث عنهم القرآن ، وقد أخبر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم فى القرآن بأنه أرسل من الرسل من لم

ينزل قصصهم فى القرآن ، ولم ينبئه بأمرهم فيما أنزل عليه من أنباء الغيب . !

وهو يعرف أن فى مصر مزاجا من الحضارات ، وأن الحضارة المصرية القديمة قد شكلت الإنسان المصرى فعلمته حب العدل والحرية والحقيقة والحكمة ، ثم جاءها الإسلام فأنبت فيها نباتا طيبا ، وصاغ لها حياة خصبة من الأخوة .. وانه ليتوق إلى التعرف على ماتركه الصحابة الأوائل فى مصر، منذ جاءوها فى جيش الفتح ، وهو بعد يريد أن يعايش تلك المدرسة المصرية العظيمة فى الفقه الإسلامى ، الغنية باجتهادات الإمام الليث ، رائد الشافعى فى الطريق الوسط بين أصحاب الرأى وأهل الحديث .

وأصبح الشافعى ذات يوم فأعلن أنه راحل من غده إلى مصر ، فألح عليه تلميذه أحمد بن حنبل أن يبقى معهم فى بغداد . ولكن الشافعى كان قد عزم فا عليه إلا أن يتوكل .

وزار قبر الإمام أبى حنيفة ، وصلى ركعتين ... ولاحظ مرافقوه أنه عدل عن قواعده فى حركات الصلاة إلى قواعد أبى حنيفة . فلما سألوه فى ذلك قال : «أدبا مع الإمام أبى حنيفة أن أخالفه فى حضرته» .

واجتمع خلق كثير فى وداع الشافعى . أحمد بن حنبل مابرح يحاول إقناعه بالبقاء فى بغداد ، فيمسك الشافعى بيد ابن حنبل و يترنم :

«لقد أصبحت نفسى تتوق إلى مصر
ومن دونها أرض المهامه والقفر»
«و والله ماأدرى ألُلفوز والغنى
أساق إليها أم أساق إلى القبر»

و بكى أحمد بن حنبل . و بكى الشافعى والحاضرون ، ودعا الشافعى أحمد بن حنبل أن يزوره فى مصر ، فوعده أحمد بالزيارة إن شاء له الله .

وصل الشافعى إلى مصر ، واستقبله على أبواب الفسطاط عدد من الفقهاء ورجال الدولة كلهم يستضيفه

و يلح عليه أن يقبل الضيافة ودعاه الوالى إلى منزل كبير خصصه له ، ولكن الشافعى آثر الإقامة عند أقارب أمه ، تشبها بالرسول عليه الصلاة والسلام حين هاجر إلى يثرب ، فأقام عند أخواله .

وكانت جماعات القبائل العربية مازالت تفد إلى مصر منذ الفتح الإسلامى ، فتستوطن المنازل التى تألفها ، إما فى الفسطاط أو فى الأقاليم .

وكان أول ماصنعه الشافعى حين استقر به المقام أن ذهب إلى قبر الإمام الليث فزاره .

وقال وهو يقف على قبره : «لله درك ياإمام ، لقد حزت أربع خصال لم يكملن لعالم ، العلم والعمل والزهد والكرم»

وبعد أن فرغ من زيارة الإمام الليث سأل عن دار السيدة نفيسة ، وكانت تقيم بمصر . منذ سجن أبوها ، وكان واليا على المدينة وهى حفيدة الحسن بن على وزوجها هو إسحق المؤتمن بن الإمام الصادق جعفر بن محمد حفيد الحسين بن على رضى الله عنهم .

واستأذنوا للإمام الشافعى فى زيارتها فأذنت له ، ورحبت به ، وأعجبها عقله وورعه ، وسمع منها مالم يكن قد وصل إليه من أحاديث شريفة .

وألف منذ تلك الزيارة أن يجلس فى حلقتها فيسمع ، ويقرأ عليها اجتهاداته .. وكان إذا أقعده المرض عن زياراتها أرسل يسألها الدعاء فتدعو له بالشفاء ..

وبعد أن فرغ من أول زيارة للسيدة نفيسة سأل مرافقيه أن يصحبوه إلى «تاج الجوامع»

ـ فهكذا كان يسمى جامع عمرو إذ ذاك ـ فوجد الجامع يعج بحلقات الدرس ، وشاهد عجبا .. ! لم تكن كلها حلقات قرآن وحديث وفقه .. بل كانت فيها حلقات للقصص واللغة ، والشعر ، وسائر فنون الفكر والمعرفة .. ماأروع انطلاق الحياة الفكرية هنا .. ! لقد كان من قبل يقول فى حسرة :

ولولا الشعر بالعلماء يزرى
لكنت الآن أشعر من لبيد !

ولكنه هنا يستطيع أن يقول الشعر بلا حرج فى هذه البيئة الفكرية السمحة

جلس للتعليم والإفتاء ، وفى أول حلقة له بالجامع جلس القرفصاء على حشية وكان مريضا بالبواسير وتصلب فى الأطراف فأراد أن يمد رجله كما تعود منذ مرض عملا بنصح الأطباء ، ولكنه لم يفعل تحرجا منه ، واحتراما لبعض أتباع مالك وأبى حنيفة .. وكان أتباع أبى حنيفة يكثرون الفروض ويبحثون عن أحكام للوقائع المفترضة .. وسأل أحدهم : «إذا حمل رجل قربة بها ريح نجس أينقض وضوءه» ؟ هل انكشاف العورة ينتقض الوضوء فأجاب الشافعى : آن للشافعى أن يمد رجله » .

وجد تقاليد جديدة فى الحلقات .. فالأستاذ لايلقى الدرس على طلاب يستمعون ، كما ألف من

قبل و بصفة خاصة فى حلقة الإمام مالك.. ولكن الأستاذ يبدأ درسه بكلام قليل ، ثم يدير حوارا بينه و بين التلاميذ ، ومن خلال المحاورات تتفجر المسائل وتنضج الآراء

كانت هذه هى تقاليد المدرسة المصر ية القديمة ، وعليها تعلم فلاسفة الإغر يق ومنها أخذوا أسلوبهم فى المحاورات . . .

وعلى هذا النهج سارت المدرسة المصر ية فى الفقه الإسلامى

واتبع الشافعى هذا التقليد حتى فى دروس القرآن والتفسير . .

وأحاط به تلاميذ الإمام الليث وأطلعوه على ماحفظوه من شيخهم .. وكان يحسب أنهم هم الذين يلون القضاء ، وأن إليهم أمر الفقه ، ولكنه وجدهم معزولين ، يضطهدهم المتعصبون ، !

و وجد الحياة الفقهية يتنازعها أنصار الإمام مالك وأنصار الإمام أبى حنيفة ، والغلبة لأنصار الإمام مالك ، وفيهم مغالون يشتطون ، حتى لقد يؤذون من يعلن الخلاف مع مالك من أتباع الليث أو أبى حنيفة

وجادل الإمام الشافعى بعض هؤلاء المشتطين ، وقال لهم إن الإمام « مالك » بشر يخطىء و يصيب فانتفض أحدهم فى وجه الإمام الشافعى ، وسفه عليه ، و وجه إليه كلمات بذيئة ، وحمل الحاضرون هذا المتعصب السفيه وأخرجوه من المجلس ، والشافعى مستمر فى حديثه كأنه لم يسمع شيئا .. ! وعرف الشافعى أن هذا السفيه اسمه « فتيان » و بعد انتهاء الدرس طالب تلاميذه أن يصفحوا عن ذلك السفيه ..

ووضع الشافعى لنفسه نظاما لم يحد عنه . أن يبدأ دروسه بعد صلاة الفجر بعلوم القرآن ، فإذا انتهى منها جلس إلى درس الحديث .. ثم يجلس بعد هذا مجلسا لم يجلسه من قبل فى حلقة قط ، ولكنه تمنى أن يجلسه ، وهو مجلس علوم اللغة والشعر وشتى المعارف الإنسانية الأخرى .. وفى هذا المجلس الأخير كان يعظ من يستمع إليه أو يحاوره : « إنما العلم علمان علم الدين وعلم الدنيا ، فأما الذي هو علم الدين فهو الفقه ، والعلم الذى للدنيا هو الطب ، فلا تسكنن بلدا ليس فيه عالم يفتيك عن أمر دينك ولا طبيب ينبئك عن أمر بدنك » .

فى مجلسه الثالث كان إذا لم يجد بين الحاضر ين من يحسن مذاكرته فى الشعر والأدب والعلوم الإنسانية طلب من صحبه أن يبحثوا له عن أدباء مصر وشعرائها وعلماء المعارف الإنسانية ، فما يزالون يتذاكرون حتى تحين صلاة الظهر ، فيصلى بهم ، أو يصلى خلف واحد منهم ، و ينصرف الجميع .

و يعود الشافعي إلى داره .. وقد يصطحب بعض صحبه للغداء معه ، ثم ينصرف إلى العمل ..

وقد تعلم من أستاذه مالك بن أنس أن يحمل الناس على احترام خلوته للعمل وعكوفه عليه .. فالعمل عبادة يجب ألا يخلطها بشيء آخر ، ويجب ألا يسمح لأحد بإفسادها ، فالعلم لايأتيك بعضه إلا أن تُؤتيه كلك ..

حتى إذا فرغ من العمل وصلى العشاء ، جعل جزءا يسيرا من الليل لاستقبال الضيوف ، فيسمرون معا ، و يتذاكرون الشعر والأخبار ، و بعض مايسرى عن النفس في سمر لطيف عذب .

وكان حسن الإصغاء ، محبا للطرائف ، وقد أعجبته الملح المصرية ، فهويطلب حكايتها من أصحابه المصريين معلنا إعجابه بظرف أهل مصر ..

وهو نفسه يحكي الطرائف مما شاهد في رحلاته الطويلة

من ذلك أنه رأى في المدينة المنورة أربع عجائب لم يرها في بلد قط .. رأى جدة عمرها إحدى وعشرون سنة ! ! وقاضيا حكم بإفلاس تاجر في دين قيمته أربعة أرطال من نوى البلح ! ! وشيخا عمره تسعون عاما يدور نهاره حافيا راجلا قائما يعلم القيان الرقص والغناء ، فإذا جاءت الصلاة صلى قاعداً .. وواليا كان صالحا طيبا فقال « مالي لاأرى الناس يجتمعون على بابي كما يجتمعون على أبواب الولاة ؟ ! قالوا له : « لأنك لا تضرب أحدا ولا تؤذي الناس » فقال : هكذا ؟ ! علي بإمام المسجد » فأحضروا له إمام المسجد فأمسكوا به على باب الوالي ، وجعل الوالي يضرب الإمام والإمام يصرخ « أصلح الله الأمير» إيش جرى .. (أي شيء جرى ؟) وظل الإمام يصرخ والوالي يضربه حتى اجتمع الناس .. وسرى عن الوالي وطابت نفسه ، فقد اجتمع الناس على بابه ! !

وكان مما يستعيد الشافعي روايته من ملح أهل مصر أن رجلا كان له غلام غبي ، فقال له : « اذهب الى السوق فاشتر حبلا في طول خمسة عشر ذراعا « فسأله الغلام وفي عرض كم » قال الرجل في عرضك ! ! في عرضك ! ! « وغاب الغلام ساعة وعاد بلا حبل يقول : » « لم أجد حبلا في عرضي »

****

اطمأنت الحياة بالشافعي في مصر . وجاء رمضان فصلى التراويح بالسيدة نفيسة ، ولاحظ أن عددا من النساء يحضرن دروس الفقه ، منهن بعض زوجات تلاميذه وأخواتهم و بناتهم . وفي حلقة الفقه بالجامع جاءه رجل شاب كان قد طلق امرأته ثم ندم ، وأرجعها في رمضان وقبلها في النهار وهما صائمان ، واتجه الرجل إلى الإمام الشافعي قائلا :

سلوا المفتى المكى هل فى تزاور
وضمة مشتاق الفؤاد جناح ؟

فأدناه الشافعى منه وقال مبتسما :

أقول معاذ الله أن يذهب التقى
تلاصق أكباد بهن جراح

فأحاط بالرجل عدد من المتعصبين وسألوه ، ليجعلوا من القصة مأخذا وسبيلا على الشافعى .. فزعق فيهم الشاب : « ياناس .. أسأله عن امرأتى ، وحكى لهم حكاية إرجاعها وتقبيلها فى نهار رمضان .. فالإمام الشافعى يرى أن قبلته لم تذهب تقاه وصيامه .. وهذا هو رأى إمامهم مالك نقلا عن عمر بن الخطاب عن امراته عن أم سلمة أم المؤمنين ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

وفى هذه البيئة الفكرية المتحررة على الرغم من شغب المتزمتين استراح الإمام الشافعى فى مصر ، فانبسطت نفسه ، وانطلقت أفكاره .

وأخذ يذيع شعره وكثير منه مشهور مثل قوله :

وإنى لمشتاق إلى أرض غزة
وإن خاننى بعد التفرق كتمانى
سقى الله أرضا لو ظفرت بتربها
كحلت به من شدة الشوق أجفانى

وقوله :

كل العداوات قد ترجى مودتها
إلا عداوة من عاداك عن حسد

وقوله :

حسبى بعلمى أن نفع
ما الذل إلا فى الطمع
ما طار طير وارتفع
إلا كما طار وقع

وقوله :

أنــا إن عــشــت لــسـت أعدم قـوتـا
وإذا مــت لــســت أعــدم قــبــرا
هـمـتــى همــة المـلـوك ونـفــسـى
نـفــس حــر تــرى المـذلــة كـفــرا

ولـكـن الإمـام الـشـافعى على الرغم من السماحة التى بهرته فى مصر ، كان يعانى من ضيق أفق المتعصبين وعدوانهم على الناس .. وكان هذا النفر ينتسب إلى المذهب المالكى و يسيئون بسلوكهم إلى سمعة أستاذه وشيخه العز يزعليه .. فنصب نفسه مفندا لدعاواهم .

مـر فـى الـطـريق بفقيه من هؤلاء يمسك برجل و يتهمه فى دينه ، والأخير يهزأ بالفقيه .. وأوشكا أن يتضـاربا ، فخلصهما الشافعى وقال : ماخطبكما ؟ فقال الفقيه : « رأيته يبول واقفا » . قال الشافعى : « ومـافـى ذلـك » ؟ ، قـال : « يـرد الريح من رشاشه على بدنه فيصلى به ، » فسأله الشافعى : « فهل رأيته أصابه الرشاش فصلى قبل أن يغسل ماأصابه ؟ ، فقال « لا » .. ولكنى أراه سيفعل » ، فضحك الـشافعى وحاول أن ينصحه .. فغضب الفقيه ، وعربد على الشافعى وسبه .. وتأمله الشافعى ، فإذا هو « فـتـيان » الأحمق الذى سأل الشافعى حين قدم عما إذا كان ظهور العورة ينقض الوضوء ، ثم شتمه بعد ذلك فى جامع عمرو شتما منكرا .

وإن للشافعى مع « فتيان » هذا لشأنا .. !

وكـان « فـتيان » هذا يقود جماعة من المتعصبين ، يرهب بهم أتباع الإمام الليث لأنه خالف الإمام مـالـك بـن أنس ، و يرهب بهم من يلتفون حول الإمام الشافعى منذ اكتشف الشافعى أن الفقه المصرى يخـتـلـف مع الـفـقـه المالكى فى كثير من الأصول والفروع ، فأخذ الشافعى برأى إمام الفقه المصرى .. الليث بن سعد .

وشـرع المـتـعـصبون لمالك يتهمون الشافعى بأنه لايعرف الحديث ، فرد عليهم أنصار الشافعى بشهادة أحمد بـن حـنبل وهو من أكثر الفقهاء انتصارا للحديث » مامن أحد من أصحاب الحديث حمل محبرة إلا للشـافـعـى عـليه مِنة . ذلك أن أصحاب الرأى كانوا يهزأون بأصحاب الحديث حتى قدم الشافعى إلى العراق ، وأقام الحجة عليهم ! »

وعـلـى الـرغـم ممـا لـقى الشافعى من المتعصبين ، فقد ظل يتابع حلقات الحوار والدروس ، والناس يفدون إليه من مختلف الأقطار والأمصار ، مفتونين بطر يقته فى الإلقاء والجدل ، و ببلاغته حين يخطب

الجمعة حتى أسموه « خطيب الفقهاء »

ومرت به الشهور فى مصر ، وهو ينتظر مقدم صديقه وتلميذه أحمد بن حنبل .. وكثيرا ماكان يشرد و يقول : « وعدنى صاحبى أحمد بالقدوم إلى مصر » .. و يتمنى و ينتظر ..

على أن الواقع المصرى الجديد ، وما اطلع عليه الشافعى فى مصر ، من آراء وطرائق للاجتهاد ، جعله يعيد النظر فى كل ماكتبه من قبل .

لقد غير كثيرا من آرائه .

ومن أبرز الآراء التى ظهر فيها التأثير المباشر للبيئة المصرية رأيه فى الماء .. فقد كان يرى كالإمام مالك أن من حق صاحب الأرض التى بها بئر أن يبيع الماء ...

ولكنه فى أرض النيل ، تابع رأى الإمام الليث . فى أن صاحب الأرض التى بها بئر ليس له إلا حق السبق فى الاستعمال .. أى الامتياز فقط ، وللغير بعد ذلك حق الشرب وسقى الأرض بلا مقابل .

وشرع يراجع كتاب « الرسالة » مرة ثالثة و يصقل ماتضمنه من أصول الفقه .. بل أخذ يراجع كل ماكتب من قبل فأحرق بعضه .

ونظر فى الآراء التى تابع فيها شيخه (مالك) ، وعكف على فقه مالك كله يمحصه على ضوء ماتعلمه فى مصر من فقه الليث ..

فأعلن فى خاصته أن الإمام مالك بن أنس يقول بالأصل و يدع الفرع و يقول بالفرع و يدع الأصل .. ونشر كتابا عن خلافه مع مالك فى الأصول والفروع .. وقال إنه مع الليث فى خلافه مع مالك !

ثم عكف على فقه أبى حنيفة يمحصه وانتهى من دراسته إلى نقد الإمامين مالك وأبى حنيفة . « فمالك أفرط فى رعاية المصالح المرسلة وأبو حنيفة قصر نظره على الجزئيات والفروع والتفاصيل من غير مراعاة القواعد والأصول .. » وهكذا

وانقطع الشافعى ، يعيد كتابة « الرسالة » و يؤلف كتبا جديدة فى الفقه ، و ينقح و يصوب فيما لم يحرقه من الكتب القديمة

وجهد جهدا شديدا فى هذا العمل

وروى بعض أهله «ربما قدمنا المصباح فى ليلة واحدة ثلاثين مرة أو أكثر بين يدى الشافعى ، كان يستلقى و يتذكر و ينادى : «ياجارية هلمى مصباحا» فتقدمه و يكتب و يكتب ثم يأمر برفع المصباح . ثم يعود بعد برهة فيطلبه .. وهكذا . «وسألوه» «لماذا لا تبقى المصباح فقد أجهدت جاريتك وأهلك ؟ » . فقال : «الظلمة أجلى للفكر» فقد كان لا يحسن التأمل إلا فى السكون والظلمة .

و بعد أن فرغ من كتابة فقهه كله أرسل إلى صديقه أحمد بن حنبل أن يخبر الناس بترك كل ماكتبه الشافعى من قبل ، وأن يأخذوا آراءه من كتبه المصرية وأرسل إليه هذه الكتب المصرية . فلما نظر فيها أحمد بن حنبل أعجب بها وسأله أحد أصحابه ماترى فى كتب الشافعى التى عند العراقيين أهى أحب إليك أم تلك التى كتبها بمصر ؟ قال أحمد : «عليك بالكتب التى وضعها بمصر فإنه لم يحكم ماكتبه قبل ذلك ولكنه أحكم كل ماكتبه بمصر

اتجه الشافعى بالفقه اتجاها علميا جديدا ، فهو يعنى بالقواعد الكلية ولايضيع وقته فى الفروع ، فالكلى ينطبق على الجزئيات .

وانتهى فى استنباط الحكم من غير النص ، إلى الاتجاه إلى الإجماع كمصدر للأحكام ، ولكنه لم يشترط إجماع الصحابة كما كان من قبل

والشافعى يطالب الفقهاء والولاة والقضاة بإتقان اللغة العربية ، لكى يفهموا النصوص حق الفهم .. فبها نزل القرآن تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة و بشرى للمسلمين .. فمن لايتقن العربية غير جدير بالنظر فى الشريعة .. وهو يعنى بإتقان العربية إتقان علومها من نحو وصرف وفقه لغة و بلاغة وأدب وشعر

ولقد حضر رجل من خرسان حلقة الشافعى فى جامع عمرو فسأل : ماالإيمان ؟

فرد الشافعى : «فما تقول أنت فيه

فقال الرجل : الإيمان قول

قال الشافعى : من أين قلت بذلك ؟

قال الرجل : «من قوله تعالى : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) فصارت الواو فصلا بين الإيمان والعمل

فسأله الشافعى : « فعندك الواو فصل « قال نعم »

قال الشافعى : فإذن كنت تعبد إلهين إلها فى المشرق وإلها فى المغرب لأن الله تعالى يقول (رب المشرقين ورب المغربين)

قال الرجل : « سبحان الله . أجعلتنى وثنيا ؟ قال الشافعى : »

بل أنت جعلت نفسك كذلك بزعمك أن الواو فصل .

وقد استطاع الشافعى وهو فى مصر أن يتحرر فى آرائه .. فألف كتابا عن قتال أهل البغى لعله لم يكن يستطيع أن يضعه فى غير مصر ! .

وقتال أهل البغى قائم على تفسير قوله تعالى : « فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله »

وقد ورد هذا النص باقتتال المسلمين ، إذا فئة منهم بغت على الأخرى ..

وأهل البغى عند الشافعى هم معاوية بن أبى سفيان وجنوده الذين حاربوا أمير المؤمنين على ابن أبى طالب

والشافعى يرى قتالهم واجبا شرعيا ..

وكان بنو على مضطهدين فى حكم بنى أمية ، وظلوا كذلك فى حكم بنى العباسى .. الحكم الذى عاش فى ظله الإمام الشافعى .. فرأيه فى أهل البغى يؤيد حزبا تحاربه الدولة ..

لم يحفل بذلك وهو مصر ، واحتج فى قتال أهل البغى وفى حكم الأسرى منهم بما صنعه الإمام على فى معركة الجمل ومعركة صفين .. فهو لم يقتل أسيرا منهم ، ولم يقتل رجلا مدبرا عن القتال . وهو لم يغنم من أموالهم إلا السلاح والخيل والدواب . أى أدوات الحرب وحدها ! والإمام على لم يقتل مدبرا من أهل البغى لأنه ربما كان هذا المدبر بإدباره قد رجع عن البغى ونوى البيعة لأمير المؤمنين . ولم يكن قتال أهل البغى دراسة تاريخية ، بل دراسة فقهية لأن الأحزاب تتقاتل ، و ينبغى أن يتحدد حكم واضح فى الأمر كله ..

ولقد نقد بعض أصحاب أحمد بن حنبل شيخه الشافعى على كتابه قتال أهل البغى وقالوا إنه متشيع فقال أحمد : سبحان الله .. وهل أبتُلِىَ أحد بقتال أهل البغى قبل أمير المؤمنين على بن أبى طالب ! ؟ .

مرة أخرى يضطر الشافعى إلى الاشتغال بالسياسة .. ولكنه فى هذه المرة يضطر إلى الاشتغال بالسياسة لابحكم الوظيفة أو المنصب ، بل بحكم انشغاله الكامل بالفقه والعلم .. ! وقد أتاحت له البيئة الثقافية فى مصر أن يفكر و يقول و يكتب فى طلاقة وأمن .

****

وفى مصر تحدث الشافعى عن الشورى ومكانتها فى الإسلام ، واعتبرها فرضا على الحاكم والمحكوم .. بها أمر الله ورسوله .. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول فيما لم ينزل فيه وحى « أشيروا على أيها الناس » .. وماكان فى حاجة إلى مشورة ، ولكنه أراد أن يسن لولى الأمر من بعده . وروى عن أحد الحكماء أنه قال : « ما أخطأت قط ، إذا حزبنى أمر شاورت قومى ، ففعلت الذى يرون ، فإن أصبت فهم المصيبون وإن أخطأت فهم المخطئون .

وعلى الحاكم أن يستشير أهل الرأى ، و يأخذ برأيهم فيما فيه مصالحهم .

ومن العدل أن يحسن اختيار الولاة ، فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « من ولى من أمر المسلمين شيئا فولى رجلا وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين » .

والشافعى يرى أن الحاكم واجب الطاعة مادام الناس قد اختاروه باختيار حر ، و بيعة لاإكراه فيها ولازيف ، وإن كان هذا الحاكم قد غلب على الأمر وانتزعه من صاحبه ... وهو يكتسب الشرعية من مبايعة الرعية فإن رأوا فى أمر الحاكم مايخالف الله ورسوله فلهم ألا يطيعوه .

واستند فى هذا إلى ماكان بين عثمان وعلى ، فقد هاجم أبو ذر الكانزين وعاب سلوك معاوية وجماعته ، فشكاه إلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، فنهاه ، فلم يسكت أبو ذر ، فنفاه الخليفة إلى مكان منقطع بالصحراء اسمه « الربذة » وأمر بأن يتجافاه الناس ، غير أن على بن أبى طالب صحب أبا ذر ، وودعه كما ودعه عدد من الصحابة . !

فقال عثمان لعلى : « ..ألم يبلغك أنى نهيت الناس عن أبى ذر وعن تشيعه ؟ . فقال على : « أوَ كل ماأمرتنا به من شىء نرى طاعة الله والحق فى خلافة اتبعنا أمرك ؟ بالله لانفعل » .

ثم إن الشافعى اهتدى إلى أن عمل أهل المدينة ليس حجة على المسلمين فى كل البلاد ، فقد انتشر الصحابة فى كل الأقطار وعلموا الناس ، وقد وجد فى عمل أهل مصر ماهو أدنى للعدل وروح الشريعة ، كاستحقاق الزوجة لنصف المهر عند الطلاق .

****

بهذه الآراء الجديدة جلس الإمام الشافعى يعلم الناس ويحاورهم فى حلقاته الثلاث حلقة القرآن ، وحلقة الحديث ، وحلقة الأدب والمعارف الإنسانية ..

وفى هذه الحلقات لخص قواعد أصول الفقه بقوله : « نحكم بالكتاب والسنة المجمع عليها التى لا اختلاف فيها ، فنقول لهذا حكمنا بالحق فى الظاهر والباطن ، ونحكم بنسبة رو يت عن طر يق الانفراد لايجتمع الناس عليها أى الأحاديث التى يرويها آحاد ، ونحكم بالإجماع ثم القياس وهو أضعف من هذا ، ولكنه منزلة ضرور ية لأنه لايحل القياس والخبر موجود » .. وفى الحق أن الإمام الشافعى كلف نفسه من المشقة مالا تحتمله طاقة بشر.

فقد أعاد فى نحو خمسة أعوام كتابة ماألفه فى نحو ثلاثين عاما ، وزاد على ذلك كتبا جديدة كتبها أو أملاها »

و بلغ مجموع ماكتبه فى مصر آلاف الصحفات ، وجمع معظم ماألفه فى مصر فى كتاب « الأم »

وشرع يدرس هذا كله فى حلقاته ، ويحاور فيه ، و ينصح مستمعيه ألا ينظروا فى علم الكلام الذى يبحث فى القدر والجبر وصفات الله ، وأن يهتموا من علوم الدين بالفقه

وقال : « إياكم والنظر فى الكلام فإن الرجل لو سئل عن مسألة فى الفقه فأخطأ فيها كما لو سئل عن رجل قتل رجلا فقال ديته بيضة كان أكثر شىء أن يُضحك منه ولو سئل عن مسألة فى الكلام فأخطأ فيها نسب الى البدعة .

أجهده طول الجلوس للكتابة والتدر يس فاشتدت عليه علة البواسير ومرض الأطراف

ولعل أخطر وأحرج ماكان يدور فيه الحوار فى حلقات الإمام الشافعى هو خلافه مع الإمام مالك ففى مصر من الحمقى والمتعصبين من لايطيقون أن يجهر أحد بالخلاف مع مالك .

وقد اجتمع بعض هؤلاء بزعامة الفقية الأحق « فتيان » وطرح مسأله خلافية ؟ وساق « فتيان » أدلة مالك فى المسألة ، وساق الشافعى أدلته .. وظهر الشافعى على « فتيان » وأفحمه فضاق صدر « فتيان » وانفجر حمقه وشتم الإمام الشافعى شتما قبيحا .

وكان « فتيان » هذا قد كرر العدوان على الإمام الشافعى ، والشافعى يصفح عنه

ولكن أصحاب الشافعى ذهبوا هذه المرة للوالى ورووا ماكان من أمر « فتيان » مع إمامهم ، وحقق الوالى الشكوى وشهد الشهود على « فتيان » ولكن الإمام الشافعى سكت حين سأله الوالى

فقال الوالى «لو شهد الشافعى على فتيان هذا لقطعت رأسه»

وأمر الوالى بأن يضرب «فتيان» بالسياط ، ثم طيف به على جمل ، وقد حلقت لحيته وشاربه ورأسه ، ومن أمامه المنادى ينادى : لا هذا جزاء من سب آل رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

ولم يكن الإمام الشافعى سعيدا بما حدث ..

عاد إلى بيته مهموما ، وغلبه نزيف البواسير ، فقد بلغ به الجهد الذى بذله وأثر فيه الانفعال .

وقال لمن حوله : إنه ليعرف علته ، ولكنه يخالف فيها الطب . فقد كانت علته تتطلب منه الراحة وعدم إطالة القعود فى الكتابة أو فى الحلقات

وزاره طبيب مصرى ،

فتناظرا فى الطب ، فأعجب به الطبيب المصرى ، وتمنى عليه أن يشتغل بالطب فقال الشافعى ضاحكا وهو يشير إلى أصحابه المنتظرين خارج غرفته ، « هؤلاء لايتركوننى »

وخرج الشافعى من داره بعد أيام إلى حلقته من جديد .

وتربص به بعض السفهاء ممن تعصبوا لفتيان .. حتى إذا خلت الحلقة من كل أصحاب الإمام الشافعى ، وبقى وحده ، وخلا الجامع من رواده ، باغته السفهاء ، وانقضوا عليه يضربونه ضربا عنيفا بهراوات كانوا قد أخفوها فى ملابسهم .. وظلوا يضربونه حتى سقط مغشيا عليه ، وهربوا .

وحُملَ الإمام إلى منزله فاقد الوعى ، وعندما أفاق أخذ يعانى أوجاع الضرب ، وآلام الصدمة ، والنزيف !!

ولم يسعفه العلاج فأرسل إلى السيدة نفيسة يسألها الدعاء كما تعود كلما ألم به مرض من قبل ، فقالت لرسول الإمام « أحسن الله لقاءه ومتعه بالنظر إليه »

فعلم أنها النهاية .

وجاءه أحد عواده يقول له : « قوى الله ضعفك ياإمام » فتبسم الشافعى ورد عليه : « قوى الله ضعفى ؟ ! أتدعو الله أن يزيدنى ضعفا ؟ .. ادع الله أن يذهب عنى ضعفى وأن يقوى عافيتى لاضعفى »

ونصحه أن يعنى هو وساتر الفقهاء بإتقان علوم اللغة العربية والعلة تشتد والنزيف يستمر..

فنادى أحد أصحابه الذين لزموا داره خلال العلة و وطلب منه أن يقرأ عليه مابعد العشرين والمائة من سورة آل عمران

« وأوصى لجوار يه الثلاث وغلامه ، وترك لأبنائه ولأهله إرثهم الشرعى

حتى إذا كانت ليلة الجمعة ٢٨ من رجب سنة ٢٠٤ هـ . انتقل إلى جوار ربه وهو فى الرابعة والخمسين ، بعد أن ملأ طباق الأرض فقها وعلما ، خلال هذا العمر القصير

وشُيّع يوم الجمعة آخر رجب وحملت جنازته إلى بيت السيدة نفيسة . فصلت عليه وقالت : رحمه الله . كان رجلا يحسن الوضوء » .. وهى تعنى بالوضوء أصل العبادة أى أنهْ كان رجلا صالحا حسن العبادة .

وهكذا قضى الشافعى شهيد الرأى ، بعد حياة حافلة بالنضال الفكرى .

وعندما علم أحمد بن حنبل بوفاته بكى وقال « إنا لله وإنا إليه راجعون .. رحمه الله كان كالشمس فى الدنيا وكالعافية للناس . فانظر هل لهذين من خلف أو لهما عوض » ؟

ولكن الإمام أحمد بن حنبل كان نعم الخلف وخير العوض .

الإمام أحمد بن حنبل

الإمام المفترى عليه

صامت يطيل السكوت والتأمل ، حزين يكاد لايبتسم ، وفى وجهه مع ذلك البشاشة وعلى قسماته الرضى ، لايتكلم إلا إذا سئل فلا يبتدر أحدا بحديث .. حتى إذا جلس فى الحلقة بعد كل صلاة عصر فى المسجد الجامع ببغداد ، وسأله الناس فى أمور الدين والدنيا انفجر منه علم غزير نافع يبهر السائلين ! ..

قال عنه بعض الفقهاء : « إنه جمع العلم كله » . وقال عنه بعض العلماء : « إنه ليس من الفقه فى شىء » . وقال عنه الإمام الشافعى حين ترك بغداد إلى مصر : « تركت بغداد وما فيها أفقه ولا أعلم من أحمد بن حنبل » .

وفى الحق أن أحمد بن حنبل ظلم حيا وميتا .

أما حياته فقد كانت نضالا متصلا ضد الفقر ، وضد عاديات عصره .. فقد حملته أمه وهى حامل به من « مَرْو ــ حيث كان يعمل أبوه فى جند الخليفة ــ إلى بغداد ، ولم تكد تضع وليدها أحمد حتى مات وترك له عقارا عاشت من غلته هى والصغير .. حتى إذا شب الصغير وزادت مطالبه ، عرفت أمه ضيق العيش ، ولكن الأرملة الشابة رفضت أن تتزوج على الرغم من جمالها وشبابها وطمع الخطاب فيها ، ووقفت حياتها على تربية وحيدها أحمد ، فأحسنت تربيته ، ودفعت به إلى مقرئ ليعلمه القرآن فختمه وهو صبى ، وظل حياته كلها يعاود قراءته والتفكر فيه ..

وعند ما وثبت به الحياة إلى الفتوة وجد من حوله دنيا عجيبة حقا ، تطغى فيها البدعة على السنة ، ويشقى فيها عالم الأمر بجاهله ، وتكتظ خزائن بعض الناس بالذهب والفضة بحيث لايعرفون كيف ينفقونها ، وعلى مقربة منهم يسقط بعض النساء والرجال فى حمأة العار بحثا عن الحياة الأفضل أو عن الطعام وسط أو حال النفاق والخطيئة .. !

وأصوات خادعة أو مخدوعة تحبب الناس فى الانصراف عن طيبات الحياة مما أحل لهم ، باسم الورع أو الزهد ، وتحضهم على ترك الحقوق لها ضميها أو مغتصبيها ! . .

ووسط هذه النداءات المنكرة التى لم يعرفها السلف قط ، تزف عروس إلى ابن الخليفة الذى يجب أن يعيش كما يعيش أواسط الناس من رعيته ، فإذا بكل رجل من المدعوين إلى حفل الزفاف من كبار القوم يُتَسلّم رقعة هى صك هبة : بضيعة وجارية ودابة ... فضلا عن الدرالمنثور! ! ... أما سائر الناس فتنثرعليهم الدنانيروالدراهم وحقاق المسك والعنبر! !

هكهذا طالعت الدنيا شابا حفظ القرآن صغيرا وتدبرفى أحكامه وتعلم علم الحديث ، فما كان منه إلا أن أعلن إنكاره لهذا كله ، وسمى كل مايحدث بدعة ونذرنفسه لمقاومتها ولإحياء سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فاتهموه بالتزمت !

هكذا عاش حياته .. !

أما بعد موته فقد ابتلى ببعض أتباع نسبوا إليه مالم يقل ومالم يصنع ، وفرعوا على أصوله ما هو برىء منها ، وأسرفوا على الناس حتى لقد كانوا يطوفون بمدائن المسلمين يغيرون بأيديهم ما يحسبونه بدعة ، أو منكرا ، و يفرضون مايتخيلونه سنة ، وغالوا فى هذا حتى نال الناس منهم أذى وعنت ، فكرههم الناس ونسبوهم إلى الحماقة وضيق الأفق وسخروا بهم ، وأزروا على مذهبهم .. وأصبحت كلمة الحنبلى أو الحنابلة تعنى التبلد والتحجر والتعصب المذموم ! !

ولقد كتب ابن الأثيريصف ما كان يحدث من نفرمن أتباع الإمام أحمد سنة ٣٢٣ من الهجرة : « وفيها عظم أمر الحنابلة ، وقويت شوكتهم ، وصاروا يكبسون الدور (أى يهاجمونها) فإن وجدوا بها نبيذا أراقوه ، وإن وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء . واعترضوا فى البيع والشراء . ومشى الرجال مع النساء والصبيان فإذا رأوا ذلك سألوا الرجل عن التى معه من هى فأخبرهم ، وإلا ضربوه وحملوه إلى صاحب الشرطة وشهدوا عليه بالفاحشة . فأزعجوا بغداد . »

وما كان الإمام أحمد ليزعج أحدا ، وما كان فظا ولا غليظ القلب بل كان يجادل بالتى هى أحسن وكان يدعوإلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة إعمالا لكتاب الله وسنة رسول الله عليه الصلاة والسلام ..

وما كان الإمام أحمد متعصبا لرأى ارتآه بل كان يحاور، و يرجع عن رأيه إن تبين له ماهو أصح حتى لقد نهى عن كتابة فقهه لأنه كثير العدول عن آرائه .. !

وما كان ضيّق الأفق ، أو جامد الفكر، أو منقبا عن عيوب الناس .. ما كان الإمام أحمد من هذا

كله فى شيء . فقد كان من أوسع الناس أفقا ، ومن أعمق العلماء إدراكا لروح الشريعة ، ومن أكثر الفقهاء تحريرا لها من الجمود وتحررا بها فى المعاملات .

ولكنه عاش فى عصر تغشاه البدع و يسوده الترخص الذى قد يزلزل عمود الدين فكان عليه أن يأخذ الكتاب بقوة .. ! .. ولقد قال عنه أحد معاصريه : « مارأيت فى عصر أحمد بن حنبل ممن رأيت ، أجمع منه ديانة وصيانة وملكا لنفسه ، وفقها وأدب نفس ، وكرم خلق وثبات قلب وكرم مجالسة وأبعد عن التماوت .

ولد أحمد بن حنبل فى بغداد عام ١٦٤ هـ من أبوين عربيين .. مات أبوه وهو طفل وترك له معاشا ودارا يسكنها هو وأمه وعقارا يغل غلة لهما قليلة ..

وكان عمه يعمل فى خدمة الخليفة الرشيد ، ويجمع أخبار بغداد و يسلمها إلى والى البريد (الأمير المسئول عن البريد) ليوصلها إلى الخليفة إذا كان الخليفة خارج بغداد .. وانقطعت أخبار بغداد عن الخليفة فأرسل إلى الوالى يسأله ، فسأل الوالى عم أحمد ، وكان أحمد غلاما صغيرا ، وكان عمه يرسله بالأخبار إلى الوالى ... فسأله عمه : « ألم أبعث الأخبار إلى الوالى ؟ فقال : نعم ، فقال عمه : « فلأى شيء لم توصلها ؟ » قال أحمد : « رميت بها فى الماء ! .. أأنا أوصل الأخبار؟ ! »

وحين سمع الوالى بما كان من أمر أحمد والأخبار قال : « إنا لله وإنا إليه راجعون .. هذا غلام يتورع ، فكيف نحن ؟ » .

على هذا الورع نشأ أحمد بن حنبل ، حتى أن نساء الجند الذين سافروا مع الرشيد فى الغزو كن لا يجدن فتى غيره يثقن فيه ، فيقرأ لهن رسائل الأزواج ، ويملينه الردود .. ولكنه كان لايكتب الكلام الفاحش الذى قد تمليه بعض الزوجات المشوقات إلى الأزواج .. !

ولقد أدرك منذ نشأ أن أمه تعانى فى سبيل توفير حياة كريمة له ، وأنها ترفض الخطاب من أجله ، فحرص على أن يعوضها ، و بذل كل جهده فى الدرس حتى حصل علوما ومعارف كثيرة فى سن صغيرة معتمدا على نفسه . قال أحد جيرانه : « أنا أنفق على ولدى وأجيئهم بالمؤدبين على أن يتأدبوا ، فما أراهم يفلحون ، وهذا أحمد بن حنبل غلام يتيم .. أنظروا كيف أدبه وعلمه وحسن طريقته ! » .

لقد أنضجه الاعتماد على النفس ، وحرصه على أن يكافئ أمه على صبرها وتضحيتها بالتفوق ، حتى لقد أعجب أساتذته فقال أحدهم : « إن عاش هذا الفتى فسيكون حجة على أهل زمانه » .

على أن الفتى شعر أنه أصبح هما ثقيلا على أمه .. وإن كان قد أحسن مكافأتها بانقطاعه إلى

الدرس ، وذيوع أمره بين الأساتذة والتلاميذ ..

وكان أحمد قد رأى أمه تبيع درتين لتعينه على طلب العلم ، فآلى بينه و بين نفسه ألا يجشمها مالا بعد

وأراد أن يوفر لأمه ماترك أبوه من غلة العقار الذى مات عنه وهو بناء كبير يحوى عدة حوانيت تغل كلها سبعة عشر درهما فى كل شهر.. ! .. وكان فى أحد هذه الحوانيت نسّاج فتعلم منه وعاونه ، فقد حفظ أحمد فيما يحفظ من أحاديث أن أطيب ما يأكله الإنسان هو ما يكسبه من عمله .. وكان أحمد حفيا بالسنة حريصا عليها ، من أجل ذلك حرص على ألا يأكل إلا من عمل يده .. !

على أن عمل يده لم يكن يكفيه للطعام ولمواجهة أعباء الحياة ، منذ صمم على أن ينزل لأمه عن غلة العقار الذى مات عنه أبوه ، فلجأ إلى الاقتراض ، ولقد أدرك بعض دائنيه ضيق حاله فأبى عليه رد الدين قائلا : « ما دفعتها وأنا أنوى أن آخذها منك » فقال له أحمد : « وأنا ماأخذتها إلا وأنا أنوى أن أردها اليك »

على أن الحياة كانت تثقل عليه بمطالبها فى بعض الأحايين ، فلا يجد طعاما .. فيذهب إلى المزارع والبساتين ، ليلتقط ما نزل على الأرض خارجها من الثمرات .. وقد هدته تجربته الخاصة إلى أن هذا الزرع يجب أن يباح لمن يحتاج إليه ، .. وإلى هذا المبدأ انتهى فى فقهه .. على ألا يدخل ذو الحاجة ملك الغير ليأكل ، إلا بإذن المالك ..

ولكم صقلته المعاناة وهدته إلى قواعد فى الفقه وإلى أحكام وفتاوى ! .. ذلك أنه كابد ضراوة الحاجة ، وعرف أحوال الناس ، واحتيالهم على الحياة ، وذاق من البأساء ، وعرف أهوال الأسواق .. !

وقد أكسبه هذا كله بصّرا بالناس وفهما للدنيا ، وتقديرا لمتطلبات الحياة وضروراتها ، ونبضَ كل أولئك فيما أحدث من فقه ورأى ..

ثم الرحلة فى طلب العلم . ولكم لاقى فى هذه الرحلات من أهوال ! !

قام بمعظمها على قدميه إذ لم يكن يجد أجر الدابة .. وعمل فى بعضها حمّالا ليعول لنفسه .. وعمل فى بعضها نسّاخا ، وكان حسن الخط .. وأكسبته كل هذه التجارب خصوبة فكر..

وهو فى كل ما يعرض له يرفض العطاء ، و يصمم على ألا يأكل إلا من عمل يده ..

كـان كـثير الرحلة إلى اليمن يطلب الحديث من أحد علمائها ، ورأى الشافعي حين كان ببغداد رقة حـال أحمد ، وعناءه في رحلاته إلى اليمن ، وكان المأمون قد طلب من الشافعي أن يختار له قاضيا لليمن فـعرض الأمـر عـلى تـلـمـيـذه أحمد ، فأبى .. فلما ألح عليه الشافعي قال له أحمد : « إن عدت إلى هذا لا تراني أبدا » .

بـدأ أحمد فـي طـلـب الحـديـث وهـو في مطلع الشباب ..في الخامسة عشر من عمره .. وظل سبع سنوات يـتـلـقـى الحـديـث عـلـى شيـوخه في بغداد ، ثم سافر في طلبه وهو في مطلع شبابه في الثانية والـعـشـريـن .. سـافر يلتمس الحديث عند شيوخ البصرة ، فأقام عاما ، رحل بعده إلى الحجاز، وهناك سـمـع للشافعي بالمسجد الحرام ، فقال لصحبه الذين قدموا الحجاز معه : « إن فاتنا علم هذا الرجل فلن نعوضه إلى يوم القيامة » .

ثم عـاد إلـى بغداد ، وعاد مرة أخرى إلى الحجاز .. وهناك سمع من الإمام مالك والإمام الليث بن سـعـد المصـرى وآخـريـن ، ثم سافر إلى اليمن ليلزم شيخها عبد الرازق بن همام ، وكان قد التقى به في الحج ، ووجد عنده كثيرا من الأحاديث ، فآثر أن يلزمه باليمن فيتلقى منه .. ولقد حاول عبد الرازق أن يـصـلـه بـبـعـض الدنانير، ولكن أحمد بن حنبل أبى .. وصمم على أن يكسب عيشه بعمل يده فاشتغل نـسّـاخـا .. وتـوالـت رحـلاتـه إلـى خراسان وفارس وطرسوس .. وإلى كل مكان يسمع أن فيه راوية حديث ..

كـان أحـمـد قـد تـعـلـم الحـديـث أول مـاتعلم من أبي يوسف أحد أصحاب أبي حنيفة .. وكان أبو يـوسـف قـاضـي قـضـاة الـدولـة ، ولـه حـلـقـة درس يعلم فيها الناس .. وقد بُهر أحمد بعلم أبي يوسف ، وأعـجـب بجـرأته في الحق .. وكان أحمد لايفتأ يذكر بإكبار ماصنعه أبويوسف مع وزير الخليفة ، إذ رد شـهـادة الوزير قائلا : « لاتقبل شهادة الوزير لأنه قال للخليفة أنا عبدك ! .. فإن كان صادقا فهو عبد ولا تقبل شهادة العبد ، وإن كان كاذبا أو منافقا ، فلا شهادة لكاذب أو منافق ! » .

عـلـى أن أحـمـد بـن حـنـبل على الرغم من إكباره لأستاذه أبي يوسف ، لم يجد عنده كل مايريد من حـديـث .. فـقـد كـان أبو يوسف من أصحاب الرأى .. وأحمد بعد أن حفظ القرآن يريد أن يحفظ كل الآثـار الـتـي خـلـفـها الثقات من رواة الأحاديث .. .. فما ترك أحمد أبا يوسف قاليا له ، فقد شارك أبو يـوسـف فـي صياغة وجدان أحمد وضميره الديني والاجتماعي ، ولكنه تركه بحثا عما عند غيره وهو على مودة معه .

ودرس على عبد الله بن المبارك ، وكان فقيها واسع العلم ، واسع الغنى فى آن واحد .. ولقد حاول ابن المبارك أن يعين أحمد بن حنبل بالمال ، ولكنه أبى وقال إنه يلزمه لفقهه وعلمه لا لماله ، بل على الرغم من ماله ! !

وقد تعود ابن المبارك أن ينفق كل دخله على الصدقات وطلاب العلم . كان زاهدا .. والزهد عنده التقوى .. يعلّم الناس أن العالم الذى يشيع علمه بين الناس أفضل ألف مرة من الذى ينقطع للعبادة .. وقد حكى أحد معاصريه أنه رأى بعيرين يحملان دجاجا مشويا لسفرة ابن المبارك ، وكان يطعم الناس الفالوذج ، و يأكل هو الخبز والزيت ، فإذا اشتهى طعاما ما طيبا لم يأكله إلا مع ضيف .. و يقول : « بلغنا أن طعام الضيف لا حساب عليه . » .. وقيل له : « قلّ المال فقلل من صلة الناس » فقال : « إن كان المال قد قل ، فإن العمر قد نفد . » وكان يقول : « ليس يلزمنى من الدنيا إلا قوت يوم فقط » ... من أجل ذلك أحب الناس عبد الله بن المبارك ، والتفوا حوله حتى إنه قدم الرّقة وبها هارون الرشيد ، فاجتمع الناس وتزاحموا احتفالا به حتى « تقطعت النعال وارتفع الغبار» ، فأشرفت زبيدة زوج هارون الرشيد من قصرها ، فلما رأت زحاما لم تره قط سألت : « ما هذا ؟ » قالوا « الفقيه العالم عبد الله بن المبارك » . فقالت : « والله هذا هو المُلك ، لا ملك هارون الرشيد الذى يُجمع الناس إليه بالسوط والعصا والشرطة والأعوان » ..

وكان أحمد من المعجبين بالعالم عبد الله بن المبارك ، كان معجبا بشخصه و بفقهه وعلمه و بسيرته بين الناس .. وعبد الله بن المبارك هو أحد الذين أثّروا فى أحمد بن حنبل وفى تشكيل فكره وسلوكه ومواقفه .. فقد أدرك أحمد فى مطلع شبابه مما تعلمه من ابن المبارك أن الدعوة إلى الفقر ليست زهدا ، وإنما هى تمكين للأغنياء من المال ، ليكون المال دولة بين الأغنياء .. وأن الزهد الحق هو ما سّنه الرسول عليه الصلاة والسلام ، وتابعه فيه أئمة الصحابة من بعده .. وهو ليس الإعراض عما أحل الله ، بل التعفف عن النظر أو التفكير فيما حرمه الله أو اشتهاء مايكرهه .. الزهد هو التقوى .

تحمل أحمد المشقات ، وخاض الغمرات ، بحثا عن الأحاديث الصحاح يواجه بها ألوان البِدَع ..

ثم إنه خرج إلى طرطوس مرابطا مستعدا للجهاد ، ولبث فترة هناك ثم عاد إلى بغداد . فقد كان يرى الجهاد فريضة على كل قادر: الجهاد بالنفس أو المال أو بهما جميعا

كان العصر زاخرا بالعلوم والمعارف ، وكان الفقهاء من قبله يعنون بها و يتعلمونها ، ولكنه لم يجد

منهم أحدا يتخصص فى علوم الحديث ، و يتوفر على الآثار وحدها ، فوهب نفسه لإتقان علوم السلف فحسب ، لأنه شعر بأن الأمة فى حاجة إلى هذا التخصص .

وظل يرحل ماشيا فى طلب الحديث إكبارا للغاية التى يسعى إليها أو عجزا عن النفقة ، يحمل فوق ظهره متاعه وكتبه ، و يؤجر نفسه للعمل إن نفذ زاده ... حتى جمع آلاف الأحاديث ، وهو مايفتأ على الرغم من ذلك يجوب الآفاق ، حتى نحل جسده ، فلامه فى ذلك أحد أصدقائه قائلا : « مرة إلى الكوفة ومرة إلى البصرة ومرة إلى الحجاز ومرة إلى اليمن ؟ ! .. إلى متى ؟ ! » فقال أحمد : « مع المِحْبرة إلى المقبرة .»

وما كان لينتهى مهما تكن المشقة .. فقد كان يطلب مع الحديث علوم الفقه .. كان يطلب فقه الخلفاء الراشدين ، وفقه سائر الصحابة ، وفقه التابعين وتابعيهم بإحسان .. وقد جلس فى رحلاته إلى الحجاز فى مواسم الحج إلى كل فقهاء عصره .. فى المسجد الحرام ، وفى الحرم النبوى ..

على أن أحدا لم يجذبه كما جذبه الشافعى ! ..

واتصلت بينهما المودة مذ لقيه لأول مرة فى المسجد الحرام .. وكان أحمد فى نحو الثانية والعشرين والإمام الشافعى يكبره بنحو ستة عشر عاما ، ومع ذلك فقد أحس بأن الشافعى ليس أستاذا ومعلما فحسب ، ولكنه أب أيضا ... !

وعلى الرغم من أن أحمد بن حنبل درس فى مطلع شبابه على أبى يوسف وهو من أصحاب الرأى ، ثم درس على الشافعى ولزم فقهه وهو وسط بين أهل الحديث وأهل الرأى ، فقد كان أحمد حريصا فى حياته على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حرصا جعله يتشبه به فى كل أمور الدين والدنيا ، فما حفظ حديثا عن الرسول عليه السلام إلا عمل به .. وحتى قرأ أنه عليه الصلاة والسلام تسرى بجارية القبطية ، فذهب إلى امرأته ، وأعلمها بما علم ، واستاذنها أن يتسرى ، أسوة بالرسول صلى الله عليه وسلم فأذنت ، فأشترت هى له جارية ترضاها .. !

وهكذا كان فى بِرّه لأمه .. كان بالطبع برا تصنعه الفطرة ، ثم اتبّاعا للسنة ، فقد حفظ أحمد أن الرسول صلى الله عليه وسلم سئل عن أحق الناس بالرعاية فأجاب سائله « أمك » .. وأعاد السائل سؤاله مرتين : فأجابه : « أمك ثم أمك ثم أبوك » ..

وفي الحق أن أحمد بن حنبل كان مدينا لأمه بكل شيء .. فقد رفضت أن تدخل عليه زوج أم ، على الرغم من جمالها وشبابها وطمع الخطاب فيها .. ثم إنها لقنته منذ صباه كل ماحفظه من سير، وأحاديث ، وقصص بطولات .. ورسّخت في أعماقه منذ كان طفلا قيم الإسلام الفاضلة ..

فهي كأبيه من بني شيبان ، وكانت تحفظ مفاخر قومها ، وقصص العرب ، ومآثر الرسول والصحابة وتلقنها وحيدها ..

وهي التي اختارت له المكتب الذي يتعلم فيه القرآن ، ثم الشيوخ الذين يجلس إليهم بعد أن حفظ القرآن ، ليطلب عندهم الحديث والفقه . وكانت تخاف عليه وهو صغير برد الفجر إذا خرج إلى الدرس قبل الأذان .. وقد روى أحمد : « كنت ربما أردت البكور في الحديث فتأخذ أمي بثيابي وتقول : « حتى يؤذن المؤذن للفجر أو حتى يُصبح الناس » ..

حتى إذا كان في الخامسة عشر ، جاء إلى بغداد عالم عظيم ، وأقام على الضفة المقابلة لدار أحمد بن حنبل ، وفاض نهر دجلة وارتفع الموج حتى ترك الرشيد قصره ونزل بأهله وأمواله وحاشيته إلى سفائن له ، ولكن طلاب العلم هرعوا إلى العالم على الضفة الأخرى في الزوارق .. وأبى أحمد حين دعاه زملاؤه إلى العبور قائلا : « أمي لا تدعني أركب الماء في هذا الفيضان » .. وترك العبور في حسرة ، وعاد إلى أمه لتطمئن عليه ... !

لكم كان برا بوالدته ! .. رآها رفضت الزواج لكي تتفرغ للعناية به ، فأبى هو الزواج ليفرغ للحدب عليها .. فما تزوج إلا بعد أن ماتت ، وكان قد بلغ الثلاثين ، لكيلا يدخل على الدار سيدة أخرى تنازع أمه السيادة على الدار ! .

وها هو ذا في بغداد شاب جاوز الثلاثين ، محفوف الشارب ، مرسل اللحية ، أسمر الوجه ، تلوح في وجهه الأسمر سكينة وطمأنينة ، و يشع من عينيه بريق حاد ، نحيل الجسد ، متوسط الطول .. مثقل القلب بما يحدث من حوله .. كثير التأمل في أحوال الناس ، مأخوذ بالبحث عن الخلاص ، مشدود إلى الحقيقة ، وإلى طريق العباد مما هم فيه ..

وما أبشع ماهم فيه !

ذلك أنه منذ صباه شهد بغداد تزخر بألوان الثراء الثقافي والمادي ، وتتصارع فيها المذاهب الفكرية والفقهية والعلمية ، وترتفع فيها القصور المحفوفة بالحدائق والزرع وجنات الفاكهة والريحان ، وتفيض فيها

الأموال والثّروات . وفى بغداد مع ذلك مَنْ لا يجد قوت يومه ! .. وما بهذا أمر الله ورسوله ! . فقد ورث المؤمنون عن الرسول موعظة يتحتم عليهم أن يتدبروها : أنه ليس مؤمنا من بات شبعان وجاره جوعان ! ... وكم فى بغداد من بيت بين الناى والعود والعزف والشراب والطعام والقصف ، والجيران جياع .. ! ! ..

ثم إن بغداد التى مازالت لياليها تضىء بآثار السلف الصالح ، و بالتماعات أفكار المجتهدين ، بغداد هذه تجللها المعصية والمظالم .. إذ شاع الانحراف ، وظهر الغزل بالمذكر ! ! وقد أحرق أبوبكر الصديق من قبل قوما تعاطوا هذا المنكر فى الشام ! !

ثم إن أموال الدولة تنفق بلا حساب على الندامى والمغنيات وأهل الطرب والمضحكين والمنافقين .. ! ..

وهذه الدولة العظيمة التى تحكم العالم كله ، وتصوغ حضارة لم يعرفها التاريخ من قبل ، وتسخر عقول المفكرين والعلماء فيها كلّ شىء لراحة الإنسان ، وتقتحم هذه العقول عوالم الأفلاك فى جسارة نادرة لتصبح الطبيعة أمام الإنسان كتابا مفتوحا ، طاقاتها ميسرات لفكره ... هذه الدولة التى حملت كل المعارف والكتب التى وجدتها فى البلاد المفتوحة ، فعرّبت كل معطيات الحضارة المصرية واليونانية والفارسية والهندية ، وأضافت إليها .. هذه الدولة نفسها لا تقيم العدل كما يجب .. وتسمح لنفسها بأن تقتل أكبر شعرائها بشار بن برد ، لأنه نقد الخليفة المهدى وقال عنه « خليفة الله بين الله والعود » .. فتحرق الدولة أشعاره وتفترى عليه مالم يقله ، لتتهمه بالإلحاد والزندقه ، وتضربه حتى يموت ! !

وهذه الدولة تسمح لامرأة الرشيد بأن تتدخل فى القضاء ! ! .. ذلك أن وكيل امرأة الرشيد اشترى لها جمالاً من رجل من خراسان بثلاثين ألف درهم ، وكان الخراسانى قد ساق الجمال ليبيعها فى بغداد . واستلم وكيل امرأة الرشيد الجمال ، وماطل فى دفع الثمن ، وعطل الخراسانى عن السفر.. ثم أعطى الخراسانى ألفا ولم يدفع الباقى .. فشكاه الخراسانى إلى القاضى ، فأمر الوكيل بأداء باقى الثمن ، ولكنه قال إنه على السيدة أم جعفر امرأة الرشيد . فقال له القاضى :

« ياأحمق ! تقر ثم تقول على السيدة ؟ ! » .. وأمر القاضى بحبس الوكيل .

وعلمت امرأة الرشيد فقالت للرشيد : « قاضيك هذا أحمق . حبس وكيلى واستخف به ، امنعه من نظر القضية » فأجابها الرشيد ، وأطلق سراح وكيلها ، ووجه إلى القاضى يمنعه من النظر فى الدعوى ! ! .. ثار القاضى حين علم بإطلاق سراح الوكيل ، فلزم بيته ، وامتنع عن حضور مجلس

القضاء .. ولكنه حين علم ان الرشيد سيمنعه من نظر الدعوى ، خرج من داره ، وأرسل إلى الخراسانى أن يحضر شهودا و يلحق به فى مجلس القضاء .. وجلس القاضى ينظر فى الدعوى و يسأل الشهود و يستجلى بينات الخراسانى .. وحكم للخراسانى بالمال كله .. وأخذ يسجل الحكم ..

ثم جاء خادم أم جعفر امرأة الرشيد يقول للقاضى : « عندى لك كتاب من أمير المؤمنين . » فقال له القاضى : « مكانك نحن فى حكم شرعى .. مكانك حتى نفرغ منه » . فقال الخادم : « كتاب أمير المؤمنين » فقال القاضى : « اسمع ما يقال لك . »

ومضى القاضى يسجل الحكم وأسبابه حتى فرغ ، فأخذ كتاب أمير المؤمنين ، وكان فيه كما يعلم قبل أمر بتنحيته عن نظر القضية .. فلما قرأ القاضى كتاب الرشيد قال للخادم : « أقرئ أمير المؤمنين السلام ، وأخبره أن كتابه ورد وقرأته وقد أنفذت الحكم » . فقال الخادم : « قد عرفت والله ما صنعته . أبيت أن تأخذ كتاب أمير المؤمنين حتى تفرغ مما تريد .. والله لأبلغن أمير المؤمنين بما فعلت » فقال القاضى : « قل له ما أحببت »

كان أحمد بن حنبل يتأمل فى التدخل فى القضاء و يتألم ! ! ترى كم من القضاة يستطيع أن يصنع كما صنع القاضى حفص بن غياث .. ؟ ! .. من الحق أن الرشيد ضحك عندما سمع بما فعله القاضى حفص بن غياث ، وأمر له بجائزة قدرها ثلاثون ألف درهم مما جعل القاضى يقول : « الحمد لله كثيرا . من قام بحقوق الشريعة ألبسه الله رداء المهابة » .. ولكن الخليفة لم يعاقب وكيل امرأته ، لأنه حاول أخذ الجمال من الخراسانى دون أن يدفع ثمنها .. ولم يمنع امرأته من التدخل فى القضاء ! . ومن يدرى فربما كانت هناك مظالم كثيرة أخرى لم يتقدم بها أصحابها إلى القضاء .. أو لعل من القضاة من لم يغامر كما غامر القاضى حفص !

هكذا كان أحمد بن حنبل يرى صور الفساد و يأسى و يفكر فى الخلاص .. فالحكام يسرقون و يقطعون يد السارق .. ومن العلماء من ينهى عن المنكر و يقترفه .. حتى صح فيهم ما قاله ذو النون المصرى : « كان الرجل من أهل العلم يزداد بعلمه بغضا للدنيا وتركا لها . واليوم يزداد الرجل بعلمه حبا للدنيا وطلبا لها .. كان الرجل ينفق ماله على علمه واليوم يكتسب الرجل بعلمه مالا . وكان يُرى على صاحب العلم زيادة فى باطنه وظاهره واليوم يُرى على كثير من أهل العلم فساد فى الباطن والظاهر . »

لاخلاص إلا باللجوء إلى السنة واتباعها .. وإلا بالتأسى بسيرة السلف الصالح ، وعلى رأسهم الخلفاء الراشدون . بما فيهم على بن أبى طالب .

وكان أحمد يعرف أن أشد ما يغيظ حكام بني العباس هو نشر فقه الإمام على بن أبي طالب كرم الله وجهه .. ذلك أن كثرة الثناء على الإمام على ، يثير عطف الناس على بنيه .. وكان بنوه قد ثاروا المرة بعد المرة على مظالم خلفاء بني أمية ، ثم على خلفاء بني العباس ، وحدثت فيهم من أجل ذلك مقاتل عظيمة .. ومن لم يُقْتَل من بني على عاشوا يرسفون في أغلالهم تحت الأبراج .

وكان فقه الإمام على بن أبي طالب وأقضيته ، في صدور قلائل من العلماء أكثرهم من الشيعة . ثم أذيعت أراؤه وأفكاره منها بنو العباس أبناء عمومته في محاربة مظالم بني أمية .. ولكن بني العباس خشوا أن يستعملها المعارضون في نقدهم .. وخافوا أن يكتسب بها المعارضون حب الناس وتأييدهم .. وهكذا أخفى حكام بني العباس أقضية الإمام على وفتاواه وفقهه .. واستخفى بها الصالحون ! ! .. وكان العباسيون كالأمويين لا يطيقون معارضة .. فما ترتفع رأس بالشكوى أو النقد أو الاعتراض ، حتى يهوى على عنق صاحبها سيف الجلاد ، أو يخرس لسانها في غيابات السجون تحت وطأة عذاب غليظ أليم شديد ... !

ولكن أحمد بن حنبل ما كان يستطيع أن يتجاهل سيرة على بن أبي طالب ولا أفكاره لتكون من بعد سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة لمن يريد أن يعتبر بآثار السلف الصالح .

بحث الإمام أحمد عن فقه وأقضية الخلفاء الراشدين ، فأعجب بما عرفه من فقه الإمام على كرم الله وجهه ، وبدأ ينشره ويستشهد به .. فوجد عليه خلفاء بني العباس وجدا شديدا ، وأهمَّهم أمره ! ! ولكنهم لم يظهروا الغضب عليه ، فما كان أحمد يعمل بالسياسة ، وما كان رأيه في الخلافة ليزعجهم ، بل إن هذا الرأى على النقيض يرضى خلفاء بني العباس . ذلك أن أحمد كان يرى وجوب طاعة الخليفة ولو كان فاجرا .. فطاعة الفاجر عنده خير من الفتنة التي لا تصيب الذين ظلموا خاصة بل تصيب معهم الأبرياء ، وتضعف الدولة فيطمع فيها أعداء الإسلام ! !

وكان لا يشترط لصحة الخلافة إلا أن يكون الخليفة من قريش وإلا أن يبايعه الناس .

والبيعة شرط جوهرى لقوله تعالى : « وأمرهم شورى بينهم . »

فإذا تغلب أحد على منصب الخليفة وإن لم تكن الخلافة حقا له ، وبايعه الناس بالخلافة ، وجبت طاعته أيا ما يكن أمره من العدل أو الظلم والفجور أو التقوى .. ويقول أحمد في ذلك : « السمع والطاعة للأئمة وأمير المؤمنين البر والفاجر ومن اجتمع عليه الناس ورضوا به ، ومن غلبهم بالسيف وسُمّى أمير المؤمنين ، والغزو ماض مع الأمراء إلى يوم القيامة البر والفاجر.... ومن خرج على إمام من أئمة المسلمين وقد كان الناس قد اجتمعوا عليه ، « وأقروا له بالخلافة بأى وجه من الوجوه كان ، بالرضا أو بالغلبة ، فقد شق الخارج عصا المسلمين ، وخالف الآثار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . »

وهو مع ذلك لا يقر السكوت عن الخليفة الظالم ، ولكنه يرى أن النصح له أولى من الثورة عليه .. ! .. وهو يرى النصح فرض كفاية على كل أصحاب الرأى والعلم ، فإن قام به بعضهم سقط الفرض الشرعى عن الجميع ، وإن لم يقر به أحد أثم الجميع ..

ومن عجب أن أحمد الذى فرض على الناس طاعة الخليفة وإن كان فاجرا ، نأى بنفسه عن الاتصال بالخلفاء ، ورفض أموالهم ، وأبى أن يتولى منصبا فى ظل أحدهم على الرغم من حاجته الملحة إلى المال .. لأنهم ظالمون ! !

وقد هاجم بعض المفكرين من معاصرى أحمد آراءه في الخلافة .، واتهموه انه ينسب إلى الرسول والصحابة نقيض آرائهم ، فالرسول يأمر أنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، ويحذر المسلمين أن يسكتوا على الظلم والفُجر، لأنهم إذا سكتوا عنه عمهم الله بالعقاب .. والصحابة قوّموا أولياء الأمر منهم وردوهم إلى الصواب ..

ثم إن هؤلاء المفكرين اتهموا أحمد بالدعوة إلى الإذعان والرضا بالظلم و بالمعصية ..

غير أن أحمد ارد عليهم أن خير التابعين عاشوا تحت مظالم الأمويين فلم يدعوا الرعية إلى الخروج عليهم .. وهو إنما يدعو إلى الطاعة مع استمرار النصيحة ، لا إلى السكوت عن المظالم .. وإذا كانت طاعة الحاكم الظالم ظلما ، فالخروج عليه ظلم أفدح ، لأن الخروج مجلبة للفتنة وفى الفتنه تنتهك الحرمات ، وتهدر دماء الأبرياء كما حدث فى كل الثورات فى العصر الأموى والعباسى .. !

ومهما يكن من شىء ، فما تجرأ أحد من معاصرى أحمد على اتهامه بأنه ينافق الخلفاء ، ولكنهم عابوا رأيه ، واعتبروه خطأ فى تقدير ضررين أيهما أقل ، وأيهما أكثر فيدفع ..

على أن الإمام أحمد بن حنبل لم يكن بدعا فى هذا الرأى ، بل كان فيه متفقا على نحو ما مع ما أفتى به الأئمة الثلاثة من قبله : أبو حنيفة النعمان ، ومالك بن أنس ، والشافعى . فكلهم رأى أن طاعة الحاكم الظالم مع توجيه النصح له ، خير من الثورة عليه لما يصاحب الثورات من عدوان على الأنفس والحريات والأموال ... إلا الإمام أبا حنيفة ، فقد أيد ثورة الإمام زيد بن على وأوشك أن يخرج معه مجاهدا ضد مظالم الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك ..

وعلى الرغم من أن ابن حنبل كان شديد التأثر بالشافعى ، فقد اختلفا فى بعض شروط الخلافة . فالشافعي يجعل العدالة شرطا لصحة الخلافة .. وإن لم يؤيد الثورة على الخليفة إن كان ظالما . والجدير بالذكر أن الإمام الليث ماكان يشترط أن يكون الخليفة عربيا .. ولكنه اشترط العدالة والبيعة .. !

انصرف أحمد يجمع السنن وآثار الصحابة ، و يبحث من خلالها عن أحكام تنقذ الناس من الضلال .. وكان يجمع ما رواه الصحابة من أحاديث ، كل على حدة ، و يسند إلى الصحابي ما رواه .. فكان لابد له أن يجمع ماورواه الإمام على بن أبي طالب لايبالي في ذلك أن يتهمه أحد بالتشيع أو بالميل إلى العلويين .. وفي الحق أنه ما كان متشيعا ولا صاحب ميل للعلويين .. ولكنه تعلم من أستاذه الشافعي أن الإمام على كان أحق بالخلافة من معاوية ، وأن معاوية كان باغيا ، ودافع أحمد عن رأى أستاذه في مواجهة منتقديه .. وقد روى أحمد عن أستاذه الشافعي : «قال رجل في على : ما نفر الناس منه إلا أنه كان لا يبالي بأحد . فقال الشافعي كان في عليٍّ كرم الله وجهه أربع خصال لا تكون منها خصلة واحدة لإنسان إلا يحق له ألا يبالي بأحد ، كان زاهدا والزاهد لا يبالي بالدنيا وأهلها ، وكان عالما والعالم لايبالي بأحد ، وكان شجاعا والشجاع لايبالي بأحد ، وكان شريفا والشريف لايبالي بأحد . وكان على كرم الله وجهه قد خصه النبي صلى الله عليه وسلم بعلم القرآن ، لأن النبي عليه الصلاة والسلام دعا له وأمره أن يقضي بين الناس . وكانت قضاياه ترفع إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيمضيها . »

وقد رأى أحمد بن حنبل أن اتباع أحكام الإمام على سنة لأن الرسول صلى الله عليه وسلم أقر جميع أحكامه ، فكأنه هو الذي حكم ، . ثم انه قد خصه بعلم القرآن ..

وعجب علماء الشيعة والمفكرون الذين يؤيدونهم لأمر الإمام أحمد . ! لقد حسبوه عدوا لهم ، وعدوا للإمام علىّ منذ أفتى بأن طاعة الحاكم واجبة حتى إن كان ظالما أو فاجرا ، والثورة عليه خروج على الإسلام ! . وكان الشيعة يرون أنه لا طاعة لحاكم ظالم ، ويجب على الرعية أن تثور عليه ، فإن سكتوا عنه فليس سكوتهم طاعة له واجبة ، بل اتقاء لظلم أفدح ، وانتظارا للفرصة المناسبة .. وإذن فرأى أحمد بن حنبل أن طاعة الخليفة الظالم الفاجر واجبة شرعا ، وأن الثورة عليه مخالفة للسنة ، إنما هو إدانة للشيعة ولإمامهم الحسين بن على سيد الشهداء رضى الله عنه ، وموافقة على مقاتل الطالبيين ، وشرها تلك المذبحة الوحشية الفاجرة في كربلاء .. ! !

مابال أحمد يسند بفتواه قتلة الإمام الحسين ، وقتلة الإمام زيد ، وغيرهم من أئمة الشيعة ، ثم ها هو ذا يمدح الإمام على بن أبي طالب كرم الله وجهه و يعتمد على فقهه ؟ ! !

كان اللجاج شديدا في ذلك العصر بين دعاة الحرية السياسية والاجتماعية من حماة العدل و بين غيرهم من الفقهاء .. ومن أجل ذلك اشتدوا على أحمد بن حنبل ، لأنه كان يرى الطاعة للحاكم الظالم الفاجر، و يرى الخروج عليه مخالفة للسنة .. فهو إذن يؤيد الظالم الفاجر يزيد بن معاوية ، و يرى أن خروج الحسين كان مخالفة للسنة ! ! ... وهذا رأى فاسد ! ..

وفى الحق أن أحمد ما رأى ذلك وما أفتى به .. فقد كان يرى معاوية باغيا على الإمام على كرم الله وجهه خرج عن طاعته وثار عليه ، فهو مخالف للسنة .. أما عن خلافة يزيد بن معاوية ، فإن أحمد بن حنبل يرى أن معاوية أكره الناس على هذه البيعة .. ولا إكراه فى البيعة ، وليس على مستكره يمين ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

وما كان أحمد بن حنبل من الذين يخوضون غمرات الصراع السياسى المتأجج ، ولكنه كان يقول ما يؤمن به اتباعا للسنة مهما يكابد فى سبيل رأيه ، فهو أحرص الناس على التأسىّ برسول الله ، وكان يقول « صاحب الحديث من يعمل به . » .. وما كان يجيز طعن الصحابة من الخلفاء الراشدين ، كما يفعل بعض غلاة الشيعة ، وكان هذا سببا آخر لخلاف هؤلاء معه .. وقد تحدث أمامه جماعة من الناس فذكروا خلافة على بن أبى طالب وتناولوا أمير المؤمنين بالتجريح ، فتغير وجه أحمد وقال لهم : « من طعن فى على كرم الله وجهه فهو مخالف للسنة ، وليس للسلطان أن يعفو عنه » .. ثم رفع رأسه وقال : « إن الخلافة لم تزين عليًّا بل علىٌّ زيّنها » .

ولقد سئل أحمد عن حق على فى الخلافة فقال : « لم يكن أحد أحق بها فى زمن علىٍّ من علىٍّ ! ورحم الله معاوية ! »

وسئل عن تأييد أم عائشة لطلحة والزبير ضد على فقال : « أكان طلحة والزبير يريدان أعدل من علىٍّ رضوان الله عليهم أجمعين ؟ »

وسمع أحد غلاة الشيعة بهذا فقال : « هذه الكلمات أخرجت نصف ما كان فى قلبى على أحمد بن حنبل من البغض » .

وقد بنى أحمد آراءه فى قتال أهل البغى على سيرة الإمام على كرم الله وجهه ، متّبعا فى ذلك رأى الإمام الشافعى ، فلما عاتبه أحد أصحابه قال : « ويحك » ... ياعجبا لك ! فما عسى أن يقال فى هذا إلا هذا ؟ ! وهل أبتُلِىَ أحد بقتال أهل البغى قبل أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه ؟ »

وفى الحق أن الشافعى أثر فى أحمد كما لم يؤثر أستاذ فى تلميذه . حتى لقد قال أحمد بعد أن أصبح إماما كبيرا : « إذا سئلت عن مسألة لا أعرف فيها خَبرا (أى حديثا أو أثرا عن الصحابة) أخذت فيها برأى الشافعى . »

وقد بلغ تقديره للشافعى أنه أنكر على كل شيوخه أن يكتبوا فقههم فى كتب .. إلا الشافعىّ .. أنكر على مالك كتابة الموطأ وقال عنه : « ابتدع مالم تفعله الصحابة رضى الله عنهم » وقرأ كتب شيخه أبى يوسف ، وكتب محمد بن الحسن ، وأنكر عليهما أنهما كتبا فقههما .. وأبى على أصحابه أن يكتبوا

آراءه أو فقهه هو نفسه .. ولكنه عندما وصله كتاب الرسالة الجديدة الذى وضعه الشافعى فى مصر، بهر بالرسالة ، وقرأها على أصحابه .، وحضّهم على تعلمها ، واحتفظ بها فى خزانة كتبه كما يصون كنزا .. وهكذا صنع مع كل كتب الشافعى التى وضعها فى مصر ، وهى كتب تأثر فيها الشافعى إلى مدى بعيد بفقه الليث بن سعد إمام أهل مصر.

ولقد حمل أحمد عن الشافعى تقديرا كبيرا للإمام الليث ، فكان لا يذكره إلا بالتقدير.

وقد كان أصحاب أحمد يعرفون ميله للشافعى وإكباره إياه .. وكان هو يوصيهم بقراءة كتب الشافعى قائلا إنه « مامن أحد وضع الكتب منذ ظهرت أتبع للسنة من الشافعى » . وكان الشافعى يبادله هذا التقدير، وقد عده الشافعى من العجائب : « ثلاثة من العلماء من عجائب الزمان : إعرابى لايعرف كلمة وهو أبو ثور (وكان كثير اللحن) ، وأعجمى لا يخطئ فى كلمة وهو الحسن الزعفرانى ، وصغير كلما قال شيئا صدقه الكبار وهو أحمد بن حنبل » .

كما قال عنه الشافعى : « رأيت فى بغداد شابا إذا قال ! ! قال الناس كلهم صدقت . » قيل من هو قال : « أحمد بن حنبل » .. وقال عنه : « خرجت من بغداد ، وما خلفت فيها رجلا أفضل ، ولا أعلم ، ولا أفقه ، ولا أتقى ، من أحمد بن حنبل » .

وكان أحمد يضع شيخه فى أعلى مكان ، و يقول إن الله يبعث على رأس كل مائة عام إماما صالحا من عباده ، يحيى به السنن و يرفع شأن الأمة ، وقد كان عمر بن عبد العزيز على رأس المائة الاولى ، وعسى أن يكون الشافعى على رأس المائة الثانية »

على أن أحمد بن حنبل ، منذ وقف يتدبر أحوال المسلمين ، و يتلمس طريق الخلاص ، ووسيلة لتحقيق مقاصد الشريعة ، التمس طريقا يستنبط به الأحكام ، فلم يجد أفضل من أصول فقه الشافعى .

اجتمعت لأحمد خلال رحلاته عشرات الأحاديث النبوية ، فأخذ يرويها للناس و يعمل بها .. وتأدب بأدب الرسول .. روى الحديث : « كل معروف صدقة ومن المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق » .. فكان لايلقى الناس إلا مبتسما ، و يقدمهم عليه إذا مشوا فى طريق ، أو دخلوا مكانا أو اصطفوا لصلاة الجماعة .. و يروى أحد أصحاب أحمد أنه دخل معه مكانا ، فإذا بامرأة معها طنبور (آلة للعزف) ، فكسر صاحب أحمد الطنبور، وسئل أحمد عن ذلك فيما بعد فقال : « ماعلمت بهذا ، وما علمت أن أحدا كسر طنبورا بحضرتى إلى الساعة » . ذلك أن أحمد ترك المكان مستنكرا الأمرين جميعا : عزف المرأة على الطنبور، وعدوان صاحبه عليها ! .. فهو يكره لأصحابه أن يغلظوا ، و يطالبهم حين يأمرون بالمعروف ، أو ينهون عن المنكر أن يتبعوا سنة الرسول صلى الله عليه وسلم كما علمه الله تعالى : « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة . »

وكان أحمد يكره الشطرنج و يراه لهوا يصرف الناس عن جد الأمور، فسمع أن صاحبا له دخل على جماعة ، حول رجلين يلعبان الشطرنج فطوح به ونهر الجماعة ، فغضب الإمام أحمد لما صنعه صاحبه بأصحاب الشطرنج .. !

كانت سماحته تسع الذين يسيئون إليه مهما تكن الإساءة فادحة ! .. وشى به رجل إلى الخليفة ، وزعم أن ثائراعلويا يختفي في داره .. ولوصحت الوشاية لقتل الإمام أحمد بإخفاء الثائر العلوى . فلما تبين للخليفة كذب الوشاية أرسل الواشي مصفدا إلى أحمد ، ليفتى برأيه فى عقابه فقال أحمد : « لعله يكون صاحب أولاد يحزنهم قتله ! »

وهكذا أخذ أحمد نفسه بالتأدب بأخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم .. وكان يقول : « إذا أردت أن يدوم لك الله كما تحب ، فكن كما يحب » .

إن أبرز مايميزه لهو التواضع .. قال له أحد الناس « جزى الله الإسلام عنك خيرا فغشاه الحياء جزى الله الإسلام عنى خيرا ؟ ومن أنا ؟ ! وما أنا ؟ ! .. »

عرف شيوخه منه هذا التواضع منذ كان يطلب عليهم العلم ، فأشادوا به .

ذات يوم ضاق أحد شيوخه بالطلاب فى الحلقة ، وغاظه عجزهم عن فهم الدرس ، فصاح الشيخ : « ألا تفقهون ؟ » فقال الطلاب : « كيف لا نفقه وفينا أحمد بن حنبل » . فقال الشيخ « أين هو؟ » ودخل أحمد فقالوا : « ها هو ذا » وجلس أحمد حيث انتهى به المجلس كما تعود ، وكما عاش يفعل إلى آخر العمر، فقال الشيخ لأحمد : « تقدم ياأحمد » فقال أحمد : « لا أخطو على الرقاب . » فصفق الشيخ فرحا : « الله أكبر.. هذا أول الفقه » .

على أن تواضع أحمد وحياءه لم يمنعاه من الجهر بالحق .. بل كان على النقيض شديدا على الباطل ، لايبالى في ذلك لومة لائم .. لاحظ أن بعض الفقهاء يفضلون العباس على الإمام على بن أبى طالب ، نفاقا للخلفاء والأمراء من بنى العباس .. وسمع أحمد بن حنبل ، هذا الفقيه يذكر الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه بما لا ينبغى ، و يشكك فى حقه فى الخلافة ، فانبرى أحمد يقول للفقيه على مشهد من الناس : « من لم يُثبت الإمامة لعلى فهو أضل من حمار.. ! سبحان الله ! .. أكان على كرم الله وجهه يقيم الحدود و يأخذ الصدقة و يقسمها بلا حق وجب له ! ؟ .. أعوذ بالله من هذه المقالة .. بل هو خليفة رضيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصلوا خلفه ، وغزوا معه ، وجاهدوا ، وحجوا ، وكانوا يسمونه أمير المؤمنين راضين بذلك غيرمنكرين ، فنحن له تبع » .. ثم قال : « ما لأحد من الصحابة من الفضائل بالأسانيد الصحاح مثل ما لأمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه » .

وعلى الرغم من أن أحمد بن حنبل كان يرى أول الأمر أن طاعة الخليفة واجبة وإن كان ظالما أو فاجرا ، إلا أنه عدل عن رأيه عندما ما أنضجته التجربة فيا بعد .. فعاد واعتبر طاعة الخليفة الظالم لونا من النفاق يجب أن يبرأ منه المؤمن !

ذلك أنه سمع قصة عن شيخه عبد الله بن المبارك ظلت تضنيه إلى آخر العمر .. فكانت دموعه تفيض من الندم ومن الرحمة والإشفاق ، كلما تذكر ما حدث لأستاذه عبد الله بن المبارك .. وهو الأستاذ الذى لزمه أحمد وإن لم يره قط .. فقد كان كلما لحق به فى مكان ليسمع منه ، وجده قد رحل عنه ، حتى مات الشيخ ، فلزم أحمد آثاره وفقهه وتتبع سيرته واهتدى بها .. وسمع أحمد فيا سمع أن شيخه ابن المبارك مر وهو فى طريقه إلى الحج بمزبلة قوم ، فرأى فتاة تأخذ طائرا ميتا وتلفه ، فسألها عن أمرها فقالت : أنا وأخى هنا ليس لنا شيء إلا هذا الإزار وليس لنا قوت إلا ما يلقى على هذه المزبلة ، وقد حلّت لنا الميتة منذ ثلاثة أيام (أى أن الجوع اضطرهما إلى أكل الميتة) ، وقد كان أبونا له مال ، فظُلِمَ وأُخِذَ ماله وقتل .. فقال ابن المبارك لوكيله : « كم معك من النفقة ؟ » ، قال : « ألف دينار » فقال : « عد منها عشرين دينارا تكفينا إلى مَرو ، وأعطها الباقى . فهذا أفضل من حجتنا هذا العام » ، ورجع ..

ماذكر أحمد هذه القصة إلا بكى .. فما فتواه إذن بوجوب طاعة خليفة ظالم ؟ !

أيطاع خليفة يظلم رجلا فيقتله و يستولى على ماله و يترك أبناءه جياعا ينقبون فى المزابل عن الطعام ، فلا يجدون إلا الميتة ؟ ! ! .. ياحسرتا على العباد ! ! ..

وإذن ماجدوى العلم والفقه وما جدوى كل شيء ؟ !

وما الإسلام إن كان على وجه الأرض من يلتمس القوت فى المزابل ، وفى الأمة مع ذلك مسلمون يملكون آلاف الآلاف ؟ ! .. وفيها فوق ذلك علماء يمجدون الفقر و يدعون إليه باسم الزهد ؟ ! .. أى زهد هذا ! ؟ بل إنه لإعانة للظالم على ظلمه .. ! . ثم ما هذا الانشغال الكامل بالمجردات ، والقضاء ، والقدر ، وخلق القرآن ، والجبر ، والاختيار ؟ ! ما الاهتمام بهذه الأمور والحوار المصطخب حولها ، والعدل معطل ! ! ؟ . إن المفكرين ليخبطون فى العَشَوات ، و يتركون الحكام يقتلون المظلومين و يصادرون أموالهم ! . كم فى الأمة من رجال ونساء يسقطون فى الأوحال بدلا من أكل الميتة أو البحث عن القوت وسط المزابل ؟ ! ! . وكم من العلماء فكر فى هؤلاء الجياع والمظلومين ! ! .. أعلماء وفقهاء هم ، أم هم أوتاد وخشُب مسندة يرتكن إليها الباغون ! !

إن كل مافى أيدى الخلفاء والأمراء والأغنياء حرام عليهم ، ما دام فى الأمة جياع !

وستُكْوىَ ظهورهم وجنوبهم فى نار جهنم بما يكنزون من ذهب وفضة ، كما أنذرهم الله تعالى فى كتابه الكريم ! ! .. والعلماء والفقهاء الذين يز ينون لهم سيرتهم على أى نحو من الأنحاء ، وحتى الذين يسكتون على هذا المنكر، إنما هم جميعا شياطين خرس ، سيعاقبهم الله تعالى عقاب الشياطين يوم يقوم الحساب ! !

إن مِنْ هؤلاء الفقهاء والعلماء مَنْ يُضلِّل الناس عن الحقيقة جهلا منه أو غفلةً أو رياءً للحكام . إنهم ليحببون الفقر لعامة المسلمين ، وإنهم ليعظون عامة المسلمين ألا يفكروا فى غير ذكر الله ، عسى أن تطمئن قلوبهم .. ولكن ما جدوى ذكر الله إذا لم يعمل بهذا الذكر، إذا كنت تأكل الحرام ؟ ! .. إن من آكلى الحرام من يستطيع أن يذكر الله أضعاف أضعاف غيره من المشغولين بالسعى فى طلب الرزق ! ! .. ولكن ذكر الله ليس مايتحرك به لسانك ، وانما هو عمل الصالحات ! ..

ولقد طاف رجل على فقهاء بغداد يسألهم واحدا بعد الآخر: « بم تلين القلوب ؟ » قالوا : « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » .. ثم لقى أحمد بن حنبل فسأله فقال أحمد : « بأكل الحلال » . فعاد الرجل يطوف بهم جميعا و يذكر لهم جواب أحمد .. وكأنه نبههم من غفلة ، وفتح عيونهم على الحقيقة فقالوا : « جاءك بالجوهر. الأصل كما قال » .

ألف الناس أن يسألوا أحمد بن حنبل كلما لقوه ، فيجيبهم بعد التروِّى ، وكثيرا ما كان يقول : « لاأدرى » ..

(وأغراه بعض المعجبين به أن يتخذ له حلقة فى الجامع ، ويجلس ليعلم الناس و يفتيهم ، فيصير إماما .. ولكنه تَحَرَّج .. فقد كان يرى أنه يجب ألا يجلس للفتوى والتدريس حتى يبلغ الأربعين .. أى فى سن النبوة ! .. ثم إنه لايستطيع أن يفتى و بعض أشياخه حى ، فالشافعى أستاذه ما يزال حيا بمصر ! ..

وأمر آخر: إنه يريد قبل أن يجلس للفتوى وللتدريس ، وأن يفرغ من تنسيق الأحاديث التى جمعها فى رحلاته العديدة المضنية ، يريد أن يسند الأحاديث إلى رواتها من الصحابة ويخص لكل واحد منهم مسندا .. وعمل كبير كهذا يقتضيه الاعتزال فى بيته ..

و بدأ يعتكف ليجمع مُسْنَده ، ويمحص ما فيه من الأحاديث . وعاتبه بعض الذين ألفوا لقاءه ، فطلب منهم أن يتركوه ليعمل ما هو أجدى من غشيان مجالس ليس فيها غير أحاديث يثرثر بها قوم ألفوا السكوت على الباطل وظلم العباد ..

كان قد بدأ يدون (المُسْنَد) منذ بدء عنايته بالحديث ، وقد تعيّن عليه الآن أن يجمع شتات ما

كتب ، وأن يسطّر على الورق كل ما حفظ ، وأن ينظر فى هذه الأحاديث مع إمعان النظر فى نصوص القرآن ، ليحسن استنباط الأحكام .

وجمع (المسند) فى كتب متفرقة ، وظل يعمل فيه إلى آخر أيام حياته ، لينسقه ابنه و يصنفه من بعده .

وكان أحمد يكتب فى مسنده كل ما يحفظه من أحاديث .. وقد قال هو فيما بعد لابنه عبد الله الذى روى فقهه و بوب مُسْنَده ، بعد أن سأله عبد الله عن حديث جاء فى المسند ، رو يت بخلافه أحاديث أخرى قال أحمد لابنه : قصدت فى المسند المشهور ، فلو أردت أن أقصد ماصح عندى ، لم أرو من هذا المسند إلا الشيء بعد الشيء اليسير ، ولكنك يابنى تعرف طر يقتى فى الحديث .

لست أخالف ما ضعف من الحديث إذا لم يكن فى الباب شيء يدفعه . وقد لاحظ ابن الجوزى أن بعض فقهاء الحنابلة فيما بعد قد اعتبروا كل ما جاء فى المسند من أحاديث صحاحا على الرغم من تنبيه أحمد بن حنبل نفسه .

حزن بن الجوزى لهذا ، وكتب : « قد غمَّني فى هذا الزمان أن العلماء لتقصيرهم صاروا كالعامة ، وإذا مر بهم حديث موضوع قالوا : قد رُوِى . والبكاء يجب أن يكون على خساسة الهِمَم ولا حول ولا قوة إلا بالله . »

أصبح أحمد بن حنبل وما فى بغداد أحفظ منه للحديث ، ولا أعمق منه بصرا بآثار الصحابة وفتاواهم ، فضلا عن فقهه بعلوم القرآن

وشهد شيوخ بغداد بفضله وعلمه وتقواه ، وجدارته بالتدر يس والإفتاء .

وها هو ذا يبلغ الأربعين ، وقد مات الإمام الشافعى ، ووجب على أحمد أن يتخذ له حلقة للتدر يس والإفتاء بالمسجد الجامع ببغداد .

وحدد موعدا لحلقته بعد صلاة العصر كما فعل الإمام أبو حنيفة منذ أكثر من خمسين عاما ..

استقر لأحمد بن حنبل الآن منهج فى استنباط الأحكام ، خالف فيه أبا حنيفة ومالك بن انس . وتابع فيه أستاذه الشافعى . وإذن فقد أصبح أحمد بن حنبل إماما ..

وشرع الإمام أحمد يفسر القرآن ، و يروى الأحاديث و يفسرها ، و يشرح للناس مذهبه فى استنباط الأحكام ، و يفتى فيما يطرح عليه من مسائل .

وفى هذه الحلقات علم الناس أن من روى حديثا صحيحا ولم يعمل به ،، فقد نافق !

وفى هذه الحلقات تفجر فقهه أصولا وفروعا .. وأجاب على آلاف المسائل .. وازداد شهرة ، وتزاحم الناس على حلقاته ، وتركوا حلقات الفقهاء الآخرين ، حيث وجده الناس غزير العلم ، حسن الرأى ، حلو الحديث ، رفيع الذوق ، كثير الحلم ، جميل المعشر .. ووجدوه حفيا بالفقراء من طلاب العلم ، بسواد الناس يقربهم ويهش لهم ..

وقد جر عليه هذا كثيرا من العناء ! فقد نفس عليه بعض فقهاء بغداد ، وتبدل فى قلوبهم إعجابهم به ، ورضاهم عنه ، لتشتعل الغيرة منه .

ثم إن طلاب العلم تابعوه إلى بيته ، ولم يتركوا له وقتا للراحة أو العمل .. وعاتبه أحد أصدقائه لأنه لم يعد يلقاه كما ألف من قبل فقال له : « إن لى أحباء هم أقرب إلى ممن ألقاهم فى كل يوم ، لا ألقاهم مرة فى العام .

أسرف عليه طلاب العلم ومحبوه ، فأزعجوه ، وما كان له حجاب ينظمون مواعيد الناس ، كما كان للإمام مالك والإمام الليث من قبل ، وما كان يستطيع أن يمتنع عن لقاء زواره إذا كان يعمل أو يستريح فى بيته كما تعود مالك والشافعى .. وأثقل عليه أصحاب المسائل ، وطلاب مودته ، فخشى أن يفتن بنفسه ،أو يدهمه الغرور والكبر والزهو أو المراءاة وشكا همه إلى الله تعالى ، وتمنى عليه لو أهمل ذكره ، أو ألقى به فى شعب من شعاب مكة حيث لا يعرفه أحد .. !

ما كان الناس يتركونه ليستريح ، والحياء بعد يمنعه من صدهم .

ولاحظ أن فى حلقاته من يكتب إجاباته وفقهه ، فنهاه فما كان يحب كتابة الفقه .. وسأله سائل : « لِمَ تنهى عن كتابة الفقه وابن المبارك الذى نعرف موقعه منك كتب فقه أهل الرأى فى العراق ؟ » فأجاب : « ابن المبارك لم ينزل من السماء . وقد أمِرْنا أن نأخذ العلم من فوق . » « أى من القرآن والسنة . »

ذلك أن الإمام أحمد كان يخشى إذا دون الفقه أن تتجمد الأحكام ، ويشيع التقليد فيما يأتى من العصور ، والفقه ينبغى أن يتجدد بالضرورة وفق مقتضيات الزمان ، يضبط هذا كله ماجاءت به نصوص القرآن والسنة وآثار الصحابة ، فهى وحدها الجديرة بالتدوين ، بوصفها المعيار الموضوعى الثابت ، ووعاء الأحكام الشرعية جميعا ، إما بظاهر نصوصها ، أو بدلالاتها الواضحة أو الخفية ، وإما بالقياس على ما فى النصوص من أحكام إذا تشابهت العلل والحِكَم .

وتعود الإمام أحمد فى حلقة درسه بعد كل صلاة عصر، أن يفتى الناس وطلاب العلم عما يسألون، وأن يشغل نفسه وأهل الحلقة بما اشتغل به السلف : القرآن وتفسيره

وكان يعلمهم أن آيات القرآن يفسر بعضها بعضا، أو تفسرها الأحاديث الشريفة، وآثار الصحابة الذين تلقوا علمهم من الرسول صلى الله عليه وسلم ..

فموضوع الدرس إذن هو القرآن والسنة وآثار الصحابة . ثم إنه ليأخذ أهل الحلقة بإتقان اللغة العربية وآدابها وعلومها، ليسهل عليهم فهم القرآن والأحاديث ..

أما سائر المعارف التى انتشرت فى عصر الإمام أحمد، فما كان ليسمح بطرحها فى الحلقة .. وبصفة خاصة الكلام فى العقيدة .. وكان المعتزلة قد أحدثوا حركة فكرية عنيفة، وتصدوْا للرد على الزنادقة والملحدين بما عرفوا من علوم المنطق والفلسفة، ثم أخذوا منذ حين يطرحون هم وغيرهم من المفكرين قضايا الجبر والاختيار، والقضاء والقدر، ورؤية الله، وذات الله وصفاته، ووضع القرآن : أمخلوق هو أم قديم ؟ .

ولقد تصاول المفكرون والفقهاء من قبل حول عدد من هذه القضايا مثل الجبر والاختيار، فمنهم من ذهب إلى أن الإنسان حر فى حدود علم الله وتقديره

ومنهم من قال بالجبر، فالإنسان فى كل أفعاله مجبر فهو مسيَّر لا اختيار له

ومنهم من أنكر هذا كله، وقال بأن الإنسان حر الاختيار، وأن حريته هى مناط التكليف وأساس الحساب، فإذا لم يكن الإنسان حرا فعلام يُحاسبَ، وفيما الثواب والعقاب ؟ ! .. إنه لعبث إذن وهو ما يتنزه الله تعالى عنه ..

ومنهم من قال إن صفات الله جزء من ذاته العَليّة .

ومنهم من قال أن ما هو حسى من هذه الأوصاف والصفات يجب أن يؤول عن ظاهر معناه وأطالوا الحوار فى أسماء الله تعالى أهى الذات أم صفات غير الذات العلية، وفى كيفية رؤيته يوم القيامة .

والعلم الذى يتناول هذه الأمور جميعا يسمى بعلم الكلام .. وكان علماؤه أشداء فى الجدال، متمرسون بأساليب الحوار..

إلا أن الإمام أحمد بن حنبل رفض الحوار، أو التفكير فى علم الكلام كله، وحث الناس على ألا يتناولوا من أمور الدين إلا ما جرت عليه السُنّة وآثار الصحابة .. قال : « لا أرى الكلام إلا ما كان فى

كتاب أو سنة أو حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو عن أصحابه أما غير هذا فإن الكلام فيه غير محمود » .

رفض أن يطرح فى حلقته أمر من العقائد ، على الرغم من أن الحياة الفكرية خارج حلقته كانت تضطرب بهذه الأفكار التى تصطرع حولها عقول المفكرين والعلماء والفقهاء . وهو صراع طرح نفسه على مجالس الخلفاء ، فشجعوه وأقاموا له ندوات الحوار..

ولقد تلقى الإمام أحمد كتابا من أحد أصحابه يسأله عن مناظرة علماء الكلام ، فرد عليه الإمام أحمد : « الذى كنا نسمع وأدركنا عليه من أدركنا أنهم كانوا يكرهون الكلام والجلوس مع أهل الزيغ . »

والحق أن الإمام أحمد بن حنبل كان شديد التمسك بسيرة السلف وآثار الصحابة فيما يمس العبادات والعقائد .

أما أحكام المعاملات فقد تطور بها ، وتوسع فيها ، ووضع لها من القواعد مايفتح أبواب الاجتهاد للفقهاء فى كل عصر كلما دعت الحاجة . فالرجوع إلى الحق فضيلة وهو خير من التمادى فى الباطل .

من ذلك أنه أباح كتابة بعض فقهه لمصلحة رآها . وكان يغير آراءه ومواقفه ، كلما تبين له وجه أصوب فى الأمر..

ومن ذلك أنه غير موقفه من علم الكلام .. إذ تبين له أن لا مصلحة فى السكوت عن علم الكلام .. وما كان العصر ليترك مثل الإمام أحمد فى صمته عما يثيره المتكلمون ، فوجد أن مصلحة الشريعة تقتضيه أن يقول آراءه فيما يشغل الحياة الفكرية والفقهية من حوله ، فهذا أجدى على الدين من الصمت ، والنهى عن الحوار أو التفكير! .

فأعلن آراءه فى قضايا الإيمان ، والقدر، وأفعال الإنسان ، وصفات الله .. ولكنه دعا عددا قليلا من خاصة العلماء والفقهاء وصفوة الصحاب ليذيع فيهم هذه الآراء.. ذلك أن حلقته فى الجامع كانت قد أصبحت تضم آلافا من طلاب العلم ومحبى آرائه .. وإنه ليخشى أن يتسع الحوار حول العقائد بين هذه الأعداد العديدة من الناس ، فيزيغ بصر ، أو يضل عقل ، أو تزل قدم بعد ثبوتها ، أو يستقر خطأ ما فى قلب مَنْ لم يؤهله علمه بعد لبحث أمور العقائد !

قال الإمام أحمد فى الحلقة التى يعقدها فى داره « إن الإيمان قول وعمل ، وهو يزيد و ينقص ، زيادته إذا أحسنت ونقصانه إذا أسأت . ويخرج الرجل من الإيمان إلى الإسلام ، فإن تاب رجع إلى

الإيمان . ولايخرجه من الإسلام إلا الشرك بالله العظيم ، أو برد فريضة من الفرائض جاحدا لها . فإن تركها تهاونا بها وكسلا كان فى مشيئة الله . إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه »

أما رأى الإمام أحمد فى مرتكب الكبيرة فهو ليس كافرا ، ولا هو فى منزلة بين منزلتى الكفر والإيمان ، وليس معفوا عنه ، وإنما عليه أن يتوب ، وأمره إلى الله .. فمن زعم أنه كافر « فقد زعم أن آدم كافر ، وأن أخوة يوسف حين كذبوا أباهم كفار . » .. وقال : لايكفر أحد من أهل التوحيد وإن عمل بالكبائر .

وما كان للإمام أحمد ليجهر بهذه الآراء فى حلقته العامة ، فيسىء فهمها أحد ويجسر الناس على اقتراف الكبائر .. بل خص بآرائه أهل العلم فى حلقته الخاصة فى داره ، حيث الجو الصالح للتفكير والحوار فى أمور حرجة كتلك ..

وأما عن القضاء والقدر فقد قال : « أجمع سبعون رجلا من التابعين وأئمة المسلمين وفقهاء الأمصار على أن السنة التى توفى عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم الرضا بقضاء الله ، والتسليم لأمره ، والصبر تحت حكمه ، والأخذ بما أمر الله به ، والبعد عما نهى عنه ، والإيمان بالقدر خيره وشره ، وترك المراء والجدال والخصومات فى الدين . » وقال : « الناظر فى القدر كالناظر فى شعاع الشمس كلما ازداد نظرا ازداد حيرة . »

أما عن صفات الله وأسمائه مما جاء فى القرآن أو السنة ، فيرى الإمام أحمد روايتها واتباعها كما جاءت ، فلا نُقحم عليها مالا يصلح لضبطها وهو العقل .. فهى أمور اعتقادية ينبغى على المؤمن أن يسلم بها كما هى .. وكذلك رؤية الله تعالى يوم القيامة ، يجب فيها أن نؤمن بما جاء فى الأحادِيث الشريفة ، وقد رأى الرسول ربه ، ويجب أن نفهم الأحاديث بظاهرها .

على أن أحمد يرى فى انشغال الفكر بهذه الأمور ترفا يصلح أن يتلهى به الخلفاء والأغنياء فى قصورهم ! ، هو ترف يصلح للذين لا يعنيهم العدل ، وقد تؤذيهم إقامته . والانشغال بهذا الجدل هو بعد إقصاء للفكر عن شئون الحياة ومجافاة لمقاصد الشريعة التى تتوخى مصالح العباد .. فالفقيه الحق الفاضل يجب أن يشغل من أمور الدين بما يقيم المجتمع الفاضل الذى أراده الشارع الحكيم أى بما يحقق مصالح الناس .

وإذن فينبغى ألا يشغل الفقيه التقى إلا بما يفيد الناس فى حياة كل يوم .. إلا بما تحته نفع كما قال الإمام مالك بن أنس من قبل ، وكما صنع الأئمة العظام أبو حنيفة والليث بن سعد وابن المبارك والشافعى .

أمـا مـا يعنيه الخلفاء والأمراء والأغنياء من شغل العلماء والفقهاء والمفكرين بغير واقع حياة الناس وصرفهـم إلى التصارع العقلى فى المتاهات ، فهذا كله لا جدوى منه ، وهو استدراج لهم لينشغلوا عن مصالح الأمة ، وعن استنباط الأحكام والضوابط التى تكفل هذه المصالح ، ليخلُص للخلفاء والأمراء إلـى مـا هـم فـيـه مـن تـرف وظلم واستبداد ؟ ! وليظل فى الرعية من يبحث عن الطعام وسط المزابل ، والرعاة متخمون ! !

هـكـذا كـان الإمام أحمد ينظر إلى اشتجار الخلاف من حوله فى أمور العقائد ، وإلى انشغال الفكر بها ، وحرص الخلفاء والأمراء على تشجيع الانصراف إليها ..

لَكـأنّ ولاة الأمور لا يريدون للفقه أن يُعْنَى بأحوال الرعية ، وأن يقيم العدل ، وأن يضع الميزان .. إن هـؤلاء الحـاكمين ليشجعون الزهاد على تمجيد الفقر ، والانصراف عن هموم الحياة ، وكأن الإسلام دعوة إلى الفقر ! .. ثم إنهم فى الوقت نفسه يحضّون أهل الفقه والعلم والفكر على الانصراف عن الواقع إلى ماوراء الواقع .. عن الحياة إلى ما قبل الحياة وما بعد الحياة ... فَمَن بعد ذلك يحاسب الحكام على مالم يفعلوه للرعية ، وعلى ما يقترفون ! ! ؟ ومن ذا الذى يدافع عن العدل والحق ومصالح الناس ؟ ! !

ماكان للفقهاء الأبرار الذين وقفوا جهودهم على خدمة الشريعة أن يقعوا فى الفخاخ ! !

وهكذا جعل الإمام أحمد كل همه إلى ما يفيد الناس .

وفـى الحق أن الإمـام أحمد بن حنبل لم يهاجم ظلم الحاكم علنا ، كما فعل من قبله أبو حنيفة الذى حـرض صـراحـة عـلى الثورة ، ولكن آراء الإمام أحمد عن العدل وعن الأسوة الحسنة ، وعن حقوق ذوى الحاجة ، ثم فتاواه .. كل أولئك قد أوغر ضده الصدور .

وكـان اسـتـنباطه للأحكام والفتاوى يعتمد على نصوص القرآن والسنة وأقوال الصحابة وآثارهم ، ثم القياس .

قال أحمد عن القياس : « سألت الشافعى عن القياس فقال يصار إليه عند الضرورة » .

وهـذا هـو مـا فـعـلـه أحـمد ، فهو لا يلجأ إلى القياس إلا إذا لم يجد حكما فى نص القرآن أو السنة أو أقوال السلف ، والسلف عنده هم الصحابة والتابعون .

فإذا اختلفت أقوال الصحابة اختار أقربها إلى نصوص القرآن أو السنة .

وإذا اخـتـلـفـت أقـوال الـتابعين اختار منها ما هو أقرب إلى القرآن والسنة أو ما وافق قول الصحابة

مجتمعين أو أقرب أقوالهم إلى النصوص .

وهو على خلاف من سبقوه ، يقدم الحديث الضعيف على القياس .. ما دام الحديث قد صح عنده وتأكد أنه غير موضوع ..

أما الاجماع فهو يرى أنه لم ينعقد بعد الصحابة .. وقال فى ذلك : « ما يدعى الرجل فيه الإجماع فهو كاذب ، لعل الناس اختلفوا .. ما يدريه ؟ فليقل لا نعلم مخالفا » . وقال : « قد كذب من ادعى الإجماع » . أما الصحابة فهم معروفون بأسمائهم ، والعلم بإجماعهم وخلافهم ميسور.

والإمام أحمد يلحق إجماع الصحابة بالسنة ، لأنهم لا يجمعون إلا على ما علموه علم اليقين عن الرسول صلى الله عليه وسلم إما رواية عنه ، أو اجتهادا منهم أقرهم عليه ..

فالإمام أحمد لا ينكر الإجماع بعد الصحابة ولكنه لا يتصور حدوثه .. ولهذا اعتمد على القياس بعد النصوص وآثار الصحابة ..

على أنه إذ يعتمد القياس أصلا من أصول فقهه ، إنما يفعل ذلك اتباعا للسنة والسلف الصالح .. و يقول : « القياس لا يُستغنى عنه والرسول صلى الله عليه وسلم أخذ به ، وأخذ به الصحابة من بعده . »

و يتسع القياس عند الإمام أحمد أكثر مما يتسع عند غيره من الأئمة ، فالقياس عند الإمام أبى حنيفة شيخ فقهاء الرأى وشيخ القياسيين هو إلحاق أمر غير منصوص على حكمه بأمر منصوص على حكمه لاتحاد العلة أو تشابهها . وعلى هذا سار الفقهاء الآخرون حتى الشافعى .

أما الإمام أحمد فلم يقتصر فى القياس على علة الحكم وحدها ، بل التفت إلى الحكمة

وعلة الحكم هى سببه ، أما الحكمة فهى هدفه .. وهى المصلحة التى يريد تحقيقها والمضرة التى يريد تجنبها فعلة الحكم بإفطار المسافر هى السفر، أما الحكم فهى حفظ النفس ودفع المشقة .. وأخذا بالحكمة يباح إفطار من كان فى عمله مشقة بحيث إذا صام لم يتمكن من العمل ..

وعلى هذا النحو من التوسع فى القياس الأخذ بالقياس الظاهر والخفى ، وبمراعاة الحكمة إلى جوار العلة ، أدخل الإمام أحمد فى أقيسته الأخذ بالمصالح ، وهى التى لم يقم دليل على تحريمها أو إباحتها .

والإمام أحمد يأخذ بها قياسا على روح الشريعة المستوحاة من نصوص الكتاب والسنة ، وإن لم تكن قياسا على نص خاص .

ثم إنه أخذ بالاستحسان وهو الحكم فى مسألة بغير ما حكم به فى نظيرها ، رعاية للمصلحة على خلاف أستاذه الشافعى الذى قال : « الاستحسان تلذذ » .

وأخذ الإمام أحمد بالإستصحاب وهو مصاحبة الواقع ، فما ثبت فى الماضى ثابت فى الحاضر والمستقبل وقطعا مالم يوجد ما يغيره دليل .. فما هو مباح يظل مباحا حتى يقوم دليل على الحظر

كما أخذ بالذرائع وهى الطرق والوسائل المؤدية إلى الفعل وتوسع فيها كما لم يتوسع إمام من قبله . فهو يرى أن الطرق لتحقيق المقاصد تابعة لها ، فوسائل المحرمات محرمة و وسائل المباحات مباحة كما قال ابن القيم أحد شراحه . والأطباء إذا أرادوا حسم الداء منعوا صاحبه من الطرق والذرائع الموصلة إليه ، وإلا فسد عليهم مايرومون إصلاحه ، فما الظن بهذه الشريعة التى هى أعلى درجات الحكمة والمصلحة والكمال ؟ .. ومن تأمل مصادر الشريعة ومواردها ، علم أن الله تعالى ورسوله سد الذرائع المفضية إلى المحارم بأن حرمها ونهى عنها » ..

من أجل ذلك اهتم الإمام أحمد بالباعث على الفعل ، و بنتيجة الفعل .. فمن أراد أن يقتل رجلا بسهم ولكنه أخطأه وأصاب حية كانت تريد أن تلدغ خصمه فهو آثم عند الله . لأن الباعث على فعله كان شرا وهو نية القتل .. ومن سب آلهة الوثنيين ، وكانت نتيجة فعله أن سبوا هم الله ورسوله .. فهو آثم . لأن سبهم الله ورسوله نتيجة لسبه آلهة الوثنيين

ومهما يكن اعتبار الإمام أحمد للذرائع والاستحسان والاستصحاب والمصالح : أأصول مستقلة هى ، أم تدخل فى باب القياس ، فإن اعتماد أحمد على هذه الضوابط قد وسّع فقهه ، وجعله خصبا ، غنيا ، متحررا ، متجددا أبدا ، قادرا على مواجهة كل ماتطرحه الحياة على عقول المجتهدين والقضاة ، حريصا على مصالح العباد . و يبدو هذا فى فروع الإمام أحمد وإجاباته على كثير من المسائل .. وفى كل ماعرف عنه من فتاوى وأحكام ..

وآراء الإمام أحمد كانت فى أكثرها إجابات عن مسائل ، وهى إجابات كان فيها متبعا السنة وفتاوى الصحابة .. والسنة عنده تبيان للقرآن .

وفى مسائل عديدة لم يجب الإمام أحمد ، لأنه لم يجد النص الذى يهتدى به ، ولكنه لم يكن يسكت ، بل يقول فيها كل أوجه الرأى .

على أنه كان أحيانا يقول : « لاأدرى .. سل غيرى » .

وقد ذكروا أمامه أن ابن المبارك سئل عن رجل رمى طيرا فوقع فى أرض غيره لمن الصيد لصاحب الأرض أم للرامى ؟ فقال ابن المبارك : « لاأدرى » . وسئل الإمام أحمد عن رأيه فى هذه المسألة :

« فأجاب هذه دقيقة .. وما أدرى فيها » .

وسأله رجل : حلفت بيمين ما أدرى أى شىء هو، فقال ليت أنك إذا دريت أنت دريت أنا .

وفى اتّباع الإمام أحمد للسنة وآثار السلف قال : « ما أجبت فى مسألة إلا بحديث من رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا وجدت السبيل إليه ، أو عن الصحابة أو التابعين . فإذا وجدت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أعدل به إلى غيره . فإذا لم أجد فمن الخلفاء الأربعة الراشدين ، فإذا لم أجد فمن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : الأكابر فالأكابر. فإن لم أجد فمن التابعين ومن تابعى التابعين . وما بلغنى عمل له ثواب إلا عملت به رجاء ذلك الثواب ولو مرة واحدة . »

من أجل ذلك ظل إلى آخر حياته يبحث عن الأحاديث ، والآثار الصحاح من فتاوى الصحابة وأقضيتهم ، حتى أحاديث الآحاد ، والأحاديث الضعاف ، إن ثبت عنده أنها صحيحة غير موضوعة .. والضعاف من الأحاديث فى عرف ذلك الزمان ، غيرها فى عرف أهل هذا الزمان . فقد كانت الأحاديث فى عصره إما صحاح أو ضعاف .. فقد نفهم نحن أن الضعيف من الحديث هو المكذوب غير الصحيح أو المختلق ، أما فى عرف السلف فهو الحديث الذى ليس له سند قوى ، ومنه الحديث الحسن ! ..

كان الإمام أحمد إذا لم يجد ما يريد فى الحديث ، يلجأ إلى القياس الذى يُصار إليه عند الضرورة مع توسعه فى فهم القياس وتطبيقه . فأخذ بالمصلحة قياسا على مقاصد النصوص وروحها ، لا على نص بالذات ، وتحرى حكمة النص بدلا من علته فحسب ، أو لجأ إلى الاستحسان ، وما إلى ذلك من أصول .. وقد سمعه بعض الناس يجادل فقيها آخر فى بيته و يقول له : « إيش (أى شىء) أنتم ؟ لا إلى الحديث تذهبون ولا إلى القياس ولا إلى استحسان . ماأدرى إيش أنتم ؟ »

أعمل الإمام أحمد فكره فاستنبط الأحكام من النصوص والآثار، وعن طريق القياس بمعناه الواسع فحوى المصالح والذرائع والاستصحاب .. ولجأ إلى الاستحسان .

وفى الحق أنه كان متشددا فى كل ما يتعلق بالعبادات والحدود التى هى قوام الدين ، لأنه رأى البدع تسود والناس يترخصون ، ويخرجون عن الدين ، أما فى المعاملات فقد اتخذ فيها مذهبا متحررا ميسرا ، لأنه رأى أن الذين يستغلون الناس يضيقون عليهم باسم الدين ، ورأى من الزهاد الذين يلبسون الصوف و يسمون أنفسهم بالصوفية ، والفقراء ، من يزين للناس ترك السعى ، وحب الفقر، والرضا بالظلم وللقعود عن طلب العدل ..

وإجابات الإمام أحمد عن المسائل ، وفتاواه يظهر فيه تشدده فى العبادات والحدود ، وتيسيره فى المعاملات .

من ذلك أنه عندما فشت الفاحشة فى عصره ، وشاع الشذوذ الجنسى حتى أصبح أهل الشذوذ يجهرون و يتبجحون به ، وأصبح لهم شأن فى الدولة نشر الإمام أحمد أن الصديق أبا بكر أمر بإحراق أهل الشذوذ ، عندما أرسل إليه خالد بن الوليد أنه بعد أن فتح الشام وجد فيها أهل قرية يقترفون هذا المنكر، فأشار عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهما ، بإحراقهم أسوة بقوم لوط .

— ومن ذلك أنه رأى الولاة يتقبلون الهدايا ، فروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم جاءه أحد عماله يحمل مالا كثيرا فاحتجز نصف المال وقال إنه له فقد أهدى إليه ، فغضب الرسول صلى الله عليه وسلم وأخذ المال كله للمسلمين ، وحذرهم أن يقبل أحد منهم هدية إن تولى أمرا من أمور المسلمين وتساءل الرسول إن جلس أحدهم فى بيت أبيه وأمه أكان يهدى إليه ، أم أنه يهدى إليه لأنه تولى أمرا ؟ فإن استحل مالا بهذه الطريقة فقد استحق النار.. !

وتأسيسا على هذا الأثر أفتى الإمام أحمد أنه لا يحق للقاضى أن يقبل هدية ، ولا أى مستخدم فى الدولة ، ولا لمن يسعى فى مصلحة لغيره عند السلطان أو أولى الأمر.. وأفتى بأن من زاد ماله وهو يلى منصبا ، وجب على السلطان أن يأخذ نصف ماله فيرده على المسلمين .

— ومن ذلك أن الإمام أحمد رأى الناس قد قست قلوبهم ، فأفتى بأنه لا يحق لأحد أن يحمل حيوانا فوق طاقته ، وأن الكلب إذا حضر طعام أحد ، فعليه أن يلقى إلى الكلب بشىء منه ، وكان الناس قد فهموا منه أن ظل الكلب نجس ، فسخر به بعض حساده ، وما كان قد قال هذا قط ، ولكنه أزرى بالأثرياء وأنكر عليهم أن يطعموا كلابهم أفخر الطعام ، وفى الأمة من لايجد طعامه إلا فى المزابل ، وقد لا يجده حتى فى المزابل ! ! من أجل ذلك شهروا به !

على أن الإمام أحمد نفسه جلس مرة يأكل رغيفا وما لديه طعام غيره ، فجاء كلب فبصبص بذنبه .. فألقى إليه الإمام أحمد باللقمة بعد اللقمة حتى تقاسما الرغيف ! ! .. والإمام أحمد يرى فى سؤر الكلب نجاسة ، على غير ما رآه الإمام مالك الذى اعتمد على آية تحل أكل مايصيده الكلب ، فقال : « أحل لنا صيده فكيف يحرم سؤره ؟ » .. ولكن من رأى الإمام أحمد كرأى غيره من الفقهاء والأئمة إلا الإمام مالك بن أنس أن الكلب إذا لعق الإناء وجب غسله بماء طاهر، سبع مرات عند بعض الأئمة ، وحتى يطهر عند أحمد وإن بلغت ثمانى مرات أولها بالتراب عند الجميع ..

ولم يُجز أحمد قتل الطير إلا لمصلحة أو لحاجة ، ولا دودة القز إلا لاستخراج الحرير. واعتمد الإمام أحمد فى هذا على الحديث الذى يحرم قتل العصفور إلا لمصلحة أو لحاجة .

- ومن ذلك أن الشرط فى العقد الصحيح مالم يخالف القرآن والسنة ، ومالم يحلّل حراما أو يحرم حلالا . وإذن فللزوجة أن تشترط على زوجها ألا يتزوج غيرها . فإن خالف الشرط فسخ العقد ووقع الطلاق . ولها أن تشترط عليه ألا يسافر معها .

- من ذلك أنه إذا هلك أحد من العطش أو الجوع فى بلاد المسلمين ، فكل أثرياء المسلمين آثمون ، وعليهم الدية ، وولى الأمر مسئول وعليه الدية .. وهى دية المقتول عمدا .. نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض ، فمن قتلها فكأنما قتل الناس جميعا .

- من تسبب فى القتل قاتل وإن لم يقتل بيده ، وإن لم يقصد القتل .. وقد أخذ هذا الحكم من قضاء للإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه . فقد أدخلت فتاة فى ليلة زفافها إلى بيتها شابا كانت تعشقه وأخفته ، واكتشفه الزوج فقتله ، فحكم الإمام على الزوجة الخائنة بالقتل ، وعفا عن الزوج لأنه يدافع عن عرضه .

- ومن ذلك أن النّية هى التى تُكيّفُ العقد وعلى هذا فزواج المحلل باطل .

- يجب نفى أهل الدعارة والمجون والفسق إلى مكان يؤمن فيهم شرهم .

- القاعدون عن طلب الرزق اكتفاء بالعبادة ، يجب إجبارهم على العمل ، لأنهم يأكلون أموال الناس بالباطل ، وطلب الزهد فرارا من المشقة إثم ، وترك المكاسب مع الحاجة إليها كسل .

- إذا حكم للمدعى بيمينه بشهادة شاهد واحد ، ثم ثبت كذب الشاهد ، فعليه الغُرم كله ، أى رد مادفع للمدعى بغير حق ، فإن كانا شاهدين تقاسما الغرم .

- لايجوز الشراء ممن يرخّص السلع لينزل الضرر بجاره ، وعلى السلطان أن يمنعه من البيع . كذلك يطرد السلطان من السوق كل تاجر يرفع السعر و يضارب فيه .. فإذا تعدد التجار، وجب اقتلاعهم من السوق ومنعهم من التجارة .

- تمنع المضاربة على السعر نزولا أو صعودا لمن لايريد أن يشترى .

- لا احتكار .. فالمحتكر ملعون .

— يمنع كل بيع فيه شبهة ربا ، كالبيع للمدين ، كمغالاة بعض التجار فى الربح فهو ربا ، وتحل مصادرة هذا المال ، ورده بيت المال ومنع مقترف هذا العمل من الاتجار.

— أعمال السمسرة غير جائزة . والسلطان مسئول عن مطاردة السماسرة ورد أموالهم إلى المسلمين لأنه مكسب على حساب الغير بغير عمل ففيه شبهة القمار.

وما كان الإمام أحمد ليحرم أو يحلل صراحة بل كان يتورع عن هذا كغيره من الأئمة السابقين .. و يكتفى بأن يقول « أكره أو أحب » من ذلك أنه سئل عن بيع الماء فقال : « أكرهه » .. وهو يريد أنه حرام .. وسئل عن الخمر يستعمل كالخل فقال : لايعجبنى ..

— ومن ذلك جواز تحويل الدين وهو استيفاء للحق .. وهى ما تسمى حوالة الحقوق ..

— ومن ذلك أن الأصل فى الأشياء الإباحة ، فكل تصرف مباح حتى يثبت دليل المنع .

— ومن ذلك : إذا شك المطلق أنه طلق واحدة أو ثلاثا .. فهى طلقة واحدة لأن الحلال ثابت بالعقد فلا يزول بالشك .

— جواز إجبار المالك على أن يسكن فى بيته من لا مأوى له ، بأجر المثل ، إذا كان فى بيته فراغ لايحتاج إليه . والحكم ينطبق على صاحب الخان (الفندق)

— يجبر أصحاب السلع على بيعها بسعر المثل ، فإذا امتنعوا ، رفعهم السلطان من السوق وصادر أموالهم ورد نصفها إلى بيت المال .

— ومن امتنع عن أداء الزكاة ، أو ماطل ، أو لم يؤدها كاملة أخذت منه قسرا ، وصودر ماله ورد نصفه إلى بيت المال .

— يُمْنَع تلقى السلع قبل نزولها فى الأسواق ، لكيلا يتحكم تاجر أو عدد من التجار فى السعر.

— من وقع فى معصية وعاجل بالتوبة حال تلبسه بها أو بعدها فهو معفو عنه . كمن يغتصب عقارا ثم يندم و يعترف ويخرج من العقار فهو فى حال توبة ، فيعفى عنه .

وكان قد صح للإمام أحمد من السنة والآثار عن الشروط فى العقود مالم يبلغ غيره من الأئمة من

قبل . ولذلك خالفهم جميعا في الشروط ، فأجاز كل شرط فى العقد مالم يحرم حلالا أو يحلل حراما .. وتوسع الإمام أحمد فى ذلك حتى أجاز شرط الخيار فى عقد الزواج . بحيث يكون لأحد الطرفين حق الفسخ بعد مدة معينة فإذا مضت المدة ولم يفسخ ، استمر العقد .. وفي رأيه أنه لا دليل من الشرع يمنع هذا الشرط ، ثم إن حق الفسخ يمنع الخديعة . فإذا خالف الزوج الشرط فسخ العقد ، وبمقتضى رأيه فى الشروط أجاز للبائع أن يبيع ويحتفظ بحق الأنتفاع مدة معينة ، فله أن يشترط الإقامة بسكنه الذى يبيعه مدة معينة . وأجاز اشتراط البائع على المشترى أنه إذا أراد بيعه فهو للبائع بثمنه الذى تقاضاه من قبل . وأجاز أن يشترط البائع على المشترى وجوه استعمال موضوع البيع . فقد سئل عن رجل اشترى جارية فاشترط البائع عليه ألا يستخدمها إلا فى التسرى فحسب ، فلا تخدم ولا تقوم بعمل آخر، فقال أحمد : « لابأس » .

— جواز البيع من غير تحديد الثمن ، إذا اتفق المتعاقدان على سعر السوق عند التسليم دون مساومة . و يسمى بقطع السعر. وما فى الكتاب ولا فى السنة ولا فى آثار الصحابة ما يحرّم هذا ، فهو على قاعدة أن الأصل فى الأشياء الإباحة .

— يجب التشدد فى الطهارة .. فالمضمضة والاستنشاق من فرائض الوضوء وهى عند غيره من الأئمة سنة .

— من ولى أمرا من أمور المسلمين فاحتجب عنهم فى داره جاز حرقه .. فقد احتجب سعد بن أبى وقاص وراء الباب عن الناس فى قصره وهو أمير بالكوفة ، فأرسل إليه الخليفة عمر بن الخطاب من أحرق عليه قصره .

— للمار بثمر غيره أن يأكل حتى يشبع مالم يكن على الثمر سور أو حارس .. ولكن لايجوز للمار أن يحمل من الثمر.

— للرجل أن يشهد على امرأته بالزنا و يقسم اليمين دون حاجة إلى أربعة شهداء ، إذا رأى رجلا يعرف بالفجور يدخل إليها ويخرج . وتعاقب الزوجة بحد الزنا .

— للمرأة إذا تزوج عليها زوجها أن تطالبه بمؤخر صداقها وإن لم تطلق .

— البينة التى تثبت الحق لصاحبه ليست محصورة فى أشكال أو صيغ ، بل هى كل ما يبين به الحق ،

من الأمارات والأدلة ، فلو تنازع الساكن ومالك المسكن على شيء نفيس مخبأ فى المسكن ، فالشيء لمن وصفه منها وصفا دقيقا منضبطا ، وإن حلف الآخر وجاء بالشهود .

— لايتحقق السجود فى الصلاة إلا بأن تمس الأنف الأرض ، وذلك من تمام شعور العابد بالعبودية (والأرض هى ما يصلى عليه العابد مجردة أو مفروشة) .

— تغسل النجاسة بماء طاهر حتى يزول كل آثارها ، وأقل ما تغسل به النجاسة سبع مرات . وإذا شك المتوضئ فى طهارة الماء ، تركه وتيمم .

— السّنة فى الصلاة أن يخفف الإمام فلا يطيل رعايةً لحال المأمومين ، وتكره إمامة من لا يرضى عنه أكثر المصلين .

— الأذان فى الصلاة يجب أن يكون باللغة العربية (وقد أجاز غيره من الفقهاء أن يكون بغيرها) . وكذلك الصلاة .

— السنة فى الصيام هى الفطر فى السفر. والفطر فى الغزو أحرى . وقد خرج الرسول صلى الله عليه وسلم للفتح فى رمضان ، فأفطر بعد صلاة العصر ، وشرب على راحلته ليراه الناس وقال : « تَقَوّوا لأعدائكم » . .

— طاعة الوالدين فريضة ، وهى جزء من الإيمان ، وقد جعلها الله بعد التوحيد ، « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا » فمعصية الوالدين أو الإساءة إليهما كالشرك به تعالى بهذا نزل القرآن وعليه نصت الأحاديث الشريفة ورعاية الأم أولى كما جاء فى الحديث . وقد سمع الرسول صلى الله عليه وسلم قصة زاهد شغلته العبادة عن الرد على أمه وكانت فى حاجة إليه ، فأصابها أذى ، فعقب الرسول على سلوك العابد بأنه لو خرج من صلاته ، وأجاب أمه ، لكان أحب إلى الله تعالى وأقرب . وقد روى الإمام أحمد عن الصحابة والتابعين أنه إذا أستأذن ولد والدته للخروج مجاهدا فى سبيل الله ، فأذنت له ، وعلم أن هواها فى المقام ، فليقم . وقال الإمام أحمد لطالب فى حلقته تريده أمه على التجارة ، وهو يريد العلم : « دارها وأرضها ولا تدع الطلب . »

— يجوز للأب أن يفضل أحد ولده بالهبة إذا كان هذا الولد فى حاجة بسبب العجز عن الكسب لانقطاعه للعلم ، أو لعاهة به ، أو لكثرة عياله .

ـ الأحكام يجب أن توفق بين الظاهر والباطن ، فيؤخذ بالظاهر إذا كان الحال فى غنى عن البينة لأن الأمارات القوية تؤيده أو كان بينة فى ذاته . كأن يظهر الحمل على امرأة ليس لها زوج ، أو كأن يشاهد رجل يجرى وفى يده عمامة ، وعلى رأسه عمامة أخرى ، يطارده رجل آخر بلا عمامة !

لايؤخذ بالظاهر على اطلاقه ، فقد يثبت أنه يجافى الحقيقة .

فقد حدث أن جاءت امرأة تخاصم زوجها ، فأرسلت عينيها و بكت . ، فقال أحد القوم : « مهلا » فإن أخوة يوسف جاءوا أباهم عشاء يبكون .

وحدث فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن امرأة بالمدينة أحبت شابا من الأنصار ، ولكنه لم يطعها فيا تريد ، فجاءت ببيضة وألقت صُفرتها ، وسكبت البياض على فخذيها وثوبها ، ثم جاءت إلى الخليفة عمر صارخة فقالت : « إن هذا الرجل غلبنى على نفسي وفضحنى . وهذا أثر فعاله . » فسأل عمر النساء فقلن له : « إن ببدنها وثوبها آثار الرجل » . فهم بعقوبة الشاب ، فأخذ يستغيث و يقول : « ياأمير المؤمنين تثبت فى أمرى . فو الله ما أتيت فاحشة ولا هممت بها ، فلقد راودتنى عن نفسى فاعتصمت » . فنظر عمر إلى على بن أبى طالب كرم الله وجهه وقال : « ياأبا الحسن ما ترى فى أمرها . » فنظر على إلى ما على الثوب ، ودعا بماء حار شديد الغليان ، فصب على الثوب فجمد البياض ، وظهرت رائحة البيض ، فزجر الخليفة أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه المرأة فاعترفت ، وعاقبها .

ومن رأى الإمام أحمد أنه لايؤخذ بالظاهر على إطلاقه حتى إذا اعترف المذنب . وقد روى أنه حدث فى عهد أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه ، أن أتى برجل وُجِدَ فى خربة بيده سكين ملطخ بالدم و بين يديه قتيل يتشحط فى دمه . فسأله أمير المؤمنين فقال : « أنا قتلته . » فقال : « اذهبوا به فاقتلوه . » فلما ذهب به أقبل رجل مسرعا ، فقال : « ياقوم لا تعجلوا . ردوه إلى علىّ » . فرده . فقال الرجل : « ياأمير المؤمنين . ماهذا صاحبه . أنا قتلته » فقال علىّ للأول : « ماحملك على أن قلت أنا قاتله ولم تقتله ؟ » . قال : « ياأمير المؤمنين ، وما أستطيع أن أصنع ، وقد وقف العسس على الرجل يتشحط فى دمه ، وأنا واقف ، وفى يدى سكين وفيها أثر الدم وقد أخذت فى خربة ؟ فخفت ألا يقبل منى ، فاعترفت بما لم أصنع ، واحتسبت نفسى لله . » فقال على : « بئسما صنعت ! فكيف كان حديثك ؟ » . فقال الرجل إنه قصاب ذبح بقرة وسلخها ، وأخذه البول فأسرع إلى الخربة يقضى حاجته والسكين بيده ، فرأى القتيل فوقف ينظر إليه فإذا بالشرطة تمسك به . وأما القاتل فاعترف بأن الشيطان زيّن له أن يذبح القتيل ليسرقه ثم سمع خطو أقدام فاختفى فى الظلام ، حتى دخل القصاب فأدركه العسس فأمسكوا به . ولما رأى الخليفة أمر بقتل القصاب ، خشى أن يبوء بدمه فاعترف . وأخلى على سبيل القاتل لأنه إن كان قد قتل نفسا ، فقد أحيا نفسا ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا . » وأخرج الدية من بيت المال .

وكان الإمام يستشهد فى أحكامه بالأخبار والقصص ، ففيها عبرة لأولى الألباب كما قال الله تعالى . وكان يطلب من تلاميذه أن يكثروا من قراءة القصص ليعتبروا

ومما رواه من قصص تؤيد رأيه فى عدم الأخذ بالظاهر على إطلاقه ، أن امرأة فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم اغتصبها رجل وهى فى الطريق إلى المسجد لصلاة الفجر، فاستغاثت برجل مرّ عليها ، وفرّ المغتصب ، ومر نفر وهى ما تزال تصرخ فأدركوا الرجل الذى كانت قد استغاثت به ، فأخذوه وجاءوا به إليها ، فقال الرجل : « أنا الذى أغثتك وقد فر الآخر» فأتوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته أنه وقع عليها وشهد عليه القوم . فقال : « إنما كنت أغيثها على صاحبها فأدركنى هؤلاء فأخذونى » فقالت : « كذب . هو الذى وقع على » . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انطلقوا به فارجموه . » فقام رجل فقال : لا ترجموه وارجمونى فأنا الذى فعلت بها الفعل . فقال القوم : « يارسول الله ارجمه » فقال : « لقد تاب توبة لو تابها أهل المدينة لقبل الله منهم .

— يفضل الإمام أحمد للمسلمين أن يغزوا تحت قيادة القوى وإن كان فاجرا ، على الضعيف وإن كان صالحا و يقول : « أما الفاجر القوى فقوته للمسلمين وفجوره لنفسه . وأما الصالح الضعيف فصلاحه لنفسه وضعفه على المسلمين . فيغزى مع القوى الفاجر جلبا للمصلحة العامة .

— لايحبس المدين فى دين . فلم يحبس رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا فى دين قط ، ولا الخلفاء الراشدون من بعده ، وقد قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه « الحبس فى الدين ظلم » . وكذلك لايحبس الزوج فى مؤخر الصداق ، ولم يحبس الرسول ولا أحد من الخلفاء الراشدين زوجا فى مؤخر صداق أصلا . ولم يقض أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا من بعده لامرأة بصداقها المؤخر، إلا أن يفرق بينهما موت أو طلاق فتقوم على حقها » . كما جاء فى رسالة الليث إلى مالك . فالأمة مجمعة على أن المرأة لا تطالب به قبل أجله بل هو كسائر الديون المؤجلة فليس لها حق فيه إلا بالموت أو الطلاق أو الزواج بغيرها .. ولا تقوم مصلحة الناس إلا بهذا . و يضيف الإمام أحمد فى ذلك : « من حين سلط النساء على المطالبة بالصدقات المؤخرة (أى.مؤخر الصداق) ، وحبس الأزواج عليها ، حدث من الشرور والمفاسد ما الله به عليم . وصارت المرأة إذا أحست من زوجها بصيانتها فى البيت ، ومنعها من البروز والخروج من منزله والذهاب حيث شاءت ، تدعى بصداقها وتحبس الزوج عليه ، وتنطلق حيث شاءت . فيبيت الزوج و يظل يتلوى فى الحبس ، وتبيت المرأة فيما تبيت فيه » .. !

ـ كل أنواع المعاملات مباح إلا ما يحظره نص أو القياس على نص . وكل العقود واجبة الوفاء إلا إذا قام دليل شرعى على المنع . وكل ما احتاج إليه الناس فى معايشهم ولم يكن سببه معصية لم يحرم عليهم ، لأنهم فى معنى المضطر الذى ليس بباغ ولا عاد . ولا يشترط لانعقاد العقد أى شكل أو صيغة بل ينعقد بالنية والإفصاح عنها . و بعض العقود لا يثبت إلا بالكتابة . وقد ينعقد العقد بممارسة الفعل أو بما يقتضيه العرف . كالعقد مع صاحب الخان (الفندق) أو صاحب الحمام ، ينعقد بدخول المكان ورضا صاحبه . وأكثر تصرفات التجارة قائم على العرف . ولكن النية والقبول يجب ألا يعيب أيهما شىء ، فأساس المعاملات الرضا ، وكل ما يشوب الرضا يفسد التعاقد ، اكراها كان أم خديعة أم غشا أم تدليسا أم غبنا .

وقد حدث فى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أن تزوج شيخ كبير يخضب بالسواد بفتاة شابة حسناء و بعد حين ظهر البياض على شعر الزوج ولحيته ، فكرهته العروس وقالت إنها خدعت بشبابه .. وما هو بشاب . وشكاه أهلها إلى عمر قائلين : « حسبناه شابا » . فضربه عمر ضربا موجعا وقال له : « غررت بالقوم » . وفرق بينهما .

ـ الغاية ترتبط بالوسيلة المؤدية إليها ، وترتبط المقدمة بالنتيجة ، فما هو سبيل إلى المباح مباح ، وما هو وسيلة إلى المحظور محظور ، وإذا فسدت احداهما فسدت الأخرى ، فإثبات الحق مباح بل هو مطلوب ، على ألا تكون الوسيلة محظورة كشهادة الزور .

وتستثنى من القاعدة حالات الضرورة أو الحاجة .. فيجوز للطبيب الاطلاع على عورة المريضة لعلاجها وإنقاذ حياتها .

ـ من الواجب توفير كل ما فيه صلاح الناس ، وفتح الطريق للتوبة وإصلاح ذات البين وصيانة كيان الأسرة .

وروى احمد : « جاءت إلى على بن أبى طالب امرأة فقالت : « إن زوجى وقع على جاريتى بغير أمرى » . فقال للرجل : « ماتقول ؟ » . قال : ما وقعت عليها إلا بأمرها . فقال : « إن كنت صادقة رجمته (بالزنا) وإن كنت كاذبة جلدتك الحد (للقذف) » . « وأقيمت الصلاة فقام أمير المؤمنين على يصلى . وفكرت المرأة فلم تر لها فرجا فى أن يُرجم زوجها ، ولا فى أن تجلد فولت هاربة . ولم يسأل عنها أمير المؤمنين » .

وقد قيل للإمام أحمد « فلان يشرب » . فقال : « هو أعلمكم شرب أم لم يشرب» . وقال عن جماعة من العلماء يشربون النبيذ : « تلك سقطاتهم لكنها لا تذهب حسناتهم » .

- على القادر أن ينفق على كل ذوى الأرحام الفقراء قربوا منه أو بعدوا . وعلى الموسرين من المسلمين أن يخرجوا من أموالهم إلى بيت المال صدقات ، حتى لايكون فى أرض الإسلام صاحب حاجة مسلما كان أم غير مسلم .

- يجب على كل مسلم أن يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر، وهذا أمر لاتختص به جماعة منهم ، بل هو فرض على الجميع . ويجب اتباع الحسنى فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. فكما جاء فى الحديث الشريف : « كل من رأى سيئة فسكت عليها فهو شريك فى تلك السيئة » ، على أن يكون النصح بقول التى هى أحسن . والمسلمون مطالبون شرعا إذا كلّم بعضهم بعضا بأن يقولوا التى هى أحسن « فرب حرب أهاجها قبيح الكلام » . فإن لم يتحدثوا بالحسن من القول ، وقعوا فى المعصية بمخالفتهم قوله تعالى : « قل لعبادى يقولوا التى هى أحسن . إن الشيطان ينزغ بينهم » .

بهذا الفقه خالف الإمام أحمد فى كثير من المسائل كل من سبقه من الأئمة و بصفة خاصة الإمامين أبا حنيفة ومالك بن أنس .. ولكنه كان أكثر اقتداء بالشافعى فى مذهبه المصرى الذى تأثر فيه بالإمام الليث بن سعد . على أن الإمام أحمد اختلف مع الشافعى اختلافا كاملا فى الأخذ بالاستحسان وفى شروط العقود ، فقد وقع لأحمد من الحديث والآثار مالم يقع للشافعى ، وقد صح نظر الشافعى حين قال لأحمد هو ومن معه من أهل الحديث : « أنتم أعلم بالحديث والأخبار منى فإن كان صحيحا فأعلمونى » .

سار الإمام أحمد فى أكثر اجتهاده على طريق الإمام الشافعى ، حتى لقد رفض الإمام الطبرى اعتبار ابن حنبل فقيها أو مجتهدا ، وعده متبعا وراوية للحديث ومقلدا ! ..

وقد خوطب الإمام أحمد فى التزامه طريق الشافعى فقال : « لم نكن نعرف الخصوص ولا العموم حتى ورد الشافعى ، وكان الفقه قفلا ففتحه الشافعى . وهو فيلسوف فى أربع فى اللغة واختلاف الناس والمعانى والفقه » .

تابع الإمام أحمد طريقه : فهو يجيب على المسائل ، و يعلم التفسير والحديث ، و يراجع ما جمع من الأحاديث ، وفى مراجعاته لما حفظ وجمع من أحاديث ، حذف كل ما حفظه عن عالم ذى مكانة من أهل الحديث ، لأنه شتم معاوية بن أبى سفيان وأرسل إليه أحمد بذلك .. فعجب المحدث لأنه يعرف أن أحمد بن حنبل يرى معاوية من أهل البغى أمتحن ببغيه أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه ! !

إن أحمد وصاحبه حفظا الأحاديث معا من شيخهما عبد الرازق فى اليمن ، ولقد سمعاه معا يشتم أمير

المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه .. وعثمان أفضل من معاوية ! ! .. وإذن فما ينبغى لابن حنبل ، أن يروى الأحاديث الكثار التى حفظها عن شيخها عبد الرازق ! أرسل المحدث إلى صاحبه أحمد يذكره بذلك كله .. !

فلم يشأ الإمام أحمد أن يحاور صاحبه ، فقد شغله فقهه ، واستنفره غلبة أصحاب الكلام على قصر الخليفة وعلى الحياة الفكرية ، فشدد النكير عليهم ، وشرع يهاجمهم فى حلقاته العامة بالمسجد ، وأخذ يحذر منهم طلابه ومريدى حلقته قائلا : « لا نكاد نرى أحدا نظر فى الكلام إلا وفى قلبه رَغَل (أى فساد) . » ولم يتهيب أصحاب الكلام هجوم أحمد ، بل مضوا يحاجّون فى القضية التى كانت تضنيهم منذ زمن بعيد وهى قضية خلق القرآن .

والقضية ليست بنت العصر .. ولكن أصحاب الكلام من المعتزلة أثاروها من قبل فى عصر بنى أمية ، وأصابهم منها عنت شديد وعذاب عظيم ! فقد بدأ المعتزلة فى حكم هشام بن عبد الملك يتكلمون فى حرية الاختيار وفى البيعة والشورى ، فهزوا أركانَ السلطان ! ...

ثم تكلموا فى خلق القرآن . فانتهز الحاكمون الفرصة ، واتهموا أصحاب هذا الرأى بالكفر .. ولم يجادلوهم فى غيره من الآراء . وقبضت الدولة على أول من قال بهذا الرأى وهو « الجعد بن درهم » . فحبس وعذب فى فجر عيد الأضحى .. وخطب والى العراق فى الناس العيد وقال فى آخر خطبته : « انصرفوا وضحوا تقبل الله منكم ، فإنى أريد أن أضحى اليوم بالجعد بن درهم » . ونزل من على المنبر فذبح الجعد كما تذبح الأضحية ! !

ثم إن حكام بنى أمية طاردوا المعتزلة والمتكلمين بتهمة الكفر، وأثاروا عليهم العامة ، حتى جاء وقت لم يستطع فيه مفكر منهم أن يجهر بفكره .. ولكن هذا الفكر استمر ونما تحت المطاردة والأستبداد ، كما عاش وميض نار الثورة على بنى أمية تحت الرماد ، حتى أصبح له ضرام ، وقودُه جثث وهام .. !

وإذ سقطت دولة بنى أمية وخلفها بنو العباس ، ظهر المعتزلة بفكرهم ، واهتموا أكثر ما اهتموا بالقضية التى ذبح أول من أثارها والتى لاقوا النكال فى سبيلها وهى قضية خلق القرآن ! .

وكان بوسع الإمام أحمد أن يشهر بهؤلاء ، فقد دعى إلى عشاء عند أحدهم ، ووجد فى داره كثيرا من الفقهاء يشربون وقد بلغ بهم السكر مبلغه .، وأمامهم ترقص الإماء ويغنين عاريات ، فخرج أحمد من المكان ، وعندما سئل من غده عما رأى لم يقل شيئا ، وقيل له أن مخالفه كانوا سكارى ، لم ينطق ذلك أنه وهب نفسه للعلم ونأى بنفسه عن السياسة ، وأخذ الخصوم بعوراتهم !

ولكنه ماكان يستطيع أن يبعد .. فالسياسة هى فن الحياة وهى « ماكان فعلا يكون معه الناس

أقرب إلى الصلاح ، وأبعد عن الفساد ، وإن لم يضعه الرسول صلى الله عليه وسلم ولا نزل به وحى . وعلوم الدين ترسم ملامح المجتمع الذى أراده الشارع الحكيم بما نفهمه من روح النصوص .

فسر الإمام أحمد قوله تعالى في سورة النور: « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم « بقوله تعالى فى سورة الحديد: « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ، فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير» .

فالأغنياء مستخلفون فيا يملكون ولا ينبغي أن يقول الواحد منهم « هذا ملكى » بل عليه أن يقول : « هذا ملك الله عندى » ... وإذن فللمال وظيفة اجتماعية ، وإنفاق المال للصالح العام واجب شرعى ، جعله الله جزءا من الأيمان .. من أجل ذلك حرم الله الربا ، واعتبر المرابين كفارا ، وحرم الرشوة : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون ، وحرم كل أنواع الكسب بلا عمل ، وحرم الوساطة فى التجارة والصفقات (أى السمسرة) . أو العمولة بلغة العصر!

ثم إن الإمام أحمد أخذ يعلم الآلاف الذين يرتادون حلقته أن الذين يستغلون مواقعهم ليكسبوا بغير الحق لهم الويل كل الويل وكان قد أنذرهم بذلك من قبل ، فرفضوا قوله لأنهم حسبوه من اجتهاده ، ولكنه روى حديثا صحيحا قوى الأسناد محقق الثبوت .. : « أن النبى صلى الله عليه وسلم جاءه أحد الولاة فقسم ما جمع من مال قسمين ثم قال للنبى عليه الصلاة والسلام : » هذا لكم وهذا أُهْدِىَ إلى فغضب النبى وقام يخطب فى الناس: (أما بعد .. فإنى أستعمل رجالا منكم على أمور مما ولانى الله فيأتى أحدكم فيقول : هذا لكم وهذه أهديت إلى . فهلاً جلس فى بيت أبيه أو بيت أمه فينظر أيُهْدَى إليه أم لا ؟ والذى نفسى بيده لا يأخذ أحد فيه شيئا إلا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته ، إن بعيرا له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر. وكان أبو ذر الغفارى حاضرا فقال للرجل : لاتحزن . إن الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولها يسعى من لا يقين له . اذهب اعتذر للنبى صلى الله عليه وسلم)

وروى أحمد عن السلف الصالح أن عمر بن الخطاب خصص أرضا إلى جوار المدينة ، جعل كلأها لماشية الفقراء وحرمها على أنعام الأغنياء وقال : « إن تهلك ماشية الغنى يرجع إلى ماله وإن تهلك ماشية الفقير يأتنى بأولاده متضورا طالبا الذهب والفضة . فبذل العشب اليوم أيسر على من بذل الذهب والفضة يومئذ » .

ثم أخرج الإمام الأحاديث الشريفة التى تؤثم الاحتفاظ بالمال وفى الأمة فقراء .

وتحرز فى رواية آثار على بن أبى طالب التى تحكى عن جهاده فى إعادة توزيع ثروة الأمة ، وأخذ ما فاض عن حاجة الأغنياء ورده على الفقراء .. تحرز الإمام أحمد فى ضرب الأمثال بسيرة على بن أبى طالب عندما كان أميرا للمؤمنين ، وفى اختياره لدار الخلافة بيتا فى الكوفة هو من أدنى بيوت الفقراء ، ليضرب الأمثال لأولياء الأمر فى عصره ومن بعده ... تحرج الإمام أحمد من الحديث عن سيرة الإمام على لكيلا يجدوا عليه سبيلا فيتهموا أحمد بن حنبل شيخ أهل السنة بأنه شيعى .. و يثور عليه أمراء البيت العباسى الحاكم .. !

وعلى الرغم من تحرزه هذا ، أوغرت فتاواه وآراؤه صدور هؤلاء الحكام .. وتربصوا به ، وزعموا أنه بما يفسر من آيات ، وبما يخرج من أحاديث ، وبما يروى من آثار الصحابة ، إنما يثير الفقراء ضد الأغنياء ، ويهين الصوفية ، ويحرض العامة على الخاصة !! .

وأغروا به بعض المنافقين ليجرحوه ! .. ولكنهم ما كانوا لينالوا منه .. فقد عرف الناس من هو الإمام أحمد .. !!

ومايزال فى أعماق أحمد جراح من قصة الفتاة التى كانت تبحث عن القوت فى مزبلة قومها ، وعلى مقربة منها ينثر الدر والذهب لتمشى عليه المحظيات .. وعلماء يمجدون الفقر و يدعون إليه الأمة ! !

ثم جاء عصر المأمون ..

وقد استولى المأمون على الحكم بعد معركة مريرة مع أخيه الأمين .

ذلك أن الرشيد استخلف ابنه الأمين ، وهو ابنه من زوجته العباسية بنت عمه زبيدة ، وأوصى بولاية العهد من بعد الامين للمأمون ، وهو ابن الرشيد من جارية فارسية

ولم يكد الأمين يتولى الخلافة ، حتى عزل أخاه المأمون من ولاية العهد مستنهضا التعصب العربى ضد الموالى ومنهم الفرس .

وأيد الأمين فى هذا عدد من فقهاء بغداد من أهل السنة .. إلا أحمد بن حنبل شيخ أهل السنة ، فقد كان لا يعنى بغير العلم !

وخرج المأمون على أخيه الأمين بالسيف ، وغلبه ، وقتل الأمين ، وأصبح المأمون هو أمير المؤمنين .

وكان الأمين والمأمون على طرفى نقيض : فالأمين يعتمد على نسبه الهاشمى أبا وأما ، فحسبه هذا النسب ! .

أما المأمون فقد عرف أنه يجب أن يعتز بنفسه لا بنسبه ، ومن أجل ذلك حرص على أن يتعلم و يتثقف ، وقد كان معلمه يضربه وهو صغير فلا يشكو، على نقيض الأمين الذى كان مدللا من معلمه ومن الحاشية ، لا حظ له من الثقافة ، ولاهم له إلا التوفر على المتاع الذى تقدمه له حاشيته .. !

كان المأمون واسع الثقافة ، يولع بالفقه وآداب اللغة والفلسفة وعلوم الطبيعة والطب والفلك والرياضيات .. و يدرس معطيات كل الثقافات .. فشجع على نقلها إلى العربية عندما أصبح خليفة ..

ونظر المأمون فى أمر الدولة فوجد أن الصراع يكاد يمزقها : صراع بين العلويين والعباسيين ، و بين أصحاب الفرق من أهل السنة ، وأهل الرأى ، والمعتزلة وغيرهم من الفرق .. ووجد أن بعض أفراد أهل البيت المالك يشتطون فى ظلم الرعية مهددين كل شيء ، فيعشق أحد كبارهم امرأة حسناء متزوجة ، ويحاول ، تطليقها وحين يرفض زوجها أن يطلقها ، يرسل الهاشمى الكبير من يخفونها من زوجها عنوة ، و يغتصبونها قبل أن يهدوها إليه !

و يعجب رجل آخر منهم بغلام مليح فيخطفه من أبيه وأمه ، و يضعه أمامه على الحصان و يطير به إلى بيته ! .. وهذان الرجلان من أهل البيت المالك العباسى يصنعان هاتين الفاحشتين بامرأة وغلام من أهل مكة والمدينة ولايجدان أدنى مقاومة .. !

أما بغداد .. فما أبشع ما يغشاها من فساد .. وإلى جوار هذا كله ينتقض فكر عظيم يعيشه فقهاء البلاد ، ومثقفون شرفاء يعانون من غاشية الظلم والفحشاء ! ..

والدولة تتسع ، وقد خلف هارون الرشيد ملكا عظيما ضم أكثر بلاد الدنيا ، حتى أصبح الرجل فى أى مكان فى العالم لايعتبر مثقفا أو متحضرا ، إلا إذا أتقن اللغة العربية .. !

ثم إن المظالم التى كابدها الناس فجّرت الثورات ، فقامت فى أطراف الدولة ثورات تطالب بالمساواة فى كل شيء وتطرفت حتى طالبت بشيوع النساء !! كما حدث فى الأطراف الشرقية ، وقامت ثورات أخرى تطالب باحترام تعاليم الإسلام كثورة أهل مصر !!

والخلافات الفقهية والفكرية تستعر حتى لتتحول إلى عداء ! و بعض العلويين ينهضون مطالبين بحقهم فى الإمامة والخلافة . ! ونفر من المتشددين يقطعون الطريق على أهل البدع ، و يضربون لاعبى الشطرنج ، أهل الطرب ، ومن يلبس الحرير أو الذهب ، و يريقون الخمور، ويحطمون آلات الغناء !!

كان على المأمون أن يواجه هذا كله .. وأن يرفع مظالم أسلافه من الخلفاء ، و بصفة خاصة مظالم

أربع سنوات حكمها أخوه الأمين ، الذى ترك أمور الدولة لحاشية فاسدة ، أغرقته فى الملذات ، حتى لقد حارب معركته الأخيرة التى قتل فيها وهو سكران يجرع الخمر من قدح ذهبى يسع أربعة أرطال .. !

ورأى المأمون أن أخطر مايهدد الدولة هو سلطان قادة البيت العباسى .. والصراع بين العلويين والعباسيين ، والخلاف بين الفرق المختلفة .

أما الثورات فى الأطراف ، فقد أنفذ إليها جيوشا يقمعها . ثم رأى أن يوفق بين أبناء العمومة من شيعه علويين وعباسيين ، فنظر فيمن يوليه العهد ليكون خليفة من بعده ، فلم يجد أحكم ولا أتقى من الإمام على بن موسى وهو إمام الشيعة .

وأخذ يضرب رؤوس الفساد فى البيت المالك العباسى ممن يخطفون الزوجات والغلمان ، ويستغلون قرابتهم من السلطان لابتزاز الأموال ، أو لإرهاب الناس . وأمر بأن يلغى السواد من أعلام الدولة وهو شعار العباسيين ، ليحل بدلا منه اللون الأخضر شعار العلويين .

وحاول أن يرد بعض أموال الأغنياء إلى الفقراء والمساكين وأصحاب الحاجات ..

وثار عليه العباسيون وأغنياء الدولة واجتمعوا فى بغداد ، وكان هو ما يزال بعيدا عنها ، فخلعوه وأفتى عدد كبير من فقهاء السنة بأن المأمون خارج على الإسلام ، وبايعوا بدلا منه إبراهيم بن المهدى وهو أحد كبار المغنين والملحنين .

وبايعه الذين كانوا يكسرون آلات الغناء ، ويضربون المغنين والمغنيات ! !

وزحف المأمون على بغداد ، وحين أوشكت أن تستسلم ، اختفى إبراهيم بن المهدى ، وتسلل إليه الذين خلعوه من قبل ، فبايعوه !

ودخل المأمون بغداد ، فخضع له الجميع !

وعفا عنهم إلا قليلا منهم ، قتلهم وصلبهم على أبواب بغداد مدينة السلام ! .

وكان ولى عهده على بن موسى ، قد مات من قبل فجأة فى ظروف مشبوهة ! .. وقيل إن أعداء الشيعة دسوا له السم فى الطعام ! .

أما أحمد بن حنبل فقد ظل بعيدا عن كل هذا المضطرب ، مشغول القلب بعلمه وفقهه ، لا يراه الناس إلا فى حلقته يعلم الناس ويجيب على المسائل .

وحين دخل المأمون بغداد واستقر بها ، أسرع بترجمة كل مالم يترجم بعد من الثقافات والحضارات الأخرى ورصد لذلك أموالا طائلة ، واستعان بمثقفين مسيحيين ويهود .

وإذ أمر بترجمة ما عند اليونان والمصريين ، اتهموه بأنه يروج للوثنية ، ففى ذلك التراث الحضارى كلام عن الآلهة المتعددين .. !

من أجل ذلك توقف المأمون عن ترجمة المسرح المصرى والأدب المصرى القديم ، فضاعت آثاره ، إذ لم يجد من يترجمه من بعد

وتوقف عن ترجمة المسرح اليوناني والأدب اليونانى ، ولكن هذا التراث وجد من الأوربيين من ينقله عبر الأجيال ..

كان نفر من أهل السنة فى بغداد يلعنون الفلسفة والمنطق ، وكل مالم يعرفه السلف من معارف وعلوم .. ولكن المأمون شجع هذه العلوم والمعارف ، ومنح تلاميذ جابر بن حيان تلميذ الإمام الصادق كل ما يريدون من أموال ومعامل ليطوروا علم الكيمياء .

واعتبر بعض أهل السنة هذا العلم شعوذة و بدعة ، وشجعهم على ذلك أن نفرا من المشتغلين بالكيمياء ، أخذوا يعملون لتحويل بعض المعادن الخسيسة إلى الذهب النفيس .. !

ثم إن الصراع احتدم حول خلق القرآن بين المعتزلة وأهل السنة .

وما كان الإمام أحمد بن حنبل على صلة بكل هذا المضطرب ، واكتفى بأن يحض الناس على أن يهتموا من الدين بما فيه نفع للناس ، وبما يقيم المجتمع الأمثل .

وجد المأمون أن الفتنة توشك أن تنفجر بين أهل السنة والمعتزلة ، وكان هو نفسه يدين بآراء المعتزلة ، و بصفة خاصة بطرائقهم الفلسفيه و باستخدامهم المنطق فى مجادلة الملحدين والزنادقة .. وكان راعيا لأصحاب الفلسفة ، مؤمنا إيمانا عميقا بأن القرآن مخلوق ، و بأن الجدل وسيلة صالحة للوصول إلى الحقيقة .

واصطنع لنفسه أعوانا من الجانبين .. فجعل الرجل الأول فى قصره واحدا من كبار أهل السنة ، وهو يحيى بن أكثم ، وقرب إليه فى الوقت نفسه عددا من مفكرى المعتزلة على رأسهم الجاحظ شيخ كتاب ذلك الزمان ، وأحمد بن أبى دؤاد شيخ المعتزلة .

ولكن أحمد بن أبى دؤاد كان عنيفا على أهل السنة ، يتهمهم بالكفر لأنهم ينكرون خلق القرآن . فإن لم يكن القرآن مخلوقا وكان قديما فهو إذن شريك لله تعالى فى القدم .. وهذا شرك !

أما المعتزلة فكانوا يرون أن الله خلق كل شيء فالقرآن من الأشياء التي خلقها الله تعالى ..

وحاول أحمد بن دؤاد أن يقنع المأمون بقهر مخالفيه على اعتناق رأيه ، ولكنه أبى ذلك فالمأمون يرى أن غلبة الحجة خير من غلبة القوة .. فالقوة تزول ، أما الحجة فباقية ما بقى العقل .

وجمع المأمون أربعين من المفكرين والقضاة والعلماء والفقهاء فتناظروا عنده ، غير أنهم لم ينتهوا إلى اتفاق ! .. ولم يشهد أحمد بن حنبل هذا الاجتماع ، إذ كان لا يغشى مجالس الحكام ، ولايقبل عطاءهم ، مهما تكن شدة حاجته ..

كان مشغولا عن كل هذا بما هو فيه من تدريس وعلم وجمع للأحاديث . ثم إن رأيه معروف لايجادل فيه بعد .. فقد نهى عن الخوض فيما لم يخض فيه السلف ، والسلف لم يخوضوا فى خلق القرآن .. ولقد أعلن أكثر من مرة : « ما أفلح صاحب كلام . »

بعد المناظرة خرج أهل السنة يهاجون أصحاب الكلام فى الحلقات ، و يتهمون من يقولون بخلق القرآن بأنهم كفار .. أو بالقليل أصحاب بدعة ! !

ولم يستطع يحيى بن أكثم وهو من شيوخ أهل السنة أن يُسْكِت أصحابه ، فعرّضوا بالمأمون نفسه !

وشجع انشغال المأمون بالخلافات الداخلية جيوش الروم فهددت أطراف الدولة ، فخرج المأمون بجيشه مجاهدا ، وأخذ معه الجاحظ وأحمد بن أبى دؤاد .. وأصبح ابن دؤاد مستشاره الأول ..

وحين استقر الخليفة على رأس جيشه فى طرطوس ، داهمه المرض ، فانتهز أحمد ابن أبى دؤاد الفرصة وأنبأه أن أهل السنة فى بغداد قد انتهزوا فرصة غيابه ومرضه ليشعلوا الفتنة ضده ، فهم يكفّرون من يقول إن القرآن مخلوق وعلى رأسهم الخليفة .. ! !

وإذن فالخليفة مطالب بأن يصنع شيئا لإنقاذ الدولة ! وأمر الخليفة بأن يتولى أحمد بن دؤاد عنه أمر الذين يكفّرون من يقول بخلق القرآن .. فأرسل إلى نائب الخليفة فى بغداد بأن يجمع كل الفقهاء والعلماء والقضاء وأهل الرأى ليمتحنهم فى خلق القرآن . فمن أنكر خلق القرآن فليعزل من منصبه ، ولْيُنذَر من ليس فى منصب منهم أنه لن يتولى منصبا أبدا ، ولن تقبل له شهادة ، وليأمر القضاة منهم بأن يمتحنوا الشهود فى خلق القرآن ، فمن خالف رأى الخليفة فلا تقبل شهادته ... وسمى له أسماء من يجب أن يمتحنهم وفيهم أحمد بن حنبل !

ورفضوا جميعا القول بخلق القرآن

فأرسل الخليفة يطلب سبعة منهم ، فأجابوه إلى ما أراد ، فأعادهم إلى بغداد ، وطلب إعلان

اعترافهم ، وطلب إعادة سؤال الباقين فى بغداد .

وجاء نائب الخليفة بهؤلاء .. فمنهم من أبى الخوض فى الموضوع كالإمام أحمد بن حنبل ، ومنهم من قال إن الرأى ما يراه الخليفة ، ومنهم من أنكر خلق القرآن ، ومنهم من أقر بأن القرآن مخلوق ..

وأرسل نائب الخليفة فى بغداد إلى أحمد بن دؤاد بما حدث .. فأرسل أحمد بن أبى دؤاد بأسم المأمون رسالة طويلة ، يسب فيها الجميع و يتهمهم بالرشوة والفساد ، والسرقة ، والنفاق والتظاهر وحب الرياسة .. لم يترك أحداً منهم إلا الإمام أحمد بن حنبل ، فقد اتهمه بالجهل ! .

ثم إنه أمر نائب الخليفة بأن يهددهم بالقتل ، إذا لم يوافقوا على أن القرآن مخلوق .. فمن وافق منهم فليُشْهِر أمره فى الناس ، ومن لم يوافق فليرسله فى الأصفاد والأغلال إلى أمير المؤمنين ! .

وأمير المؤمنين إذ ذاك قد ثقل عليه المرض .. فقد اشتهى رطبا غسله فى ماء جدول بارد ، فأصابته حمى زادته مرضا على مرض ، حتى كان يفقد الوعى فترات طويلة ، ولم ينفعه طب !

قال أحمد بن حنبل حين سئل أول الأمر عن القرآن : « هو كلام الله »

فسأله نائب الخليفة أمخلوق هو؟ قال : « هو كلام الله لا أزيد عليها » .

وسئل ما معنى « سميع بصير، أهو سميع من أذن يبصر عن عين ؟ » قال الإمام أحمد : « ما أدرى ، هو كما وصف نفسه » ..

دعا نائب الخليفة كل العلماء والفقهاء والقضاة ، وعرض عليهم رسالة أحمد بن دؤاد التى يهددهم فيها الخليفة بالقتل إن لم يوافقوا على أن القرآن مخلوق ..

وأحضرهم جميعا فإذا بهم كلهم يجيبون بأن القرآن مخلوق .. !

وكان الإمام أحمد رجلا لينا ، فلما سمع العلماء يجيبون ، انتفخت أوداجه ، واحمرت عيناه ، وذهب ذلك اللين الذى كان فيه .. وتذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى ذر: « سيصيبك بعدى بلاء شديد » فقال أبو ذر: « أفى الله يارسول الله ؟ » قال : « نعم » « فاغرورقت عينا أبى ذر، وأدرك أنه من أهل الجنة ! !

اغرورقت عينا الإمام أحمد .. ورفض الإذعان . وتابعه تلميذ له من جيرانه ، وهو طالب علم شاب ، رقيق الحال اسمه محمد بن نوح . وإذ رأى الحاضرون أن جميع الفقهاء والعلماء والقضاة فى العراق قد وافقوا أحمد بن أبى دؤاد على رأيه قال قائل منهم للإمام أحمد : « ألا ترى أن الباطل ظهر على

الحق ؟ » قال الإمام أحمد : « كلا . إن ظهور الباطل على الحق أن تنتقل القلوب من الهدى إلى الضلالة ، وقلوبنا بعد لازمة للحق . »

وضعت الأغلال والأصفاد على الإمام أحمد ، وتلميذه الشاب محمد بن نوح .. وحُمِلاً معا على دابة واحدة ، وسيقًا من بغداد إلى طرطوس ! ! .

وانتشر الخبر في كل أنحاء العراق . وسخط الناس على المعاملة التي يلقاها الإمام أحمد حتى إذا كان في بعض الطريق قابله رجل فقال له : « ياهذا .. ماعليك أن تُقْتل ها هنا وتدخل الجنة ! » .. ثم قابله أعرابي فقال له : « ياإمام . إن يقتلك الحق مت شهيدا ، وإن عشت عشت حميدا » ..

تسامع الناس بما كان من أمر الإمام أحمد .. وتناقلت خبره الركبان إلى خارج العراق ، فغضب له حتى الذين ليسوا على رأيه وما لقيه أحد إلا قوى قلبه وشد أزره .

وشرد أحمد بن حنبل وهو يعاني فوق مركب خشن تحت الأغلال ، وتساءل لماذا يمتحنه الخليفة المأمون بخلق القرآن ؟ ! ما شأنه هو؟ ! إنه يمتحن الذين يتولون مناصب في الدولة كالقضاة ، والذين ينالون من عطائه .. والإمام لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء .

لقد جمع العلماء للمناظرة في هذا الأمر وهو في بغداد منذ ست سنين .. فما باله الآن بعد أن ترك بغداد مجاهدا في سبيل الله يمتحن العلماء ؟ ! .. وما باله لا يسير على سنة أبيه هارون الرشيد الذي أنذر زعيم المعتزلة في زمانه بالقتل ، إن هو جاهر بأن القرآن مخلوق ، وشغل الناس بهذه القالة ؟ ! ..

ما بال المأمون يخالف نهج أبيه ، ويخالف نفسه ، و يعدل عن المناظرة إلى التهديد بالقتل ؟ ! .

ماذا حدث ليتغير المأمون ؟ ! .. ولماذا يزج بالإمام أحمد في هذه الفتنة ؟ ! .

الذي حدث أن أحمد بن أبي دؤاد زعيم المعتزلة ، قد أصبح صاحب الرأي ، وله الأمر؟ ! وأحمد بن دؤاد هذا لن يستريح حتى يرى كل الرؤوس منحنية كرأسه .. و بصفة خاصة رأس الإمام أحمد الذي يتعذب بعفته وشموخه المنافقون !

كان ابن دؤاد يلهث لينال منصبا عند المأمون ، وأحمد بن حنبل رفض منصب قاضي اليمن ليسير على قدميه من بغداد إلى صنعاء و يطلب الحديث و يعمل حمالا في الطريق ، ونساجا للسراويل ونساخا بصنعاء ليوفر لنفسه النفقة ! !

ثم إن أحمد بن أبي دؤاد ينحني متقبلا لعطاء الخليفة ، وأحمد بن حنبل يأباه !

وفى حلقات المسجد الجامع ببغداد يجتمع الآلاف حول الإمام فى حلقته ، أما ابن أبى دؤاد فلا يجرؤ أحد على الجلوس فى حلقته ولم يكتمل لحلقته قط عشرة من طلاب العلم وأصحاب المسائل ! ! .

فإذلال الإمام أحمد هو عزاء ابن دؤاد عما يتردى فيه من هوان !

ولكن الجاحظ وهو أعظم المفكرين والكتاب فى عصره ، يقيم مع الخليفة هناك .. فما بال الجاحظ لايعظ الخليفة ؟ ! .

من الحق أن الجاحظ سخر بعدد من العلماء المتزمتين من أجل السنة ، وجعلهم هزأة ، وأسماهم الحمقى من معلمى الصبية ، ذلك أنهم اتهموه بالزندقة افتراء عليه ، ولكن الجاحظ يعرف قدر الإمام أحمد بن حنبل ، فما باله يترك المأمون يطلب مثول أحمد أمامه وهو فى الأصفاد !

كان المأمون نفسه قبل أن يمرض كان قد دخله شىء من بعض أهل السنة ، وكان الإمام أحمد إماما لأهل السنة ، فواقفهم وأقوالهم تحسب عليه على الرغم من شقائه بهم و بعده عنهم ... !

فهذا النفر من علماء أهل السنة قد سكتوا عن المظالم من قبل ، وشغبوا على أهل الغناء ولاعبى الشطرنج فى بغداد ، ثم بايعوا زعيم أهل الغناء إبراهيم المهدى أميرا للمؤمنين بدلا من المأمون ثم انهم أهدروا دم المأمون ! ! حتى إذا غلب المأمون ، تسللوا إليه وهو على أبواب بغداد ، ينافقونه و يبايعونه ، سارين فى الليل أو ساربين فى النهار !

ثم إنهم أنكروا عليه اهتمامه بالفلسفة والعلوم وحرضوا عليه العامة فى بغداد ، لأنهم يخالفونه فى القول بخلق القرآن !

وهاهم أولاء بعد أن هددهم يذعنون له ، و يقول قائلهم : « ما تعلمنا العلم والفقه والدين إلا من أمير المؤمنين ، ويهدرون فى ذلك آراءهم وكرامتهم نفسها ! !

ولكن الإمام أحمد بن حنبل طراز آخر من الرجال !

وهو أشد الناس ضيقا بهذا النفر وإنكارا لهم وإزراء عليهم .. إلا أنه لايتبع عورات الآخرين ! ! ولقد اعتزلهم حين عاتبوه ، وواجههم على الرغم من لينه بأنهم قوم لايحسنون إلا الغيبة والمراءاة والكذب والنفاق ، وأن انصرافه عنهم إلى العلم هو العمل الصالح الذى يليق بالأتقياء ! ..

ألأن المأمون كان يعرفهم شدد عليهم النكير، فاعترفوا ، فأعلن على الناس عيوبهم ؟ ! . !

لقد أذاع المأمون على الأمة ماصح عنده من مطاعن على هذا النفر من الفقهاء : الفساد ، والرشوة

والنفـاق والتصاغر، والحقد والوشايه إلى مثالب أخرى غليظة ذكرها الطبرى بالتفصيل فيا كتب عن أحداث سنة ٢١٨ هـ؟ ! .. ربما .. ! !

ثم .. لماذا يقترف المأمون هذا البغى ، وهو يجاهد فى سبيل الله ، وأحمد بن حنبل يدعو المسلمين إلى نصرته ؟ ! أيمكن أن تزدهر حضارة كل هذا الازدهار وتتألق فيها عقول المفكرين والعلماء وحرية الفكر على الرغم من ذلك تنتهك ؟ !

لعل ابن أبى دؤاد يريد أن يقنع الناس أن كل العلماء والفقهاء ، يجب أن ينحنوا ، بما أنه هو نفسه قد انحنى ! ! ..

ولكن الإمام أحمد بن حنبل ، كان يدرك أنه مسئول أمام الله عن الدفاع عما يؤمن بأنه حق ، فإن مات فى سبيله فهو شهيد ! ..

إنه لا يعرف أن المأمون لا يأخذ بالوشاية وهو يعتبر الآخذ بالوشاية أظلم من الواشى ، فما خطبه معه ؟ .. وهو يعرف أن المأمون لايشتم أحدا ، فكيف طعن فى كل فقهاء السنة أبشع مطاعن ! ؟ ! إنه إذن لتأثير خارق على المأمون يمارسه بن أبى دؤاد ! ..

وقد ظلت الحادثات طوال رحلة الضنى من بغداد إلى طرطوس ، تلح على أحمد وتواجهه بأنه مسئول عن الحقيقة .. فإن تخلى عنها لحظة ، انهار كل شىء فى أعماق الناس ! !

وهكذا سار الإمام أحمد بروح شهيد ! .

سيناضل عما يؤمن به ، لكيلا تسقط رايات الحقيقة ، ولكى تظل الفضيلة شامخة أبدا ! .

أما المشفقون على الإمام أحمد ، فقد نصحوه بأن يستجيب تقيه .. ولكنه رأى أن التَّقيَّة فى موقف كهذا لا تجوز، أيقول غير ما يراه ؟ ماذا يتقى ؟ ! .. أهو الحكم بموته ؟ إنه سيموت فى يوم ما ولكن الناس ؟ .. لعلهم سيعتنقون الرأى الخطأ ، و يبقى هو مسئولا أمام الله عن تضليلهم !

بل لاتجوز التَّقيَّة إلا فى زمن غاشم يعلم الناس فيه الحقيقة ، فلا يضللهم قول أو سكوت .. أما هذا الزمان فهو زمن يعدل فيه الخليفة ، ويخرج فيه مجاهدا أعداء الإسلام .. والحقيقة فى حاجة إلى رماة بواسل ، وإلى شموع تحترق لتضىء الظلمات .. وإلا تخبط الجاهلون فى عشوات الضلال ! !

لقد أذعن كل الفقهاء والعلماء إلا اثنين .. هو وتلميذه محمد بن نوح .. و بالأمس كان معهما اثنان آخران .. ولكن مَسّ الحديد وثقل الأغلال ، وإهانات الأوغاد ، ثقلت عليهما .. فأجابا فيما دعيا إليه ،

فأطلق سراحهما .

وسير الإمام أحمد ابن السادسة والخمسين ، وتلميذه الشاب محمد بن نوح فى الأغلال والأصفاد ، تحت الإهانة ، وهما على بعير واحد إلى آخر الأرض .. !

وسأله رجل فى الطريق وقد رأى ضعف جسمه : « أإن عرضت على السيف تجيب ؟ » قال : « لا » . فقال الرجل : « الله أكبر .. هذا هو الإمام أحمد » .

وألح الشعور بالمسئولية على الإمام أحمد .. وكان جلدا ، ألف مشقات الأسفار ، أما تلميذه الشاب فلم يحتمل المشقة ، وأنهكه ما عاناه ، فاعتل .. وما كان محمد بن نوح يمتحن لولا أنه تلميذ الإمام أحمد وجاره .. كم من الناس يعذبون من أجلك يا أحمد ؟ ! ! ولكنه بلاء فى الله يا أحمد ! ! بلاء فى الله شديد ! !

حتى إذا كانا فى خان على الطريق ، قابل أحد رواد حلقته فى بغداد ، وكان عزيزا لديه .. فقال له الإمام أحمد : « لقد تَعَنَّيتُ » .. فقال الرجل : « ليس هذا عناء يا إمام .. أنت اليوم رأس الناس ، والناس يقتدون بك » .

وأطرق الإمام أحمد وهو يتأوه .. أواه .. هنا العبرة يابنى .. أنا المسئول عن موقف الناس ! !

وأضاف الرجل : « فوالله لئن أجبت بخلق القرآن ، ليجيبن بإجابتك خلق من خلق الله . » وهز الإمام أحمد رأسه وما تزال الدموع تبلل لحيته .. والرجل مستمر فى قوله : « إن الخليفة إن لم يقتلك فأنت تموت ، ولا بد من الموت . فاتق الله ولا تجبهم بشىء . » .. وارتفع صوت الإمام أحمد من خلال الدموع : « ماشاء الله ماشاء الله » . ثم قال : « أعد على ما قلت » فأعاد الرجل .. وهبت على الإمام أحمد نسمة من الرضا بقضاء الله ، جففت الدموع التى بللت لحيته فانطلق صوته الندىّ : « ماشاء الله ماشاء الله » .. وطابت نفسه بما كان قد صمم عليه .. ألا يجيب المأمون إلى ما يدعو إليه ! !

واقترب الإمام وتلميذه محمد من طرطوس .. فإذا برجل يقبل إلى أحمد متهللا : « البشرى ! لقد مات المأمون » .

كان أحمد قد دعا الله ألا يرى المأمون ! ! .. فلم يره قط !

وأعيد أحمد وتلميذه محمد بن نوح إلى بغداد ، وترفق رجال الشرطة بهما فى الطريق ، فما يدرون ما يكون شأن الإمام أحمد مع الخليفة الجديد ؟ ! ربما أكرمه فباءوا هم بغضب الخليفة الجديد ! .

وأحسنوا إلى الإمام أحمد وتلميذه محمد بن نوح .. ولكن محمد بن نوح الذى أضواه السفر تضعضع

وخارت قواه ، وعكف عليه أمامه يعالجه بلا جدوى ، فقد نفد الزيت من المصباح ، وحُمّ القضاء .. وأمسك المناضل الشاب بيد أستاذه قائلا : « الله الله ! ! إنك لست مثلى . إنما أنت إمام يقتدى به ، وقد مد الخلق أعناقهم إليك لما يكون منك فاتق الله واثبت لأمر الله » .

وسقط ميتا ! ! !

وما وعظ تلميذ أستاذه كما صنع محمد بن نوح مع الإمام أحمد بن حنبل .. ! ولكنه مات شهيدا دفاعا عما يؤمن به .. وبكاه الإمام أحمد أحر بكاء وصلى عليه .. وقال عنه : « ما رأيت أحدا على حداثة سنه وقلة علمه أقوم بأمر الله من محمد بن نوح . »

عهد المأمون لأخيه المعتصم ــ وهو ابن جارية تركية ــ فتولى الأمر

وكان المعتصم قوى الجسم حتى ليحمل حديدا يزن ألف رطل و يسير به خطوات !

وكان على هذه القوة والبسطة فى الجسم قليل الحظ من الثقافة .. حتى لقد أقصاه أبوه هارون الرشيد !

ولكن المأمون رأى أن جهاد أعداء الدولة يحتاج إلى رجل سيف فى قوة المعتصم وحزمه وشدته ، أوصاه بالإبقاء على ابن أبى دُؤاد فترك له المعتصم شئون الدولة فأدارها الوزير على هواه .. أما المعتصم فوهب نفسه للحرب .. وكان أحمد بن أبى دؤاد حسن التأنى حلو الحديث بارع النفاق ، وكان على دراية بشىء من أخبار الأولين ، و بأطراف من الثقافة لا يعرفها المعتصم ، فاستطاع أن يستولى على عقل الخليفة ، واستصدر أمرا بحبس أحمد بن حنبل فى السجن الكبير ببغداد ، وانشغل الخليفة المعتصم بتوطيد أركان الدولة فولى الأتراك من أخواله

وفى أول حكمه توالت أحداث غريبة ومبالغة : مات الإمام محمد الجواد فجأة كما ذهب من قبله إمام الشيعة أبوه الإمام على بن موسى بن جعفر الصادق فى ظروف مريبة .. ثم اتهم العباس بن المأمون بالتآمر على عمه المعتصم فقتل !

وفى السجن ترك الإمام أحمد شهورا تحت الأصفاد شهورا طوالا ، ودسوا إليه خلالها عليه من يزينون له الاعتراف بخلق القرآن ! .. وعادوا يذكرونه بجواز أن يقول المؤمن غير ما يؤمن به أو يسكت على ما ينكره من باب التقية فقال لهم : « إذا سكت العالم تقيّة والجاهل يجهل فمتى يظهر الحق ؟ . إن من كان قبلكم كان أحدهم يُنْشَر بالمنشار ثم لا يصده ذلك عن دينه » .

دسوا عليه أكثر الناس تأثيرا عليه وأقرب الناس إليه : عمه !! ولكن بلا جدوى !

ثم عادوا يخوفونه بالتعذيب والضرب بالسياط .. وأنس إلى جار له بالسجن فقال له : « ما أبالى بالحبس وما هو ومنزلى إلا واحد ، ولا قتلاً بالسيف ، وإنما أخاف فتنة السوط وأخاف ألا أصبر. »
فقال له جاره السجين : « لا عليك . فما هو إلا سوطان ثم لا تدرى أين يقع الباقى . »

ومرت الشهور بعد الشهور والإمام أحمد فى حبسه بين الترغيب والترهيب . .

وأحبه من فى السجن ، فأحاطوا به يلقون عليه المسائل فيجيب و يعلمهم مما علّم رشدا .. وأكبره الجميع فى السجن حتى السجانون .

أما خارج السجن ، فقد كانت بغداد تموج بالسخط على من سجنوا الإمام أحمد ! .

وتصاعدت نفثات التلاميذ والأتباع ورواد الحلقة ، استنكارا لما حدث لإمامهم ! .

أما زملاؤه من العلماء والفقهاء الذين أجابوا المأمون لما أراد ، فقد أسرعوا إلى مصانعة المعتصم ، وكانوا يتمنون فى أعماقهم أن يسقط الإمام أحمد كما سقطوا .. ! فلماذا يظل هو وحده دونهم نظيف الصفحات نقى السيرة مرتفع الهامة ؟ !

وإن بعضهم على الرغم من كل شىء ليعانى من تأنيب الضمير..

وأرسل إليه أحد المعجبين به وهو شيخ فى نحو التسعين ومَنْ يقول له : « أثبت فقد حدثنا الليث بن سعد عن . . . . عن أبى هريرة : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أرادكم على معصية الله فلا تطيعوه »

وانشرحت نفس الإمام أحمد ، فها هو ذا شيخ فى التسعين يرسل إليه يشد أزره لا يبالى بحديث شريف لم يعرفه من قبل !

فقام فى السجن يؤذن بالصلاة وعرف ابن أبى دؤاد أن خصمه قد فتن كل من فى السجن : المسجونين وحتى السجانين ! ! فأمر بنقله إلى سجن خاص فى قبو بدار والى بغداد ، ليكون وحده

وضاعفوا له القيود والأغلال وأقاموا عليه سجانين من شذاذ الخلق ، من مماليك أتراك ، فيهم الغلظة والغباء ، والجهل باللغة العربية فلا يفهمون ما يريد إن هو طلب منهم شيئا : ماء أو نحوه !

وأرسلوا إليه من الفقهاء من يناظره ، ولكنه لم يزد على ما قاله من قبل ، وظل يرفض القول بخلق القرآن .

ثم حملوه إلى دار الخلافة وهو يرسف فى أغلال وقيود وسلاسل يكاد يسقط من تحتها .. ! .. فقد كانوا كلما مر عليه يوم ، زادوا عليه فى ثقل الحديد !

وكان الوزير وقاضى القضاة أحمد بن أبى دؤاد قد أرسل إلى كل ولاة الأمصار باسم المعتصم يأمرهم أن يمتحنوا العلماء والقضاة والفقهاء فى خلق القرآن ، فمن أنكر منهم ، حمل فى الأصفاد مهانا إلى دار الخلافة ببغداد ..

ومثل أحمد أمام الخليفة وحوله حشد من العلماء والفقهاء المنافقين وابن أبى دؤاد .. وإذ بالإمام أحمد يرى فى الأصفاد صديقا له من مصر ، درس معه على الشافعى فى مكة و بغداد .. وهو الآن فقيه عالم تقى مسموع الكلمة فى مصر .. وقد سحبوه فى سلاسل الحديد لأنه رفض القول بخلق القرآن ! .. وكان أحمد منهكا مما عاناه ، ولكنه حين شاهد صديقه الفقيه المصرى تهلل قائلا : « أى شىء تحفظ عن أستاذنا الشافعى فى المسح على الخفين عند الوضوء ؟ ! » وانفجر ابن أبى دؤاد محنقا : « أنظروا رجلا هو ذا يقدم لضرب العنق يناظر فى الفقه ؟ ! » .

بدأ الخليفة يحاكم أحمد بن حنبل

يحكى الإمام أحمد ما جرى فى هذه المحاكمة : (قال المعتصم لأحمد بن أبى دؤاد : « أدنه » فلم يزل يدنينى حتى قربت منه . ثم قال : « أجلس » . فجلست وقد أثقلتنى الأقياد . فمكثت قليلا . ثم قلت : « تأذن لى فى الكلام ؟ » فقال : « تكلم » . فقلت : « إلام دعا الله ورسوله ؟ . » قال المعتصم : « شهادة ألا إله إلا الله . » فقلت : « فأنا أشهد أن لا اله إلا الله » .

ثم روى الإمام أحمد أن المعتصم قال له أنه لو لم يجده فى يد مَن قبْله لما عرض له . ثم سأل أحدا ممن كانوا حوله : « ألم آمرك برفع المحنة ؟ ! »

وأمر الفقهاء الموجودين فناظروا الإمام أحمد فى خلق القرآن

قالوا له : « ماتقول فى القرآن ؟ » ماتقول فى علم الله عز وجل فسكت ، فقال بعضهم : « أليس قد قال الله عز وجل (الله خالق كل شىء) والقرآن أليس هو بشىء ؟ » فرد الإمام أحمد : « قال تعالى : (تدمر كل شىء بأمر ربها) أفدمرت إلا ما أراد الله عز وجل ؟ والله تعالى لم يسم كلامه فى القرآن شيئا . يقول الله تعالى : (إنما قولنا لشىء . فالقول ليس الشىء ولكن الشىء هو الذى يقول له الله . و يقول تعالى : (إنما أمره إذا أراد شيئا) فالشىء ليس أمره وإنما هو ما يأمره .. وقال له بعضهم فى الأثر « إن الله خلق الذكر أى القرآن »

قال هذا خطأ . حدثنا غير واحد إن الله كتب (لاخلق) الذكر .

واحتجوا عليه بما رواه ابن مسعود : « ماخلق الله عز وجل من جنة ولا نار ولا سماء ولا أرض أعظم من آية الكرسى » فقال أحمد : « إنما وقع الخلق على الجنة والنار والسماء والأرض ولم يقع على القرآن .

وكان أحمد بن أبى دؤاد قد أقنع المعتصم من قبل ، أن من رفض القول بخلق القرآن لايحق له أن يجلس للناس ، ليحدثهم أو ليفتيهم ، فى جامع أو فى داره أو فى أى مكان ، بل هو مخالف للإسلام ، يجعل القرآن قديما كالله تعالى ، فهو مشرك يحل دمه ! ! وما عاد فى أهل السنة بالعراق من يرفض الاعتراف بخلق القرآن إلا إمامهم أحمد بن حنبل وهو يزنهم جميعا ! !

وكان الخليفة المعتصم لقلة حظه من العلم لاير يد أن يخوض فى المسألة كلها ، فكان يقول كلما أتهموا الإمام أحمد بن حنبل بالكفر: « ناظروه ، ناظروه »

فوثب أحمد بن أبى دؤاد مغيظا : « ياأمير المؤمنين هو والله ضال مضل مبتدع . » وتتابع الفقهاء الحاضرون يشتمون الإمام أحمد بن حنبل فلم يعبأ الخليفة بهم وقال لهم : « ناظروه »

وكانوا كلهم قد ناظروه .. فأقبل ابن أبى دؤاد يناظره

فلم يلتفت إليه الإمام أحمد .

فسأله الخليفة : « ألا تكلمه ؟ » فقال أحمد : « لا أعرفه من أهل العلم فأناظره ... »

ثم استطرد : « ياأمير المؤمنين أعطونى شيئا من كتاب الله عز وجل » .

فأقبل الخليفة يغرى الإمام أحمد و يقول له : « والله إنى عليه لشفيق . « ثم قال للحاضرين » والله إن أجابنى لأطلقن عنه يدى ولأركبن إليه بجندى .

فلم يزد جواب أحمد على أن قال : « أعطونى شيئا من كتاب الله عز وجل » .. وقال الخليفة لأحمد : « ماأعرفك » فقال أحد الفقهاء الحاضرين وقد أنبه ضميره : « ياأمير المؤمنين . أعرفه منذ ثلاثين سنة يرى طاعتكم والحج والجهاد معكم . » فقال المعتصم : « والله إنه لعالم وإنه لفقيه . وما يسوءنى أن يكون مثله معى يرد عنى أهل الشرك .

ثم قال : « ياأحمد أجبنى إلى شىء فيه أدنى فرج لك ، حتى أطلق عنك يدى » فقال أحمد : « أعطونى شيئا من كتاب الله عز وجل . » ولم يزد على ذلك !

وقام الخليفة مهموما ، وأعيد أحمد إلى السجن وأرسلوا إليه من يناظره فى السجن و ينذره : « أن أمير المؤمنين قد حلف أن يضربك وأن يلقيك فى موضع لا ترى فيه الشمس . و يقول إن أجابنى أحمد أطلقت عنه يدى . »

فلم يجبه أحمد ... !

وفى اليوم التالى أعيد أحمد إلى مجلس الخليفة المعتصم ، وكان الوقت رمضان .. وأحمد قائم ليله صائم نهاره .. وقد أوشك الخليفة أن يطلقه لتهدأ عنه الثورة التى أوشكت أن تنفجر فى بغداد غضبا للإمام أحمد

فقال ابن أبى دؤاد : « ياأمير المؤمنين إن العامة تصدقه .. والعامة تقول أن أحمد بن حنبل قد دعا على المأمون فمات ، إن العامة وهم حشو الأمة يصدقونه و يتبعونه بالحق والباطل . فإن تركته شجعت عليك العامة ، وخالفت مذهب المأمون ، فيقول العامة أن أحمد غلب خليفتين » .

واستفز هذا الكلام المعتصم فقال : « ناظروه لآخر مرة » . وناظروا أحمد فى خلق القرآن وفى رؤية الله تعالى فاحتج عليهم بحديث صحيح : « اما انكم سترون الله ربكم كما ترون هذا البدر (وكان الرسول مع صحبه فى ليلة البدر) ! وشك ابن أبى دؤاد فى صحة الحديث ، فأكد الإمام أحمد صحة الحديث واستشهد بفقيه فقير ، مشهور بالأمانة والعفة ، يحسن رواية الأحاديث .. ولكنه كان فقيرا جهد الفقر لا يملك قوته يومه . وقد اعتزل الناس ، واختفى طوال أيام الأمتحان بخلق القرآن ، فتركوه . وأسرع إليه بن أبى دؤاد وقد عرف من الجواسيس أين يختفى وسأله عن حاله ، فلم يجد معه درهما .. وسأله عن الحديث الذى رواه أحمد فى المناظرة أمام المعتصم .. فقال الرجل انه حديث صحيح .. وألح عليه أن يكذب الحديث وقال ان مجلس الخليفة منعقد وهو ينتظر الجواب ، والخليفة فى حاجة إلى من يكذب هذا الحديث .. ثم أضاف .. هذه حاجة الدهر .. وأعطاه عشرة آلاف درهم ، وما زال يلح حتى قال الرجل : « فى الأسناد من لايعول عليه » !

وأسرع به ابن أبى دؤاد يروى ماسمعه على الخليفة فى المجلس ! ! ودمعت عينا أحمد أسفا على المحدث الفقير الذى انهار أمام الحاجة ! !

وأرجعوا أحمد إلى السجن .. ليعودوا به فى اليوم التالى إلى دار الخلافة ، فيمروا به على قاعات عديدة حشد فيها سجانون وسيافون غلاظ .. عسى أن يرهبه المنظر .. و يغريه الخليفة لآخر مرة ، فيأبى أن يقر بخلق القرآن فيصرخ فيه الخليفة : « عليك اللعن خذوه واسجنوه .

فأخذوا الإمام فعلقوه ، وظلوا يضربونه و يقولون له : « أجب » فلا يجب ..

صبرا يا أحمد .. إنه بلاء فى الله شديد . !

واشتد به الوجع واللظى وهو صائم .. وأغمى عليه .. حتى إذا أفاق جاءوه بماء ليشرب . فقال : « لا أفطر» .

وطرحوه على وجهه وداسوه بالنعال .. حتى أغمى عليه .. ورأوا دماءه تسيل ، فملئوا منه رعبا !

وعندما أفاق أحمد ، أخذ ينظر إليهم بلا اكتراث ، ولكنها نظرات يخالجها الازدراء ! !

و يقول أحد الذين شاهدوا تعذيبه : « ما كنا فى عينه إلا كأمثال الذباب » .

ومن خارج دار الخلافة ، اجتمع الآلاف من محبيه وتلاميذه ، وحتى الذين لايرون رأيه كانوا ينكرون فى صراخ غاضب ما يحدث له .

وتعالى هدير الاحتجاج والاستنكار .. وأغراه أحد الحاضرين أن يعترف لينجو من العذاب ويخرج إلى محبيه فقال : « أقتل نفسى ولا أقتل هؤلاء جميعا »

ودخل أحد الفقهاء داره على بناته ، فوجدهن يبكين و يطالبنه أن يذهب إلى المعتصم مستشفعا للافراج عن أحمد بن حنبل .. وقال البنات لأبيهن : « أدركوا ابن حنبل قبل أن يضعف من التعذيب . فلأن يرسل إلينا نعى أبينا أهون علينا من أن نسمع أن أحمد بن حنبل قد أذعن ! ! »

ووقف أحد الفقهاء بباب المعتصم يصرخ « أيضرب سيدنا ؟ ! أيضرب سيدنا ! ؟ لا صبر لنا » وانفجرت الهتافات تلعن ابن أبى دؤاد والمعتصم نفسه !

وأوشكت الثورة أن تشتعل فى بغداد ، وكان المعتصم يعد العدة لجهاد الروم .. فلعن الجميع ، وأمر أن يعفوه من كل هذا ليفرغ هو للحرب

وأطلق سراح الإمام أحمد ..

وأعيد إلى بيته يعالج جراحه ، ولزم داره مريضا منهكا .. وقيل له : سيعذب الله المعتصم فيك لأنه ضربك وأنت ساجد .. فذكر لهم قول الله تعالى : « وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله . »

وعندما علم أن المعتصم خرج ليحارب الروم فانتصر وفتح عمورية ، فرح الإمام أحمد وقال ! « عفا الله عنه بما جاهد فى سبيله » .

وقد عوتب الجاحظ عن موقفه من محنة أحمد فقال : « لو كان كل كشف هتكا ، وكل امتحان تجسسا ، لكان القاضى أهتك الناس لستر، وأشد الناس تتبعا لعورة . »

وكان تعليق أحمد على قول الجاحظ : « عفا الله عنه » .

لقد ظل أحمد فى سجن المعتصم نحو عامين ونصف ، يضرب بالسياط ، و يعذب بالسيف ، و يوطأ بالأقدام عندما يسجد فى الصلاة .. و يغرونه خلال هذا التعذيب بكل طيبات الحياة إن هو.. عدل عن رأيه ، وهو يهمهم لنفسه : إنه لبلاء فى الله شديد .

و بعد أن شفى أحمد من آثار التعذب ، خرج إلى حلقته ، فاستقبلته بغداد استقبال الفاتحين .. ولم يستطع أحد أن يمنع الناس عنه .. وعاد يحدثهم و يعلمهم كما عودهم من قبل . حتى إذا مات المعتصم ، وتولى الواثق ، حاول أن يسير سيرة المأمون .. وجمع إليه أهل العلم والفلسفة ، وحفلت مجالسه بمناظرات علمية وفقهية خصبة .. وناظر هو نفسه فى الطب والكيمياء والفلك والرياضيات . وكان مجلسه يجمع المثقفين من جميع الديانات .

ولقد حاولوا أن يغروا الواثق بالإمام أحمد ولكنه سئم هذا الأمر، وخشى الثورة ، ورأى أن يترك الناس على آرائهم .. ثم إن القول بخلق القرآن صار مادة لعبث ظرفاء العصر، فقد دخل على الواثق أحدهم يقول له : « عظم الله أجركم فى القرآن . فإن القرآن قد مات ! » . فنهره الخليفة الواثق قائلا : « و يلك ! القرآن يموت ؟ » قال : « ياأمير المؤمنين ألستم تقولون إن القرآن مخلوق ؟ فكل مخلوق يموت ! فبم يصلى الناس التراو يح ؟ » . فضحك الواثق وقال : « قاتلك الله أمسيك » .

حقا لقد سئم الناس ، وسئم الحكام .. إلا ابن أبى دؤاد .. فما زال بالخليفة حتى استدعى الإمام أحمد فقال له : « لاتجمعن إليك أحدا ولا تساكنى فى بلد أنا فيه » .

فاختفى الإمام أحمد ، وحمل إلى الواثق فقيه من الأمصار اشتد فى الهجوم على من يقولون بخلق القرآن .. وكان الرجل فى الأصفاد ، فأمره الخليفة أن يناظر ابن أبى دؤاد .. فقال الرجل : « شىء لم يدع إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا الخلفاء الراشدون من بعده وأنت تدعو الناس إليه ، ليس يخلو من أن تقول علموه أو جهلوه . فإن قلت علموه وسكتوا عنه ، وسعنى وإياك من السكوت ما وسع القوم . وإن قلت جهلوه وعلمته أنت ، فيا لكع ابن لكع ، أيجهل رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون ، وتعلم أنت ! ! » .

فوثب الواثق من مجلسه ، وهو يردد كلام الرجل ضاحكا ، وأمر بإطلاق سراح الرجل .

ولم يعد الواثق إلى امتحان فى خلق القرآن .. وانصرف إلى الحرب حتى مات ..

ومات الواثق وتولى ابنه المتوكل .. فأحسن إلى الإمام أحمد وحاول أن يصله بالمال .. ولكن الإمام أحمد ظل على عهده يرفض العطاء . على أنه رخّص لأولاده فى قبول عطاء الخليفة ، وظل يعلم الناس حتى بلغ السابعة والسبعين ، فرض واشتد به المرض ، وكان قد أصبح فى عصره أوحد عصره حقا .. وقد ألف كبار رجال الدولة أن يخوضوا الطين إلى بيته الواقع فى شارع ضيق مترب ، موفدين من الخليفة يطلبون منه الرأى . وما كان يبخل بالرأى .. وقال عنه المتوكل : « لو نُشِرَ أبى المعتصم وقال فيه شيئا لم أقبله .. » .

ولم يطل المرض بالإمام أحمد بن حنبل .. فمات بعد أن ترك ثروة ضخمة من الأحاديث والفقه ، وهو يوصى أتباعه وأصحابه أن يدعوا إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، و يذكرهم بأن الله تعالى قال لموسى وهارون حين أرسلهما إلى فرعون : « اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولا لينا » .. فالقول اللين واجب فى الدعوة ..

على أن أتباعه اشتدوا على الناس حتى أزعجوهم وجعلوا الأجيال تنسب إلى الإمام ماليس فيه .. !

ولقد أمر المتوكل بالضرب على أيدى أتباع الإمام أحمد حين هاجوا أهل البدع من أصحاب الغناء والطرب ولاعبى الشطرنج .. وحين أفسدوا ملابس النساء بالحبر .. وكان الإمام أحمد قد رخص بهذا للسلطان إن خرج النساء متعطرات متزينات .. وكان النساء قد زحمن شوارع بغداد بملابس وعطور تثير الفتنة .. وملأن ليلها بالمغامرة ! ! فانتزع أتباع ابن حنبل سلطة الخليفة ، وأخذوا لهم يعاقبون الناس .. فأمر الخليفة بأخذ أتباع الإمام أحمد بالشدة ، وزج بهم فى السجن ، ولكنه قال فى الإمام أحمد : « لقد عرف الله لأحمد صبره و بلاءه ، ورفع علمه أيام حياته و بعد موته . وأنا أظن أن الله تعالى يعطى أحمد ثواب الصديقين . » ..

على أن الإمام أحمد تدبر قبل موته رأيه فى خلق القرآن

فذهب إلى أن من زعم أن القرآن مخلوق فهو كافر ، ومن زعم أنه غير مخلوق فهو مبتدع .. فالقرآن بحروفه ومعانيه هو كلام الله غير مخلوق ، وهو من علم الله ، وعلمه غير خلقه . فالقرآن غير مخلوق ، ولكنه حادث بحدوث التكلم ..

والأمر كله لايستحق المحنة التى سقط بسببها شهداء كمحمد بن نوح ، والبو يطى الفقيه المصرى تلميذ الشافعى ، ونال بسببها بعض الفقهاء والعلماء تشهيرا أزرى بهم فى عيون الناس ، ونال فيها الإمام

أحمد أبلغ الأذى .. فالقول بخلق القرآن أو عدم خلقه لا يحقق شيئا من مصالح العباد ، ولا يقيم المجتمع الأمثل الذى هو هدف الشريعة ! !

على أن الإمام أحمد نال بسبب هذا الأذى مكانة كبيرة ، فقد كان مثالا خارقا لصاحب الرأى الذى يناضل فى سبيل رأيه .. فأكبره الذين يوافقونه والذين يخالفونه على السواء .. إلا الذين فى قلوبهم مرض !

ومهما يكن من أمر ، فقد واجه عصرا تشيع فيه البدع ، فواجهه بالتشدد فى الأخذ بالسنة فى العقائد والعبادات

وهو عصر يطرح على العقل مستحدثات الأمور ، فواجهه الإمام أحمد بالتيسير على الناس فى المعاملات

وبهذا حض على الأجتهاد وحذر من التقليد

ولكن مناصريه من أهل السنة ضيقوا على الناس

ثم جاء من بعده أتباع أساءوا إليه ، فافترى عليه التزمت ، والتضييق وكل ما عاشه يناضل ضده !

وجاء آخرون أجتهدوا على طريقته وتمسكوا بالسنة فى مواجهة البدع .. واتخذوا مثله مواقف صلبه فيما يعتقدون أنه الحق .. فأصابهم فى ذلك بلاء شديدا .

ومن الإنصاف للإمام أحمد بن حنبل أن ينزهه الناس بما صنعه بعض الأراذل من أتباعه فى العصور المتأخرة . فلا ينسب التزمت وضيق الأفق إلى هذا الإمام العظيم .. الذى كان متبعا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سماحة الخلق ، ولين الجانب ، والقول الحسن ، والبر والورع والتقوى ونصرة المظلوم .

من الظلم أن يطلق على المتنطعين والجامدين وعلى كل فظ غليظ القلب : أسم الحنابلة .. فقد كان الإمام أحمد داعيا إلى الحركة ، ومواجهة كل عصر بأحكام جديدة يقاس فيها على روح الشريعة ، و يؤخذ بمقاصدها العامة .. وكان عدوا للتقليد والجمود ، آمرا بالمعروف ، ناهيا عن المنكر ، متبعا للسنة فى كل شىء حتى فى أخص دقائق الحياة ..

لقد ماتت أول زوجة للإمام أحمد وهو فى الستين ، فتزوج بعدها بأيام لأنه علم أن الرسول صلى الله عليه وسلم منذ تزوج لم يعش بلا زوجة .. وماتت الثانية وهو فى السبعين ، فتزوج بعدها بأيام من جارية له .. ذلك أنه تعلم من سنة الرسول صلى الله عليه وسلم أن الرجل يجب ألا يعيش بلا امرأة ! !

وقد أصابه ابن أبى دؤاد بأبلغ الأذى ، ولكنه عفا عنه بعد أن خرج من المحنة . ولم يسمح لأحد أن يجرحه أمامه ، وبكى الإمام أحمد عندما علم أن ابن أبى دؤاد فجع بفقد ولده ! ! ..

ودعا الإمام أحمد لكل الخلفاء الذين أساءوا إليه ذلك أنهم جاهدوا فى سبيل الله !. وحض أتباعه على تأييدهم ..

لقد كان الإمام أحمد يعلم الناس قول الرسول صلى الله عليه وسلم أنه ماجاء إلا ليتمم وليكمل مكارم الأخلاق ..

من أجل ذلك احترم الإمام أحمد أهل الديانات السماوية التى سبقت الإسلام ، لأن الرسالة المحمدية ، ما جاءت إلا مكملة لها .. وأخذ نفسه وأصحابه بمكارم الأخلاق .. وعلم الناس أن هدف الشرائع جميعا هو العدل لقوله تعالى : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط »

ومن أجل ذلك طالب أهل الشرائع جميعا أن يسيروا فى الناس بالعدل ، وأن يناضلوا دفاعا عن العدل ، فهو قوام الحياة وضمان الحرية ، وحصن الإنسان .

والإمام أحمد بن حنبل على الرغم من كل خلاف معه ، إمام قد أغنى الفقه ، ونفع الناس ، وأقام السنة ورد البدع .. ولئن أساء إليه بعض أتباعه ، فافترى عليه ماهو برىء منه ، إنه سيظل بنصاعة سيرته ، وصلابة اتباعه للسنة ، علما من أعلام الفقه الإسلامى ، ودعوة مستمرة إلى التجديد أخطأ أم أصاب ..

إنه واحد من أولئك العلماء العظام الذين اجتهدوا بعد عصر الصحابة والتابعين ، واختلفوا فى مناهجهم ، فمنهم من خرج بسيفه على الحاكم الظالم كما صنع الإمام زيد بن على ..

ومنهم من دعا إلى إعمال العقل ، وحض على التفكر فى خلق السموات والأرض ، واستعمل معطيات العلوم والمعارف الكونية للاستدلال على حقائق الدين ، كما صنع الإمام جعفر الصادق مع فهم دقيق معجز للقرآن والسنة ، ومقاصد الشريعه والعمل على تطبيق مبادئها فى الحياة اليومية ، حتى لقد رفض الخلافة ليتفرغ للعلم والفقه !

ومنهم من اتجه إلى الأخذ بالرأى وتوسع فيه وأفاد من النظر العقلى كالإمام أبى حنيفة النعمان ، الذى لزم الإمام جعفر الصادق سنتين تعلم فيهما الكثير، وإن اختلفا من بعد ، حتى قال أبو حنيفة النعمان « لولا السنتان لهلك النعمان » ! .

ومنهم من عول على الحديث وحده ، ووجد في عمل أهل مدينة رسول الله أخذا بسنة رسول الله ، ثم اجتهد فتوسع في الأخذ بالمصلحة على خلاف غيره ، كالإمام مالك بن أنس

ومنهم من اتخذ منهجا وسطا بين الرأى والحديث فى استنباط الأحكام ، وجعل سيرته الخاصة مثلا للبر والتقوى ولسماحة الإسلام وحضه على العدل والإحسان كالإمام الليث بن سعد إمام أهل مصر ، حتى لقد كان يأتيه خراج ضيعة له بالفرما (بورسعيد الحالية وما حولها) فلا يمسه بل يضعه فى صرر ، ويجلس على باب داره ذات العشرين بابا ليوزعه على المحتاجين صرة بعد صرة ، ويحسن إلى أقباط مصر اتباعا لوصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيتخذ منهم الأصدقاء ، ويحضهم على نقل ثقافة مصر إلى اللغة العربية ، ثم يشترى بيتا من واحد منهم لحاجته إليه ، فإذا علم أن صاحب البيت باعه لأنه محتاج ، بكى ، وترك له البيت والثمن ، وأجرى عليه رزقا ! . ثم أعلن فى الناس أن ولى الأمر آثم إن ترك أحدا فى دار الإسلام له حاجة ! ! ثم يستنبط من منهجه الوسط بين الرأى والسنة قواعد للمعاملات تقيم العدل بين الناس ..

ومن هؤلاء الأئمة العظام محسن زاهد عبد الله بن المبارك يترك الحج ، و يتصدق بكل ما حمل من مال وزاد لفتاة حسناء تبحث عن قوتها وسط المزابل ، خشية أن يغريها الشيطان بالبحث عن الطعام فى وحل الخطيئة .. ! .

ومنهم من وضع أصول الفقه وحمل بين جنبيه معطيات السنة والرأى جميعا ، وصحح مفاهيم الناس عن السنة والرأى ، وجادل أهل الزيغ بمنطق العصر كما فعل الإمام الشافعى ..

عاشوا كلهم فى سنوات متقاربة ، بفكر خصب ، كحلقات ذهبية نادرة فى سلسلة نورانية .. عاشوا كلهم خلال قرن واحد من الزمان ، فى أواخر العصر الأموى وأواسط العصر العباسى ، وعرفوا البلاء والمحنة فما وَهَنُوا ، وما نزلوا عن رأى ، وما أحنوا رأسا ، بل كانوا كمعدن الحديد تزيده النار صلابة ، وكالذهب يكسبه اللهيب نقاءه .. ! ..

و ياللّه كم نفتقدهم فى مثل هذا الزمان !!

ومنها تختلف آراء هؤلاء الأئمة العظام فيما بينهم ، فقد احتفظ كل واحد منهم باحترامه لصاحبه أو لمن سبقه ، و بفضيلة العرفان .. فكانوا مثالا فى أدب الخلاف .. كما كانوا بحق منارات !

كلهم جاهد الظلم والقهر ، ودافع عن حق الإنسان فى الحرية والعدل والسعادة والحياة الكريمة الفاضلة .. وكلهم قاوم قاذورات عصره : من النفاق ، والكذب ، والزيف والاستغلال !

ومهما نختلف نحن معهم اليوم ، فينبغى علينا أن نذكرلهم أنهم سلف صالح أغنوا الحياة الفكرية والفقهية باجتهاداتهم الخصبة ، و ينبغى علينا أن نتخذهم مثلا رائعة لما ينبغى أن يكون عليه رجل العلم والفقه والفكر.. ذلك أنهم ناضلوا بفكرهم الثرىّ والرائد ، ليحققوا المجتمع الذى أرادته الشريعة ، وليجعلوا الإنسان على الصورة التى أرادها لها الله تعالى حين قال لنبيه الكريم : « وإنك لعلى خلق عظيم » .

الإمام ابن حزم

أديب الفقهاء

لم يعرف تاريخ الفقه من قبله رجلا كتب فى الحب وأحوال العشاق بمثل هذه الرقة والعذوبة والصراحة ، وجادل الفقهاء فى الوقت نفسه بكل تلك الحدة والعنف والصرامة .. !

اجتمعت فيه صفات متناقضة : لين الطبع وسعة الأفق وعذوبة النفس ، مع التشدد والتضييق وسرعة الأنفعال ، والتعصب لكل ما يعتقد أنه حق ، ورفض ماعداه .. فهويناقش كل وجوه النظر فى المسائل ، حتى إذا اطمأن إلى رأى ، أدان كل مخالفيه بلا رحمة ، وسخر بهم ، وكال لهم الاتهامات لايراعى لهم فضلا ولاوقارا .. !

من أجل ذلك أحبه بعض الناس حتى تحدوا فيه كل حكام عصرهم ، وكرهه آخرون حتى أهدروا فيه تعاليم الدين ومبادىء الأخلاق إذ أغروا به السلطان . !

يشهد مجالس الأنس ، و يسمع مع ظرفاء عصره ، و يستمع للغناء حتى يؤذن للفجر فينصرف للصلاة ، ثم يعتكف النهار والليل بعد ذلك بعيدا عن السمار والظرفاء ، يقرأ و يتأمل و يكتب ، ثم يخرج ليحضر مجالس العلم يتلقى ، ويحاور الشيوخ ، و يعلم الطلاب .

ولد وعاش ومات فى الأندلس ــ أجمل بلاد المسلمين وخيرها ــ فى شر فترة من عصور التاريخ الإسلامى .. إذ كانت الدولة الإسلامية العظمى فى الأندلس ، قد تمزقت إلى دويلات صغيرة ، فذهب زمن الخلفاء أولى العزم العماليق العظام ، ليجىء بدلا منه عصر الحكام الأقزام ، ليتصارعوا فيما بينهم ، وليكيد كل واحد منهم لأخيه ، و يعريد على دويلته فينقصها من أطرافها ، ويحالف الفرنجة الطامعين فى أن يستعيدوا الأندلس بأسره .. ومن هؤلاء الحكام الأقزام من رضى الدنية فى دينه ودنياه ، فأغرى الفرنج بالأموال الطائلة ليعينوه على أطماعه فى الدويلات الإسلامية المجاورة الأخرى .. !

وهكذا انطفأت منارات المعرفة فى قرطبة ، وهى التي كانت تضيء لكل ماحولها ومايليها من بلاد أوربا ، فأصبحت قرطبة عاصمة الدولة الكبرى فى الأيام الزاهية الذاهبة ، دو يلة من الدو يلات الأسلامية .. ! وانصرف أهل قرطبة من جد الأمور الى هزلها ..

ونهبت خزائن الكتب فى قرطبة. ، وهى خزائن لم يعرف لها التاريخ مثيلا من قبل .. وانصرف أهل قرطبة عن اقتناء الكتب كما تعودوا ، إلى حيازة الجوارى الحسان والغلمان ! . و بعد أن كان الأثرياء يتنافسون على شراء الكتب الجديدة ، حتى لقد كان المؤلفون فى المشرق العربى ينشرون كتبهم فى الأندلس ، قبل أن تظهر فى بلادهم ، كما صنع صاحب الأغانى ، بعد كل هذا أصبح الناس يتنافسون على شراء الجوارى الشقراوات والغلمان من فرنسا وإيطاليا والجزر المجاورة فى المحيط والبحر الأبيض المتوسط .

و بدلا من التفنن فى إقامة خزائن للكتب ، تفننوا فى بناء الأجنحة للجوارى ،

وذوى فن النسخ واقتقر الناسخون ، لتزدهر صناعة النخاسة و يثرى النخاسون ! .

وأصبحت أسواق الأدب فى متنزهات قرطبة مغانى للعشاق وخمائل للمتعة !

وإذ بالعقل العربي فى الأندلس يهجر تقاليده الإسلامية فى البحث والمغامرة واكتشاف المجهول وإغناء الحياة بالإضافات ، ليسقط فى الجمود والتقليد . ! وإذ بالناس يتخذون الشيوخ أولياء من دون الله ، و يتشفعون بهم من دون العمل .. !

وخلال هذا التحول كانت الفضائل تتهاوى ، وقيم الإسلام تترنح ، والباطل يغشى وجه الحياة ، والإنسان الصادق يغترب .. والحق كسير!

وانطفأت الحمية. ، وخبت الغيرة ، وتزايل قدر الكتاب والشعراء والمفكرين ومهرة الصناع وأهل الفنون ، المنتجة ليعلو مقام الجوارى والغلمان والمخنثين والشذاذ .. !

وخلال هذا كله يتناقل الناس قصة أمير فى أشبيلية اشتهت إحدى نسائه أن تغوص بأقدامها فى الطين ، فأمر بأن تصنع لها بركة من المسك المعجون بالماء المعطر...! أنفق على هذه البركة مايكفى لتجهيز جيش ، حتى إذا أحاطت جيوش الفرنجة بأشبيلية والأمير ونساؤه يعبثون عراة فى طين المسك لم يجد الأمير فى خزائنة مايتقوى به على الدفاع عن مدينته . !

وهكذا سقطوا فى الطين .. المعطر!

وفي بعض نواحي الأندلس تقل المياه ، و ينقطع المطر فتجف الأرض ، و يعطش الأحياء ، و بدلا من أن يؤدى المسلمون صلاة الاستسقاء ، عسى أن يستجيب لهم الله فيعم الماء ، ليسقوا الأحياء والأرض ، كانوا يتجهون الى قلنسوة جلبها أسلافهم من الإمام مالك ، ليستسقوا بها .. !

ثم يتناقل الناس قصة رجل فاضل من أهل العلم عشق جنديا حسن الطلعة من جيش الفرنجة الذى كان يحاصر إحدى المدن ، فاستخلص الرجل الذى كان فاضلا هذا الجندى لنفسه ، وأمره على قصره لينهى و يأمر فيه ، وأباحه حريم القصر ، لينال الرجل العالم من الجندى مايريد .. !

وحين كانت خزائن الدويلات خالية مما تتطلبه مئونة الجيش ، بنى أحد الأمراء قصرا ضخما وجلب له غرائب الأزهار والأشجار والطيور النادرة ، وشق له نهرا صغيرا من قمة الجبل حيث تتراكم الثلوج فى الشتاء لينحدر الماء إذا ذابت الثلوج ، و يصب في جداول تتخلل حدائق القصر ، وتنتهى إلى بحيرة صنع قاعها من الرخام الأزرق الفاخر الثمين ، ورصعت شطآنها بالأحجار الكريمة ! لتسبح فيها الجوارى الشقراوات المجلوبات من جنوب فرنسا ، على شعاع الشمس إذا كان النهار ، وعلى ضوء القمر أو المصابيح الذهبية فى ليالى الصيف .. !

وسط هذا الجو الزاخر بصور رائعة من جمال الطبيعة ، ومظاهر مؤسية من فساد المجتمع نشأ ابن حزم .

عاش فى هذا المضطرب نحو أثنين وسبعين عاما .. أشتغل خلالها بالسياسة والأدب ، والفقه ، والشعر ، وكابد الحياة والناس ، وعرف المتاع والعذاب ، وحاول أن يتعاطى الفلسفة والمنطق وعلوم الاجتماع والفلك والرياضة وعلم النفس وسماه بهذا الأسم ، وأحتك بمجتمعه ، فصوره ورسم أعماقه ومفاسده ومظالمه ، وهب فى أنفعال يرفض مجتمعه ذاك ، ويحاول أن يهدم واقعه لينبيه من جديد !

وفى سبيل ذلك لم يكتف بالكتابة بل خاض غمرات الصراع السياسى وأشترك فى مغامرات عسكرية .. وعرف الحب والنعيم ، وعرف الجوى ، ولم يتحرج — وهو الفقية الذى يتربص به أعداؤه — من التصريح بتجاربه ومشاهداته ، فى بيان مشرق عذب ، لم يتكلف فيه تغطية العبارات والألفاظ ..

وترك مؤلفات كتبها بلغت عدتها أربعمائة بين كتب طوال ورسائل قصيرة كالمقالات .. ذلك أن ابن حزم كان حين يعكف على القراءة والكتابة لايخرج عما أخذ فيه ، ولايسمح لأى ظرف مهما يكن خطره بأن يعطله !

وكثيرا ماكان يرفض الخروج من غرفة عمله ، و يأمر برد زواره وقاصديه ! ولقد أغضب بسلوكه ذاك . كثيرا من أصدقائه والمقربين إليه ، ولكنه كان يعتذر إليهم إذا خرج من عمله يستروح ، فلولا أنه يأخذ نفسه بالشدة فى العمل ، لما أتيح له أن ينجز شيئا .. والعمل عنده عبادة ، ولئن اعتكف العابد

ليتعبد ، فما ينبغى أن يصرفه عن شأنه أى طارق حتى يفرغ مما هو فيه !

****

ولد على بن أحمد بن سعيد بن حزم ، فى آخر شهر رمضان قبيل شروق يوم عيد الفطر عام ٣٨٤ ، فى قرطبة حاضرة ذلك الزمان .

كان أبوه وزيرا للخليفة الأموى هشام المؤيد وهو من أواخر الخلفاء الأمويين فى الأندلس ..

ولد ابن حزم فى قصر فاخر ، فقد أصاب أجداده وأبوه ثروة ضخمة ، فترك أبوه منازل الآباء فى غربى قرطبة حيث يسكن أوساط الناس ، وأتخذ لنفسه قصرا منيفا فى حى السادة شرقى قرطبة ، على مقربة من دار الخلافة .

تفتحت عينا الصبى على مجال الترف ، ومسارح المتاع ، ومغانى الجمال ، فى قصر أبيه الشامخ على مرتفع يشرف على كل قرطبة ، محاطا بحدائق واسعة ، ترتفع فيها الأشجار ، و يضوع الزهر ، و يغرد الطير ، وتنساب الجداول الصغيرة ، و يتفجر الماء فى نافورات منمنمة الحواشى والجنبات بالفسيفساء ..

على مرائى الجمال ومغانى الحسن تلك تفتحت عيناه ... فما سمع فى طفولته غير الشدو ، والغناء ، ومارأى غير الوجوه الصباح ، وخضرة الحدائق ، وروعة ألوان الطبيعة الفتانة ، وماملأصدره إلا بشذى الزهر وعطر الفاتنات .. الجبال على البعد تجلل هاماتها الثلوج وتغمر الخضرة الريانة كل سفوحها .. وهمس الجداول ، وخرير الأنهار ، ورنين الضحكات الفضية ، وعطو الأنسام ، وحلاوة الأنغام واتساق القدود ، ونضارة الخدود والتماع الأضواء على الملابس الزاهية تلف القامات المتأودة ... أشعة واهنة من الشمس تتسلل من وراء السحاب وتتخلل الأغصان اللفاء ، فتوشى الظلال على الأديم ذى الأعشاب ... منابر الذهب والفضة .. هذا هو كل ماعرفه ابن حزم منذ نشأ حتى وثب به الصبا على أوافل الفتوة .. و بلغ أول سنوات الشباب .. .

وهو فى الخامسة عشرة ، تمرد على الخليفة هشام المؤيد أقرب الأمراء إليه ، فساقوا جيشا من العرب والبربر والفرنجة فأسقطوا الخليفة ، وولوا مكانه رجلا آخر من بنى أمية .. وعزل الحاكم الجديد والد ابن حزم من منصبه واعتقله ، ثم أفرج عنه ، بعد حين ..

قال ابن حزم : « شغلنا بعد قيام أمير المؤمنين هشام المؤيد بالنكبات و باعتداء أرباب دولته ، وامتحنا بالاعتقال والتغريب والإغرام الفادح ..... وأرزمت الفتنة وخصتنا ،

إلى أن توفى أبى الوزير رحمة الله ونحن فى هذه الأحوال بعد العصر يوم السبت لليلتين بقيتا من ذى القعدة عام اثنين وأربعمائة » ..

كان ابن فى الخامسة عشر حين سقط الخليفة هشام المؤيد ، وعزل أبوه من منصب الوزارة ، وصادرت الدولة الجديدة قصره فى شرقى قرطبة وماوصلت إليه من أمواله .. و بقى للأسرة بعد ذلك شيء .. منازل قديمة فى غربى قرطبة انتقلت إليها ، وضياع ودور متفرقة فى أرجاء الأندلس .

ولقد عاش أبوه معتزلا الناس أربع سنوات بعد النكبة ، ثم مات حزينا محسورا ، وتآمر الفرنجة والبربر و بعض بنى أمية على الحاكم الجديد ، فوثبوا عليه ، و ولوا مكانه رجلا آخر ، وعاثوا فى قرطبة فسادا فنهبوا الأموال وانتهكوا الحرمات واغتصبوا النساء .

وهاهو ذا الآن يصبح وحيدا بعد أن قتل أبوه الوزير صبرا وكمدا .

ترك الفتى قرطبة باكيا ، وكتب يصف حالته « ضرب الدهر ضرباته ، وأجلينا عن منازلنا ، وتغلب علينا جند البربر ، فخرجت عن قرطبة أول المحرم عام أربع وأربعمائة » ..

كان إذ ذاك فى العشرين .. فتى مثقل القلب بالهموم ، تضطرم أعماقه بالإصرار على أن يغير هذا العالم المثخن بالفوضى والمظالم والفساد . !

لقد علمه أبوه الوزير وثقفة لكى يصبح وزيرا مثله ، فقد كانت الوزارة فى ذلك الزمان تورث كما يورث الملك ! وقد علمه أبوه منذ بدأ يعى ، أنه قرشى من بنى أمية .. جاء أجداده مع الفتح الإسلامى . علمه أن جده الأعلى كان أخا بالولاية ليزيد بن أبى سفيان الذى بعثه أبوبكر الصديق فى أول بعثة لفتح الشام ..

وإذن فمعاوية عمه ، وأجداده هم الذين فتحوا الأندلس وأقاموا فيها الدولة العظمى .. فالوفاء لأسلافه يقضى عليه بأن ينتصر للأمويين ، و يدافع عنهم ، و يدعم دولتهم .. فإذا سقطت هذه الدولة فالوفاء يقتضيه أن يعمل من أجل إحيائها .. ! .. فإذا تصارع أمراؤها فليعتزل هو الصراع ! .

كان قبل ، قد نال قسطا من التعليم . وماأرسله أبوه ليتعلم فى حلقات الجامع ، أو عهد به إلى مدرس .. بل آثر أن يعلمه فى القصر .

ولأن أباه كان خبيرا بما آلت إليه الحياة من فساد وتفسخ ، لم يشأ أن يعهد بهذا الطفل إلى معلمين من الرجال .. بل اختار له معلمات من النساء من قريباته « من الجوارى .. وكانت من نساء قرطبة فقيهات وراويات شعر ومقرئات ومحدثات وطبيبات وعالمات بالفلك والفلسفة .

ربى ابن حزم في حجور النساء كما قال ... ولازمهن حتى بلغ مرحلة الشباب .. وأتاح له لزومهن معرفة كثير من أحوالهن وأسرارهن ، ودراسة خلجات قلوبهن ، والاطلاع على مايملكن من فضائل ورذائل . !

كتب عن هذه المرحلة من صباه فيما بعد ، فأعلن عدم ثقته بالنساء ، وحكم عليهن فى ألفاظ مكشوفة أنهن مالم يشغلهن العلم أو العمل متفرغات البال للرجال .

«قرأت فى سير ملوك السودان أن الملك منهم ، يوكل ثقة له بنسائه ، يلقى عليهم ضريبة من غزل الصوف ، يشتغلن بها أبد الدهر ، فالمرأة بغير شغل إنما تشوق إلى الرجال .... ثم يقول : « لقد شاهدت النساء ، وعلمت من أسرارهن ما لايكاد يعلمه غيرى لأنى ربيت فى حجورهن ، ونشأت بين أيديهن ، ولم أعرف غيرهن ، ولا جالست الرجال إلا وأنا فى حد الشباب » ثم يسترسل « ...... وهن علمننى القرآن ، وروينى كثيرا من الأشعار ، ودربننى على الخط . ولم يكن وكدى (اى همى) ، وأعمال ذهنى منذ أول فهمى وأنا فى سن الطفولة جدا إلا تعرف أسبابهن ، والبحث عن أخبارهن ، وتحصيل ذلك . وأنا لاأنس شيئا مما أراه منهن . وأصل ذلك غيرة شديدة طبعت عليها ، وسوء ظن فى جهتهن فطرت به ، فأشرفت من أسبابهن على غير قليل .

و يعترف أنه منذ الطفولة قد اطلع من أسرار النساء والرجال على أمر عظيم ، و أصل ذلك أنى لم أحسن قط بأحد ظنا فى هذا الشأن ، مع غيرة شديدة ركبت فى ... إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (الغيرة من الايمان) فلم أزل باحثا عن أسرارهن ، وكن قد أنسن منى بكتمان ، فكن يطلعننى على غوامض أمورهن . ولولا أن أكون منبها على عورات يستعاذ بالله منها ، لأوردت من تنبههن فى السر ومكرهن فيه عجائب تذهل الألباب .... ثم يضيف : « .. أنى لأعرف هذا وأتقنه ، ومع هذا يعلم الله وكفى به عليما أنى برىء الساحة » .. وثم يقسم بأغلظ الأيمان على عفته ، وأنه لم يقترف حراما قط . !

وابن حزم يروى ذكر يات طفولته عن النساء الذى عهد إليهن أبوه بتربيته .. وهن كما قال من الجوارى المهذبات ومن قرابته .

وكان أبوه يزوره خلال الدرس ليطمئن عليه ، وقد أقام عليه رقباء ورقائب من الشيوخ والنساء العجائز.

على أنه صبا إلى شقراء منهن فامتنعت منه ولاحقها فى شرفات القصر عسى أن تبادله مايحس ، فيستوهبها أباه ، ولكنها ظلت تتمنع فأباها عليه أبوه ، ووهبه شقراء أخرى ، ولكن الفتى لم يستطع السلوعنها سنوات ... فزوجه أبوه من شقراء أجمل من تلك ، ووهبه جارية شقراء أيضا ، وعاش ابن حزم لايستحسن غير الشقراوات كما قال ...

وكان قد حفظ القرآن وقدرا صالحا من الشعر وجود الخط .. وآن له أن يفارق مدرسة النساء إلى

حلقات الرجال .

واختار له أبوه عالما زاهدا ناسكا فاضلا . وتحرى الأب أن يكون معلم ابنه حصورا . .

كتب ابن حزم « وأنى كنت وقت تأجج نار الصبا وشرة الحداثة ، وتمكن غرارة الفتوة مقصورا ، محظورا على بين رقباء ، ورقائب (من النساء) ، فلما ملكت نفسى وقلت صحبت أبا الحسن بن على الفاسى . وكان عاقلا عالما ممن تقدم فى الصلاح والنسك الصحيح ، وفى الزهد فى الدنيا ، والاجتهاد للآخرة . وأحسبه كان حصورا لأنه لم تكن له أمرأة قط . ومارأيت مثله علما وعملا ودينا وورعا ، فنفعنى الله به كثيرا ، وعلمت مواضع الاساءة وقبح المعاصى . ومات أبو الحسن رحمه الله فى طريق الحق . . »

صحب ابن حزم هذا الشيخ الذى أختاره له أبوه ، فأنتزعه الشيخ من كل دواعى الإغراء لمن هو فى مثل سنه ، فما كانت النساء تحجب عن الرجال ، وكان هذا كما يقول ابن حزم هو جارى العادة فى التربية ببلاد الأندلس .

بدأ الجلوس إلى شيخه وهو فى نحو السادسة عشر وصحبه إلى حلقات علماء التفسير والحديث واللغة .

بهر الفتى أشياخه بسرعة استيعابه ، وقوة حفظه ، ودقة فهمه . . و بعد أن استوعب ابن حزم مافى مجالس القرآن والتفسير ، صحبه شيخه ومربيه إلى حلقات الفقه .

حتى إذا خرج مربيه إلى الحج فمات فى بعض الطريق ، استقل ابن حزم بحضور الحلقات وقد علم من شيخه الراحل قدر كل واحد من أصحاب الحلقات . . فلزم الحلقات بالجامع الكبير بالجانب الغربى من قرطبة ، حيث يعيش أواسط الناس وسوادهم ، وأهل العلم والطلاب . وفى هذه الحلقات عنى إلى جانب علوم الدين بدراسة النحو وعلوم اللغة والفلك والفلسفة والمنطق وسائر المعارف الإنسانية الموجودة فى عصره .

ولقد اهتم بالنحو اهتماما خاصا ، وأدرك أن اتقان النحو هو سبيله إلى فهم النصوص . ذلك أنه كان قد شهد عجبا ممايؤدى إليه الجهل الشائع بالنحو . حتى لقد تفكه بحكايات عن ذلك فيما بعد . . فروى أن رجلا كان يتولى صلاة الجمعة فى جامع قرطبة « وكان عديم الورع قليل الصلاح . فخطبنا يوم الجمعة فى جامع قرطبة فتلا فى خطبته : (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عز يزعليه ماعنتم) فقرأها بنونين (عننتم) . فلما انتهت الصلاة جاءه بعض تلاميذه وكانوا يأخذون عنه رأى مالك ، فذكروا له الآية صحيحة ، فأنكرها وزعم أنه هكذا تعلمها وهكذا يعلمها . فلما احتكموا إلى المصحف ، دخل وعاد بالمصحف وقد حذف نقطة من على تاء عنتم ، لتكون نونين ! » . .

و يروى عن مقرئ آخر يعلم الناس القرآن ، وهو عربى بل قرشى ، « وأحد مقرئين ثلاثة كانوا يقرئون

العامة فى قرطبة » ، وكان لايحسن النحو. فقرأ عليه قارئ يوما فى سورة ق (ذلك سكرة الموت بالحق ذلك ماكنت منه تحيد) فرد عليه القرشى « تحيد بالتنوين » ، فراجعه القارئ وكان يحسن النحو، فلج المقرئ وثبت على « التنوين » . وانتشر الخبر، حتى وصل إلى فقيه كان صديقا لذلك المقرئ ، « فذهب إليه وقال للمقرىء القرشى : « انقطع عهدى بقراءة القرآن على مقرئ ، وقد أردت تجديد ذلك عليك » . فسارع الفقيه إلى ذلك . فبدأ يقرأ من سورة ق حتى إذا بلغ الى الآية المذكورة ردها عليه المقرئ بتنوين كلمة (تحيد) . فقال الفقيه للمقرئ : « لا تفعل . ماهى إلا غير منونة بلا شك » . فلج المقرئ . فقال له الفقيه : (ياأخى إنه لم يحملنى على القراءة عليك إلا ردك إلى الحق فى لطف . وهذه عظيمة أوقعك فيها قلة علمك بالنحو... فإن الأفعال لايدخلها التنوين البتة) . فتحير المقرىء ولم يقتنع حتى جاءوا بالمصحف وبعدد من مصاحف الجيران فوجدوها مشكولة بلا تنوين »

ظل ابن حزم يدرس العلوم الدينية واللغوية والعلوم الإنسانية ودرس الكتب المترجمة فى الأدب والفلسفة والخطابة والفلك . ودرس الرياضيات . ودرس الشعر العربى وأخبار العرب والتاريخ .

ولقد درس العلوم الدينية على مذهب الإمام مالك ، وكان هو المذهب الرسمى للدولة ، فقد فرضه الأمويون ، وماكانوا يعينون قضاة أو يسمحون لفقيه أو عالم ، بالفتيا أو إلقاء الدروس ، إن لم يكن من أتباع الإمام مالك .. ولم يسمحوا لمذهب غيره بالوجود فى الأندلس ، كما فرض العباسيون فى المشرق مذهب الإمام أبى حنيفة .. ولهذا قال ابن حزم : « مذهبان أنتشرا بقوة السلطان ، مذهب أبى حنيفة فى المشرق ومذهب مالك فى المغرب . »

أنكب ابن حزم على طلب العلم . ، حتى أصبحت قرطبة مسرحا للحرب بين الجماعات المتصارعة ، وانتهبت منازل أسرته فى غربى قرطبة ، ووجد الفتى الأمراء الأمويين فى صراعهم الداخلى يرمون قرطبة بجند البربر وعسكر الفرنجة على قرطبة الشماء ، ليفسدوا فيها ، ويسفكوا فيها الدماء.. حتى لقد قتلوا نحو عشرين ألفا من أهلها من بينهم عدد كبير من العلماء والفقهاء والمقرئين والقراء وشيوخ المساجد !

فرحل الشاب إلى مرية بعيدا عن قرطبة ليقيم فى ضيعة لأهله هناك ، وفى أعماقه ينزف القلب الممزق ، ويحتدم فى صدره الشوق إلى أن ينقذ الإسلام ، وأن ينشل الأندلس بأسره من كل هذا الهوان .. !

ولكن كيف ؟ ! ماعساه أن يصنع هو وحده ، وهو بعد طالب علم فى الثانية والعشرين ، بلا جيش ولا نصيرا ؟

فليتفرغ هناك لدراسة كل مابين يديه من آثار فى الدين والفكر، وكل معطيات العقل الإنسانى .. فليعمر عقله بالعلم وقلبه بالأمل حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا ...

وعندما يجىء الوقت ، سيشرع قلمه ليواجه الفوضى ، والعار، والفساد ، بأقوى مما يستطيعه السيف البتار.. !

وفى المرية ، وجد عددا كبيرا من الشيوخ ممن هاجروا فى أرض الله الواسعة ، نأيا بأنفسهم عن مضطرب الفتنة والدماء فى قرطبة المنتهكة ، التى غمرت أجواءها العطرة الطيبة ، رائحة الموت ، والحياة المتعفنة ، ورائحة العار... !

ولزم ابن حزم من وجد فى « المرية » من شيوخ قرطبة وأخذ عنهم ، وقسم وقته بين حضور الدروس فى المسجد ، والقراءة فى البيت ... وظل على هذه الحال نحو ثلاث سنوات .

ولكن الأمراء الأمويين فى صراعهم على السلطة سقطوا جميعا فآل الأمر فى قرطبة إلى آل حمود ... وهم علويون ، وبين الأمويين والعلويين خصام متقد !

أستولى العلويون على قرطبة ، وبسطوا سلطانهم على كثير من أقطار الأندلس ، فتوجس ابن حزم فى نفسه خيفة مما قد يقع له .. فهو ابن أسرة تنتمى للأمويين .

وصحت مخاوف ابن حزم طالب العلم الذى أصبح فى الخامسة والعشرين ، إذ أوقع به والى « المرية » ، وأتهمه بالتآمر مع صاحب له يعيدا ملك بنى أمية .. فأعتقله هو وصاحبه شهرا ثم أمر بإبعادهما . فتطوع أحد أصحاب حاكم « المرية » باستضافة ابن حزم وصاحبه .. يقول ابن حزم « فأقامنا عنده شهورا فى خير دار إقامة ، وبين خير أهل وجيران ، وعند أجل الناس همة ، وأكملهم معروفا ، وأتمهم سيادة ، ثم ركبنا البحر قاصدين بلنسية عند ظهور أمير المؤمنين المرتضى عبد الرحمن بن محمد وساكناه بها .

كان المرتضى عبد الرحمن بن محمد حفيد عبد الرحمن الناصر رجلا صالحا ، هرب من قرطبة حين أشتعلت فيها الحروب الداخلية بين أبناء عمومته من الأمويين ، واعتزل الفتنة ، ثم ظهر بعد حين فى « بلنسية » ، ودعا لنفسه بالخلافة ...

بادر ابن حزم بتأييد المرتضى ... فها هو ذا رجل صالح من بنى أمية ، على نقيض الأمراء الأمويين الآخرين الذين أباحوا قرطبة جيوش البربر والفرنجة ، وارتضوا أن يؤدوا الجزية للفرنجة ليستعينوا بهم فى الصراع على الحكم !

وكان المرتضى متفقها يعرف ابن حزم عنه التقوى وحسن الدين ، و يتوسم فيه أن سيعيد مجد جده الأعلى عبد الرحمن الناصر ، أيام نهض يوحد الأندلس ، و يستعيد فيه عظمة الإسلام ، فسعى فى عمارة الأرض ، وجعل من قرطبة حصنا حصينا للإسلام ، ومشرقا لنور المعرفة ، وجعل متنزهاتها ندوات للثقافة والجدل الفلسفى ، يتمشى فيها المفكرون يجادلون و يعلمون ، كما كانت أثينا فى عصورها الزاهرة .

وكان المرتضى عبد الرحمن بن محمد نفسه يريد أن يعيد قرطبة والأندلس كله الى أيام جده حين كان ملوك أوروبا وأمراؤها يسعون إليه أو يقدمون له الجزية ، وحين كان العلماء والفقهاء والمفكرون والكتاب والشعراء هم قسمات الوجه المضيء لقرطبة ، ودولة الإسلام فى الأندلس !

ولكن المرتضى عبد الرحمن بن محمد لم يكن يملك من مواهب رجل الدولة إلا الصلاح وحسن النية والرغبة الصادقة فى الإصلاح .. ولاشيء بعد ! .. لاحزم ، ولاقدرة ، ولاحسن بصر بالرجال ، ولاسائر الوسائل التى تكفل النجاح لمن يريد أن يتولى أمر الناس و يقود أو ينشئ دولة . !

ولكن ابن حزم وجد نفسه مندفعا إلى مبايعة الرجل الصالح ، عسى أن يستطيعا معا هدم هذا العالم الفاسد و بناءه من جديد على البر والتقوى والنجدة والعدل .

أقام ابن حزم فى بلنسية مع المرتضى عبد الرحمن بن محمد يدعو إليه ، ويحشد له طلاب العلم ويخطب الناس و يطالبهم بأن يبايعوه بالخلافة

على أنه ظل خلال نشاطه السياسى العارم ، يواظب على حلقات الدرس ، فيتلقى عن شيوخها .

وذات مرة سأل ابن حزم شيخ الحلقة عن مسألة من فقه مالك ، فأجابه شيخه ، ولكن ابن حزم لم يقتنع بالإجابة فاعترض ، وضاق به الشيخ ، فقال له أحد الطلاب المقربين إلى شيخ الحلقة : «ليس هذا من منتحلاتك ! « ذلك أنه كان حتى ذلك الوقت ينتحل كتابة الشعر والنثر الفنى فحسب ، وكان زملاؤه يشهدون له بطلاوة الأسلوب ورشاقة العبارة . ولم يستطع ابن حزم أن يرد فما كان يعرف فقه مالك بعد ، وضحك منه الشيخ والطلاب .

غضب ابن حزم حتى قام لينصرف من الحلقة ، ولكنه كظم غيظه وقعد إلى نهاية الدرس . ثم اعتكف فى داره يقرأ النهار والليل فى فقه مالك ، وفقه الأئمة الآخرين أصحاب المذاهب ، وخرج بعد عدة أشهر إلى الناس ، فحضر الحلقة التى شهدت السخرية منه .. فناظر الشيخ والطلاب أحسن مناظرة ، فأدهشهم ، وقال وهو ينصرف : أنا أتبع الحق وأجتهد ، ولا أتقيد بمذهب .

وأثناء انقطاعه لقراءة الفقه ، أعجب بمذهب الشافعى ، فال إليه ولكنه لم يتقيد به ... أعجبه فى الشافعى تمسكه بالنصوص من القرآن والسنة ، وعزوفه عن تقليد من سبقه ، وأستنباطه الأحكام من

النصوص ، واعتباره الفقه هو النص أو الحمل على النص (أى استخراج الحكم من النص أى القياس عليه)

غير أن ابن حزم لم يلبث أن هجر القياس ، ووجد أن ماقاله الشافعى فى رفض الاستحسان ، يصلح حجة لرفض القياس ، وأنه لاحكم الا فيما تضمنته نصوص القرآن والسنة وإجماع الصحابة إجماعا لايختلف عليه واحد منهم رضى الله عنهم

وقد اهتدى إلى هذا الرأى عندما ماكان يقرأ فقه الإمام الشافعى ، وماكتبه الآخرون عنه ، فوقع على كتاب داود الأصبهانى عن مناقب الشافعى .. وأعجب الشاب بالأصبهانى وكتابته ، وحاول أن يتتبعه ولكنه لم يجد فى بلنسية مايغنيه .. لو أنه يعود إلى قرطبة أم المدائن فى الأندلس ! ففى قرطبة مهما يكن من أمر ماليس فى غيرها من المدائن !

ولقد عاتبه بعض أصدقائه فى موقفه من المذهب المالكى ، فقال لهم ان الإخلاص للأسلام هو الذى دفعه إلى أن يترك المذهب.. ومايبالى هو مايكون من أمر، مادام الإخلاص للإسلام هو رائده فيما يأخذ ومايدع من الأمور! وروى لهم أن عيسى عليه السلام سأله أحد الحواريين ماهو الأخلاص ومن المخلص فقال عليه السلام : « المخلص من إذا عمل خيرا لايهمه أن يحمده الناس » .

عاد ابن حزم يدعو إلى المرتضى عبد الرحمن بن محمد ، حتى اجتمع للمرتضى جيش يصلح للزحف ، فقرر أن يزحف إلى غرناطة فيستولى عليها ، وبجيش من أهلها عسكرا كثيفا يستولى به على قرطبة التى أمتنع فيها العلويون .

وسار ابن حزم مع الجيش تحت راية المرتضى ولكن الجيش لم يصل إلى غرناطة

فقد اغتيل المرتضى وهزم جيشه ، ووقع ابن حزم فى الأسر!

وبعد حين أطلق من الأسر، فأختار أن يعود إلى قرطبة ليتفرغ للعلم بعد أن غاب عنها نحو ستة أعوام .

هاهو ذا من جديد فى قرطبة مدينته التى لم يحب ركنا آخر من الأرض كما أحبها ، والتى عرف فيها عذوبة أيام الصبا ، ثم قسوة الحياة منذ عزل أبوه ، ومات ، وشاهد طرقاتها الظليلة ومتنزهاتها الغناء يختلط فيها دم الإنسان بالمعرة والأوحال ! ولكنها مهما يكن من أمر، خير المدائن عنده ، ومهما يكن ماحدث فيها للفكر والمعرفة ، فما زالت هى هى أزخر بلاد الدنيا بالمعارف .. ومهما يكن ماحدث لخزائن الكتب فيها ، وللفقهاء والعلماء ، فإنه يستطيع أن يجد فيها من الكتب ومن البيئة الثقافية مالم يجده ومالن يجده فيما عداها من أرض الله .

منذ وقع ابن حزم وهو فى بلنسية على كتاب للفقيه داود بن على الأصبهانى ، وهو حريص على أن يستزيد من فقه الرجل

ووجد فى قرطبة كل كتب داود الأصبهانى . التى تضمنت منهجه فى الاعتماد على النصوص من القرآن والسنة وإجماع الصحابة فى إستنباط الأحكام .

وداود الأصبهانى من مدينة أصبهان تعلم فيها ورحل إلى بغداد وغيرها من حواضر الإسلام ، ولد عام ٢٠٢هـ وعاش خمسين عاما تفقه فيها على مذهب الشافعى ، ولكنه رفض وخالف الشافعى فى الإجتهاد وهو الإعتماد على النص ، أو القياس على النص . وقال : « إن الشريعة لا رأى فيها ولا اجتهاد ، فهى نصوص فحسب ، ولاعلم فى الإسلام إلا من النص » . وقد سأله أحد الذين يعرفون اعجابه بالشافعى : « كيف تبطل القياس وقد أخذ به الشافعى ؟ ! « فأجاب : » أخذت أدلة الشافعى فى إبطال الإستحسان فوجدتها تبطل القياس ... « وقيل عنه : » أنه أول من أظهر انتحال الظاهر، ونفى القياس فى الأحكام قولا وأضطر إليه فعلا وسماه الدليل » ... والدليل الذى يعنيه داود مفهوم من ظاهر النص كأن يقول الحديث الشريف . « كل مسكر خمر. وكل خمر حرام » . فهما مقدمتان دون ذكر النتيجة والنتيجة المحذوفة المفهومة من ظاهر النص : أن كل مسكر حرام . وهذا ليس قياسا ، بل فهم لظاهر نص فيه إيجاز بالحذف . وكأن يقول الله تعالى : « قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر الله لهم ماقد سلف . » فهذا شرط للمغفرة ، وهو يعم كل من يعصى الله والرسول لا الكفرة وحدهم .

قال عنه أحد معاصريه : « لو اقتصر على ماهو فيه من العلم لظننت أنه يكمد به أهل البدع مما عنده من البيان والأدلة . ولكنه تعدى .

وكان زاهدا عابدا . ولقد وجه إليه أحد المعجبين من الحكام يوما بألف درهم تعينه على العيش فردها قائلا لمن جاء بها : « قل لمن أرسلك بأى عين رأيتنى ، ومالذى بلغك من حاجتى وخلتى حتى وجهت إلى بهذا ؟ »

وقد وجد ابن حزم فى قرطبة حين عاد إليها هذه المرة بعض الذين تأثروا بآراء داود ، ووسعوا منهجه الظاهرى ، وتركوا كتبهم فى خزائن الكتب بقرطبة ، وفى صدور بعض أتباعهم ، فدرس ابن حزم كتبهم وتتلمذ عليهم .. وخلال خمس سنوات وهب فيها نفسه للعلم ، ودراسة الفقه الظاهرى ، لم يعد الشاب يفكر فى السياسة . وأعلن الخلاف مع الشافعى متابعا فقه أهل الظاهر وقيل لى فى خلافه مع الشافعى بعد أن أحبه وأعجب به ، فاستشهد بما قاله الإمام الشافعى حين عوتب على خلافة مع الإمام مالك وهو شيخه : « أقول فى هذا ماقاله أرسطو حين خالف أفلاطون : أفلاطون أستاذى وأنا أحبه ولكن الحقيقة أحب الى من أفلاطون . »

وتمر الأعوام وابن حزم لايشغله إلا الدرس الجاد .

ووجد بعض المتعصبين من اليهود والنصارى يطعنون فى الإسلام مستغلين الضمور الفكرى والفقهى ، وشيوع التقليد ، وتجمد العقل ، فانبرى لهم ابن حزم يجادلهم ، و يسفه آراءهم ، فى حدة وعنف ، مؤكدا أن مااعترى الحياة الإسلامية من فساد و بلادة ، ومايشيع فيها من جمود فكرى ، وتقليد أعمى للسلف ، ليس من الإسلام . ولكنه محنة للإسلام .

وهو يعد نفسه لمعارك فكرية أخرى يجلو فيها حقائق الإسلام كما هى فى أصلها الثابت من ظاهر النصوص وإجماع الصحابة .. وهو سعيد بتفرغه للعلم ، يكتب النثر الفنى والشعر ، و يناقش آراء أرسطو فى المنطق ، وفتاوى الفقهاء المقلدين .. وهو ينضج على نار التأملات ، والقراءات الجادة المتصلة منهجه فى الفقه ... وهو مستغرق مستوعب فى العلم .. إذ بالسياسة تفرض نفسها عليه مرة أخرى ، وتقتحم بابه فى عنف ، وتنتزعه انتزاعا من تأملاته وقراءاته وكتاباته ومناظراته ..

كان قد سئم السياسة فتركها ، وظل يرقب بألم مايضيق به صدره ولا ينطلق به لسانه : تناحر الأمراء على السلطة ، وفتك بعضهم ببعض ، وهم خلال هذا الصراع قد وطأوا أكناف قرطبة وهامتها لسنابك خيل الفرنجة «فلحق بيوتات قرطبة معرة فى نسائهم وأبنائهم .»

إنه متعب من السياسة وأهل السياسة ... متعب من الأصدقاء ... متعب من الحياة .. متعب من كل شيء .. ولاراحة له إلا فى العلم والكتابة .. !

فقد رأى فيما رأى : هشام المؤيد الأموى الذى استوزر أباه ، يعزل ، ثم يختفى ، ثم يظهر ، ثم يتولى الأمر ..

لكم فجع ابن حزم فى هشام هذا بعد أن تعود احترامه وأشرب حبه منذ الصغر ! . ذلك أن المؤيد هذا ، تولى الخلافة من جديد وأصبح أمير المؤمنين ، فناوأه أمير آخر من بنى عمومته ، وزحف بجنده ، فاستنصر هشام بالفرنجة وعرض أن ينزل لهم عن قشتالة . ! .. ونصره الفرنجة بهذا الثمن ، ولكن مناوئه غلبه على قرطبة وأسقطه ، ثم قتله ... واستعان هو الآخر بالفرنجة ليوطد أركان ملكه !

لكم هو مزرى كل هذا .. !

غير أن السنوات تمر ، والانقلابات تستمر ، وتتوالى التغيرات فلا يستطيع العقل أن يلاحقها .. وهاهو ذا يستقر فى قرطبة من جديد ، ولكن تحت حكم العلويين من آل حمود الذين أسقطوا حكم الأمويين .

وتمضى الحياة وهو سعيد بنشاطه العلمى وهمومه الفكرية ..

هدأ ابن حزم عن السياسة ، ولكن أهل قرطبة لم يهدأوا .. فثاروا على حاكمهم العلوى واختاروا واحدا من بنى أمية ليولوه الخلافة مكان الخليفة العلوى .. وهو حفيد آخر للخليفة العظيم عبد الرحمن الناصر .. صاحب قرطبة فى زمن البطولات والشموخ . !

كان ابن حزم قد بلغ الثانية والثلاثين من العمر ، وحين رأى إصرار أهل قرطبة على تولية حفيد آخر لرجل العصر الذهبى عبد الرحمن الناصر ، أنضم إليهم ، فما كان بوسعه أن يسكت . !!

مرة أخرى تغزو قلبه الأشواق إلى بناء الأندلس من جديد واستعادة الأيام الرائعة الغابرة .. فترك تأملاته وكتبه ومناظراته وقلمه وإنضم للثائرين ! ..

وعزل أهل قرطبة الخليفة العلوى ، وولوا مكانه عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار حفيد الناصر . ولم يكد يتولى حتى عين ابن حزم وزيرا له .

ولكن الخليفة الجديد لم يكن يملك من المواهب شيئا و ولم تكن له ميزة تؤهله لأن يكون أمير المؤمنين .. إلا أنه حفيد عبد الرحمن الناصر ! كان شابا فى نحو الثانية والعشرين ، غريرا ، ساقط الهمة ، سيطرت عليه النساء وأهل الدسائس ... وكان الى ذلك طائشا يأخذ بالظن ، مزهوا بشبابه وثرائه ، مفتونا بالسلطة .. فلم يكد يستقر على عرش قرطبة ، حتى شك فى جماعة من الذين حملوه إلى العرش وهم من أهل المشورة والرأى والحكمة فى الأندلس ، وكافأهم على مابذلوه من أجله بعزلهم وإقصائهم وإلقاء بعضهم فى غيابات السجون ، واتهمهم بالتآمر عليه ليولوا مكانه أمويا آخر وأظهر بدلا منهم عددا من الرقعاء وأهل الشذوذ وأصحاب السمعة السيئة ! !

ولم ينتصح بنصيحة أحد ، فقد أقنعته شكوكه وأقنعته بطانته أن كل من يعارضه يريد أن يسقطه ، و يوالي عليه أحد أبناء عمومته من الأمويين وثارت قرطبة من جديد وأخرجت قادتها من السجن عنوة ، وزحف الثائرون على قصر الخليفة فانتزعوه منه وقتلوه .. ولم يكن قد مر على ولايته أكثر من شهرين .. !

وداست أقدام الثائرين ابن حزم وزير الخليفة المخلوع .. واتهموه بأنه سكت على المظالم ، فألقوا به فى السجن ولبث فى السجن عدة أشهر.

ثم راجع الثوار أنفسهم وفحصوا أعمال ابن حزم خلال ولاية الخليفة المقتول ، فلم يثبتوا على ابن حزم الموافقة على الفساد أو المظالم ، وثبت لهم أنه كان عاجزا .. كان وزيرا لايؤخذ برأيه ، ولقد حاول أن يعتزل ، ولكنه خاف طغيان الخليفة .. فقضى الشهرين وزيرا يتحمل الوزر بلا غنم ..

خرج ابن حزم من السجن وفى عزمه ألا يتعاطى السياسة أبدا وأن يهب عمره كله للكتابة .. وعاد إلى العمل .. يقرأ و يكتب و يناظر..

ولكنه لم يكد يتفرغ لعمله أربع سنوات حتى ظهر رجل آخر أموى اسمه هشام من أحفاد عبد الرحمن الناصر

هشام آخر!! وهو مرة أخرى من أحفاد الخليفة الذهبى العظيم ! ! .. ماأكثر ماتسخر الحياة بابن حزم الباحث عن الهدوء !

مرة أخرى يترك القلم والورق والمناظرة و ينضم إلى الثوار!

ونظر هشام المعتد بالله بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر فيمن حوله من الرجال ، فاختار ابن حزم وزيرا .

ولكن الخليفة الجديد كان هو الآخر مخيبا للظنون ، فلم يحقق شيئا مما عقده الناس عليه من آمال ، وشغله الصراع مع بنى عمومته والأمراء الآخرين ، وازدادت الدولة ضعفا ، وصح فيها قول كبير الفرنجة أيام الفتح الإسلامى : لا تقاوموا الفاتحين فهم يتحركون بروح الفداء و يزحفون بالحرص على الإستشهاد وطمعا فى نعيم الآخرة ، و بإيمان جائح يستطيع أن يقتحم كل الصعاب ..ولكن انتظروا حتى يشغلوا بالمال والسلطة ، و يتنازعوا على الحكم ، وحينئذ يستطيع الفرنجة أن يستردوا الأندلس .

وفى الحق أن العرب حين نزلوا أرض الأندلس ، بعزم ، وجسارة قلب ، وإرادة لا تقهر ، اجتاحوا الأندلس بمثل طاقات المد ، فهى لا تتوقف ولايقاومها أحد بعد . وكانوا قد أحرقوا السفن من ورائهم ، فما إلى فرار من سبيل ، ولا محيص .. فإما الشهادة أو النصر !

ولكن نبوءة كبير الفرنجة تحققت ، فتدهورت الأمور وتمزقت الدولة حتى أصبحت حراب الفرنجة تسند عرش أمير المؤمنين . !

على أن قرطبة ثارت على أمير المؤمنين هشام المعتد بالله ، وأسقطته وأسقطت معه الدولة الأموية كلها ، فلم تقم قائمة لها إلى الأبد .. وتولى بدلا من الأمويين ملوك الطوائف .. وقسموا إمارات الأندلس فيما بينهم ، واختفى الخليفة المخلوع فى أحد الثغور حتى مات بعد ست سنوات من خلعه .

أما ابن حزم ، فلم يبق وزيرا حتى سقط الحكم الأموى ، بل اعتزل المنصب حين تأكد له أنه لن يستطيع أن يحقق شيئا للدولة مما عاش يحلم به ، إذ استيقن أن حفيد عبد الرحمن الناصر هزيل لا رجاء فيه

ماضعف ابن حزم أمام السياسة ، وماحقق من خلالها شيئا ينفع الناس ! ؟

لقد وجدها أداة فاسدة للتعبير، فليبحث إذن عن أداة أصلح !

ووجد فى الكتابة التعبيرعن أشواقه فى أصلاح أمور الأمة ، والنهوض بأحوال المسلمين ، وعزاء للقلب المعذب . وأنه ليشعر فى أغوارنفسه أن جهاده بالفكر والقلم كالجهاد فى سبيل الله بالسيف والمال ..

ولكن فى أى أرض يختارمعركته . !..؟

لم يشأ أن يحيا فى قرطبة تحت ظلال حكم ملوك الطوائف .. ، فتركها وطاف بالأندلس ، يجمع من حوله طلاب العلم فيلقى عليهم الدروس و يناظرهم ، و يفرغ لنفسه يقرأ و يتأمل و يكتب .

****

كانت له ضياع فى أكثرمن مكان فى ريف الأندلس ، فكان يقيم فى المدن القريبة من هذه الضياع ، ثم يطوف بالعاملين فى الأرض يتأمل أحوالهم ..

وهاله ماهم فيه من شقاء .. ! وإنهم ليدفعون إيجارا باهظا للأرض ، ولايكادون مايكفيهم للعيش بعد أداء الأجرة للملاك ! ! .. والملاك يحصلون على هذه الأموال الطائلة و يبنون القصور و يقتنون الجوارى الحسان و يعيشون حياة فارغة من البطالة واللهو.. !

وفكر ابن حزم فى القاعدة الشرعية التى يقوم عليها هذا النظام ، وعاد يقرأ النصوص فى القرآن والسنة من جديد ، وتتبع الآثار وأخبار الصحابة ، حتى انتهى به النظرإلى أن نظام الإيجار فى الأرض الزراعية حرام ، فقد جرت السنة على المزارعة : يأخذ المالك نصف الإيراد أو ثلثيه أو ثلاثة أرباعه أو أقل من ذلك والباقى يحصل عليه الزارع .. هكذا فعل الرسول «ص» بأهل خيبر.. إذ زارعهم مناصفة .

وأعلن هذا الرأى فقامت عليه القيامة .. وأسرع كبار الملاك إلى الفقهاء يلتمسون منهم دفع البلاء الذى سينجم عن رأى ابن حزم . . . .

وأجمع الفقهاء على أن ابن حزم يحرف فى الدين ، فهويبتدع رأيا يخالف به كل الأئمة أصحاب المذاهب : مالك بن أنس ، وابو حنيفة النعمان ، والشافعى ، وأحمد بن حنبل ، بل انه ليخالف ماجرى عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان .. ثم إنه يناقض حتى شيخه الفقيه الذى

نقل عنه استنباط الأحكام من ظاهر النص أو الإجماع وهو داود الأصبهانى ، إمام أهل الظاهر الذى أخذ عنه ابن حزم كل الأصول والفروع فى الفقه .

لقد أتى ابن حزم أذن بما لم يقل به الأوائل .. وأنها لكبيرة أراد بها إثارة الفتنة بين الزراع وأصحاب المزارع ... فما ينبغى للحكام أن يتركوه يحدث من البدع أكثر مما أحدث .. !

واتهم ابن حزم مخالفيه بالجهل وقال أن فقيها عظيما هو إمام أهل مصر الليث بن سعد قد نادى بهذا الرأى منذ أكثر من قرنين ، وكانت له ضياع كثيرة ، لم يؤجرها منذ اهتدى إلى هذا الرأى ، بل كان ينتفع بها بالمزارعة ، وكان يجعل معظم مايحصل عليه فى صرر ويجلس أيام الحصاد أمام باب داره فى الفسطاط بجوار جامع عمرو ، فيوزع الصرر على الفقراء والمساكين وذوى القربى كل واحد صرة أو أكثر من الصرر و يرسل بعضها خفية إلى أصحاب الحاجات من أهل العلم . : معلمين وطلاب .. !

ولم يتهم أحد من الفقهاء الإمام الليث بأنه يثير الفتنة ، وحين عارضه بعض فقهاء عصره ممن يعيشون فى ظروف إجتماعية مختلفة قال : « نحن أهل مصر والنوبة أدرى بأحوالنا من سوانا » !

لم يشغب أحد على الإمام الليث لأنه رأى قصر استثمار الأرض الزراعية على المزارعة ، ولذلك لم يتوقف كثيرا ليدافع عن رأيه وليطنب فى تقليله وتسبيبه ! .. وكان كل مالقيه الإمام الليث من خصومه فيما بعد ، هو إهمال آثاره ومؤلفاته ثم طمسها بعد موته ، حتى لقد تحسر الإمام الشافعى على ضياع هذه الآثار النفيسة ، فوقف على قبر الليث و بكى .. ثم قال : « إنه أفقه من مالك ، ولكن أهل مصر أضاعوه وتلاميذه لم يقوموا به ! !

فما بال فقهاء عصر ابن حزم يتهمونه بالزيغ ، و بالبدعة .. ؟ ! وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار .. !

إنه ليخرج على مذاهب الأئمة الأربعة الكبار ، و بصفة خاصة مذهب الإمام مالك الذى جرى على أحكامه القضاء فى المغرب والأندلس ، ومذهب الإمام أبى حنيفة الذى جرى عليه القضاء فى المشرق ، فهما قطبان تدور عليهما الشريعة والفتيا ، .. وهذه كبيرة عند المقلدين ! !

واستنفر هذا الإتهام ابن حزم إلا أنه يخالف مذهب مالك ومذهب أبى حنيفة مبتدع من أهل النار ! ؟

ورد على متهميه بهجوم عنيف على متبعى المذهبين ، قبل أن يبدأ فى توضيح رأيه فى المزارعة والإجارة ...

قال . إنه يفتى من السنة ، فالمزارعة هى عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو لم يؤجر أرض خيبر حين فتحها الله عليه ، وإنما تركها مزارعة بالنصف لزراعها ، وكانوا هم يهود خيبر، ثم مضى يقول : « فالمتبع هو القرآن والسنة لاقول أبى حنيفة ولاقول مالك لأنه لم يأمرنا قط بأتباعها . فتبعهما مخالف لله تعالى . وإن كانت فتياهما مخالفة للنص فلا يحل لأحد أتباع ماخالف نص القرآن والسنة . وهكذا نقول فى كل مفت بعد رسول الله .. قال معاوية لابن عباس : (أنت على ملة ابن عمك على ، قال : لا . ولا على ملة عثمان . أنا على ملة النبى صلى الله عليه وسلم) .... وقالت الخوارج لعمر بن عبد العزيز: (نريد أن تسير فينا بسيرة عمر بن الخطاب . فقال عمر بن عبد العزيز:) (قاتلهم الله ، والله ماأردت دون رسول الله إماما) .... فإن توهموا بكثرة أتباع حنيفة ومالك وولاية أصحابهما القضاء فالكثرة لاحجة فيها و يكفى من هذا قول الله تعالى وإن تطع أهل الأرض يضلوك عن سبيل الله ، وقال : (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ماهم) . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن هذا الدين بدأ غريبا وسيعود غريبا . فطوبى للغرباء) . وأنذر عليه السلام بدروس العلم (أى اضمحلاله) وظهور الجهل (أى تفوقه) ...

ثم يضيف ابن حزم ساخرا : « فلعمرى لئن كان العلم ماهم عليه من حفظ رأى أبى حنيفة ومالك والشافعى فما كان العلم قط أكثر مما هو منه الآن ، وهيهات ! »

ثم يستطرد ابن حزم « ..... ولكن الحق والصدق هو ماأنذر به رسول الله . والذى درس هو أتباع القرآن والسنن فهذا هو الذى قل بلا شك وأصحابه هم الغرباء القليلون جعلنا الله منهم ، ولا عدا بنا منهم ..... وأما ولايتهم القضاء فهذى أخزى وأندم ، وماعناية جورة الأمراء وظلمة الوزراء خلة محمودة ، ولاخصلة مرغوب فيها فى الآخرة . وأولئك القضاه وقد عرفناهم إنما ولاهم الطغاة العتاة من بنى العباس (فى الشرق) و بنى مروان (فى الغرب) بالعنايات والتزلف إليهم عند دروس الخير وأنتشار البلاء ، وعودة الخلافة ملكا عضوضا ، وابتزازا للأمة .. فهؤلاء القضاه هم مثل من ولاهم من المبطلين سنن الإسلام المحيين لسنن الجور والمكر « وأنواع من الربا والرشوة » ، وأنواع الظلم وحل عرا الإسلام . وقد علمنا أحوال أولئك القضاة الذين يأخذون دينهم عنهم ، وكيف كانوا فى مشاهدة إظهار البدع من المحنة فى القرآن بالسيف والسياط والسجن والقيد والنفى (يشير إلى محنة خلق القرآن التى جلد وعذب فيها الإمام أحمد بن حنبل) ...... فمثل هؤلاء لايتكثر بهم ، وإنما كان أصل ذلك تغلب أبى يوسف (تلميذ أبى حنيفة) على هارون الرشيد (فى بغداد) وتغلب يحيى (من أتباع مالك) على عبد الرحمن بن الحكم (فى قرطبة) فلم يقلد القضاء شرقا وغربا إلا من أشار به هذان الرجلان . والناس حراص على الدنيا ، فتتلمذ لهما الجمهور لا تدينا ، ولكن طلبا للدنيا » .

ثم يمضى فى دحضه آراء المتمسكين بالمذاهب فيقول : « ونحن فى غنى فائض ولله الحمد عن هذا

التكلف ، وفى مناديح رحبة (جمع مندوحة) عن هذا التعسف ، بنصوص القرآن والسنة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا سبيل إلى وجود شرع لم ينص على حكمه » .

وقال عن خصومه أنهم أحد رجلين : إما رجل لايعلم السنة فهو جاهل ، أو رجل علمها ، وتركها إلى أقوال الأئمة أصحاب المذاهب فهو يخالف أوامر الله ورسوله . وكلا الرجلين فاسد الرأى ساقط الفتيا » ولايحق له أصلا أن ينتحل العلم أو الفقه » .

و يسوق ابن حزم بعد هذا حجته الدامغة من السنة بأسانيدها الصحاح الثابته :

- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من كانت له أرض فليزرعها ، أو ليمنحها ، فإن أبى فليمسك أرضه .
- عن نقل متواتر موجب للعلم المتيقن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن كراء الأرض . وعن نقل آخر متواتر إنه نهى عن أن يؤخذ للأرض أجرة .
- من النقل المتواتر: « أعطى النبى صلى الله عليه وسلم خيبر اليهود على أن يعملوها و يزرعوها . ولهم شطر مايخرج منها » وشطر مايخرج منها أى نصفه . و يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه دفع إلى يهود خيبر نخل خيبر وأرضها ، على أن يعملوها من أموالهم ولرسول الله صلى الله عليه وسلم نصف ثمرها ، و يروى أنه لما ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم على خيبر أراد إجلاء اليهود عنها فسألوه أن يقرهم بها على أن يكفوه عملها ولهم نصف الثمرة فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نقركم بها على ذلك ماشئنا » . فقروا بها حتى أجلاهم عمر بن الخطاب . .

ولم يسكت مخالفوه من الفقهاء والعلماء فردوا عليه الإتهام بالجهل ومخالفة الله ورسوله ، واتهموه بقصور الفهم ، إذ لم يفهم أن صلى الله عليه وسلم حرم إجارة الأرض بحكم خاص لايجوز تعميمه ، لأنه كان بشأن واقعة معينة ، وهذا هو عين مافهمه أصحاب المذاهب من الأئمة الكبار. فقد اقتتل رجلان على إجارة أرض زراعية فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « إذا كان هذا شأنكم فلا تكروا المزارع » أى لا تؤجروها فهو لم ينه عن المبدأ نفسه ، ولكنه نهى عن الإجارة إذا أفضت إلى نزاع يتقاتل فيه مسلمان ، فرد عليهم أن هذا يمكن أن ينطبق على المزارعة أيضا ، فقد يؤدى النزاع فيها إلى اقتتال مسلمين ! . . ولكنهم أيدوا رأيهم فى إباحة الإجارة بما قاله سعد بن أبى وقاص : « أرخص رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كراء الأرض بالذهب والورق » .

ولكن ابن حزم رد قولهم عليهم ، بالطعن فى قوة السند الذى روى الحديث الوارد فى واقعة الإقتتال ، والخبر المنقول عن سعد بن أبي وقاص ، وذهب إلى أنه حتى لو صح الأثران ، فما يجوز

العدول عن السنة الثابته إلى خبر يرو يه صحابى واحد يكن خطر شأنه . ! واتهمهم بأنهم بإباحة الأجر إنما يظلمون الزراع ويحابون الملاك ! لأن يؤدى التزامه و يسلم المالك الأجرة المتفق عليها كاملة ، مهما يقل الإنتاج ، أو حتى إن لم تنتج الأرض أصلا . وهذا هو الظلم بعينه ، « وما ربك بظلام للعبيد » .

واستخلص النتيجة فى حسم : « لاتجوز إجارة الأراضى أصلا لا للحرث فيها ولا للغرس فيها ولا للبناء فيها ولا شيء من الأشياء أصلا ، لا لمدة مسماة قصيرة ولا طويلة ، ولابغير مدة مسماة ، لابدنانير ولابدراهم ، ولابشيء أصلا ، فتى وقع فسخ أبدا ، ولايجوز فى الأرض إلا المزارعة بجزء مسمى مما يخرج منها . أو المغارسة كذلك فقط ، فإن كان فيها بناء أقل أو أكثر جاز إستئجار ذلك البناء وتكون الأرض تبعا لذلك البناء غير داخلة فى الإجارة أصلا .. ثم يكرر» لايجوز كراء الأرض بشيء أصلا لابدنانير ولابدراهم ولابعرض ولابطعام مسمى ولابشيء أصلا » .... فهو يعتبر إجارة الأرض بأى مقابل حراما » ... و يضيف «ولايحل فى زرع الأرض الا أحد ثلاثة أوجه : إما أن يزرعها المرء بآلته وأعوانه و بذره وحيوانه ، وإما أن يبيح لغيره زرعها ولا يأخذ منها شيئا ، فإن أشتركا فى الآلة والحيوان والأعوان دون أن يأخذ من الأرض كراء فحسن ، وأما أن يعطى أرضه لمن يزرعها ببذره وحيوانه وأعوانه وآلته بجزء و يكون لصاحب الأرض مما يخرج الله تعالى مسمى إما النصف أو الثلث أو الربع ، ونحو ذلك ، أكثر أو أقل . ولايشترط على صاحب الأرض شيء من كل ذلك . و يكون الباقى للزارع قل ماأصاب أو كثر. فإن لم يصب شيئا فلا شيء له ولا شيء عليه . فهذه الوجوه جائزة . فمن أبى فليمسك أرضه » .. ثم يقول أن عقد المزارعة ليس له أجل « لأنه لم يوجبه نص ولا إجماع فهو شرط ليس فى كتاب الله تعالى فهو باطل بحكم النبى صلى الله عليه وسلم ... وليس لأحد أن يوجب ولا يحلل إلا بنص ومن تعدى ذلك فقد تعدى حدود الله تعالى وشرع من الدين مالم يأذن به الله . قال الله تعالى : « أم للانسان ماتمنى ... » .

أما إجازته التعاقد فى المزارعة على مادون النصف على خلاف فعل الرسول فهو ليس خروجا على السنة أو قياسا عليها .. و يقول « إن حكم سائر الأجزاء كحكم النصف فإذا كان النصف حلالا ، فسائر الأجزاء حلال ، وهذا برهان ضرورى متيقن لايجوز خلافه .. فإن المتعاقدين على النصف قد تعاقدا على مادون النصف بدخول ذلك النصف » .

وجرى فى المساقاة على رأيه فى المزارعة . فأفتى بإن إيجار الماء لسقى الزرع لايجوز. ولايجوز شراؤه للوضوء أو الشرب .

لم يقتنع بهذه الآراء أحد من الفقهاء أو كبار ملاك الأرض الزراعية ، ولكنها بهرت شباب العصر المخلصين ، المتطلعين إلى العدل ، فألتفوا حوله أينما اتجه ..

وحماه تجمعهم حوله ، من فتك بعض أعدائه به .. فقد كادوا له عند أمراء الولايات التى طاف أو يطوف بها ، وحرض عليه كبار الملاك والفقهاء المخالفون ، ولكنهم لم يستطيعوا أن ينالوا منه ، فقد وجد الحماية فى حصن حصين من إعجاب الشباب والزراع والفلاحين به ، والتفافهم من حوله فى جولاته بريف الأندلس .. وخشى الأمراء أن يبطشوا به ، فتنفجر الثورة عليهم .. ولكنهم ضايقوه وضيقوا عليه ، فأخذوا يقتطعون من أملاكه ، و يصادرون بعض أراضيه ، حتى اضطر الى الرحيل عن الأندلس كله ، بعد أن طاف بمعظم ريفه ومدنه والجزر التابعة له . إلى حاضرة أخرى من حواضر الفقه والفكر يشد الرحال و يركب البحر..

الى القيروان ، حيث تسربت كتب نادرة من خزائن قرطبة بعد نهبها ، وحيث يعيش عدد من فقهاء الأندلس ممن هاجروا فى الأرض بعد فساد الأمر فى الأندلس ، و بعد أن طفا الزبد ، وذهب ماينفع الناس . !

وفى القيروان التقى بكثير من العلماء والفقهاء والمفكرين من أهل المغرب ، و بقصادها من علماء المشرق .

وهناك استمع الى الفقهاء وناظرهم وناظروه و وجلس إليه طلاب العلم .

ولكنه لم ينس قرطبة ولا الأندلس ، ففى قلبه حنين متوقد ! وإن نفسه لتتمزق حسرات .. !

كتب إلى صديق له بالأندلس : «أنت تعلم أن ذهنى منقلب ، و بالى مضطرب بما نحن فيه من نبو الديار، والجلاء عن الأوطان ، وتغير الزمان ، ونكبات السلطان ، وفساد الأحوال ، وتبدل الأيام ، وذهاب الوفر، والخروج عن الطارف والتالد ، واقتطاع مكاسب الآباء والأجداد ، والغربة فى البلاد ، وذهاب المال والجاه ، والفكر فى صيانة الأهل والولد ، واليأس من الرجوع الى موضع الأهل ، ومدافعة الدهر ، وانتظار الأقدار، لاجعلنا الله من الشاكين إلا إليه ، وأعادنا إلى أفضل ماعودنا . وأن الذى أبقى لأكثر مما أخذ ، والذى ترك أعظم مما تحيف ، ومواهبه المحيطة بنا ، ونعمه التى غمرتنا لاتحد ولايؤدى شكرها ، والكل منحه وعطاياه ، ولاحكم لنا فى أنفسنا ونحن منه وإليه منقلبنا ، وكل عارية راجعة الى معيرها وله الحمد أولا وآخرا » .

ولقد حاول أمير القيروان أن يصله ببعض الهدايا والمال ، تقديرا له ولكن ابن حزم رفض ، وكان يرفض عطايا الأمراء بعد بنى أمية ، ثم إنه على الرغم مما فقده لم يكن فى حاجة ، وأنه ليشعر بعد فى أغوار نفسه أنه فوق الأمراء والوزراء لأنه كاتب وفقيه ومفكر.

ولم يكن ابن حزم يأبى على غيره أن يقبل الهدايا من السلطان ، وكان يعجب لمن يتعففون عنها

بشبهة أن الحرام داخلها بغضب أو نحوه ، وهم فى ذات الوقت يسكتون عن المحرمات التى يقترفها الأمراء كالغضب والفساد والإفساد ومالى ذلك ؟ . .

كان يهزأ بهم و يزرى عليهم إذ ينأون بأنفسهم عن الشبهات ، وهم يستبيحون المحرمات . و يغرقون فيها إلى الأذقان ! . . وشبههم بالذين سألوا عبد الله بن عمر عن المحرم فى الحج أو العمرة أيحل له أن يقتل حشرات الفراش ؟ فسألهم ابن عمر: «من أنتم ؟ » فقالوا من «الكوفة» فقال لهم «قاتلكم الله . تسألون عن هذا وأنتم قتلتم الحسين بن على رضى الله عنهما ! ؟

استقر ابن حزم فى المغرب سنوات ، لم ينقطع فيها عن القراءة والكتابة ، على الرغم من أنه كان ينفق وقتا طويلا فى مناظرة الفقهاء والجلوس فى الحلقات ليتلقى عنه طلاب العلم فى إعجاب به شديد فى القيروان وغيرها من مدن المغرب .

وعلى الرغم من بعده عن الأندلس لم يهدأ عنه مخالفوه من الفقهاء هناك ، اذا استمر على منهجه من نبذ المذاهب الأربعة ، ومهاجمة أتباعها ومقلدى الأئمة الكبار، وازداد عنفا على مخالفيه ، واشتد فى وجوب الاعتماد على النصوص وحدها ، وهاجم الذين يعتمدون على الرأى إن لم يوجد نص

وقادته حماسته للمنهج الظاهرى ورفضه للقياس وللاجتهاد بالرأى إلى الوقوع فى التناقض .

ذلك أنه كان يرى أن الحكم إذا لم يوجد فى النص أو فى إجماع الصحابة فهو على استصحاب الحال . . أى على الاباحة لأن الله تعالى قال : «وخلق لكم مافى الأرض جميعا» فكل مافى الأرض مباح لبنى آدم ، الا ماحرمه الله تعالى بنص فى القرآن أو بالسنة النبوية . وتفهم النصوص بظاهرها ولكل انسان حق فهمها . .

التزم ابن حزم هذا المنهج التزاما صارما شجع به غير أولى العلم على الفتيا ، فتجاسر بعضهم على الشريعة ، وأشتطوا فى ذلك ، فخالفوا بسوء فهم نصوص القرآن والسنة وأجماع الصحابة ، على نقيض ماأراد ابن حزم .

ثم ان ابن حزم نفسه فى رفضه القياس وأدوات الرأى الأخرى لاستنباط الأحكام فيما لم يرد به نص ولم ينعقد عليه إجماع . . ابن حزم فى منهجه هذا وقع فى غرائب . !

ذلك ان الفقهاء الآخرين عللوا الأحكام وفهموا أسبابها ، فألحقوا الوقائع الجديدة فى الحكم عليها ، بما أوردته النصوص ، اذا اتحدت العلة وتماثلت الحالات . . أما ابن حزم فهو يرى أن الشريعة غير معللة ولامسببة إلا بنفسها ، وإلا إذا وردت العلل والأسباب فى نصوصها .

ومن الغرائب التى وقع فيها :

أجمع الفقهاء على نجاسة الخنزير ولعابه قياسا على نجاسة لعاب الكلب ، ولكنه خالفهم جميعا لأن النص لم يرد على الخنزير، ولاحرام ولا حلال إلا بنص ، فسؤر الخنزير إذن طاهر

وبول الإنسان ينجس الماء لأنه حكم بنص ، وقياس الكلب والخنزير وسائر الحيوان خطأ .. فبولها لاينجس الماء لأنه لانص ولاإجماع . !

— وأباح لغير المتوضئ بل وللجنب والحائض والنفساء مس المصحف والقراءة فيه . وهو فى هذا كله يأخذ بآراء شيخ أهل الظاهر داود الأصبهانى الذى قال أنه لانص يمنع هؤلاء من القراءة فى المصحف

— واعتبر العمرة فرضا كالحج ، وركنا من أركان الإسلام لقوله تعالى : « وأتموا الحج والعمرة لله »

— وقال أن الزواج واجب وفرض شرعى على كل من هو قادر على النفقه والعدل مع زوجه ، وذلك بنص الحديث الشريف : « من استطاع منكم الباءة فليتزوج »

وهو فى كل ما يأخذ ومايدع من أمور الدين لايقبل مخالفة و يقسو على معارضيه و يتهمهم بالجهل ، وقلة الدين ، وارتكاب الأخطاء الشنيعة . » !

وكان هذا الأسلوب فى الجدل يوغر الصدور.

وقد وصفه بعض أصدقائه : « أوتى العلم كله ، ولكنه لم يؤت سياسة العلم » .

و بدأ الذين ناظرهم فى القيروان والمغرب يضيقون به .. فلم تعد الحفاوة كما ألفها فى أول سنوات قدومه . !!

ثم إنه لقى صديقا عزيزا قادما من الأندلس ، ولابن حزم سبق فضل عليه ، ولكن الصديق نسى الفضل السابق وتجافى المودة ابن حزم . وحز هذا فى نفسه و أدرك أن الحملة عليه من فقهاء الأندلس مع تغير الحال به ، وغضب أمراء الأندلس عليه . كل ذلك أفسد عليه بعض المودات والقلوب ، حتى قلب مثل هذا الصديق . !

ورأى ابن حزم أن يكشف للمسلمين حقيقة مهاجيه من فقهاء الأندلس عسى أن يبطل تأثيرهم

علـى الآخـر ين فكتب. : « ..... قد يحمل أسم التقدم فى الفقه فى بلد ماعند العامة من لاخير فيه ، ومـن لا عـلـم عنده ، ومن غيره أعلم منه . وقد شهدنا نحن قوما فساقا حملوا اسم التقدم فى بلدنا وهم ممن لايحـل لهـم أن يـفتوا فى مسألة من الديانة ولايجوز قبول شهادتهم . وقد رأيت أنا بعضهم ، وكان لايقدم عـليه فى وقتنا هذا أحد فى الفتيا وهو يتغطى بالديباج الذى هو الحرير المحض لحافا ، و يتخذ فى منزله الـصـور ذوات الأرواح مـن الـنحاس والحديد تقذف الماء أمامه ، و يفتى بالهوى للصديق ، وعلى العدو فتيا ضدها ، ولايستحى من انحراف فتاو ية على قدر ميله الى من أفتى وانحرافه عليه . شاهدنا هذا نحن منه عيانا ، وعليه جمهور أهل البلد ، إلى قبائح مستفيضة ، لانستجيز ذكرها لأننا لم نشاهدها » ....

ثم يـوجه حـديـثه إلى الناس كافة فيطالبهم من جديد بالإجتهاد لإستنباط الأحكام من النصوص ، فهذا خير من التقليد « والمجتهد المخطئ خير من المقلد المصيب . فهو فى تقليده عاص لله عز وجل لأنه فعل أمرا قد نهاه الله عنه وحرمه عليه .. وكل من عمل عملا بخلاف الله تعالى فهو باطل ... والمجتهد المخطئ أعـظـم أجـرا مـن المـقـلـد المـصـيب وأفضل ، لأن المقلد المصيب آثم بتقليده غير مأجور بإصابته ، والمجتهد المخطئ مـأجور باجتهاده غير آثم بخطئه . فأجر متيقن وسلامة مضمونة أضمن من أجر محروم وإثم متيقن بلا شك .

وبهـذا أغـضـب فـقـهـاء الأنـدلـس جميعا فكلهم مقلد للإمام مالك ، ثم أنه ليتهمهم بالفسق والجهل ومخالفة الشر يعة فى حياتهم الخاصة و باقتراف المنكر والتزو ير فى فتاويهم .

وأغـضب معهم فقهاء القيروان والمغرب كله لأنهم هم أيضا مقلدون للإمام مالك ... ومامنهم مجتهد واحد مخطئ أو مصيب !

واستـعـرت الـحـمـلة عليه فى الأندلس ، واتهمه فقهاؤها بالقذف فى المحصنين والمحصنات ، وطالبوا أمراءهم بإقامة الحد عليه .

ونـبابه المغرب العربى ، واضطربت تحته أرض القيروان التى اطمأن عليها سنوات ، وزادت الجفوة بينه و بين فقهائها ..

ولـكـن كـيـف الـعـودة ؟ وهـم هنالك يتربصون . به و يترقبون عودته ، وهنا فى القيروان والمغرب أيضا أصبحوا من المتربصين !

واعـتـزل الحـيـاة والـنـاس ، والـكـتـابة فى الفقه ، وانكب على قراءة اليونانيات والمعارف الأخرى وعـاودتـه طبيعة التحدى فرفض منطق أرسطو! ولكن أبن حزم لم يحكم الحجة لاضطراب نفسه وقلقه مما

يعانى .. وأتاح لمنافسيه أن يسخروا به لأنه يطاول أرسطو بغير دليل مقنع !

وخلال قراءاته المتنوعة فى المعارف الإنسانية قرأ أن جالينوس يفضل اللغة اليونانية على غيرها من اللغات و يقول أن سائر اللغات إنما تشبه إما نباح الكلاب أو نقيق الضفادع .

ووقف ابن حزم عند رأى آخر يذهب الى أن العربية هى « أفضل اللغات لأنه نزل بها كلامه تعالى » .

كتب ابن حزم يناقش أصحاب هذه الآراء : « وقد توهم قوم فى لغتهم أنها أفضل اللغات وهذا لامعنى له لأن وجوه الفضل إنما هى بعمل أو اختصاص ولا عمل للغة ، ولاجاء نص في تفضيل لغة على لغة ، وقد قال تعالى : (وماأرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) « وقال تعالى » (فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون) فأخبر تعالى أنه لم ينزل القرآن بلغة العرب إلا ليفهم ذلك قومه عليه السلام لالغير ذلك ... ثم قال عن دعوى جالينوس أن لغة اليونان أفضل اللغات « وهذا جهل شديد لأن كل سامع لغة غير لغته ولايفهمها فهى عنده فى النصاب الذى ذكره جالينوس » .. أى اما نباح كلاب أو نقيق ضفادع .. ثم استطرد : « ان الله قد كلم موسى عليه السلام بالعبرانية (وهى لغة موسى وقومه) ونزل الصحف على إبراهيم عليه الصلاه بالسريانية ، فتساوت اللغات فى هذا تساو يا واحدا . أما لغة أهل الجنة وأهل النار فلا علم عندنا إلا ماجاء فى النص والإجماع ولا نص ولا إجماع فى ذلك . إلا أنه لابد من لغة يتكلمون بها ضرورة .... وقد أدعى البعض أن اللغة العربية هى لغة أهل الجنة ، وإحتج بقول الله عز وجل (وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) .. فقلت له : قل إنها لغة أهل النار لقوله تعالى عنهم أنهم قالوا : سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص . ولأنهم قالوا : ان أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله . ولأنهم قالوا : لو كنا نسمع أو نعقل ماكنا من أصحاب السعير . ثم يستطرد : « ... وقد أدى هذا الوسواس الباطل باليهود الى أن استجازوا الكذب والحلف على الباطل بغير العبرانية وادعوا أن الملائكة الذين يرفعون الأعمال لايفهمون إلا العبرانية ، فلا يكتبون عليهم غيرها .. وفى هذا من السخف ماترى . وعالم الخفيات ومافى الضمائر عالم بكل لسان ومعانيه . عز وجل لا اله الا هو وهو حسبنا ونعم الوكيل » .

وخلال اعتكافه فى القيروان كتب رسالة فى أسماء الله الحسنى ، وخرج بها على فقهاء القيروان والمغرب ، فأبدوا إعجابهم بها ، وعجب سائر العلماء لابن حزم هذا : لحدة طبعه وعنفه ، ولعمق فكره ، وجمال أسلوبه وانفجار علمه وتدفقه .. وكرر أحدهم ماقاله صديق لأبن حزم من قبل « هذا الرجل أوتى العلم كله » ، ولكنه لم يؤت سياسة العلم فهو يصك مخالفيه صك الجندل للوجه . »

ورضى هو عن زوال الجفوة بينه و بين علماء القيروان والمغرب .

وأستبد به الإصرار على التفرغ للكتابة فى الفقه والأصول والأدب . ولهو يفكر فى أى مسائل الفقه والأصول يبدأ ، إذ برسالة تأتيه من صديق فى الأندلس ، فهى رسالة أسعدته حقا .. فهذا الصديق مرشح لمنصب أمير على إحدى مدائن الأندلس ، وهو يطلب من ابن حزم أن يكف عن الكتابة فى الفقه والأصول حتى تهدأ الثورة عنه فى الأندلس ، وحتى يرتب له أمر عودة كريمة هادئة فى المدينة التى سيصبح أميرها .. واقترح الصديق على أبن حزم أن يكتب رسالة عن النساء والرجال والحب .. !

فليكتب عن العشاق فهذا أروح لنفسه ، وهو بلا ريب صارف عنه غضب الأمراء وتربص الفقهاء وكيد كبار الملاك فى الأندلس .

أخذ ينتقل بحرية فى مدن المغرب العربى ، و يستحضر ذكرياته ومامر به من تجارب ، وماحفظ من أخبار.

ثم عكف يكتب رسالته عن الرجال والنساء والحب وسماها « طوق الحمامة فى الألفة والألاف » . وهى ، رسالة عن أحوال المحبين وعلامات الحب ومايعرض فيه من وصل وهجر، واقتراف للمعصية ، وتعفف عنها ..

على أن ابن حزم لم ينس فى أول كتابه « طوق الحمامة » مايصنعه به مخالفوه من الفقهاء والعلماء فقال عنهم « وأساءوا العبث فى وجهى ، وقذفونى بأنى أعضد الباطل بحجتى ، عجزا منهم عن مقاومة ماأوردته من نصر الحق وأهله ، وحسدا لى » .

ولقد حذر ابن حزم فى صدر كتابه طوق الحمامة ، أن يظن أحد به ظن السوء ، فيأثم بهذا الظن .. وبعض الظن إثم .. ثم يشكر لصديقه وده الصحيح . « وأنا لك على أضعافه » ويحمد له مشاركته إياه فى الحلو والمر والسر والجهر و يستشهد بأبيات له :

أود ودا ليس فيه غضاضة	وبعض مودات الرجال سراب
ومالى غير الود منك إرادة	ولا فى سواه لى إليك خطاب
إذا حزته فالأرض جمعاء والورى	هباء ، وسكان البلاد ذباب

ثم يقول : وكلفتنى أعزك الله أن أصنف لك رسالة فى صفة الحب ، ومعانيه ، وأسبابه وأعراضه ، ومايقع فيه وله على سبيل الحقيقة ، لامتزيدا ولا مفننا ، ولكن موردا لما يحضرنى على وجهه وبحسب وقوعه ، حيث انتهى حفظى وسعة باعى فيما أذكره ..... والأولى بنا مع قصر أعمارنا إلا نصرفها الا فيما نرجو به رحب المنقلب وحسن المآب غدا . ثم يستطرد كأنه يعتذر عما سيورد من أخبار العشاق فيذكر

ماجاءت به الآثار: « أجموا النفوس بشيء من الباطل ليكون عونا لها على الحق » وأجموا النفوس أى أحلوها على الاستجمام .

و« من لم يحسن يتفتى لم يحسن بتقوى » . و يتفنى يكون فتى فى مرحه ..

و« أريحوا النفوس فإنها تصدأ كما يصدأ الحديد » .

ثم مضى يقول. : إنه يكتب عما شاهده وعاينه وماحدثه به الثقات من أهل زمانه خلال تجربة طويلة عرف فيها الحياة وعرف الناس .

و بكتابة « طوق الحمامة فى الألفة والألاف « وأسلوبه الذى يعتبر من أرقى أساليب النثر الفنى صح أن يطلق عليه « أديب الفقهاء » .

ومن عجب أن ابن حزم فى كتابته عن خلجات النفس ، لم يقف عند الظاهر كما ألزم نفسه فى الفقه والأصول بظاهر النص ، بل تعمق النفس البشرية ، وزاوج بين الإسلام والفلسفة اليونانية ، وأدرك خفايا الصبوات والنزعات .

ومن عجب ان ابن حزم أيضا أنه وهو الإمام الفقيه الذى يتربص به الفقهاء من مخالفيه ، قد كتب عن الحب والمحبين بعبارات لم يتحرج فيها من شىء ، ولم يتحر تغطية الألفاظ التى ينبغى أن تعطى .

والأخبار التى رواها فى « طوق الحمامة » مما شاهد وعاين أو سمع مع ثقات ، تصور الحياة الإجتماعية فى الأندلس ، أصدق التصوير، وأعذبه أيضا !

وكثير مما كتبه ابن حزم فى طوق الحمامة لايمكن إعادة نشره الآن بعباراته وألفاظه العارية ، فقد ينبو بها ذوق العصر، و ينكرها الحياء العام ، وحسن الآداب فى هذا الزمان !

وفى طوق الحمامة فوق هذا رصد لبعض الوقائع الهامة فى تاريخ الأندلس ، وهى وقائع عاش فى غمارها . ابن حزم .. والكتاب ينتهى بمواعظ تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر، وتبين فضل الطاعة وقبح المعصية ..

غير أن مايسترعى النظر فى هذا الكتاب هو هذه الحياة الغريبة التى كان يحياها الأثرياء من أهل الأندلس .. حتى لتكتب نساء الملوك والأمراء أشعار غزل فيمن يعشقن ولا يجدن إليهم سبيلا ، وويل يومئذ للمعشوق إن عرفه أهل العاشقة !!

ومن عجائب الحب فى ذلك العصر أن بعض قواد الجيوش بذلوا حياتهم لافى ميادين المعارك مستشهدين ، ولكن فى مخادع نساء فروا إليهن بعد الهزيمة ، فأكتشفهم العدو المنتصر فقتلهم وسبا النساء !!

وكتاب طوق الحمامة ظاهرة فريدة فى تاريخ الأدب ، فما كتب أحد من فقهاء أو علماء الأسلام كتابا أو فصلا أو مقالا فى الحب بمثل هذه الروعة أو الصراحة ، ولابمثل هذا العمق فى تحليل النفس .

وقد أراد ابن حزم أن يقول فى هذا الكتاب أن علاقات الرجال بالنساء علاقات إنسانية ، وضرورة من ضرورات الطبيعية ، وفطرة ، فما ينبغى أن يحجم العلماء والفقهاء عن تناولها ، وإنما عليهم أن يبصروا بها الرجال والنساء ، ومايحل لهم أو يحرم عليهم من هذه العلاقة ... وهو يكرر القول أن الجد لايصح إلا بشىء من المرح ، فيجب ألا يعزف أحد عن المرح ، فالمرح هو الذى يقوى النفس على مواجهة جد الأمور ، وليس ثقل الظل من الدين فى شىء ، وقد كان الرسول يمزح ، وكذلك الأمام على بن أبى طالب رضى الله عنه .

و بدأ ابن حزم رسالته طوق الحمامة بالكلام فى ماهية الحب بقوله : « الحب ــ أعزك الله ــ أوله هزل وآخره جد ، دقت معانيه لجلالتها عن أن توصف ، فلا تدرك حقيقتها الا بالمعاناة . وليس بمنكر فى الديانة ولا محظورا فى الشريعة ، إذ القلوب بيد الله عز وجل « ، وقد أحب من الخلفاء المهديين والأئمة الراشدين كثير» وذكر بعض أسماء الخلفاء العشاق فى الأندلس ... واستطرد : « ولولا أن حقوقهم على المسلمين واجبة ــ وإنما يجب أن نذكر من أخبارهم مافيه الحزم واحياء الدين ، وإنما هو شىء كانوا ينفردون به فى قصورهم مع عيالهم ، فلا ينبغى الأخبار به عنهم ــ لأوردت من أخبارهم فى هذا الشأن غير قليل . [ولكنه تحدث عن حب الصالحين ، ومنهم أحد فقهاء المدينة السبعة .] وذكر أن المحبة ضروب فأفضلها المتحابين فى الله عز وجل ، ثم محبة القرابة ، ومحبة الألفة ، ومحبة التصاحب والمعرفة ، ومحبة البر ، ومحبة العشق الصحيح الممكن من النفس التى لافناء له إلا بالموت : « وإنك لتجد الانسان السالى برغمه وذا السن المتناهية ، إذا ذكرته تذكر وارتاح وصبا ، واعتاده الطرب واهتاج له الحنين » .

وعرف محبة العشق بأنها « استحسان روحانى وامتزاج نفسانى ... وإنك لاتجد اثنين يتحابان إلا و بينهما مشاكله ، واتفاق فى الصفات الطبيعية ، وكلما كثرت الأشباه ، زادت المجانسة وتأكدت المودة . وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤكده : (الأرواح جنود مجندة ماتعارف منها ائتلف وماتنافر منها اختلف) وقول مروى عن أحد الصالحين : (أرواح المؤمنين تتعارف) . ولهذا اغتم بقراط حين وصف له رجل من أهل النقصان يحبه فقيل له فى ذلك فقال : « ماأحبنى الا وقد وافقته فى بعض أخلاقه » . ويمضى فى الحديث عن « العلة التى توقع الحب » فيقول : « الظاهر أن النفس حسنة تولع بكل شىء حسن وتميل إليه ، وتميل إلى التصاو ير المتقنة ... فإن ميزت وراءها شيئا اتصلت

وصحت المحبة الحقيقية . وان لم تميز وراءها شيئا من أشكالها لم يتجاوز حبها الصورة وذلك هو الشهوة » .

ثم يمضي في رسالته فيرسم ظاهر المجتمع الأندلسي وأعماقه ، و يعلل تعلق الإنسان بشكل معين فيروى عن نفسه أنه أحب شقراء في صباه فظل يحب الشقراوات وهكذا كان أبوه ، وعلى هذا سار الخلفاء والكبراء في الأندلس .

و يكتب عن حب الفقهاء ، ومافيه من طرائف ... ثم يصور ألوانا من الفحشاء يستعيذ بالله من شيوعها في قصور الكبراء والأثرياء ، وفي الخمائل المتناثرة بالمدن الكبرى في الأندلس .

وكأن شيئا لم يكن يشغل الفئة الإجتماعية التي تحرك في إطارها ابن حزم إلا العشق والعلاقات الشاذة ! .

وهو فيما يروى من أخبار يؤكد عدم ثقته بالنساء ، يسوق خبرا عن امرأة « حجت خمس مرات وهي من المتعبدات المجتهدات . « قالت : « ياابن أخي لاتحسن الظن بامرأة قط فإني أخبرك عن نفسي بما يعلم الله عز وجل : ركبت البحر منصرفة من الحج وقد رفضت الدنيا وأنا خامسة خمس نسوة ، كلهن حججن ، وصرنا في مركب في بحر القلزم (البحر الأحمر) وفي بعض ملاحي السفينة رجل مضمر الخلق ، مديد القامة ، واسع الأكتاف ، حسن التركيب ، فرأيته في أول ليلة أتى إلى إحدى صواحبي ف .... (وذكرت نوعا فاحشا من الغزل) .... فأمكنته في الوقت من نفسها .. ثم مر عليهن كلهن في ليالي متتاليات ... فلم يبق له غيري ، فقلت في نفسي : (لأنتقمن منك .) فأخذت موسى وأمسكتها بيدي فأتى في الليل على جاري عادته فرأى الموسى ، فارتاع وقام لينهض ... فأشفقت عليه وقلت له وقد أمسكته : (..أو اخذ نصيبي منك) .. وتنهي المتعبدة المجتهدة خبرها بإعتراف ثم بقولها « ...وأستغفر الله » .. والكلمات والعبارات المكشوفة التي روى بها ابن حزم الخبر، إذ لايمكن نقلها !

و يعلل ابن حزم مظاهر الفساد التي غشت المجتمع الأندلسي . باختلاط الرجال والنساء بلا قيود ، وإظهار النساء زينتهن وهن يعرضن للرجال ، وفراغ بال النساء ، فلا شيء يشغل المرأة الغنية في الأندلس على الإطلاق .. حتى أعمال المنزل كن لايقمن بها فلديهن الجواري أوالخصيان !

ويحمل على خروج النساء وحدهن بلا زوج أو محرم ، والتقاؤهن بالرجال في المتنزهات ، وقال إن هذا الأختلاط بلا رقابة هو ذريعة الفساد وانتشار الفحشاء .. وساق خبرا عن فتاة حجازية حملت من أحد ذوي قرباها ، فلما سئلت في ذلك قالت : « قرب الوساد وطول السواد . » أي طول الليل .

وهو إذ يسوق أخبار الفحشاء في رسالته يستخلص منها العبرة ، و يسوق النصيحة الى الرجال

القوامين على النساء ، أن يسدوا أمامهن ذرائع المعصية . من البطالة وحضور مجالس السمر والأنفراد بالرجال . و يقول فى ذلك إن المرأة الصالحة إذا سدت أمامها ذرائع الفساد ظلت على صلاحها ، أما الفاسدة فإذا سدت أمامها الذرائع تحايلت عليها لتمارس الفساد . !

وقد روى ابن حزم طرائف عن وسائل الاتصال بين المحبين ، منها تبادل خصلات الشعر ، واستعمال الحمام فى نقل رسائل تحت الأجنحة !

وعلى الرغم من صور الفساد التى رسمها ، فقد صور مظاهر العفة أيضا : كيف تصون فتاة نفسها على الرغم من الإغراء ، وكيف يعف فتى تراوده امرأة ذات جاه وجمال وسلطة ونفوذ ، ستؤذيه إن لم يطاوعها فيما تر يد منه .. !

وهو يروى ماشاهده من طرائف المحبين فقد شاهد فتاة فى أحد المتنزهات تتبع فتى وتطارده وهو لايكلمها ... حتى إذا غاب عنها انكفأت تقبل مواقع قدميه ، والأرض التى مشى عليها ...!

و يسوق غرائب عن صور الشذوذ ! من ذلك أن رجلا كان صالحا فأضله الشيطان فمال إلى فتى من طلاب العلم مليح الوجه ، وترك الرجل المسجد الذى كان يعلم فيه إلى المسجد الذى كان يتلقى فيه الفتى العلم . « وكان الفتى يغضب و يضجر و يقوم إليه فيوجعه ضربا ، و يلطم خديه وعينيه ، فيسر الرجل بذلك و يقول : (هذا والله أقصى أمنيتى والآن قرت عينى » .

ولم يكن ابن حزم قليل الثقة فى السافرات المتبرجات المختلطات وحدهن ، بل أعلن فى رسالته سوء ظنه بالنساء كافة حتى المحجبات العابدات المصونات ! ! فيقول : وكم داهية دهت الحجب المصونة ، والأستار الكثيفة والمقاصير المحروسة .. ولولا أن أنبه عليها لذكرتها .. «ولكنه تحدث عمن يعشن فى المقاصير المحروسة .. عن مغامرات بعض أمهات الخلفاء وماقال عشاقهن من شعر فيهن ، وما أصاب عشاقهن من نكبات .. ! !

وفى أكثر من موضع من رسالة « طوق الحمامة » يصف الأسمار ، ومجالس الأنس فى الأندلس ، ومتنزهاتها ، ومايحدث فيها .. فهذا فتى وفتاة « اجتمعا فى مكان على طوب » .. وآخرون « يضطجعان أمام الناس ، و بينهما المسند العظيم من المساند الموضوعة عند ظهور الرؤساء على الفرش ، و يلتقى رأساهما وراء المسند يقبل كل واحد منهما صاحبه ولا يريان ، وكأنهما يتمددان من الكلل « وفتى وفتاة خرجا فى نزهة مع الكبار من أهلهما ، فأمطرت السماء فبللت الجميع ، فألقى إليهما أحد الكبار بغطاء التفا به وجمعها ، ليتقيا المطر متلاصقين تحت الغطاء ..

وكانت كل هذه المرائى وغيرها من ألوان المعاصى التى جهربها الناس تثير سخط أبن حزم ، وتستدعى همته لمقاومة الفساد بدءا بما شاهده فى قصور العلية حيث كانت تضطرب حياته ، إلى المتنزهات العامة حيث يتعاطى سائر الناس فنون العشق الحرام !

وأنهى ابن حزم رسالته بإعلان سخطه على صور الفساد التى ساقها ، والتى ذكر أسماء بعض أبطالها وكتم البعض ، وعلى صور أخرى أشار إليها ولم يكتب عنها لشدة فحشها كما يقول !

وفى آخر الرسالة كتب فصلا عن جزاء أهل الفساد وماينتظرهم فى الآخرة ، ومايجب أن يعاقبوا به فى الدنيا من نفى وجلد ورجم حتى الموت ، وتحريق بيوتهم وأجسادهم . ودعا الناس إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.. وهذا هو واجب المسلم ، فإن لم ينهض به أثم . !

على أن هذا الوعظ كله لم يشفع لابن حزم ، فقد هاجمه كثير من الفقهاء عندما ظهر كتابه « طوق الحمامة فى الألفة والألاف » واتهموه أنه يحرض الشباب على المنكرات وعلى الفجور، وأنه بما ساق من أخبار يرسم لهم و يسهل عليهم اقتراف المنكرات ! (واتهموه بأنه يهدر هيبة الفقهاء بما ذكر عن صور فسق بعضهم .. وهم أفراد منبوذون لم يعد أحد يسلكهم فى زمرة الفقهاء .

لقد كتب عن فسق من كان عليه مدار الفتيا فى قرطبة . أى مفتيها الأكبر.. وهو فقيه أسقطه فسقه وتبرأ منه الفقهاء والطلاب ، وما ذكر ابن حزم ماكان من هذا الفقيه وأمثاله ، إلا تشهيرا بالفقهاء كافة ، وتحريضا للعامة على إهانتهم والازدراء بهم !! .

لم يكن الفقهاء المنحدرون من أصول عربية هم وحدهم الذين سخطوا على كتابه طوق الحمامة ، بل أنكره البربر أيضا .. ذلك أنه قال عنهم : « فى بلاد البربر التى تجاور أندلسنا يتعهد الفاسق على أنه إذا قضى وطره بمن أراد ، أن يتوب إلى الله ، فلا يمنع من ذلك . و ينكرون على من تعرض له بكلمة (ليمنعه من المعصية) و يقولون له أتحرم رجلا مسلما من التوبة ؟! لم يتقبل البربر هذه السخرية منهم ، وكانوا يحكمون بعض إمارات الأندلس ، ومنهم قواد لعسكر إمارات أخرى ، فتوعدوا ابن حزم ..

مابـاله ومابال قومه من عرب و بربر ممن يعيشون فى الأندلس ؟! إن هو كتب فى الفقه كفروه ، فإن كتب فى الحب ارجفوا عليه وشهروا به وتوعدوه !! فما عساه يكتب بعد ؟ وإذن فليترك الحديث على الرجال والنساء ، والحب ، والفقه ، والأصول ! فليكتب فى السياسة ، وفى التاريخ ...

ونشر رأيه فى الخلافة بعيدا عن شبهات الكتابة فى الحب وأحواله والفقه وأصوله .

اشترط أن يكون الخليفة قرشيا ، ورجلا ، وعاقلا ، وعالما بشئون الحكم ، وصالحا ، لكى تصح له

الخلافة أو الإمامة .. وقرر أن الخلافة ليست وراثية : « لاخلاف بين أحد من المسلمين فى أنه لايجوز التوارث فيها .. ولا فى أنها لاتجوز لمن لم يبلغ .. ولاخلاف بين أحد فى أنها لاتجوز لامرأة » .

أما طريقة تولى الخلافة فهى أحد طرائق ثلاث : إما أن يعهد الإمام قبل وفاته إلى واحد يختاره إماما من بعده ، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وكما فعل أبو بكر... فتتم البيعة على الخليفة المختار.

وأما أن يعهد الخليفة الحى لرجال ثقات ، أن يختاروا من بينهم واحدا ، ثم تتم عليه البيعة ، كما فعل عمر ، إذ عهد إلى ستة من الصحابة ، مات الرسول صلى الله عليه وسلم وهو راض عنهم ، لينتخبوا من بينهم رجلا .

وأما أن يتقدم رجل صالح كفء ، يرى نفسه أهلا للخلافة ، فيدعو إلى نفسه ، و يبايعه الناس ، فيجب اتباعه ومن يخرج عليه فهو من أهل البغى .. كما قام على بن أبى طالب فدعا لنفسه و بايعه الناس ، فوجب اتباعه ..

وعلى أية حال فيجب ألا يبقى المسلمون أكثر من ليلتين بلا إمام . بهذا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولا تصح الخلافة إلا بالبيعة الحرة .

وتناول ابن حزم موقف على ومعاوية ... ثم أقدار الصحابة من الخلفاء الراشدين ، والمفاضلة بينهم . وحسب رأيه كان يجب على معاوية أتباع على ، وعدم اتباعه بغى عليه ، فمعاوية ومن معه إذن من أهل البغى .. !

ولكن إبن حزم لم يدن معاوية بالبغى على الإمام على كما قضى بذلك الأئمة الذين تعرضوا لهذا الأمر من قبل ، فاتخذوا أحكام البغاة من سلوك على مع معاوية وجنده ، واعتبروا على بن أبى طالب ، أول من ابتلى بأهل البغى ، فما صنعه معهم أحكام يجب اتباعها شرعا ... بهذا أفتى الإمام الشافعى والإمام أحمد بن حنبل ومن تابعهم .

لم يدن ابن حزم معاوية ! ذلك أنه أموى بالولاء كما قلنا ، متعصب لهذا الانتماء .. وهو مع ذلك لم يؤيده فى الخروج ورفض البيعة للإمام على

وفى رأى ابن حزم أن واقعة الجمل التى حارب فيها معاوية عليا ، لم تكن حربا حقا ، فلم يجتمع معاوية ومؤيدوه للحرب ، بل أجتمعوا للتشاور. وكان الجند كثيفا فى معسكر على ومعسكر معاوية .. وتجادل الجند ، فاشتبكوا دون أن يريدوا اقتتالا .. !

أما أهل صفين فقد أرادوا القتال حقا . وابن حزم لايعفيهم من البغى ، ولايدينهم به ، وإنما يترك أمرهم إلى الله تعالى . !

و يقوم أبن حزم مكانة على بين الخلفاء الراشدين ، فيجعله آخرهم مكانة .

و يتحدث عن أهل البيت الذين وردت فيهم الآية فيستثنى منهم على بن أبى طالب ، و يفسر الآية بأنها تعنى نساء النبى ، و يفضل عليهن عائشة .. يفضلها عن خديجة وفاطمة الزهراء رضى الله عنهن جميعا . و يذهب إلى أن عائشة هى سيدة نساء أهل الجنة ..

ولم يكد ابن حزم ينشر هذه الآراء حتى زلزلت الأرض من تحته زلزالا عنيفا .. ذلك أن أبناء فاطمة كانوا قد أسسوا دولة إسلامية ضخمة ، لتعيد الإسلام إلى عصوره الزاهرة ، وهى دولة أسمها الدولة الفاطمية ، أسسها الفاطميون فى المغرب ، ثم زحفوا إلى مصر فلكوها ، وأنشأوا مدينة القاهرة ، والأزهر الذى عمر منذ إنشائه بالشيوخ والطلاب ، وأرتفعت منارات القاهرة تضىء لما حولها ، بعد أن خبت مناثر بغداد وقرطبة .. وأصبح الأزهر بجهد علمائه وشيوخه وطلابه قلعة الإسلام فى احياء السنة ، ومحاربة البدع ، ونشر علوم الدين واللغة وآدابها ، وسائر المعارف الإنسانية ، وتفجر منه علم غزير، عم الدنيا ، وتوهجت فيه شعلة الفكر تحرق اسمال الهمود والتخلف ، وتنير أطباق الظلمات المتراكمات ، وتملأ العقول بوهج خالد من الإيمان والثقافة ، وأصبح حصنا للدين واللغة والمعرفة .

إن الذين يحبون و يشايعون على بن أبى طالب و بنيه قد أصبحوا ، يقودون مصر والمغرب العربى والأندلس ، وكثيرا من أقطار الإسلام ! ثم أن الشيعة وأهل السنة على السواء لايقبلون ما قاله ابن حزم عن الإمام والباغين عليه ، وعن الطاهرة خديجة ، وفاطمة الزهراء التى قامت دولة بأسرها تنتسب إليها .. والأندلسيون بصفة خاصة لم يعودوا يحملون للأمويين ، ماحملوه من تقدير وحب ، أيام الخلفاء العظام ، بل لقد شيعوا الأمويين باللعنات ، حين سقطت دولتهم ، لكثرة ماعانوا من مظالم فى نهايتها ، وماعاينوا من فساد ، ولأن الأمراء الأمويين فى أواخر عهد الدولة الأموية ، خرجوا عن تقاليد السلف الصالح بالأندلس ، وأهدروا الإسلام وأسقطوا هيبة الخلافة ، وانشغلوا بالترف ، والصراع ، واللهو.. ومنهم من أذل العلماء وأهل الفكر والفقه ، ليسود الندامى والجوارى والغلمان ، ومنهم من نزل لأمراء الفرنجة عن بعض أرض المسلمين ، ودفع لهم الجزية ، واستعانهم على بنى عمومته .. وتركهم يجوسون خلال الديار ينتهكون و يغتصبون و يقتلون ! !

ولئن كان من الناس من سكت عن ابن حزم حين أفتى بما خالف كل أصحاب المذاهب من الأئمة السابقين ، وحين شوه بعض الفقهاء والعلماء وأدانهم بالفسق ، وذكر عنهم أخبار مهينة .. لئن كان من الناس من سكت عن ابن حزم وهو يصنع هذا كله واكتفى بمجافاته والغضب منه ، ان الناس

الآن لا يستطيعون السكوت بعد ، وهو يناصب على بن أبى طالب العداء .. !

ثار عليه الناس جميعا ، واتهموه بأنه « ناصبى » قد ناصب على بن أبى طالب وفاطمة الزهراء العداء ! فلا مقام له بينهم فى القيروان والمغرب كله بعد ، فما من أحد يستطيع أن يلقاه بغير الإنكار له . !!

أما فى الأندلس فهم ينتظرونه لينزلوا به العقاب .. عسى أن يشفى العقاب صدور قوم موغرين ! .

وهكذا وجد نفسه قد ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، فلا هو يستطيع البقاء فى المغرب كله ، ولا هو يجسر على العودة إلى الأندلس . !!

غير أن صديقه الذى كان مرشحا لتولى إمارة إحدى الأمارات ، قد أصبح اليوم أميرا على « ميورقة » إحدى جزر الأندلس ..

ودعا صديقه ليقيم فى الجزيرة الجميلة الهادئة . وكان الأمير الجديد ذا مكانة فى الدولة ، فوعد ابن حزم بالحماية ... وشرط عليه ألا يشتغل بالسياسة ، وألا يكتب مايثير الناس. ، وأن يتفرغ للكتابة فى الدين ... فهو مهما تكن مشاكل الكتابة فيه ، أقل هما من الكتابة فى السياسة

إن هذا هو مايريده ابن حزم على التحقيق : السكينة ، والملجأ الأمين ، فى مكان هادئ جديد ، بجوار صديق كريم ، والعودة إلى الكتابة فى الفقه والأصول

لقد أنضجته التجارب والمحن والقراءات والتأملات .. وآن له أن يصوغ منهجه وآراءه الفقهية المتناثرة فى مجلدات متكاملة .

وسافر إلى « ميورقة » ليقيم فى أطيب حال ، فى ظل ظليل من حماية أميرها ومودته .. وكان الأمير قد أعد قصرا فاخرا لابن حزم ، ووهب له بعض الجوارى الشقراوات . فهو يعرف ذوقه . وخزانة كتب جمع فيها كل مايطيب لفقيه أديب كابن حزم ...

وكما يعتكف العابد فى المحراب ، اعتكف ابن حزم فى داره ، لايخرج منها إلا لحظات لصلاة الجمعة ، أو للسمر مع صديقه الأمير ، فيدارسه فيما أهتدى إليه من آراء وأفكار.

لقد خرج ابن حزم من كل مامر به بعبرة جعلها دستورا لما تبقى من حياته : « ليس فى العالم منذ كان إلى أن يتناهى ، أحد يستحسن الهم ، ولايريد إلا طرحه عن نفسه ، فلما استقر فى نفسى هذا العلم الرفيع ، وانكشف لى ذلك السر العجيب وأنار الله لفكرى هذا الكنز العظيم بحثت عن سبيل

موصلة على الحقيقة الى طرد الهم الذى هو المطلوب النفسى فلم أجدها إلا فى التوجه إلى الله عز وجل بالعمل للآخرة» .

علمته الأيام فى تداولها بين الناس أن «لذة العالم بعمله ، ولذة الحكيم بحكمته ، ولذة المجتهد لله عز وجل ، أعظم من كل لذة فى الحياة الدنيا .. وإذن فليمنح هو مابقى له من العمر للذات العليا : العلم والحكمة والاجتهاد لله .

وأنه ليعرف فيا عرف من العجائب «أن الفضائل مستحسنة مستثقلة ، والرذائل مستقبحة ومستحبة » .. فليكن إذن من النفر القلائل الذى يناضلون من أجل الفضائل مهما تكن مستثقلة لكم صقلته السنوات !

فها هو ذا ينصح من يلتمس عنده حسن النصيحة : «احرص على أن توصف بسلامة الجانب ، وتحفظ من أن توصف بالدهاء ، فيكثر المتحفظون منك حتى ربما أضر ذلك بك ، وربما قتلك » .. و يقدم نصيحة أخرى : «إياك ومخالفة الجليس ، ومعارضة أهل زمانك فيا لايضرك فى دنياك وأخراك وإن قل ، فإنك تستفيد بذلك الأذى والمنافرة والعداوة . وربما أدى ذلك إلى الضرر العظيم دون منفعة أصلا . وأن لم يكن لابد من إغضاب الناس أو إغضاب الله عز وجل ، ولم يكن مندوحة عن منافرة الخلق أو منافرة الخالق ، فأغضب الناس ونافرهم ولا تغضب ربك ولا تنافر الحق» .

واعتذر للناس كافة عن حدته فى الكتابة والجدل بمرض أصابه ولزمه ، فبدل خلقه من دعة إلى عنف : «لقد أصابتنى علة شديدة ولدت ربوا فى الطحال شديداً فولد ذلك على من الضجر ، وضيق الخلق ، وقلت الصبر ، والنزق .... واشتد عجبى من مفارقتى لطبعى . وصح عندى أن الطحال موضع الفرح وإذا فسد تولد ضده » .. ولكنه مع ذلك لم ينكر أن مصاولة المخالفين هى التى حفزته إلى كثرة القراءة وإمعان النظر ، وقدحت ذهنه ، فأندلعت منه الأفكار.

ماأعجب مامر به فى حياته المضطربة من أحوال الناس ! ...

وإنه فى تلك الجزيرة الهادئة من جزر الأندلس ، ليشعر بالطمأنينة ، والسكينة ، و بالراحة ، والأمن ، فى ظل جسارة صديق يتحدى الخطر .. إنه فى إعجابه العميق بمروءة صديقه هذا الذى يحميه و يكرمه متفضلا عليه لا رادا لجميل سابق أو لسالف عارفة .. انه فى مكانه هذا ليذكر صديقا آخر فى الزمن البعيد ، كان كاتبا ، ونمت بينهما المودة والمحبة وهما فى السنوات الخضر من أول العمر .. ما أبعد الفرق بين الصديقين .. !

كتب ابن حزم عن ذلك الصديق القديم : «كان متصلا بى ومنقطعا إلى أيام وزارة أبى رحمة الله

عليه ، ، فلما وقع بقرطبة ماوقع ، وتغيرت أحوالى ، خرج إلى بعض النواحى ، فأتصل بصاحبها وعرض جاهه . وحدثت له وجاهة وحالة حسنة . فحللت أنا تلك الناحية فى بعض رحلتى ، فلم يوفنى حقى ، بل ثقل عليه مكانى ، وأساء معاملتى وصحبتى . وكلفته فى خلال ذلك حاجة لم يقم فيها ولا قعد وأشتغل عنها بما ليس مثل شغله ... فما كلفته حاجة بعدها .. » .

مهما يكن من الصعاب التى مرت به ، فها هوذا الآن فى لين من العيش لاينقصه إلا أن يكتب ، و ينشغل بالعلم ، والحكمة ، والأجتهاد لله عزوجل ... وكل ماحوله من راحة ، ومتاع ، ودعة ، وطيب العيش ، وجمال الطبيعة ، وصباحة الوجوه ، ودفء المودة ... كل ماحوله يعينه على مايريد من تفرغ للكتابة ..

على أنه لم يلبث غيرقليل فى معتكفه الرائع . ذاك ، حتى أخرجه الناس منه ، ليتلقوا عنه ، وذهب إليه بعض العلماء ليناظروه .. لقد وجد فى ميورقة تلاميذ وأتباعا معجبين به على الرغم من كل مايثار حوله ... ولقد ناظره أحد الفقهاء يوما فلما ظهرعليه ابن حزم قال الفقيه : « تعذرنى ، فإن أكثر مطالعاتى كانت على شُرج الحراس » (جمع سراج) . فقال ابن حزم « وتعذرنى ، فإن أكثر مطالعاتى كانت على متابر الذهب والفضة » .

وامتدت عليه حماية صديقه أمير ميورقة إلى حيث أراد أن ينتقل من أرض الأندلس ، فذهب إلى بعض المدائن المجاورة يناظر و يعلم ، ثم ذهب إلى قرطبة نفسها ، فى موكب من الأتباع ، والدواب تحمل كتبه حيثما أنتقل .

وعاد الى ميورقة ليعتكف من جديد .. ولقد لقى أحد الفقهاء فى بعض رحلته ، فتناظرا أمام الناس ، وحين انتصر ابن حزم فى المناظرة قال له الفقيه : « أنا أعظم منك همة فى العلم ، لأنك إنما طلبته وأنت معان عليه فتسهر بمشكاه الذهب ، وطلبته وأنا أسهر بقنديل السوق » . فرد ابن حزم : « هذا الكلام عليك لالك ، لأنك إنما طلبت العلم وأنت فى هذه الحال رجاء تبديلها بمثل حالى ، وأنا طلبته فى حال ماتعلمه وماذكرته فلم أرج به إلا علو القدر فى الدنيا والآخرة . »

وعنى ابن حزم فى تلك الفترة بصقل آرائه وأفكاره وصياغتها فى الصورة التى سيتركها من بعده للتاريخ .

واتخذ لنفسه منهجا عقليا خالصا تأثرفيه بالإمام جعفرالصادق عل الرغم من انتمائه وولائه الأموى . فأعتمد كما اختط الأمام الصادق جعفربن محمد على الإستقراء والتجربة ، و بصفة خاصة فى دراسته عن الأخلاق التى ضمنها رسالة صغيرة عرفت باسم حكم ابن حزم أو مداواة النفوس . ولا

ريب أنه أفاد من تراث الفكر المصرى القديم ، والفكر الفارسى ، والهندى ، واليونانى ، وكانت كل تلك الآثار قد ترجمت إلى العربية منذ أجيال .. ولم يعتمد على إلمامه بالفكر الإنسانى فحسب ، بل على فهمه لأحوال المجتمعات التى عاش فيها ، وعلى تجاربه وحسن معرفته بالناس والحياة .

ومن هذا التجاريب والدراسات والمعارف استقرأ آراءه فى الأخلاق . فهويرى أن هدف النشاط الإنسانى هو دفع الهم والحصول على اللذة ، وهى عنده لذة الروح .

و يرى فى الفضيلة رأى أرسطو و يقول : « الفضيلة وسط بين الإفراط والتفريط ، وكلا الطرفين مذموم ، والفضيلة بينهما ... حاشا العقل ، فإنه لا إفراط فيه ..

وهو يرى رأيا قريبا من رأى أفلاطون فى أصول الفضائل وأصول الرذائل : « أصول الفضائل أربعة ، عنها تتركب كل فضيلة وهى العدل والفهم والنجدة والجود .

وأصول الرذائل كلها أربعة ، عنها تتركب كل رذيلة ، وهى أضداد الذى ذكرنا ، وهى الجور ، والجهل ، والجبن ، والشح . والعفة والأمانة نوعان من أنواع العدل والجود .

وأفلاطون يرى أن أصول الفضائل هي : المعرفة (وهى الفهم عند ابن حزم) ، والشجاعة (وهى النجدة عند ابن حزم) ، والعفة ، والعدل . وابن حزم يضع السخاء أو الجود مكان العفة . ذلك أنه يرى أن العفة التى جعلها أفلاطون أصلا من أصول الفضائل ، إنما تدخل فى العدل والجود .

وابن حزم يدعو العلماء والفقهاء إلى التفقه فى العلوم الإنسانية .. تأثرا بالإمام الصادق الذى مارس الكيمياء ، وأسس قواعدها ، وربى تلميذه جابر بن حيان على إتقان الكيمياء ، وأنشأ له معملا ، وظل يرعاه حتى ترك جابر بن حيان فى الكيمياء تراثا شارك فى صنع التقدم الإنسانى كله عبر العصور.

قال ابن حزم : « كشف العلوم النافعة يزيد العقل جودة و يعفيه من كل آفة ، ويهلك ذا العقل الضعيف » ..

وهو فى رسالته عن الأخلاق يضع ضوابط للخير والشر ، و ينتهى إلى أن الدين ضرورة للجماعات البشرية ، فهو الذى يحميها و ينشر فيها الثقة بين الأفراد و يعمها بالفضائل ، ويجمعها على الحب والخير والحق .

وهو لا يخص الإسلام وحده بذلك ، بل كل دين سماوى . قال : « ثق بالمتدين ولو كان على غير دينك . ولا تثق بالمستخف وإن أظهر أنه على دينك ومن استخف بمحرمات الله تعالى فلا تأمنه على شيء تشفق عليه » .

فهذا الفقيه الذى كان يتعصب لآرائه حتى ليصف نفسه بالنزق ، والذى اشتد على بعض اليهود والنصارى الذين هاجوا الإسلام ، وأخرجهم من ذمة الله ورسوله لتهجمهم على ماأوحى به الله إلى رسوله .. هذا الفقيه نفسه يطالب المسلمين ألا يثقوا بمسلم غير متدين ، وألا يأتمنوه على شىء ، و يدعوهم إلى الثقة بالمتدينين من اليهود والمسيحيين ، وإلى أئتمانهم على كل ماهو غال وعزيز على المسلمين . !

ذلك أنه يرى الدين أساس الفضيلة ، كل الديانات السماوية دعوة إلى الصدق ، والإخلاص ، والمحبة ، والكرم ، والمروءة ، وسائر الفضائل .. وأن كل دين سماوى إنما جاء مكملا لما قبله ، حتى بعث الله خاتم النبيين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم متمما لمكارم الأخلاق .. فالمتدين من اليهود والنصارى أدنى بها إلى مبادىء الإسلام وإلى الله تعالى من المسلم غير المتدين .. !

ومكارم الأخلاق التى جاء بها القرآن ، مصدقا لما بين أيديهم من التوراة والإنجيل ، يمكن التعرف عليها بالعقل . والمسلمون مأمورون بالتدبر ، والتفكر ، وإعمال العقول لمعرفة الخير والشر ، والفضائل والرذائل ... على هذا نص القرآن الكريم والسنة الشريفة . فإذا أعمل الناس عقولهم اهتدوا إلى سواء السبيل .. قال تعالى عن الضالين : « لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير» .

وإذن فوظيفة العقل عنده هو هداية صاحبه إلى الخير والفضائل . أما الذين يشحذون عقولهم لاجتلاب المنافع ، غير مبالين بالفضيلة ، فهؤلاء ليسوا هم أصحاب العقل ، بل هم أصحاب الدهاء ، فالعقل لايقود إلا إلى الحق ، والخير...

وهو نفسه قد آثر العلم على جميع اللذات ، وترك جمع المال إلى هموم العلم ، وكان قادرا لو أهتم بجمع المال على أن يكون من أغنى أغنياء عصره . ولكن تصاريف الزمان علمته أن المال ، واللذة الحسية ، وكل فنون المتاع إنما هى عرض زائل ، ولايبقى إلا الحكمة والعلم . « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا . » و يقول : « للعلم حصة فى كل فضيلة ، وللجهل حصة فى كل رذيلة .. » .

ورأى ابن حزم . أهل زمانه يستخفون بمن يصرف جهده عن الاستزادة من المال ، ليستزيد من العلم والحكمة فيقول فى هذا : « ترك المبالاة بكلام الناس والمبالاة بكلام الخالق عز وجل هو العقل كله ، والراحة كلها . من قرر أن يسلم من طعن الناس وعيبهم فهو مجنون . ومن حقق النظر وراضى نفسه على السكون إلى الحقائق وإن آلمته فى أول صدمة كان اغتباطه بذم الناس إياه أشد وأكثر من اغتباطه بمدحهم إياه . لأن مدحهم إن كان بحق و بلغه سرى فيه العجب ، فأفسد بذلك فضائله ، وإن كان بباطل فسره ، فقد صار مسرورا بالكذب . وهذا نقص شديد .. وأما ذم الناس فإن كان بحق فربما كان سببا فى تجنبه مايعاب عليه ، وهذا حظ عظيم لايزهد فيه إلا ناقص ، وإن كان بباطل فصبر،

اكتسب فضلا زائدا بالحلم والصبر. . . »

وهو يرى من حسن الأخلاق أن يثبت الإنسان على الفكرة والعمل ، مااقتنع بأنه على حق ، فإذا أكتشف أنه على الباطل ، فالثبات لجاج ، وهو مذموم . . .

ثم ينتهى ابن حزم فى حديثه عن الأخلاق إلى أن خير مايفعله المسلم ليستقيم له الخلق الفاضل ، هو التأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أمرنا الله بهذا : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر» ثم أن الله تعالى وصفة بقوله : « وإنك لعلى خلق عظيم » .

وقد قال عليه السلام : « جئت لأتمم مكارم الأخلاق أو كما قال . »

و يقول ابن حزم عن القواعد والضوابط التى وضعها للأخلاق ، إنه « أفاد فيها » مما منحنى الله تعالى من العلم بتصاريف الزمان ، والإشراف على أحواله ، حتى أنفقت فى ذلك أكثر عمرى ، وآثرت تقييد ذلك بالمطالعة له ، والفكرة فيه على جميع اللذات التى تميل إليها أكثر النفوس ، وعلى الأزدياد من فضول المال . »

يرى أبن حزم أن الإنسان عنده علم البديهة وهو علم النفس.... فالطفل يدرك بالبديهة أن الجزء أقل من الكل ، وأن المكان الواحد لايشغله جسمان فى وقت واحد . فهو يتنازع على المكان الذى يريد أن يقعد فيه ، علما منه بأن هذا المكان لايسعه مع غيره ، وهو يدرك أنه لايجتمع الأمران ، المتضادان ، فأنت إذا وقفته بغير إرادته بكى. ، حتى إذا تخلص عاد إلى القعود . وإذا كبر الطفل أدرك أن الأخبار عما هو غائب لايصح أن تتعارض ، فإذا تعارضت شك فى الجميع أو ألغاها .. وهكذا يعرف الإنسان أخبار الأنبياء ووقائع التاريخ ، فإذا كبر عقله أستطاع أن يعرف الصادق من المنقول عن الرسول (ص) ، و بذلك يتحقق أن علم العقل أساس لعلم النقل .. وابتعاد الخبر مدعاة لخطأ ، كالأعداد فى الحساب كلما كثرت الأعداد زادت مظنة الخطأ فى أجزاء العمليات والمعادلات الحسابية والجبرية عليها .

و يضيف أن هذا ليس هو سبب الخطأ فقط ، بل أن هناك عوامل أخرى تفسد النقل وهى الشهوة والإنحياز. على أن العقل يظل قادرا على التمييز أبدا .

وهو يؤمن بكل ماجاءت به النصوص ، معملا العقل فى تفسيرها بظاهرها . فإذا كانت النصوص قد أجمعت على أن الله هو خالق كل شيء ، فلا أحد يخلق فعلا من الأفعال ، وإلا كان شريكا لله تعالى فى الخلق ! ولكنه يناقش هذا النظر و يقول أن الأخذ به يسقط التكليف ، فلا حيلة للإنسان إذن والله يخلق أعماله ، ولا إرادة للإنسان ولا إختيار، ولكنه الجبر قطعا .

و يصحح هذا الفهم بقوله أن الله خلق فى العبد الاستطاعة والاختيار، فهو يختار مايفعله ومايستطيعه . و بذلك يكلف الله العباد ، ويحاسبهم على أعمالهم .

ثم يتحدث عن الاجتهاد بالرأى فيذهب إلى أنه ليس من الشريعة . لأن الله لم يفرط فى الكتاب من شيء ..

فلا مجال للرأى إذن لأن كل الأحكام واردة فى نصوص القرآن والسنة أو إجماع الصحابة ، فإن لم يوجد فيها الحكم فقد نص القرآن على إباحة مالم يحرمه الله ، فيكون الحكم فى كل واقعة حيث لانص هو الإباحة أو استصحاب الحال بحكم النص القرآنى : « وخلق لكم مافى الأرض جميعا » .

على هذه الأصول يستنبط كل الأحكام الخاصة بالعقيدة و بالمعاملات ، أى بالدين و بالشريعة ..

وهو فى القضايا الفكرية التى تتعلق بالعقيدة يمتحن النصوص والإجماع فيجد فيها إجابة عن كل سؤال .

فقد زعم الخوارج أن مرتكب الكبيرة كافر مآله إلى النار.

وقالت المعتزلة أنه فى منزلة بين المنزلتين فلا هو كافر ولا هو مؤمن .

وذهب بعض أهل السنة إلى أنه ليس مؤمنا ، ولكنه مسلم لم يخرج عن الإسلام إلى الكفر، بل خرج عن الإيمان إلى الفسوق .. و بئس الإسم الفسوق بعد الأيمان .

وذهب آخرون الى أن الحكم عليه يرجأ إلى يوم القيامة ، فإن شاء الله أخذه بالكبيرة وإن شاء عفا عنه ، وهؤلاء هم المرجئة .

أما ابن حزم فقد استنبط حكمه من النصوص ، وأفتى فى مرتكب الكبيرة بفتوى بعض أهل السنة :« فمن تاب بعد ارتكابه الكبيرة غفر الله له والله غفور رحيم» أما من قبل التوبة النصوح ، فإن رجحت حسناته سقطت كبائره لأن للحسنة عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف وإلى أكثر من ذلك أضعافا مضاعفة .. هذا هو نص القرآن الكريم .. فإذا استوت حسناته مع سيئاته فهو على الأعراف ينتظر الجنة ، (وعلى الأعراف رجال ينتظرون) ، ثم يدخلون الجنة آخر الأمر. أما إن زادت سيئاته على كبائره فإلى النار. غير مخلد فيها أبدا ، بل يخرج منها إلى الجنة بقدر ماتؤهله الحسنات .»

و يعرض ابن حزم لمشكلة أخرى كانت مثارة من قبل عصره ، وهى وحدانية ذات الله تعالى .. أله صفات منفصلة عن الذات ؟ أم أن أسماء الله الحسنى هى صفاته ، وكلها هى الذات الألهية . ؟!

قال ابن حزم : « وأما إطلاق لفظ الصفات لله عز وجل فمحال لايجوز، لأن الله لم ينص فى كلامه المنزل على لفظ الصفات وعلى لفظ الصفة . ولاحفظ عن النبى صلى الله عليه وسلم أن لله صفة أو صفات . نعم ولاجاء ذلك قط عن أحد الصحابة رضى الله عنهم ، ولاعن أحد من خيار التابعين . »

فهو يعتبر الألفاظ التى تدل على صفات إنما هى من أسماء الله تعالى ، مثل السميع البصير القادر القدير الحكيم العليم الرحمن الرحيم إلى غير ذلك من أسماء الله الحسنى . وهذا بنص الآية : « وله الأسماء الحسنى . . »

أما عن الألفاظ الموهمة للتشبيه مثل « وجه ربك » و « يد الله » فهو يطالب من يريد أن يفهمها أن يتدبر النص القرآنى فى لغته ، وأن يتعمق دراسة اللغة العربية ، فقد نزل القرآن بلسان عربى مبين .

ومن يدرك أسرار اللغة ، يفهم بالضرورة أن الله تعالى حين يتحدث عن وجهه و يده ، لم يرد عضوا بعينه فى الجسم المحسوس ، بل أراد الذات نفسها . فعندما تقول العرب « ماملكت يمينى مثلا » فالمعنى « ماملكت أنا » لاما ملكت يدى اليمنى دون يدى اليسرى .

وهكذا فسر قوله تعالى : « و يبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » أى يبقى ربك سبحانه فهو وحده الذى لايفنى . وفسر قوله تعالى : « يد الله فوق أيديهم » بقوله : « الله فوق أيديهم » . وفسر : « بل يداه مبسوطتان ينفق كيف شاء » بقوله : « الله ينفق كيف يشاء » .

ومن فهم غير ذلك فليعد دراسة أساليب العرب وآدابهم ليعرف أن للإلفاظ فى اللغة العربية دلالات مجازية ، وهى من دلالات ظواهر الألفاظ .

إلى هذا أنتهى أبن حزم فى الخلاف الذى ظل مشتجرا حول الأسماء والصفات ، وأتهم كل من لم يوافقه ، بأنه لايعرف أساليب العرب ، ولاأسرار اللغة التى نزل بها القرآن ، ونصحه بأن يصنع ماصنع الليث بن سعد والشافعى : أن يخرج إلى بادية نجد أو الحجاز ليتقن اللغة ، وأن يحفظ أشعار القدامى و بصفة خاصة شعر الهذليين .

فأسماء الله ليس فيها ماأسماه القرآن بالمتشابه ، أى لايعرف معناه ولاحكمه . فلا متشابه فى القرآن إلا الحروف التى بدأت بها بعض السور مثل ألف لام ميم ، (ألم) ، وألف لام راء (ألر) وصاد (ص) ، ونون (ن) ، وقاف (ق) إلى غير ذلك ، وإلا ماأقسم به الله تعالى مثل « والذرايات » ، و « الشمس وضحاها » و « الفجر» . و« لاأقسم بهذا البلد » . وليس لأحد الحق فى أن يبحث فى هذا المتشابه ، فقد يقوده البحث إلى الزيغ والضلال ،

بهذا أمرنا الرسول (ص) واتبعه الصحابة

وقـد ضـرب عمر بن الخطاب عندما تولى الخلافة ، رجلا من الصحابة أسواطا ، لأنه سأله عن معنى والـذار يات ، وأمر المسلمين ألا يسألوا عن شيء من متشابه القرآن لم يشرحه رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما كان بين ظهرانيهم .

فإنه لارأى فيا لم يوضحه الرسول .. وقد أمر المسلمين ألا يسألوه فيا سكت عنه ، فا أهلك من قبلهم من الأمم الى الشغب على أنبيائهم بكثرة السؤال .

قـال الله تـعـالـى : « مـافـرطنا فى هذا الكتاب من شيء » . فا مكان الرأى إذن ، إلا إذا قلنا أن القرآن قد فرط فى شيء ! ؟ ... وقال الله تعالى : « ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمـر مـنـكـم فـإن تـنـازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر. » فلا حكم إلا بما قضى به الله ورسوله ، ثم أولوا الأمر.. أى الأجماع .

وقـال رسـول الله صـلى الله عليه وسلم : « لاينزع العلم من صدور الرجال ، ولكن ينزع العلم بموت العلماء ، فإذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالا ، فأفتوا بالرأى فضلوا . وأضلوا » .

ثم يـستدل بأقوال الصحابة فى النهى عن الأخذ بالرأى ، و يرفض الأحاديث والأخبار التى تواترت عن الاجتهاد بالرأى ، و يتهم رواتها بالضعف أو الكذب ..

****

يـذهـب ابـن حـزم الـى أن الـقرآن وحده هو الأصل الوحيد للشر يعة ، وفيه أمر لنا باتباع الرسول . فـالـسـنـة حـجـة . قال تعالى مخاطب رسوله : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس مانزل إليهم ، فالرسول (ص) يبين القرآن ، وأهل الذكر مسئولون عن بيان مافى القرآن والسنة . لما تعلموه من الرسول

والـبـيـان كما يـقـول أبن حزم « يختلف فى الوضوح ، فيكون بعضه جليا ، و بعضه خفيا ، فيختلف الـنـاس فـى فـهـمـه ، فيفهمه بعضهم بفهمه ، و بعضهم يتأخر عن فهمه . كما قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : «إلا أن يؤتى رجلا فهما فى دينه . »

هاهوذا يستشهد بقول الإمام على كرم الله وجهه ! .

وفى الحق أن ابن حزم ماناصب الإمام عليا العداء .. !

فـابـن حـزم قـد أعـتـمـد فى بعض فقهه على أقضية للإمام على ، وفتياه ، وعلى آراء لحفيده الإمام جعفر الصادق ..

ولقد ذكر ابن حزم أن عمر بن الخطاب كان يستفتى على بن أبى طالب فيا يغم عليه من الأحكام و يقول : « على أقضانا » فإذا عرضت لعمر قضية ولم يجد عليا قال : « قضية ولاأبا الحسن لها » . . .

ومااعتمد ابن حزم على آراء الإمام على تكفيرا عما سلف منه ، أو نفاقا للأمراء والعلماء ممن يفضلون عليا على سائر الصحابة ، بل توقيرا للإمام على ، وعرفانا بمكانته من الرسول عليه الصلاة والسلام ، وبمكانه فى الاسلام ، وفضله فى إرساء قواعد الشريعة بعد الرسول صلى الله عليه وسلم .

****

هو إذن يرى أن الأحكام كلها فى القرآن ، والقرآن هو الذى نص على حجية السنة إذ أمرنا باتباع الرسول ، ونص على حجية الإجماع بنصه على أهل الذكر وهم الصحابة ، فإذا لم يمكن استنباط الحكم من القرآن أو السنة أو الإجماع . فلاسبيل إلا الاستصحاب وهو بقاء الحكم المبنى على النص حتى يوجد دليل من نصوص تغيره . قال تعالى : « وخلق لكم مافى الأرض جميعا » . وقال تعالى : « ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين . » وإذن فقد « أباح الله تعالى الأشياء بقوله أنها متاع لنا ثم حظر ماشاء . وكل ذلك بشرع . أى بنص . . »

وقاده التزامه هذه الأصول التى خالف فيها جميع الأئمة والفقهاء إلى مخالفتهم فى كثير من الفروع . فاعتبر التزام أفعال رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة يجب اتباعها ، وان لم يصحب فعله أمر. وعاب على أتباع مالك ترك هذه السنة فقال : « اختاروا الصوم فى رمضان فى السفر، ورغبوا عن فعله عليه السلام فى الفطر. ورغبوا عن فعله عليه السلام فى التقبيل وهو صائم ، وقد غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم على من رغب عن ذلك أو تنزه عنه وخطب الناس ناهيا عن ذلك . وتركوا فعله عليه السلام فى تطيبه فى حجة الوداع وأخذوا بأمر له متقدم لو كان على ماظنوه لكان منسوخا بفعله عليه السلام . . . ولايجوز أن يقال عن شىء فعله رسول الله أنه خصوصى إلا بنص فى ذلك ، لأنه عليه السلام قد غضب على من قال ذلك ، وكل شىء أغضب رسول الله (ص) فهو حرام . وذلك مذكور فى حديث الأنصارى الذى سأله عن قبلة الصائم فأخبره عليه السلام أنه يفعل ذلك فقال الأنصارى « يارسول الله إنك لست مثلنا . قد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وماتأخر « فغضب عليه السلام وقال : « والله أنى لأتقاكم لله وأعلمكم بما آتى وماأذر» ..... وقد روت عائشة : « أنه عليه السلام كان يترك الفعل وهو يحبه ، خشية أن يفعله الناس فيفرض عليهم ، كما فعل عليه السلام فى قيام الليل فى رمضان ، قام ثم تركه خوفا أن يفرض علينا . وإنما قلنا هذا لئلا يقول جاهل : أيجوز أن يترك عليه السلام الأفضل و يفعل الأقل فضلا ؟ فاعلمناه أنه عليه السلام يفعل ذلك رفقا بنا . . . وكذلك الشىء إذا تركه عليه السلام ولم ينه عنه ولا أمر به فهو مباح . وضرب مثلا لذلك « من أستمع زمارة الراعى ، فلو

كان حراما لما أباحه عليه السلام لغيره ، ولو كان مستحبا لفعله عليه السلام » .... وكان ابن حزم يحضر مجالس الغناء فى قرطبة اعتمادا على هذا .

وروى عن عائشة أنها سألت زوج بنت أختها وكانت من أجمل فتيات عصرها ألا يداعبها و يقبلها ، فتحرج الفتى فقالت له أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك وهو صائم فى نهار رمضان .

****

وعاد أتباع مالك يغلظون له ويحاولون الأيقاع به فى كل فقهه وأصوله ... وذهبوا إلى أنه يخالف إجماع أهل المدينة ، وإجماع أهل المدينة سنة ، لأنهم نقلوا عن الرسول عليه الصلاة والسلام مئات عن مئات وآلافا عن آلاف ، فهى سنة أقوى من النقل عنه عليه السلام واحدا عن واحد .. وهذا هو رأى الإمام مالك نفسه .

ولم يصبر ابن حزم على إتهامهم إياه بأنه يخالف السنة ، فانقض يسفه من يقول بهذا ، و يردد حجة الإمام الليث بن سعد فى رده على الإمام مالك أن الصحابة وفى صدورهم علم الدين والشريعة ، تفرقوا فى الأمصار يعلمون الناس ، وملأوا المدائن ، فليس لأهل المدينة امتياز عن أهل الكوفة التى أقام بها الإمام على وعبد الله بن مسعود ، ولاعن أهل مصر التى أقام بها عبد الله بن عمرو بن العاص . وغيره من الصحابة ، ولا عن غيرها من أقطار الأرض التى عاش فيها صحابته .. وكان علم بعضهم أغزر من علم الذين بقوا فى المدينة فضلا عن السابقة فى الأسلام .

وأضاف بعد ذلك أن أهل المدينة ساروا على خلاف سنة الرسول فى كثير من أمورهم ، فعندما تولى عمر بن الخطاب ، أنكر على حسان بن ثابت انشاده الشعر فى المسجد ، فلما قال له حسان : « قد أنشدت فيه وفيه من هو خير منك » ، وذكر له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسكت عمر ومضى .

فهذا يبين أنه لاحجة فى قول أحد ولافى عمل بعد النبى عليه الصلاة والسلام .

ثم أن ابن حزم انقض على أهل المدينة انقضاضا : « فأى برهان على أن المدينة أفضل البلاد كما يقولون ؟ أن مكة هى أفضل البلاد بنص القرآن . ومع ذلك ففضلها لايوجب اتباع أهلها دون غيرهم . ولايختلف مسلمان فى أنه كان فى المدينة منافقون ، وفيها شر الخلق . قال تعالى (ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم .) وقال تعالى : (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار) . وكان فيها فساق كما فى سائر البلاد ، وزناة وكذابون

وشربة خمور وقذفة كما فى سائر البلاد ولافرق . وأهلها اليوم ـــ وإنا لله وإنا إليه راجعون ـــ غلاة الروافض الكفرة . أفترون لهؤلاء فضلا يوجب أتباعهم من أجل سكناهم المدينة ؟ فإن قالوا (لا ، لكن إنما نوجب الحجة بالفضلاء من أهل المدينة) ، (قلت لهم ومن أين خصصتم فضلاء المدينة دون فضلاء غيرهم من البلاد ، وهذا مالا سبيل الى وجود برهان على صحته أبدا وأيضا فالمدينة فضلها باق كما كان لايتغير ولن يتغير أبدا ، وأهلها أفسق الناس . فقد بطل أن يكون للبقعة حكم فى وجوب اتباع أهلها ، وصح أن الفاضل فاضل حيث كان ، والفاسق فاسق حيث كان » واتهم القائلين بتفضيل أهل المدينة بأنهم « تابعوا خطأ مالك ، وقد ولد مالك بن أنس سنة ثلاث وتسعين من الهجرة بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلاث وثمانين سنة ، فأخبرونى عن أى مذهب كان الناس قبل مالك ؟ . . . فقد وليها من الفساق كالذين ولوا البصرة والكوفة كالحجاج وخالد القسرى (الذى ذبح فى المسجد أحد الفقهاء من معارضيه يوم عيد الأضحى وقال عن ذبحه إنه أضحية ! الدماء والأموال والأحكام ، وموضعهم من الفسق بالدين بحيث لايخفى . . . . . ولافرق بين إجماع أهل المدينة وأهل الكوفة وأهل البصرة وأهل الفسطاط هذا إن أرادوا من كان بها من الصحابة والتابعين » وتساءل : « أكان بالمدينة من هو أفضل من على بن أبى طالب وعبد الله بن مسعود رضى الله عنهما وقد أقاما بالكوفة ؟ »

ورد على اتهامه بالكفر لأنه يخالف إجماع أهل المدينة فقال : « إن كان مخالفة أهل المدينة كفرا ، فلتحكموا بالكفر على أمير المؤمنين على بن أبى طالب والصحابى الجليل عبد الله بن مسعود رضى الله عنهما فقد خالفا إجماع أهل المدينة » !

ولقد قاده الإقتصاد فى استنباط الأحكام على ظاهرة النص إلى مخالفة إجماع الفقهاء وأئمة المذاهب من قبله .

- فهو يرى أن المرأة تستطيع أن تحج وحدها دون اصطحاب الزوج أو أحد المحارم على الرغم مما ذكره فى طوق الحمامة عن خمس حاجات عابدات مجتهدات زاهدات فى الدنيا اقترفن الخطيئة مع أحد ملاحى السفينة وهن فى طريق العودة فى بحر القلزم (البحر الأحمر) .
- لايجيز ابن حزم فسخ الزواج بحكم القاضى لعيب فى الزواج ولا لعدم النفقة ولا للضرر ولا لغياب الزوج لأن أمر الطلاق للزوج ، وإذن فكل من فرق زوجين بغير قرآن أو سنة فقد دخل فى صفة الذين ذمهم الله تعالى بقوله : « فيتعلمون منهما مايفرقون به بين المرء وزوجه ونعوذ بالله من هذا » . على أنه يقرر أنه يجوز الحكم بالطلاق فى حالة واحدة هى ظهور عيب بعد اشتراط السلامة من العيوب . وماعدا هذا الشرط فشروط الزواج باطلة : كأن تشرط الزوجة ألا يتزوج عليها أو أن تكون العصمة بيدها أو ألا يسافر و يتركها .
- اليمين بالطلاق باطل ، فلا يقع طلاق والحالف آثم لأنه لايمين إلا بالله تعالى

— المفقود حكمه حكم الحى حتى تثبت وفاته ثبوتا قاطعا .
— الزوجة عند عجز الزوج عن الانفاق عليها لا تطلق ، بل ينفق عليها ولى الأمر ان كانت فقيرة ، من أموال الصدقات ، فإن كانت غنية وجب عليها أن تنفق هى على نفسها وعيالها وعلى زوجها .
— كل تصرفات المريض مرض الموت من وصية وهبة وطلاق وزواج صحيحة ، لاقيد عليها لعدم ورود نص بمنعها أو تقييدها . و بعض الصحابة لايعترف بطلاق المريض مرض الموت ، و يعتبره فرارا من الميراث .. و يستشهد بفتيا للإمام على بن أبى طالب ، ففى عهد عثمان طلق أحد الأنصار الأغنياء زوجة أنصارية ، وكانت زوجته الثانية بنت عم على بن أبى طالب ، فلما مات الزوج أرادت زوجته الثانية أن تختص وحدها بميراث الزوج لأنه طلق الأولى فى مرض موته ، فاستشار عثمان ابن عفان رضى الله عنه فى هذا ، فأتاه على بن أبى طالب فأشار بأن المطلقة ترث لأن الزوج يفر من قواعد الميراث ، فشرك عثمان بين الزوجتين وإذ راجعته الزوجة الثانية قال لها : « هذا رأى ابن عمك » .
— اعتبار الوصية فرض لازم لقوله تعالى : « كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين . » ولايوجد نص يفسخ هذا الحكم . ولكنه يشترط ألا تضر الوصية بالورثة و يقول فى هذا « فرض على كل مسلم أن يوصى لقرابته الذين لايرثون ، فإن لم يفعل نفذ من ماله ماكان يجب عليه أداؤه ، وعلى ولى الأمر تنفيذه فى حدود الثلث » .

وقد أخذ القانون المصرى برأى ابن حزم فى فروع الولد الذى يموت فى حياة أبيه . ورأى أن تكون بمقدار نصيب الوالد المتوفى على ألا تزيد على الثلث .

— حقوق الله فى التركة مقدمة على حقوق العباد ، وأول حقوق الله هى الزكاة المتأخرة .. و يقول : « أن حقوق الله أحق بالقضاء من غير تخريج ويجب الأخذ بظاهر النص » ... ويهاجم الأئمة الأربعة لقولهم بغير هذا . و يصف رأى مالك بأنه « أفحشها تناقضا وأوحشها شدة وفسادا » لأن مالك قدم حقوق العباد ، أما عن حق الله فالله غفور رحيم . و يقول أستاذنا المغفور له الشيخ محمد أبو زهرة تعليقا على قول ابن حزم فى مالك « وإنا لنستغفر الله تعالى لنا وله على نقده لقول مالك بهذه اللغة ونقلنا له » .
— أوجب ابن حزم اعطاء الأقارب واليتامى عند قسمة التركة إذا حضروا عند القسمة . وذلك بما لايجحف بحقوق الورثة . وولى الأمر ملزم بإجبار الورثة على إعطاء أولئك ماتطيب به نفوس الورثة .. وذلك أخذا بظاهر نص الآية : وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا » . ثم يضيف : « أمر الله تعالى فرض لايحل خلافه .... وعن ابن عباس : يزعمون أن هذه الآية نسخت (وإذا حضر القسمة أولو القربى) فلا والله مانسخت ، ولكنها مما تهاون الناس بها ... هى واجبة ، و يعمل بها ، وقد أعطيت بها .

و يرد ابن حزم على من فهموا أن الأمر فى الآية الكريمة ليس أمر وجوب بقوله : « ..... لايفهم

أحد من (افعل) أن شئت فلا تفعل .. وليس وجود آيات قام البرهان على أنها منسوخة أو مخصوصة أو أنها ندب ، بموجب أن يقال ــ فيها لا دليل بذلك فيه ــ هذا ندب أو هذا منسوخ أو هذا مخصوص ، فيكون قولا باطلا . »

ابن حزم لايحدد قدرماينبغى أن يأخذه أولو القربى واليتامى والمساكين إن حضروا قسمة التركة ، بل يترك ذلك لما تطيب به نفوس الورثة ، فإن لم يفعلوا ، فرض ولى الأمر مايراه مناسبا وعادلا ..

يجيز ابن حزم لولى الأمر أن يفرض على التركة حصة للفقراء والمساكين وان لم يحضروا القسمة ، على أن تنفق عليهم هذه الحصة . وأحق الفقراء والمساكين بهذه الحصة من كان ذا قربى .. وقد أخذ القانون المصرى بهذا النظر مع تعديل يسير فى فرض ضريبة التركات ورسم الأيلولة .

الأشهاد على البيع واجب شرعى... قال فى ذلك ابن حزم : « .... وفرض على كل متبايعين لما قل أو كثر أن يشهدا على تبايعهما رجلين أو رجلا و امرأتين من العدول ، فإن لم يجدا عدولا سقط فرض الاشهاد ، فإن لم يشهدا وهما قادران على الإشهاد فقد عصيا الله والبيع تام ، فإن كان البيع بثمن الى أجل مسمى ، فرض عليهما مع الاشهاد المذكور أن يكتباه ، فإن لم يكتباه فقد عصيا الله عز وجل ، والبيع تام . فإن لم يقدرا على الكتابة ، فقد سقط عنهما فرض الكتابة » . وابن حزم يستنبط هذا الحكم من ظاهر الآية الكريمة : « يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولايأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب ، وليملل الذى عليه الحق ، وليتق الله ربه ولايبخس منه شيئا ، فإن كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لايستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل ، وأستشهدوا من رجالكم ، فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل أحداهما فتذكر أحداهما الأخرى ، ولا يأب الشهداء إذا مادعوا ، ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا الى أجله ، ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة. ، وأدنى ألا ترتابوا ، الا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم ، فليس عليكم جناح ألا تكتبوها ، وأشهدوا إذا تبايعتم ، ولايضار كاتب ولا شهيد ، وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم ، وأتقوا الله و يعلمكم الله والله بكل شيء عليم » .

و يقول أبن حزم عما جاء فى نص الآية : هذه أوامر مغلظة مؤكدة لاتحتمل تأو يلا و يشرح أحكام الآية : « أمر بالكتابة فى المداينة الى أجل مسمى ، و بالإشهاد فى التجارة المدارة ، كما أمر الشهداء ألا يأتوا أمرا مستو يا ، ثم أكد تعالى أشد تأكيد ، ونهانا عن أن نسأم فى كتابة ماأمرنا بكتابته صغيرا كان أو كبيرا . وأخبر تعالى أن ذلك أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا نرتاب ، وأسقط الجناح (الأثم) فى ترك الكتابة خاصة ــ دون الأشهاد ــ فى التجارة المدارة ، ولم يسقط الجناح (الأثم) فى ترك الكتابة فيما كان دينا إلى أجل .. فقد قال تعالى بعد أن فرض الكتابة : « إلا أن تكون تجارة حضارة تديرونها بينكم ،

وجمهور الفقهاء يرون أن الإشهاد فى البيع والكتابة فى التداين ، والكتابة فى الثمن المؤجل ليست من الفروض الواجبة بحيث يأثم تاركها ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يصنع ذلك ، وقد اشترى فرسا من أعرابى ، ولم يشهد ولم يكتب ، فباع الأعرابى الفرس مرة ثانية لمشتر آخر بثمن أعلى .. !

و يرى ابن حزم أن خبر الأعرابى ضعيف السند ، وهو إن صح دليل على وجوب الإشهاد والكتابة ، ويجب أن تكون هذه القصة قد وقعت قبل نزول الآية ، ولعلها هى ومثيلاتها كانت من أسباب نزول الآية ..

- لايجيز خيار الشرط وهو حق البائع أو المشترى فى الفسخ خلال مدة معينة . و يقول ردا على جمهور الفقهاء الذين ذهبوا الى جواز هذا الخيار: « كل بيع وقع بشرط خيار للبائع ، أو للمشترى أولهما جميعا ، أو لغيرهما ، خيار ساعة أو يوم أو ثلاثة أيام ، أو أكثر أو أقل ، فهو باطل . » .... و يضيف : « كل ذلك شرع لم يأذن الله تعالى به ، ولاأوجبته سنة .... وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كل شرط ليس فى كتاب الله فهو باطل ولو كان مائة شرط) .... »

وكان دليل جمهور الفقهاء على إجازة الشرط أن أحد الصحابة كان يغبن فى البيع والشراء ، فأمره الرسول (ص) ألا يعقد صفقة حتى يشترط لنفسه الخيار فى إبرامها أو فسخها خلال ثلاثة أيام ليشير من هو أعرف منه بأمور التجارة .

فرد أبن حزم لأن هذا حكم خاص بحالة ذلك الصحابى ، ولايجوز اعتباره حكما عاما .

- لاتحريم إلا بنص فما هو ذريعة إلى حرام ليس حراما ، وقد نهى الله عن تحريم مالم يحرمه هو، والا كان هذا التحريم افتراء على الله ... قال تعالى : « قل أرأيتم ماأنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون » .

ولكن الإمام مالك والإمام أحمد بن حنبل ومن اعتنق مذهبيهما يقسمون الشريعة الى مقاصد وذرائع . فالمقاصد هى هدف الشريعة ، وهى تحقيق المصلحة ودرء المفسدة . والذرائع هى الوسائل أو الوسائط المؤدية الى المقاصد . والذرائع ترتبط بالمقاصد تحليلا وتحريما . وعلى هذا فلا يجوز بيع السلاح فى وقت الفتنة ، ولايصح البيع الذى يخفى ربا أو يؤدى إليه ، و يبطل الزواج المؤقت الذى يكون وسيلة وذريعة لتحليل الزوجة المطلقة ثلاثا . فكل تصرف قصد به الحرام أو أدى الى مفسدة يعتبر باطلا وقد أمر به النبى عليه الصلاة والسلام ألا تقطع يد السارق فى الغزو حتى لايفر الى العدو

و يرد ابن حزم على كل هذا بقوله : « أن السنة يجب أن تطبق لأنها سنة دون محاولة تخريج أو تعليل أو قياس عليها فهى نص واجب اتباعه بظاهره ، أما من حكم . باحتياط أو بشىء خوف ذريعة الى مالم يكن بعد ، فقد حكم بالظن ، وإذا حكم بالظن فقد حكم بالكذب والباطل ، وهذا لايحل ، وهو حكم بالهوى وتجنب للحق ، نعوذ بالله من كل مذهب أدى إلى هذا . مع أن هذا المذهب فى ذاته متخاذل متفاسد متناقض ، لأنه ليس أحد أولى بالتهمة من أحد ، وإذا حرم شيئا حلالا خوف تذرع

إلى حرام فليخص الرجال خوف أن يزنوا ، وليقتل الناس خوف أن يكفروا ، ولتقطع الأعناب خوف أن يعمل منها الخمر. و بالجملة فهذا المذهب أفسد مذهب فى الأرض ، لأنه يؤدى إلى إبطال الحقائق كلها ، و بالله تعالى التوفيق . »

وهكذا استنفر من جديد أتباع الإمام مالك ، واستنفر أيضا أتباع الإمام أحمد بن حنبل ، بوصفه فاستنكروا الزعم بأن مذهب كل من الإمامين هو أفسد مذهب فى الأرض ! .. وغلظوا مع ابن حزم واشتدوا عليه

تصح شهادة الأصول والفروع والأزواج ماداموا عدولا . وهاجم الفقهاء الأربعة أصحاب المذاهب الذين لم يجيزوا هذه الشهادة ، حرصا على العدل ودفعا لشبهة الأنحياز، فقال عن الفقهاء أصحاب المذاهب : « لقد أداهم هذا الأصل الفاسد الى أن حكموا فى الشيء بالتهمة التى تحل ، فأبطلوا شهادة العدول لآبائهم وأبنائهم ونسائهم وأصدقائهم ، تهمة لهم بشهادة الزور والحيف . والحكم بالتهمة حرام لايحل ، لأنه حكم بالظن ، وقد قال تعالى عائبا لقوم قطعوا بظنونهم : (وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا) وقال تعالى عائبا قوما قالوا : (إن نظن إلا ظنا ومانحن بمستيقنين) قال تعالى : (ومالهم به من علم إن يتبعون الا الظن وإن الظن لايغنى عن الحق شيئا) وقال تعالى : (أن يتبعون الا الظن وماتهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (الظن أكذب الحديث) ..

هاهو ذا من جديد يسرف فى الهجوم على الائمة الكبار أصحاب المذاهب ، و يستثير أتباعهم ضده ، ويجلب عليه سخط أهل الورع ممن يروعهم أن يتهم الأئمة مالك وأبو حنيفة والشافعى وأحمد ، بالتناقض والتخاذل والتفاسد .. وأنهم يتبعون هوى الأنفس . !

— ومما خالف فيه إجماع الفقهاء قوله أن العبد كالحر فى حق الزواج بأربع . وقد اقترب من الإمام مالك فى هذا النظر، ولكنه هاجمه حتى فى اتفاقه معه .. ! واتهم الإمام مالك بن أنس بالتناقض ، لأنه خالف فى حكمه هذا أقوالا لبعض الصحابة لم يعرف لها مخالف . ومالك يعتبر هذا إجماعا يجب أتباعه فكيف يخالفه ؟ وكان أحرى بمالك فى رأى ابن حزم ألا يعتبر إجماعا الا ماتواترت الأخبار الصحاح على أن الصحابة أجمعوا عليه يقينا .

وعلى أيه حال فقد خالف ابن حزم آراء مالك وغيره من الأئمة أصحاب المذاهب فيما عدا هذا من أحكام العبد ، فأعترف له بحق تملك الجوارى والتسرى بهن ، و بكل حقوق الملكية . لأن حق الملكية يرتبط بالإنسانية لا بالحرية ، ولا شأن له بما يطرأ على الإنسان من عبودية . فالعبد والحر متساو يان ، وقد وجه إليهما الله تعالى خطابه فى القرآن الكريم بلا تفرقة فقال : (ياأيها المؤمنون) ، أو (ياأيها الناس) ، ولم يقل يا : (أيها الأحرار) ولا : (ياأيها العبيد) ، وعلى هذا جرت السنة ، فللعبيد كل حقوق الأحرار، ولافرق بينهما الا فيا جرت به السنة فى الحدود ، فعلى العبد نصف

ماعلى الحر من عقوبات ، وليس لأحد أن يشرع مع الله ورسوله أو بعد القرآن والسنة . والقول بأن للعبد نصف ماللحر خروج على الشرع .

عندما أثار ابن حزم حقوق العبيد ، قامت عليه القيامة من جديد .. فها هو ذا يدعو الى المساواة بين العبيد والسادة بل يميز العبيد فيفتى بأن لهم كل حقوق السادة ونصف ماعلى السادة من عقوبات . !

فهو إذن يثير العبيد على سادتهم !

ومن قبل أثار العاملين في الأرض على الملاك ! .. والنظام فى الأندلس يقوم على وضع أدنى للفلاحين ، والعاملين فى الأرض والعبيد .. !

غير أن ابن حزم يرى أن هذا كله ليس من الاسلام فى شىء ، فهو خروج صريح على نصوص القرآن الكريم وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم .

واحتشد على ابن حزم كل خصومه من الأمراء والكبراء والوزراء الذين جهر بنقدهم ، ومن العلماء والفقهاء الذين عنف عليهم فى الذم ، واحتشد معهم كل من استفزتهم حدته فى الحديث عن الأئمة أصحاب المذاهب ..

تكاثر الخصوم على ابن حزم فدبروا له أمرا ، وأغروا به الحكام لينزلوا به جزاء الخارج عن الدين ، ومثير الفتنة !

لم يعد له من أحد فى الأندلس إلا بعض شباب العلم وطلابه ، وإلا أمير ميورقة .

أما هؤلاء الشباب فكانوا معجبين بجسارته ، ونصاعة بيانه ، وشدة تمسكه بالقرآن والسنة ، وحرصه على ألا يستنبط الحكم أو يستخلص الفتيا إلا من ظاهر النص ، فى وقت شيوع البدعة والتقليد وتجمد العقل .

وما كان الشباب يغضبون من عنفه على أئمة المذاهب ، لأن سقم الفكر، وإفلاس الملكات ، والضحالة ، قادت البعض إلى تقديس هؤلاء الفقهاء ، فنسوا أنهم بشر يخطئون و يصيبون ! ! فكان لابد للناس من فقيه عالم ، كابن حزم يصدم جهودهم ، ويحرك صمت الحياة الفكرية الرتيبة الآمنة من حولهم ،و ينبه الغافلين والمقلدين ، و يعيدهم إلى القرآن والسنة ، و يلزمهم اتباع النصوص !

ومهما يكن من عنف ابن حزم الذى وصل إلى حد النزق كما عبر هو نفسه ، فما كان هذا كله ليصرف عنه الشباب ، بل كان يشاكل ما فى أعماقهم من فورة الحمية والغيرة والحماسة .. !

وأما النصير الآخر الذى كان لابن حزم غير هؤلاء الشباب ، فهو أمير ميورقة صديق ابن حزم وما كان لأحد أن ينال من ابن حزم وهذا الأمير يبسط عليه رعايته .. وهو أمير شديد المروءة ، عظيم النجدة ، وهو بعد صاحب نفوذ كبير وعلاقات حسنة ، فالكل يخطب وده .

غير أن أمير ميورقة مات فجأة ، وهو أنضر ما يكون عافية ، وأشد ما يكون قوة .. !

وأصبح ابن حزم فى ميورقة بلا ولى ولا نصير: الأحزان تمزق منه القلب ، والفكر مضطرب ، وهو يتوجس خيفة مما عسى أن يصنعه به الأعداء من الأمراء ، والفقهاء ، وكبار الملاك ، وتجار العبيد ، وكل من أسخطهم عليه من قبل !

ولكنه استمسك ، واعتصم بالصبر والمصابرة ، وعاد إلى حلقته يعلم الشباب ويحاورهم ويحاورونه كما تعود .

وجد العزاء فى العمل ، وفى العودة إلى الحلقة ، فما من شىء يشرح صدره للحياة كنعمة التعبير عن أفكاره بالكتابة ، وكالجلوس إلى الشباب .. فهو يجد فيهم أمله فى الإصلاح .. !

ما من انسان فى الأندلس يرتاح إليه بعد ، كما يرتاح إلى هؤلاء الشباب الذين يأنس فيهم الصفاء ، والطهر ، والغيرة ، وصدق المودة ، والشوق المحتدم إلى الخلاص ،وإلى بناء عالم من العدالة والحق والخير على دعائم من تعاليم الاسلام !

انهم ليريدون أن يعرفوا الطريق ، وانى ليحمد الله أن قيضه لهم ليقودهم على الحق وما كان عنفه ليغير عليه قلوب الشباب ، بل كان على النقيض ، فهو يوافق ما فى أغوارهم لمن احتدام ، و يشاكل مافى طبيعتهم الفتية من غيرة للحق وشدة على الباطل . وكان فى هذا العنف رجع لحماسة أولئك الشباب .

وأما النصير الآخر الذى كان يعتزم ابن حزم مع هؤلاء الشباب ، فهو صديقه أمير ميورقة . وما كان لأحد أن ينال من ابن حزم والأمير يبسط عليه كل حمايته ورعايته ! .. وهو أمير شديد المروءة ، عظيم النجدة ، واسع النفوذ ، قوى الشكيمة ، يخطب وده سائر الأمراء والفقهاء والرؤساء .

وكان ابن حزم يشعر بالطمأنينة والسكينة تحت رعايته ، و يستجم من عناء العمل فى مجلسه . وكان الأمير غزيز العلم ، ظريفا ، طيب المعشر ، حلو الأحاديث ، وكان يسرى عن ابن حزم برواية ما يحفظ من طرائف وأخبار عن منافسيه من الفقهاء ، وقد روى لابن حزم قصة صوفى من أهل الأندلس ، عرف بالعداء لابن حزم و بالصلاح وكثرة السياحة والتجوال . وقد سافر الصوفى إلى مصر

فى بعض سياحاته وعندما عاد روى للأمير عجبا عن رحلته تلك : « كنت بمصر أيام سياحتى فتاقت نفسى إلى النساء . فذكرت ذلك لبعض اخوانى فقال لى : « ها هنا امرأة صوفية لها بنت مثلها جميلة قد ناهزت البلوغ . فخطبتها وتزوجتها ، فلما دخلت عليها وجدتها مستقبلة القبلة تصلى ، فاستحييت أن تكون صبية فى مثل سنها تصلى وأنا لاأصلى ، فاستقبلت القبلة وصليت ماقدر لى ، حتى غلبتنى عينى ، فنامت فى مصلاها ، ونمت فى مصلاى . فلما كان فى اليوم التالى ، كان مثل ذلك أيضا ، فلما طال الأمر عل ، قلت : « ياهذه ألا إجتماعنا معا ؟ قالت : » أنا فى خدمة مولاى ، ومن له حق فما أمنعه . » فاستحييت من كلامها ، وتماديت على أمرى نحو الشهر ، ثم بدا لى السفر فقلت لها : « ياهذه » قالت : « لبيك » ، قلت : « إنى أردت السفر » ، فقالت : « مصاحبا بالعافية » . فقمت فلما صرت عند الباب قامت فقالت : « ياسيدى كان بيننا فى الدنيا عهد لم يقض الله بتمامه ، عسى فى الجنة إن شاء الله يقضى بتمامه » . فقلت لها : « عسى الله » ، « أستودعك الله خير مستودع » فتودعت منها وخرجت ثم أكملت سياحتى فى بلاد الله وعدت الى مصر بعد سنتين فسألت عنها فقيل لى : « هى على أفضل ماتركتها من العبادة والأجتهاد « فلم أفكر فى زيارتها ! . »

هكذا كان الأمير يسامر صديقة أبن حزم ويخفف عنه برواية ما يعرف من الطرائف عن خصومه من الفقهاء والمتصوفين .

كان الأمير يؤنسه ، و يسرى عنه ، و يصونه من عاديات الخصوم ، ومكائد الحساد ، و بغى الشانئين .

ولكن الأمير مات فجأة ، وهو أنضر مايكون عافية وأشد مايكون قوة ، وأعذب مايكون ظرفا . !

وأحس ابن حزم ، كأنما يد باطشة تلوى عنقه ، وتدق عظامه ، وتلقى به بغتة فى عراء مخيف لاظل فيه ولا ماء ، ولاشىء غير جوارح الطير ، والوحش ، والهوام السامة . !!

لقد أصبح الشيخ فى ميورقة بعد طول الأنس والمتعة وحيدا بلا ولى ولا نصير: الأحزان تمزق منه القلب ، والفكر مضطرب ، يتوجس خيفة مما عسى أن يصنعه به الأعداء من الأمراء وصغار الفقهاء وكبار ملاك الأرض والنخاسين . . !

ولكنه استطاع على الرغم من كل شىء أن يجمع شتات نفسه التى توزعتها الأحزان ، وأن يواجه العاديات بكل القوة التى يمنحها الأيمان بالله ، فكفكف دمعه العصى الذى انهمر يخضل لحيته الشهباء حزنا والتياعا على صديقه الأمير . .

أذعن أبن حزم لقضاء الله فصبر وصابر ، وعاد الى حلقة الدرس يعلم الشباب الذين التفوا حوله

أكثر مما ألتفوا من قبل ، لايخشون فيا يؤمنون به لومة لائم ، ولايبالون فى حبهم لشيخهم بما قد ينزل بهم من بطش خصومه . !!

وجد العزاء فى العمل ، وفى لقاء هؤلاء الفتية طلاب علمه من أهل الجسارة والمروءة .

مامن شيء كان يستطيع أن يشرح صدره للحياة والمستقبل كهذا الحب فى الله يعمر قلوب شباب مؤمنين تضطرم أعماقهم بالأشواق الطيبة إلى بناء عالم من العدالة والخير والفضائل على دعائم من تعاليم الإسلام .

ومامن شيء كان قادرا على أن يضيء بالبهجة قلبه الحزين ، و يعيد الثقة إلى نفسه المضطربة ، كأستغراقه المخلص فى الكتابة مواجها ضلالات العصر ، وعلى شباة قلمه يتناثر الشرر يحمل اللهب المتأجج فى أطواء نفسه ، و ينير الطريق إلى الحق أمامه وأمام الآخرين .. !

و بالله كم ارتفع قدر ابن حزم فى ميورقة وماحولها ، حتى لقد توافد عليه الطلاب والباحثون عن الحقيقة من كل أقطار الأندلس. ، فأصبحت له الرئاسة على الناس .. !

ولكن خصومه يجدون منذ اليوم فى الأيقاع به ، والكيد له عند سائر الأمراء ، بعد أن مات نصيره و وليه أمير ميورقه ..

وذات صباح فوجيء ابن حزم بأمر جليل من أمور الأندلس لم يستطع عليه صبرا ... وكانت أمور السياسة فى الأندلس قد آلت إلى فضائح كما قال أحد مؤرخى ذلك العصر : « صار الأمر الى الأخلوقة والفضيحة : فهناك أربعة حكام كلهم يسمى بأمير المؤمنين فى رقعة من الأرض مقدارها ثلاثون فرسخا فى مثلها .... ومنهم من لايصحب إلا كل ساقط رذل ولا يحجب عنهم حرمه (أى نساءه) ....

من بين هؤلاء الأربعة الذين يزعم كل واحد منهم أنه هو الخليفة و يسمى نفسه أمير المؤمنين ، نهض أمير أشبيلية يحاول الوثوب على الأمارات الأخرى ليضمها إلى ملكه ، واستبد بالأمر و بطش بأهل الشورى ، وفتك بمن يعارضه ، حتى لقد طارد أحد معارضيه الذين فروا منه الى الحجاز وهو عالم كفيف فأرسل الأمير من يدس السم للرجل ، فمات .. !

قام حاكم أشبيلية يدعو أهل الأندلس إلى مبايعته هو وحده خليفة على الأندلس كله وأمير المؤمنين . وادعى أنه هو الخليفة الأموى المقتول هشام بن الحكم المؤيد !!

وعندما بلغ ابن حزم مايدعيه أمير أشبيلية أذاع الشيخ على الناس : « أخلوقة لم يقع مثلها فى الدهر ، فأنه ظهر رجل بعد أثنتين وعشرين سنة من موت هشام بن الحكم المؤيد ، وأدعى أنه هو،

فبويع له ، وخطب على جميع منابر الأندلس فى أوقات شتى ، وسفكت الدماء ، وتصادمت الجيوش فى أمره . »

وجن أمير أشبيلية حنقا على ابن حزم ، وأمر الشرطة أن تأتى به من ميورقة ، ولكن أحدا لم يستطع أن يقتحم عليه أو يفضى إليه !

لقد حماه الشباب الذين بهرهم علمه وإخلاصه ، وجموع الفلاحين الذين يدافع عن حقهم فى الأرض ، فتحصن فى قلعة منيعة من حب المعجبين به ..

وفكر أمير أشبيلية فى أن يكيد له كيدا يسقطه أمام محبيه ، فيسهل على الأمير بعد ذلك أن يفتك بالشيخ فى معزل عن حصنه الحصين !

وكان صغار الفقهاء يغرون به ، و يريدون االتخلص منه ، وخصومه وحساده يفتون بإهدار دمه .. !

واتفق أن أبا الوليد الباجى الفقيه الأندلسى عاد الى الأندلس بعد رحلة طويلة فى المشرق استغرقت نحو ثلاثة عشر عاما .. وكان الباجى فقيها غزير العلم ، ولكنه كما قال عنه أحد معاصريه « كان مشهورا بأنه يجالس الرؤساء ويمدحهم بشعره و يسترضيهم حتى ينال جوائزهم ، وكانت عليه مطاعن فى دينه » .

هاهو ذا إذن الرجل الذى يستطيع أن يقذفه الأمير على الشيخ ابن حزم : فقيه واسع العلم يقبل أن يوجه علمه إلى مايرضى الأمير! ..

ولاذ صغار الفقهاء من أعداء ابن حزم بالفقيه الباجى ، واجتمعوا كلهم عند أمير أشبيلية وأحكموا الخطة التى يسقطون بها أبن حزم أمام المعجبين به والملتفين حوله . فما هى إلا أن يناظره الباجى و يفحمه فى المناظرة حتى تسقط هيبته و يتخلى عنه الجميع ! !

قدم الباجى الى ميورقة فى موكب ضخم من أهل الوجاهة وصغار الفقهاء أعداء ابن حزم ، وعدد كبير من حترفى الشغب ، وأهل الأبتزاز ومحترفى الإرهاب ورجال الشرطة السرية !

وذهب الباجى فى موكبه ذاك الى حلقة ابن حزم فى جامع الجزيرة ، وأغرى عددا من الفقهاء الذين صحبوه ليجادلوا ابن حزم فينهكوه ، و يستفزوه بالافتراءات والتهجم عليه حتى يفقد السيطرة على نفسه قبل أن يبدأ الباجى مناظرته .. ! ولكن ألسنة الفقهاء قصرت عن مجادلة ابن حزم وكلامه . فتقدم الباجى يناظره ، فأفحمه أبن حزم ، فأراد الباجى أن يمكر به وأن يحرض عليه فقراء الطلاب والفلاحين من وراد الحلقة فقال : « تعذرنى فأكثر مطالعاتى كانت على سرج الحراس » . فرد ابن حزم :

« وتعذرني فأكثر مطالعاتي كانت على منابر الذهب والفضة . » وصفق أتباع ابن حزم طربا ...

وخرج الباجي في موكبه ، وظل ليلته يعد مع أنصاره الشراك لابن حزم .

وفي اليوم التالي أقبلوا الى الحلقة ، و بدأت المناظرة ، ولم يكد الباجي ينتهي من كلامه حتى وثب أنصاره فصفقوا وتصايحوا اعجابا بما قال . وجاء دور ابن حزم ليرد ، ولكنهم قاطعوه بالصفير والزعيق والسخرية والضحكات والتهريج عليه ، وغمر صخبهم المكان ، ولم يمكنوا ابن حزم من الكلام إذ ضاع صوته وسط الشغب والتهريج ، فعزف عن الأستمرار في المناظرة

وقام من المسجد آسفا ، فاعلنوا أنتصار الباجي ، وانكسار ابن حزم ..

وظلوا يطاردون ابن حزم بصياحهم وشغبهم : « أبو الوليد الباجي ناظر ابن حزم ، فانكسر ابن حزم أمامه »

آوى ابن حزم إلى داره لايبارحها مدة يومين ، وصدى أليم من سخرية المشاغبين تلح عليه ، وأعداؤه يحتلون حلقته و يصرفون عنها مريديه .

ثم جاءه من يخبره أن أمير المؤمنين (وهو أمير أشبيلية) أصدر أمره بمنع تداول مؤلفات ابن حزم ، وجمعها كلها من خزائن الكتب العامة والخاصة في جميع بلاد الأندلس ! !

وماهي الا أيام حتى أحرقت مؤلفات أبن حزم في جمع من أعدائه وحساده وشانئيه وضحكاتهم الشامتة تتعالى في جنون وحشي .. !

أية قارعة هذه التي نزلت بالرجل في شيخوخته . ! إنها لقاصمة الظهر . !

إنه الآن ليقرع أبواب الستين ، ومامن عزاء بعد ، ولاعوض عما ضاع ، ولاهو يستطيع أن يكتب من جديد بعض هذه الصفحات الطوال التي أودعها كل روعة حياته ، والدمع ، والضنى ، والمعاناة ، والأمل والبهجة ، وحبات القلب ... !

ولكنه أستطاع ! ..

ازدرد الدم النازف من جراحاته ، واستعلى على النكبة ، وواجههم من علياء صموده بشعره يتحدى :

فأن تحرقوا القرطاس لاتحرقوا الذى
تضمنه القرصاس ، بل هو في صدري

يسيـــــــــر معـــــى حيـــــــث استقلـــــــت ركائبـــــــــــــــــى
و ينــــــــزل إن انـــــــزل ، و يـــــدفـــن فـــــى قـــــبرى

وأستقلت ركائبه .. ترك ميورقة الجزيرة التى عرف فيها حلاوة الأمن وطيب الألفة .

ترك ميورقة بعد أن تحولت طرقات الجزيرة الى مرابض للمتربصين ، وأصبحت حلقات العلم فيها فخاخا ومصائد .. !

ومضى فى ركب حزين من أهله وجواريه وخزانة كتبه .. إلى حيث لايعلم أحد مكانه ، ولايلقى أحدا من الناس ! !

« وطفق الحكام يقصونه عن قربهم و يسيرونه عن بلادهم » كما قال أحد مؤرخيه (أبو حيان) أختفى زمنا ، ثم سار إلى القرية التي ولد فيها أباؤه قبل أن يستوطنوا قرطبة ، حيث تركوا له ضيعة يكفيه دخلها و يوفر له حياة ميسرة ، وحيث مازال يعيش أقرباؤه ..

وفى أحضان ذلك الركن الهادئ من ريف الأندلس ، بين الفلاحين الذين أحبوه وعرفوا فيه قبل أن يلقوه مناضلا عن حقوقهم ، قرر ابن حزم أن يعيش مابقى له من العمر.

لم تكن النار التى التهمت كتبه قد استطاعت أن تمس شموخه ولا إصراره ... فما زال قادرا على أن يبدأ من جديد على الرغم من كل شىء !

لابطش أمير أشبيلية ، ولابغى كل أعدائه ، ولا المكر السىء ، ولاشىء على الأطلاق يستطيع أن يمتد الى تلك البقعة الهادئة أو ينال منه ... فلا سلطان لأمير أشبيلية على هذا المكان الجميل من ريف الأندلس ، ولارأى لفقيه هنا الا رأى ابن حزم : أبن القرية وحامى العاملين فيها ..

وعلى وهج النار التى التهمت مؤلفاته ، أضاءت نفسه بالإصرار وإرادة التعبير.

وعاد يلتقى بشباب آخرين . فقد توافد عليه الشباب من القرية ومن كل أرجاء الأندلس ، وقد زادهم صمود الشيخ فى محنته إعجابا به . وفاضت عيناه العضيتان من الفرح حين أخرج إليه بعض هؤلاء الشباب مؤلفاته التى أخفوها فنجت من الحريق ! .. وأخذوا ينسخونها بهمة عالية متحدية ، و يوزعونها خفية فى كل أقطار الأندلس ، وخارجه . ونسخوا و وزعوا من هذه الكتب الناجية من الحريق أضعاف ما كان موجودا من قبل !

و بدأ الشيخ يملى عليهم مااحترق من المؤلفات ، و يؤلف كتبا جديدة .

وفى قريته النائية حيث لايصل إليه فحيح العداء، ولاصخب الحساد، وحيث تقصر عنه يد الحكام، وحيث حب الناس يعمر نفسه بالصفاء، وحيث كل ماحوله من جمال الطبيعة وطيبة القلوب يعمر نفسه بالأمل، و يقنعه بأن الحياة جديرة بأن نحياها، و بأن نجعلها متاعا حلال للآخرين هناك فى هذا الهدوء النابض بروعة المودة، واستطاع ابن حزم أن يحكم مؤلفاته التى أعاد كتابتها بعد أحتراقها والتى صنفها.. وكانت مناظراته مع مريديه فى جو مترع بالمحبة سبيله إلى الاتقان..

لقد عاش كل حياته السابقة يستنبط الأحكام من ظاهر النص، فها هوذا الآن يستخلص الحكمة من باطن النفس. !

إنه ليفهم ظاهر النصوص بكل معانيها الصريحة والمجازية، بلا نظر فى الدلالاتِ والإشارات الخفية، وهو فى الوقت يستبطن خفايا النفوس وأسرار الدلالات ولطف الإشارات ليصوغ أفكاره فى الأخلاق والفلسفة وسائر الإنسانيات

وتأسيسا على هذا النظر أحكم فقهه وأصوله، وسائر آرائه فى الحياة والناس.

وهكذا أتقن إيراد كثير من احكام والآراء التى خالف بها كل من سبقه، أوسبق هو بها كل من جاء بعده من أهل الفكر، من خلال أسلوب ناصع، بطريقة يجذب بها أنتباه القارئ أو السامع، فهو يعرض الآراء التى يخالفها بما لديها من حجج وأدلة، ثم يناقشها و يرد على أدلتها، ثم يسوق أدلته هو و يرد على ماعسى أن يثار ضد هذه الأدلة والحجج، ثم يخلص إلى النتيجة مؤيدة بالبراهين..

وقد أوردنا فيا سبق كثيرا من هذه الأحكام والآراء..

ولكنه صقل هذا كله فى قريته وقدم بعض الأضافات.

وكان من قبل قد كرر أنه لايحسن الظن بالمرأة، وهو يعنى المرأة التى لاشغل لها فى الحياة العامة، ولا تنشغل حتى بمنزلها وتربية أولادها، فهى لابد أن تنزع فى فراغها هذا الى دواعى الغزل، وإلى المعصية، ثم إلى الفساد. والرجال والنساء فى ذلك سواء.

على أنه يفتى بأن المرأة شرعا تستطيع أن تتولى الوظائف العامة بلا استثناء إذا كانت صالحة قادرة مؤهلة لتولى هذه الوظائف...

أما قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «لعن الله قوما ولوا امرهم أمراة» فهو إنما يعنى الخلافة أو الإمامة فحسب، فالخليفة يجب أن يكون رجلا. أما فيا عدا الخلافة فالمراة الصالحة لها حق ولاية أى أمر من أمور المسلمين.. وقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام: «كلكم راع وكلكم مسئول عن

رعيته . » وذكر الحديث أنواع الرعاة ومسئولياتهم فذكر المرأة : والمراة راعية وهى مسئولة عن رعيتها » .
فضلا عن أنه لم يرد نص فى القرآن أو السنة ، يحرم على المرأة تولى أمور المسلمين فيما عدا الخلافة .

وذهب ابن حزم إلى أن المرأة إذا تفقهت فى الدين وجب على الرجال أن يأخذوا عنها وقال ; « وهؤلاء أزواج النبى قد نقل عنهن أحكام الدين ، وقامت الحجة بنقلهن ، ولاخلاف فى ذلك .
« فالمرأة تستطيع أن تتولى القضاء والأفتاء وأن ترأس الرجال فى عملهم ، وأن تدرس لهم »

ونظر من جديد فى وضع العبيد والجوارى فأكد أنهم لايختلفون عن الأحرار فى صفة أو موهبة وأن العبودية ليست ذنبهم ، ولاهم الذين جروها على أنفسهم ، و بينهم من هو أتقى وأزكى وأصلح من الأحرار ، وقد ولى أمور المسلمين فى المشرق من أبناء الجوارى خلفاء كانوا صالحين وبناة حضارة ، وماذلك الا لأن أمهاتهم الجوارى قد أحسن تربيتهم ، وماولى الأندلس من هو ابن حرة قط ، فكل حكام الأندلس منذ الفتح من أولاد الأماء لقد كان منهم خلفاء عظام .

فإذا تاق العبد إلى الحرية فليس لمالكه أن يحرمه منها ، وعلى ولى الأمر أن يحمل المالك على تحرير المملوك . وفى ذلك قال أبن حزم : « من كان له مملوك مسلم أو أمة مسلمة فدعا أو دعت إلى الكتابة ، فرض على السيد الأجابة على ذلك . ويجبره السلطان على ذلك . وذلك بما يعرف بأن المملوك العبد أو الأمة يطيقه « أى بالسعر الذى يطيقه من يطلب العتق أو التحرير . وهو سعر يراعى فيه أمران : ألا يجحف بمالك العبد أو الامة ، وأن يطيقه العبد وتطيقه الأمة ، فإذا أختلف الطرفان تدخل السلطان ليجبر المالك

فاذا أختلف الطرفان تدخل السلطان ليجبر المالك على عتق المملوك أو المملوكة

ويحدد السلطان السعر العادل . و برهان ابن حزم على هذا هو نص الآية الكريمة : « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » .

ومالك الرقيق الذين يعجزون عن تحرير أنفسهم مأمور شرعا بأن يعاملهم كما يعامل أبناءه وذوى قرباه فى كل أمور المعاش . .

وكان ابن حزم قد نفض يديه من الحكام ليأخذ بيد المحكومين ، و يئس من اصلاح الرعاة فاتجه إلى الرعية يعرف الناس بحقوقهم على ولى الأمر ، وأفتى بأن السلطان مطالب شرعا بأن يوفر لرعيته حد الكفاية من المأكل والملبس والمسكن ودابة الركوب . هذا هو رأى إمام مصر الليث بن سعد . وزاد ابن حزم أنه ما من شىء يضطر المسلم إلى أن يأكل ماحرمه الله كالميتة والدم ولحم الخنزير . فالمسلم

لايضطر إلى هذا أبدا إلا إن عضه الجوع وهو فى خلاء ولم يجد غير هذا الطعام المحرم . أما المسلم فى بلده فولى الأمر مسئول عن إطعامه ، فإذا لم يكن فى بيت المال مايكفى لإطعام الجياع ، فعلى السلطان أن يفرض فى أموال الأغنياء مايكفى لمواجهة حاجات الفقراء . فإذا لم يفعل السلطان أى ولى الأمر، فقد أثم وجاز للجائع ان لم يجد طعاما ، أن يقاتل على هذا الطعام من لديه طعام لايحتاج إليه ، فان قتل الجائع فهو شهيد وعلى قاتله القصاص ، وان قتل مانع الطعام فهو فى النار ولاقصاص !

وأفتى بأن تعاون الجيران ليس من مكارم الأخلاق إن شاء الجار أتاها أو تركها ، بل هو تكليف شرعى بنص القرآن : « فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون ويمنعون الماعون » . والماعون هو مايقترضه الجار المحتاج من جاره كالأوانى ودواب الركوب وأدوات الزرع والحرث ونحو ذلك .

وأفتى فى الماء : « لايجوز بيع الماء بوجه من الوجوه لافى ساقية ولا من نهر أو من عين أو من بئر ولافى صهريج ولامجموعا فى قربة ولافى إناء . ولايملك أحد الماء الجارى الا مادام فى ساقيته ونهره ، فإن فارقهما بطل ملكه عنه وصار لمن فى أرضه ، وهكذا أبدا . أما من حفر بئرا بعمله وماله فهو أحق بمائها مادام محتاجا ، فإن فضل عنه مالايحتاج إليه لم يحل له منعه عمن يحتاج إليه ، وكذلك فضل النهر والساقية .. ومن أستسقى قوما ولم يسقوه وهم يعلمون أنه لاماء له البته فهم قاتلوه عمدا ، وعليهم القود (القصاص) بأن يمنعوا الماء حتى يموتوا كثروا أو قلوا . وهكذا القول فى الجائع والعارى . ولافرق .

وقد فرض ابن حزم على كل صاحب إبل و بقر وغنم « أن يحلبها يوم ورودها على الماء و يتصدق من لبنها بما طابت به نفسه » . فقد جاء فى الحديث الشريف : « تأتى الأبل على صاحبها على خير ما كانت إذا هو لم يعط حقها تطؤه بأخفافها ، وتأتى الغنم على صاحبها على خير ماكانت اذا لم يعط فيها حقها تطؤه بأظلافها وتنطحه بقرونها . ومن حقها أن تحلب على الماء » .

فى أموال القادرين حقوق غير الزكاة ، وهذه الحقوق واجبة الأداء ، وليس أداؤها من باب التطوع . قال : « وفرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم ويجبرهم السلطان على ذلك »

أما ماسبق به المفكرين الذين جاءوا من بعده ، فتلك أمور تمس بواطن النفوس وخصائص الأشياء ومظاهر الطبيعة :

— من ذلك أنه اهتدى إلى نظرية فى المعرفة تقوم على مزج بين الفطرة والتجربة بين البديهة والحس .. و يلخص نظريته هذه بقوله : « إن العلم بالضرورة أو بالعقل راجع إلى الحس »

فالإنسان يعرف أشياء بالبديهة أو الفطرة و يصقل علمه بالحواس وهو مايختزنه بإدراكه الحسى فى زمن سابق ، ويحكم هذا بالتجربة . فهذه هى المعرفة .

وهذه نظرية فى المعرفة اكتملت بعد ذلك بقرون . وكان الأوربيون فى عصر ابن حزم يقرأون كتاباته وكان المتعلمون فى جنوب فرنسا وإيطاليا ومايليها لايعتبرون متعلمين حقا إلا أن يعرفوا العربية .

ومن ذلك أنه اهتدى فى وقت مبكر جدا إلى أن الأرض كروية وقد وصل إلى هذا الرأى من فهمه لظاهر آية فى القرآن الكريم فكتب يقول : « ان أحدا من أئمة المسلمين المستحقين لاسم الأمامة بالعلم رضى الله عنهم لم ينكروا تكوير الأرض ، ولايحفظ لأحد منهم فى دفعه كلمة . بل البراهين من القرآن والسنة قد جاءت بتكوريها ، قال الله عز وجل : (و يكور الليل على النهار و يكور النهار على الليل) . وهذا أوضح بيان فى تكوير الأرض ... »

ـــ ومن ذلك رأيه فى أن الجزئ قابل لأن يتجزاء . وعن الجزىء (أى الذرة) . يقول ابن حزم : « ليس فى العالم جزء لايتجزأ ، وإن كل جزء أنقسم الجسم إليه فهو جزء أيضا وأن رق أبدا ..... وأن كل شىء يحتمل أن يكون على أجزاء كثيرة فبالضرورة ندرى أنه يحتمل أن يجزأ الى أقل منها ... »

و يرى الأستاذان عبد الحليم عويس وأحمد عبد الوهاب أنه سبق بهذه الأراء العلماء المفكرين حتى القرن العشرين .

على أن ابن حزم لم يسلم من الهجوم على الرغم من اعتزاله الناس فى قريته . فها هوذا يذيع كل الآراء التى ظن الناس أنها اختفت بعد أن أحرقت كتبه .. ! ها هوذا يحكم أراءه لتصبح أكثر ذيوعا من قبل ! وهاهوذا يصنف مؤلفات جديدة ، وأن الشباب ليلتفون حوله أكثر مما التفوا فى أى وقت مضى .. لا يسمعون قول فقيه غيره . ! !

زادت الثورة عليه ، واتهموه مرة أخرى بأنه يحرض الفقراء والجياع والعراة على الأغنياء ! وأتهموه بأنه يبيح الماء من لاحق لهم فيه ، ويحرض العبيد على إكراه السادة لتحريرهم .. وهوبعد يهاجم بعض الفقهاء والذين يزعمون أن الأرض تقف على قرن ثور و يتهمهم بإنهم يشيعون الخرافات التى تجعل الشباب يرفضونها فيتجهون الى الإلحاد فهؤلاء الفقهاء هم المسئولون إذن عن إلحاد الآخرين ! ثم إنه يقنع هؤلاء الشباب بأن الأرض كروية ، و يسترضى الأبناء غير الشرعيين الذين أوجدتهم ظروف المجتمع الفاسد و يعتبرهم ضحايا فساد المجتمع ، فيجب لهم حسن الرعاية ، و يفتى بمساواتهم بالأبناء الشرعيين .

واتهمه خصومه من جديد بالخروج على الدين ، وإثارة الفتنة ... واتهمه بعضهم بالجمود لوقوفه عند ظاهر النص . ، فأغلظ فى الرد عليهم جميعا ، واتهمهم بأنهم جهلاء مراءون منافقون يساندون الحكام ويمدحونهم بغير مافيهم و يز ينون لهم البغى والظلم والأنحراف عن الأسلام للحصول على الجوائز والأموال والمناصب والاقطاعات ! !

وعلى الرغم من استعار الخصومة بينه و بين الفقهاء من متبعى المذاهب ، فقد ظل مع ذلك يعمل و يعلم ، حتى لقد كتب فى قر يته تلك مايزن حمل بعير منها كتاب « الإنعام فى أصول الأحكام »

وهو مصنف فى أصول الفقه من ثمانية أجزاء وقد قال عنه المغفور له الشيخ أحمد شاكر أحد أعلام الشرعية والفقه فى القرن الرابع عشر الهجرى : هذا الكتاب النفيس الذى لم تر العينى مثيله فى علم الأصول

ولكنه إذ رأى مايعانيه من أهل زمانه كتب وكأنه كان يعزى نفسه وسائر المخلصين من أهل العلم والفقه والفكر .

« أزهد الناس فى عالم أهله ، وقرأت فى الإنجيل أن عيسى عليه السلام قال : (لايفقد النبى حرمته الا فى بلده) . وقد تيقنا ذلك بما لقى النبى صلى الله عليه وسلم من قر يش ، وهم أوفر الناس أحلاما ، وأصحهم عقولا ، وأشدهم تثبتا ، مع ماخصوا به من سكناهم أفضل البقاع ، وتغذيتهم باكره المياه (بئر زمزم) و حتى خص الله تعالى الأوس والخزرج بالفضيلة التى أبانهم بها عن جميع الناس ، والله يؤتى فضله من يشاء ، ولاسيما أندلسنا فإنها خصت من حسد أهلها للعالم الظاهر فيهم ، الماهر منهم ، بأستقلالهم كثيرا مايأتى به ، واستهجانهم حسناته وتتبعهم سقطاته وعثراته ... أن اجاد قالوا : (سارق مغير) . وإن توسط قالوا : (غث بارد وضعيف ساقط) . وإن باكر لحيازة قصب السبق ، قالوا : (متى كان هذا ، ومتى تعلم ، وفى أى زمان قرأ ! ؟ ولامه الهبل !) ... فإذا سلك غير السبيل التى عهدوها ، حمي الوطيس على البائس ، وصار غرضا للأقوال ، ونهبا للألسنة ، وعرضه للتطرق الى عرضه .... فإن لم يتعلق من السلطان بحظ لم يسلم من المتالف ... وعظم يسير خطبه ، واستشنع هين سقطه ، وأشتط عليه ، وسترت فضائله ، فتنكسر لذلك همته ، وتكل نفسه ، وتبرد حميته . »

لكم لقى ابن حزم حقا ! وقد وصف أحد المنصفين من خصومه ماكان يلقاه : « أن ابن حزم أصابه ماأصابه من الحسد الذى لادواء له ، لأنه أزهد الناس في عالم أهله . »

وفى شعبان سنة ٤٥٦هـ ، كان ابن حزم قد جاوز السبعين بنحو عامين ، وقد أنهكه العمل

الدائب ، والصراع المتصل ، والجحود والاضطهاد ، وهدته جراحات الغدر!

لقد آن للقلب المعذب أن يستريح ! ....
وعندما شعر بدنو الأجل قال قصيدة جاء فيها :

عفا الله عنى يوم أرحل ظاعنا
عن الأهل محولا إلى ضيق ملحد
فوا راحتى إن كان زادى مقدما
ويانصبى إن كنت لم أتزود .

ثم سكت قلبه إلى الأبد ، ولكن أصداء من صوته عبرت أطباق التاريخ !

ويمضى الزمن ليحكم الأندلس بعد قرنين من وفاة ابن حزم حاكم ينشر كتب الفقيه المضطهد ، ويحمل الناس على الأخذ بما جاء فيها .. ثم يطارد ذلك الحاكم أتباع الائمة الأربعة ويحرق كتب الاجتهاد بالرأى وكتب الامام مالك بصفة خاصة ، ويخير الناس بين الأخذ بمذهب ابن حزم واتباع ظاهر القرآن والسنة أو السيف . !

وتعبر آراء ابن حزم جسور الزمن ، لتؤثر فى المشرق العربى على أفكار فقيهين من أصحاب المذاهب ، ثار كلاهما على التقليد فحاول التجديد ... واصطلك كل منهما بعصره وكابده عصره ... هما عز الدين بن عبد العزيز بن عبد السلام الشافعى ، وتقى الدين تيمية الحنبلى ..

العز عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام

سلطان العلماء

تنبأ لنفسه أنه سيعيش ثلاثا وثمانين عاما ، فكان الأمر كما قال ! ..

زاره صديق ذات صباح فقال له : « رأيتك فى المنام تنشد :

وكنت كذى رجلين رجل صحيحة
وأخرى رمى فيها الزمان فشلت

فسكت ساعة ثم قال : أعيش ثلاثا وثمانين سنة ، فأن هذا الشعر لكثير عزة ولانسبة بينى و بينه غير السن ، فهو شيعى وأنا سنى ، وهو قصير وأنا لست بقصير ، وقد عاش ثلاثا وثمانين سنة فسأعيش كما عاش أن شاء الله .

ولد فى دمشق عام ٥٧٧هـ ، وتوفى بالقاهرة عام ٦٦٠ هـ ، ودفن بسفح المقطم .

وحين بلغ الثانية والستين ، بدأ حياة جديدة ، وغير كل ماتعوده وهو صغير : فقد ترك دمشق مغاضبا وهاجر إلى الله من بغى حاكم دمشق ، واستقر فى القاهرة ، وشرع فى تأليف الكتب . فوضع كل مصنفاته فيها ، وماكان من قبل قد كتب شيئا يعتد به ، ذلك أنه كان ينفق كل وقته فى التدريس والخطابة والوعظ .. وفى القاهرة جمع إلى هذه الأعباء مسئولية الكتابة ، فصنف كتبا فى الفقه والتفسير والأصول والتصوف . وصاول الحكام ! .

أطلق عليه أبوه اسم العز عز الدين عبد العزيز .. ولكنه عندما كبر اشتهر بأسم عز الدين و بأسم العز ، وقلما كان يناديه الناس عبد العزيز .

وقد فتح العز بن عبد السلام عينيه على حياة الحرمان ... كان أبوه عبد السلام فقيرا جهد الفقر ، وكان يجوب الأسواق بحثا عن عمل .

وحين شب الطفل صحبه أبوه ليساعده فى بعض الأعمال الشاقة كإصلاح الطرق وحمل الأمتعة ، وتنظيف ما أمام محلات التجار . .

وكان أبوه عبد السلام يأخذه إلى الجامع الأموى إذا حان وقت الصلاة ، ورآه أحد شيوخ المسجد . فأعجب به ودعا له .

مات أبوه فلم يجد فى نفسه القوة على القيام بالأعمال الشاقة التى كان يؤديها أبوه ، ولم يجد الصبى مكانا يأوى إليه ، فذهب إلى ذلك الشيخ يلتمس عنده المساعدة فى الحصول على عمل يقتات منه ومكان يبيت فيه .

وتوسط له الشيخ فألحقوا الصبى بالجامع الأموى ، يساعد الكبار فى أعمال النظافة ، وفى حراسة نعال المصلين وأهل الحلقات التى يتركونها عند أحد أبواب الجامع ، وسمحوا له بأن ينام الليل فى زاوية بأحد دهاليز الجامع ، على الرخام .

وكان الصبى يعايش مراثى الغنى والمتاع خلف أسوار القصور بحدائقها الفيحاء فى دمشق ، ويشاهد الجياد الفارهة على صهواتها رجال تنعكس الشمس على خوذاتهم ، وملابسهم الزاهية وسيوفهم المرصعة بالذهب ، ويتأمل حاله وثوبه الذى تقتحمه العيون ، ومضجعه البارد على رخام زاوية فى المسجد ، ثم يتساءل فى أغوار نفسه كيف يعيش فى بلد واحد رجال ونساء كهولاء الغارقين فى النعيم ، والذين يسقطون من الحرمان ، ويقتاتون بالأسى والأحلام ؟ !

على أنه صرف همه إلى مايقوله الشيوخ فى الحلقات ... وكان يتناهى إلى سمعه وهو على باب المسجد يحرس النعال كلام يثير خياله ، ويلهب أشواقه إلى دنيا أخرى لايجوع فيها ولايعرى !

وتسلل إلى أحد الحلقات ذات يوم ، ودس جسده النحيل الصغير بين الطلبة الكبار . ورآه شيخ الحلقة ، فنهره ، وسأله كيف يسمح لنفسه أن يجلس بثوب ممزق فى مجلس للعلم ينبغى على الطالب فيه أن يأخذ زينته .. ؟ !

وجرى الصبى إلى باب المسجد ، وتكور على نفسه يبكى ! .. حتى إذا حان خروج الشيوخ والطلاب ، رآه الشيخ الذى ألحقه بالجامع وهو الفخر بن عساكر صاحب حلقة الفقه الشافعى ، وسأله الشيخ عما يبكيه ، فروى له ماكان من أمره ، فطيب الشيخ خاطره ، ووعده أن يتعهده ، وسيحضر الحلقات عندما يبلغ الشباب . ومن يدرى ! ؟ فربما أصبح هذا الصبى نفسه شيخا لحلقة فى هذا الجامع ذات يوم ! ..

وضحك الصبى ، والتمعت عيناه ، واقتحمت نظراته الجدران إلى آفاق المستقبل ، ورأى نفسه طالب علم ، ثم شيخا لحلقة ، فأوشك أن يثب من الفرح ، وقبل يد الشيخ ، وسأله متى يبدأ التعليم ، فقد جاوز سن الطلب ؟ ! .. وقال له الشيخ الفخر بن عساكر، أنه سيبدأ من الغد .

حتى إذا كان الغد ، أخذه الشيخ إلى مكتب ملحق بالمسجد وأوصى بأن يتعلم القراءة والكتابة والخط وأن يحفظ القرآن ، وتعهد الشيخ بنفقة الصبى .

وأقبل العز على المكتب فى شغف عظيم ، وحفظ القرآن ، وأتقن القراءة والكتابة والخط الحسن ، وعوض مافاته من سنوات الدرس .

وكان كلما لقى شيخه على باب الجامع سأله الشيخ عن حاله ، فيسمعه الصبى ماحفظ من القرآن ، و يطلعه على مايكتب فى اللوح الصفيح من الآيات الكريمة .

وأعجب الشيخ ابن عساكر بما يبدو على العز من مخايل النجابة والذكاء ، وحسن ترتيله للقرآن ، وأعجب بصفة خاصة ببشاشة الصبى على الرغم من فقره الطاحن . !

ومرت أعوام ، واطمأن الشيخ فخر الدين الى أن الصبى قد أتقن حفظ القرآن وجوده ، وإلى أنه قد أصبح يحذق القراءة والكتابة بخط جيل ، فبشره الشيخ بأنه سيضمه إلى الطلاب الذين يحضرون حلقته ، ودفع إليه بما يعينه على شراء ثوب صالح لحضور حلقات العلم .

وأمضى الصبى ليلته يحلم بالمستقبل !

إنه الآن ليثب إلى مرحلة الشباب ، وهو فى حاجة إلى عمل يكفل له دفء المسكن والثوب اللائق والطعام الطيب .. ! هو فى حاجة إلى مال يوفر له شراء أدوات التحصيل من دفاتر وأقلام وأوراق ومحبرة ، ومايلزم من كتب .

وتحرج أن يكلم الشيخ ليساعده فى الحصول على عمل آخر يحصل منه على أجر أكبر و يوفر له ماينبغى لطالب العلم ! .. لقد منعه الحياء ! ..

وقبل أن تنتهى ليلته استيقظ فجأة !.

ويحدثنا السبكى فى طبقات الشافعية عن تلك الليلة فيقول : « كان الشيخ عز الدين فى أول أمره فقيرا جدا ، ولم يشتغل الا على كبر، وسبب ذلك أنه كان يبيت فى كلاسة « زاو ية » من جامع دمشق ، فبات فيها ليلة ذات برد شديد فاحتلم ، فقام مسرعا ونزل فى بركة الكلاسة فحصل له أ

شديد من البرد ، وعاد فنام ، فاحتلم ثانيا ، فعاد إلى البركة لأن أبواب الجامع مغلقة وهو لايمكنه الخروج ، فطلع فأغمى عليه من شدة البرد .. ثم سمع النداء : يابن عبد السلام أتريد العلم أم العمل ؟ فقال : بل العمل لأنه يهدى إلى العلم » .

وأصبح الفتى عز الدين ، فروى لشيخه أبن عساكر ماكان من امر تلك الليلة . وقال الشيخ له « لقد بلغت مبلغ الرجال . وهذا النداء هاتف من السماء يأمرك أن تهب نفسك للعلم » .

وأعطاه الشيخ كتاب « التنبيه » فى الفقه الشافعى ، وأعطاه أسبوعين مهلة ليحسن قراءته وأستيعابه . وعاد العز إلى شيخه بعد ثلاثة أيام وقد استوعب الكتاب وحفظه عن ظهر قلب !

وضمه الشيخ إلى حلقته ، ونظم له حضور حلقات أخرى فى اللغة وآدابها ، وفى الحديث وأصول الفقه . ونصحه أن يتقن علوم اللغة من نحو وصرف ، وأن يحفظ الشعر و يدرسه ليحسن فهم نصوص القرآن .

وكان العصر زاخرا بكثير من المعارف . ولكن الشيخ ابن عساكر نصح تلميذه إلا يهتم من كل تلك العلوم الا بما يعين على فهم القرآن .

ولزم عز الدين شيخه ابن عساكر ، وتعلم منه الفقه الشافعى ، وكان الشيخ زاهدا ورعا واسع المعرفة كثير الصدقات ، خطيبا ، لاذعا ، وهو فى الوقت نفسه شديد الحياء ، وكان مرحا متألق الظرف ، فتأثر تلميذه عز الدين ونقل عنه كثيرا من خصاله وسجاياه .

من الحق أن عز الدين لزم شيخه ابن عساكر وتأثر به ، ولكنه لم يلتزم نصحه فيا يطلب من علوم . فتاق إلى التزود بمعارف عصره جميعا . وكانت أفكار اليونان والمصريين القدماء والهنود والفارسيين قد نقلت إلى اللغة العربية .. وكان المسلمون قد تفوقوا فى علوم الطبيعة والطب والكيمياء والرياضيات والفلك ، وتعاطوا الفلسفة فأراد عز الدين أن ينهل من هذا كله ..

وكانت فلسفة الاشراق التى جاء بها السهروردى إلى دمشق وحلب تعيش ، وتصك أعداء تلك الفلسفة الذين نجحوا من قبل فى الايقاع بالسهروردى ، فأغروا به صلاح الدين . وكان ابنه الظاهر يحمى السهروردى فى قصره بحلب ... فأمر صلاح الدين ابنه الظاهر أن يسجن السهروردى حتى يهلك فى سجنه صبرا وجوعا وعطشا ، ولكن الظاهر بن صلاح امتنع ، فأرسل إليه أبوه يخيره بين إحدى اثنتين : إما قتل السهروردى أو العزل !

وأذعن صاحب حلب لأمر أبيه صلاح الدين وجاء بالسهروردى وخصومه ، وأمرهم أن يناظروه

قبل أن يقضى فى أمره .

كان السهروردى شيعيا ، وصلاح الدين يحارب الشيعة و يضربهم فى كل مكان ... وكان السهروردى ينادى بأن العالم لم يخل من الحكمة ومن شخص قائم بها عنده الحجج والبينات ، وهذا الشخص هو الإمام وهو خليفة الله فى أرضه ، وهو واجب الاتباع فهو معصوم يوحى إليه لكن على نحو آخر غير الأنبياء والرسل !

وكان السهروردى يذهب إلى أن النور أساس كل الموجودات ، و يعتمد على الآية الكريمة : « الله نور السموات والأرض » . وقد استفاد بحكمة أخناتون الذى نادى بالتوحيد فى مصر القديمة ، وأعتبر النور والشمس بالذات سبب وجود كل الكائنات الحية . كما أستفاد الرجل بأفكار أفلاطون فى المثل وآراء زارد شت الفارسى . ولكنه رد كل أفكاره إلى القرآن الكريم .. وأحسن الاستشهاد بآياته . .

ولم يعرف أحد لماذا ثار فقهاء دمشق على السهروردى ، واتهموه بالشعوبية وهى الدعوة إلى تغليب الفرس على العرب ، ثم اتهموه بالكفر ! ... وعلى الرغم من أن الظاهر بن صلاح الدين كان سنيا كأبيه ، فقد بسط حمايته على السهروردى معجبا بأفكاره الصوفية و بفكرة الأشراق ، والفيض الالهى الذى تشرق به قلوب الصالحين فيحصلون المعرفة الذوقية مع المعرفة العقلية .

ومهما يكن من أمر فقد جمع الظاهر بن صلاح الدين خصوم السهروردى من الفقهاء ... و بدأت المناظرة أو المحاكمة التى صدر فيها سلفا أمر صلاح الدين بقتل السهروردى حكيم الأشراق ! !

سأله خصومه : « الله قادر على أن يخلق مايشاء ؟ ! »

قال السهروردى : « نعم » . فسألوه : » ونبى الإسلام أليس هو خاتم الأنبياء ؟ . »

قال : « بلى » . قالوا : « ألا يستطيع إله هكذا أن يبعث نبيا بعد نبى الإسلام ؟ . »

كان السؤال مصيدة للرجل !

قال السهروردى بعد لحظة : « ختمت النبوة ولكن الولاية قائمة . »

وأخذوه برأيه فى الولاية .. فهو يرى أن ولى الله وهو الإمام المعصوم قطب الأقطاب خليفة الله فى الأرض يجب أن يكون من نسل النبى ... وهذا النظر يحكم بعدم شرعية الخلفاء والملوك إلا اذا كانوا من نسل الرسول صلى الله عليه وسلم ... أى من أبناء على وفاطمة رضى الله عنهما .. وصلاح الدين نفسه ليس عربيا على الأطلاق فهو كردى الأصل . وهكذا اضطر الظاهر بن صلاح الدين أن يودع السهروردى غيابة السجن ليموت فيه صبرا وجوعا !

لقد وقعت الواقعة بالسهروردى بينما كان عز الدين بن عبد السلام صبيا فى نحوه العاشرة من عمره ، وزلزلت نهاية السهروردى الفاجعة نفس الصبى زلزالا شديدا ، ولم يفارقه الحزن والعجب .. كيف يقضى على رجال بالموت لأنه قال رأيا يخالف فيه بعض الفقهاء ، ولايرضى عنه الحاكم ! ؟

ولكن أفكار السهروردى فى الأشراق قد ذاعت وملأت أماكن العلم ، واصطك فيها الناس بين مستنكر ومعارض .. منهم من يرى القتيل شهيدا مات دفاعا عن تصوفه ومنهم من يراه كافرا ! ! حتى ظهر فى دمشق رجل آخر تسمى باسم السهروردى ، وأذاع أفكار السهروردى فى الأشراق ،ولكنه لم يعد يتحدث عن الإمامة والولاية ، ولبس خرقة التصوف ، ومضى فى الطرقات يهتف بالناس : « الله نور السماوات والأرض . » وأخذ يشرح أفكار السهروردى عن النور والفيض الإلهى ..

وتبعه قوم لبسوا خرق التصوف ، وأطلقوا كلمات فى الأسواق وندوات العلم . كلمات مكثفة تحمل رموزا كثيرة .. !

وبهر الشاب عز الدين بهؤلاء وأحوالهم .. وبهرته بصفة خاصة شخصية السهروردى الجديد ، فلزمه على الرغم من نصيحة شيخه .. ولبس عز الدين خرقة التصوف عاما أو بعض عام ملتمسا علم الحقيقة على يد السهروردى الجديد ، جتى إذا علم ماعنده ، عاد إلى أستاذه ابن عساكر يلتمس عنده علوم الشريعة من جديد ..

وسمع عز الدين أن فى العراق شيخا عنده من علم الحديث ماليس عند غيره فى دمشق فحمل متاعه وزاده وزواده وسافر إلى بغداد ، وجلس إلى ذلك الشيخ وحفظ عنه الحديث .. ثم عاد من جديد إلى دمشق .

كان صلاح الدين الأيوبى قد مات ، وترك دولة شاسعة تقاسمها أخوته وأبناؤه وأبناء أخوته .. وماهى إلا سنوات حتى تقطعوا أمرهم ، فتفرقوا وأصبح بأسهم بينهم شديدا .. وتمزقت دولة صلاح الدين إلى دويلات تناحرت فيا بينها ، مما أغرى التتار والصليبيين بالطمع فى الاستيلاء على بعض أجزاء هذه الدولة الإسلامية الكبرى .

وقد أسكت هؤلاء الحكام معارضيهم إما بالأرهاب والقمع أو بإغراقهم فى المال أو بدفعهم إلى الزهد والتصوف على نحو لم يعرفه السلف الصالح من الزهاد والمتصوفين . وكان هؤلاء جميعا من العلماء والفقهاء الذين يؤثرون فى الأمة أبلغ تأثير !

وعز الدين يرى كل هذا ، فيتقدم صفوف طلاب العلم تحت راية الإسلام وخلف قيادة بعض شيوخه من العلماء القلائل المقاومين .. وعرفه الشباب خطيبا يستثير الحمية .

وكان إلى هذا شديد الدأب على تحصيل العلم ، مما أثار إعجاب شيوخه به .

ولم يكد ينتهى من الدراسة على شيخه الفخر بن عساكر، وغيره من الشيوخ فى جامع دمشق ، حتى أجازوه للتدريس .

وعين مدرسا بدمشق ، يقرئ صغار الطلاب القرآن ، و يعلمهم القراءة والكتابة .. ثم نقل الى مدرسة أعلى .. يعلم الطلاب الفقه وأصول الفقه على المذهب الشافعى .. وهو المذهب السائد إذ ذاك فى كل البلاد التى حكمها صلاح الدين .

وهيأت له مهنة التدريس أجرا طيبا أصلح به حاله ، فاستأجر بيتا لائقا وتزوج ..

وعرف الناس فى ندوات دمشق شيخا متوسط الطول ، يسخر مما يلقى ، مرحا ضاحك السن ، وعليه مع ذلك وقاره عذب الحديث ، خفيض الصوت اذا تكلم ، جهير الصوت إذا انفعل أو خطب ، نظيف الثوب ، لايرد سائلا ، فإذا لم يجد مايتصدق به أقتطع جزءا من عمامته ودفع به الى سائله !

وكان نحيلا يقتحم بنظراته المجهول كأنه يفتش وراء الغيب عن شيء ما .. !

لم يقتنع بما نال من علم ، فتعود أن يغشى مكتبة الجامع الأموى يقرأ فيها كل مايقع عليه من معارف ، وقد كشفت له تأملاته ودراساته فى آثار السلف أن كل المعارف الإنسانية تعين على فهم القرآن .. وكان يريد أن يفسر القرآن ، ولكنه شعر أن الوقت لم يحن بعد ، وأن عليه أن يستوعب الكثير من العلوم حتى يجسر على العمل بالتفسير وهو مطمئن الضمير!

ودرس خلافات المتقدمين حول الفلسفة ، وكان الإمام الغزالى قد هاجم الفلسفة من قبل ، ولكن هذا لم يصرف كل العلماء عن دراسة الفلسفة ، فهاهو ذا السهروردى المقتول الذى فتن عز الدين بآرائه قد خلف ميراثا سخيا من الفكر وفق فيه بين الفلسفة والدين .

واستوعب العز كل ماتركه السلف فى علم الكلام . العلم الذى يتكلم عن الله وصفاته وأسمائه . ومن السلف من هاجم هذا العلم ونبذه واعتبره بدعة فاسدة ، ومنهم من عالجه وتعمق فيه وأضاف إليه ، واعتبره علم أصول الدين .

والخلاف بين العلماء حول هذا الأمر قديم يرجع إلى نهاية القرن الأول وأوائل القرن الثانى للهجرة ، حين ظهر المعتزلة وأخضعوا كل شيء للعقل ، وتحدثوا فى القضاء والقدر والجبر والاختيار وصفات الله تعالى ، واعتمدوا فى كل آرائهم على الأدلة العقلية . ونبذوهم أهل السنة ورفضوهم وأعتمدوا على ماتركه السلف منذ عصر النبى صلى عليه وسلم وعصر الصحابة ومن بعدهم عصر التابعين . وذهب

أهل السنة إلى رفض الكلام فى كل هذه الأمور، لأن أسلافهم لم يتكلموا فيها بل إن منهم من نهى عن الاقتراب منها .

واتهم أهل السنة مفكرى المعتزلة بالزيغ والضلال ، واتهمهم المعتزلة بالجمود وانعكس هذا على قواعد استنباط الأحكام وأصول الفقه ، فمن تأثروا بالنظر العقلى اعتمدوا على الرأى فى الاستنباط ، وتمسك آخرون بالنصوص ، وحدها ، ولم يعدلوا عنها إلى الرأى إن لم يجدوا الحكم فى النصوص كما صنع أهل الرأى ودعاة أعمال العقل ، بل آثروا الصمت . ومن أهل السنة من أخذ بظاهر النص وحده ، ومنهم من تأول النص ليستنبط الحكم ان لم يسعفه الظاهر.

وانتقلت كل هذه الأفكار بصراعاتها على أمواج الزمن من جيل الى جيل . حتى أتيح لأهل السنة مفكر كان من قبل من كبار مفكرى المعتزلة ثم هجرهم ، مستخدما أدواتهم فى التفكير والاستنباط ، فاعتمد على البراهين العقلية فى مناصرة آراء أهل السنة والنصوص .

حدث هذا فى القرن الرابع الهجرى .

وهذا الفقيه هو الأشعرى الذى ألف الكتب على مذاهب أهل السنة ورد على المعتزلة فى كل مقولات علم الكلام . « حتى دخلوا فى أقاع السمسم » .

وكان المعتزلة قد ذهبوا إلى أن العقل هو أساس الحكم بالقبح والحسن ، وتبين الحلال والحرام ، وذهبوا فى تفسير الآية الكريمة وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا . الى أن الرسول ليس هو النبى الذى يرسله الله ، ولكنه العقل .

واتهمهم أهل السنة بالكفر، ورفضوا أن يتكلموا فى العقائد بالأدلة العقلية ، وهاجموا المنطق والفلسفة ، حتى جاء الأشعرى ، فاستعان بالمنطق والفلسفة فى الكلام عن العقائد ، ودافع عن السنة بأدلة المعتزلة . فلم يعتمد على النصوص وحدها فى كلامه عن العقائد ، وانما أعمل العقل ، ليناور المعتزلة بأسلحتهم .

وقد أعجب العز بهذا كله ، واعتنق عقيدة الأشعرى ، كما اعتنقها من قبل أكثر المستنيرين من أهل السنة والرأى مهما تختلف مذاهبهم الفقهية .

أعجب العز عز الدين بمحاولات المعتزلة والأشاعرة وتوفر على دارستها فى مكتبة الجامع الأموى .

ولقد أعجبته بصفة خاصة مناظرة بين الأشعرى والجبائى أحد أئمة المعتزلة ، « عن ثلاثة أخوة ماتوا : الأكبر منهم مؤمن بر تقى ، والأوسط كافر فاسق شقى ، والأصغر مات على الصغر لم يبلغ الحلم .

فقال الجبائى : أما الزاهد ففى الدرجات ، وأما الكافر ففى الدركات ــ بناء على أن ثواب المطيع وعقاب العاصى واجب على الله تعالى عند المعتزلة ــ وأما الصغير فمن أهل السلامة لايثاب ولايعاقب .

فقال الأشعرى : فإن طلب الصغير درجات أخيه الأكبر فى الجنة ؟

الجبائى : يقول الله تعالى الدرجات ثمرة الطاعات .

الأشعرى : فإن قال الصغير ليس منى النقص والتقصير.. فإنك إن أبقيتنى إلى أن أكبر لأطعتك ودخلت الجنة .

الجبائى : يقول البارى تعالى قد كنت أعلم منك أنك لو بقيت لعصيت ودخلت فى دركات الجحيم . فإن الأصلح لك أن تموت صغيرا .

الأشعرى : فإن قال العاصى المقيم فى العذاب الأليم مناديا من بين دركات النار وأطباق الجحيم : ياإله العالمين ! ياأرحم الراحمين ! لم راعيت مصلحة أخى دونى وأنت تعلم أن الأصلح لى أن أموت صغيرا ولا أصير فى السعير أسيرا ؟ فماذا يقول الرب ؟

فبهت الجبائى فى الحال وانقطع عن الجدال

وعن دور الأشعرى فى الفكر الدينى

كتب المغفور له الإمام الشيخ مصطفى عبد الرازق : أخذت الفلسفة توجه أهل الفرق إلى الاعتماد على العقل . فلما أخذ الأشعرى فى مناضلة المبتدعة بالعقل حفاظا للسنة ، جاء أنصار مذهبه من بعده يثبتون عقائدهم بالعقل تدعيما لها ومنعا لإثارة الشبهة حولها . ووضعوا الأدلة العقلية التى تتوقف عليها الأدلة والأنظار» .

وإذن فمذهب الأشعرى مقرر لمذاهب السلف ولكنه يناضل عنها بالأدلة العقلية لا بالنصوص وحدها . وهو رأى وسط بين مذهب المعتزلة الذين نفوا التجسيم عن الله تعالى ومذهب غلاة الحنابلة الذين آمنوا بالتجسيم كما يدل ظاهر النص .

ولقد شاعت عقيدة الاشعرى فاجتمع عليها الشافعية والمالكية والحنفية وفضلاء الحنابلة... كما قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام فيما بعد .

وكان صلاح الدين قد اعتنق المذهب الشافعى وعقيدة الأشعرى فألزم بها الناس .

غير أن الذين جاءوا من بعده تفرقوا : فظل بعضهم شافعيا على رأى صلاح الدين ، واعتنق بعضهم غير ذلك من المذاهب ، وإن ظلوا جميعا على رأى الأشعرى إلا قليلا !

وكان الملك الكامل حاكم مصر وهو ابن العادل شقيق صلاح الدين أوسعهم أفقا وأشدهم احتفالا بالعلم والعلماء ، حتى لقد جلس وهو ملك مصر إلى الشيوخ ليتعلم منهم فى الحلقات ثم تقدم لنيل إجازة علمية كما يتقدم غيره من الطلاب ، ونجح فيها ! وتعود أن يعقد مجلسا للعلماء فى مساء كل خميس ، وفتح المدارس والمكاتب وأغدق على أهل الفقه والعلم .. وكف عن اضطهاد أصحاب المذاهب الأخرى كما كان يصنع عمه صلاح الدين . وعين قضاة من كل المذاهب بدلا من القاضى الشافعى الذى اكتفى به أبوه .. ولقد نافسه فى تشجيع العلماء أخوه عيسى ، فكافأ المؤلفين حتى وضعوا فى عهد الملك الكامل كتابا من أضخم كتب الفقه الحنفى وهو كتاب (التذكرة) .

وقد أرسل العز بن عبد السلام إلى الملك الكامل وأخيه عيسى كتاب شكر على مايصنعان للعلم والعلماء ، فأرسلا اليه ردا جميلا . وبعث الملك الكامل إلى أخيه صاحب دمشق ــ الملك الأشرف ــ يستوصيه خيرا بالعالم الشاب عز الدين بن عبد السلام .

وكان عز الدين قد جذب إليه عديدا من الطلاب أحبوا دروسه التى كان يرصعها بما حفظ من طرائف الحكمة وروائع الشعر مما كان ييسر على الطلاب صعوبة الفقه .

وقصده الناس يستفتونه فلم يبخل عليهم بالرأى ، ولم يعد يتقيد بالمذهب الشافعى الذى كان يعتنقه من قبل ، بل كان يبحث فى كل المذاهب عن إجابات لما يرد اليه من أسئلة ، فإن لم يجد حاول أن يجتهد رأيه .

وكان شديد الحرج فى فتياه . يفكر طويلا قبل الإجابة ، و يظل يفكر بعدها و ينقب حتى يطمئن أنه على الصواب . ولقد أصدر فتيا ذات مرة ، ثم طفق يفكر بعدها فيما قال ، وعاد إلى كتب السلف عسى أن يجد فيها مايسانده ، فاكتشف أنه أخطأ ، ولم يكن يعرف صاحب المسألة الذى أستفتاه ، فأطلق عددا من تلاميذه فى الأسواق والطرقات والمساجد ينادون فى الناس : «من صدرت له فتيا بالأمس من العز عز الدين بن عبد السلام فلا يعمل بها فهى خطأ ، وليعد إلى الشيخ ليفتيه بالرأى من جديد بالصواب » .

شاع ذكر الشيخ فى أقطار المسلمين ، ولم يكن قد ألف كتابا بعد ، ولكن هاهو ذا شاب عالم فقيه زاهد أمين ، يتحرر من المذاهب الفقهية فى عصر شاع فيه التقليد للأئمة الأربعة ، كل جماعة تتعصب لمذهب ولا تعدوه حتى إن وجدت الجواب الصحيح عند غيره من المذاهب ، وكل حزب بما لديهم فرحون ! فإذا صدرت الفتيا من أحدهم فلا رجعة فيها حتى إن تبين الخطأ ..

وعز الدين لايتفرغ للعلم والتدريس والفتيا فحسب ، ولكنه يتحرك فى الأسواق يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فى رحمة وحكمة وموعظة حسنة ، و يشدد النكير على الظالمين من التجار الذين يبخسون الناس أشياءهم ، وعلى جباة المكوس ، والمرتشين والجائرين ممن يلون أمرا من أمور المسلمين .

من أجل ذلك أحبه الناس : المظلومون والفقراء خاصة ، وطلاب العلم الذين يجاهدون من أجل مستقبل أفضل . وخافه الجائرون من الحكام ، أما العادلون منهم فقد حاولوا أن يقربوه ، ولكنه كان بطبعه لايحب الاقتراب من السلطان ...

وضاق به بعض الفقهاء المقلدين ممن ينافقون الحكام .. ذلك أنه احتل مكانة لايؤهلها له عمره فهو بعد فى الخمسين ، وأنه ليعتمد على مكانته هذه ، فيسلق المقلدين والجامدين والمرتشين والمرتزقة الفقهاء بألسنة حداد ، و يطالب المسلمين ألا يتبعوهم حتى لايفسدوا عليهم دينهم !

وفى أحد الدروس وجه أحد الطلاب إلى الشيخ عز الدين سؤالا عن حكم الدين فى العلماء الذين يسكتون عن الظلم ، وهم بعد ذاك يتصدرون بعض الحلقات فى الجامع الأموى يعلمون و يفتون ؟ !

فأفتى الشيخ عز الدين بأن السكوت عن المنكر منكر.. وعلماء المسلمين هم أولى الناس بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فإن تخلوا فما أطاعوا الله والرسول ، وإن كان سكوتهم طمعا . فى الأموال والهدايا والمناصب أو حرصا فإثمهم مضاعف . وقد قال الله تعالى : « فلتكن منكم أمة يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر» . وهؤلاء هم العلماء ، فإن لم يفعلوا فهم العصاة والعياذ بالله ! ..

وسأل طالب آخر: أَلمثل هؤلاء طاعة ؟! فقال الشيخ : لاطاعة لهم ...

ورأى ذلك النفر من العلماء فى كلام الشيخ عز الدين تحريضا للطلاب وللعامة عليهم وعلى السلطان نفسه ! ..

وتوجه أحد طلاب الحلقات فى الجامع الأموى إلى شيخ حلقة يسأله عن حكم الدين فى العلماء الذين يتقاضون من الحكام أموالا وهدايا ثمنا لسكوتهم عن فساد هؤلاء الحكام ؟ .

وسأله طالب آخر عن رأى الدين فى العلماء الذين لايأمرون بالمعروف ولاينهون عن المنكر! . وغضب الشيخ غضبا شديدا وسب الطالبين سبا عنيفا ، وطردهما من الحلقة طردا غليظا وحرم عليهما دخول الجامع ، وذكر الشيخ عز الدين بن عبد السلام بالسوء وأنذر أن يوقع به العقاب حتى لايفتن الشباب !

فأعلن سائر الطلاب سخطهم لمقالة الشيخ وفعلته ، فسبهم جميعا ، وأنسحب من الحلقة وهو يصيح

أن ابن عبد السلام قد أفسد العامة والطلاب . !

وانصرف الرجل فاجتمع ببعض شيوخ الحلقات من المتصلين بالسلطان وذهبوا جميعا إليه ، فطالبوه أن يردع الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، وأن ينزل به عقاب من يثير الفتنة ، ولكن الحاكم طيب خاطرهم ، وكساهم حللا فاخرة وأغدق عليهم الهدايا وصررا من المال ، وطلب منهم أن يمهلوه فى أمر الشيخ عز الدين هذا . . !

ولكنهم عادوا يطالبون بأن يمنع عز الدين من الفتيا والتدريس والمشى فى الأسواق .

غير أن السلطان الأشرف لم يستجب لهم ، فالشيخ على أية حال لايدرس فى الجامع الأموى ، ولكن فى مدرسة صغيرة قليلة الخطر ! .. فليردوا هم فى الجامع الأموى على آرائه .

ولكنهم مازالوا بالحاكم يغرونه بالشيخ عز الدين حتى صرح لهم بأنه لايستطيع أن يسىء إلى عز الدين ، فالملك الكامل حاكم مصر يحب عز الدين ، و يوصى به خيرا ، فإن نال من عز الدين سلطانهم فسيغضب له الملك الكامل ولا طاقة له بغضب أخيه الأكبر !

ولم يهدأ كيد الخصوم عن الشيخ عز الدين ، وظلوا يتربصون به . .

وحاولوا أن يغروا به الطلاب والعامة وأن يسفهوا لهم آراءه ، ولكن حملتهم عليه وشدة عز الدين فى نقد ذلك النفر من العلماء ، مكنت له فى قلوب أهل دمشق ، وزادته مكانة فى قلب الملك الكامل . فأرسل الملك الكامل إلى أخيه الأشرف ، يطالبه بأن يحسن صلة الشيخ عز الدين ، وأن يعينه شيخ حلقة فى الجامع الأموى ، لتعم الفائدة من علمه .

أما الصلة فقد ردها الشيخ عز الدين شاكرا ، وأما منصبه فى الجامع الأموى ، فقد فرح به ، لأنه يتيح له الاتصال بعدد أكبر من الطلاب هم أنضج عقلا وأكبر سنا من طلاب المدرسة التى يعلم بها .

وكان منصب شيخ حلقة فى الجامع الأموى هو أكبر منصب علمى فى دمشق .

وتقدم الشيخ عز الدين ، بوجهه النحيل الباسم ، فى ثياب بسيطة نظيفة ، فاختار الزاوية الغزالية حيث كان الإمام الغزالى يعتكف منذ أجيال ، و بدأ يدرس للطلاب علوم الدين .. وتوافد عليه الطلاب حتى ضاقت بهم الحلقة ، وأقفرت سائر الحلقات من طلابها . وكان يلقى أكثر من درس فى النهار والليل فى الحديث والفقه والأصول .. غير متقيد بمذهب من المذاهب الأربعة .

وشرع يفتى كلما استفتاه أحد ، و يشرح عقيدة الأشعرى فى أصول الدين ، وأدلته العقلية على

صحة مذهب أهل السنة . و يأخذ الطلاب بإتقان وعلوم اللغة ليفهموا نصوص الشر يعة .

وغاظ التفاف الناس حوله وانصرافهم عن سواه ، كثيرا من خصومه ، فعادوا يحاولون الأيقاع به ، ولكنهم خشوا أن يردهم سلطان دمشق حرصا على إرضاء أخيه سلطان مصر !

أما الشيخ عز الدين فلم يكن ليبالى بهم ، بل مضى فى طر يقة ، يقرأ و يدرس و يفتى ، وقد أطمأنت به الحياة فالراتب الذى يأخذه من المسجد الأموى راتب كبير يكفيه لحياة موفورة .

وخاطبته زوجته فى أن يغير المسكن الضيق الذى كان قد أستأجره وهو مدرس فى مدرسة صغيرة ! .

لقد ضاق بهم المسكن بعد أن أنجبا أولادا . وقال لها إنه يعرف أن المسكن الضيق هو الجحيم الأصغر كما قال الإمام على كرم الله وجهه ، وهو يتمنى أن يغيره ، ولكن لاسبيل ... ! وعادت الزوجة تلح عليه ، وكان حانيا عليها شديد البر بها ، وتمنت لو أنه اشترى بيتا فسيحا يحيط به بستان جميل ، فهو بعد أستاذ وشيخ حلقة بالجامع الأموى ، و ينبغى أن يتخذ له سكنا مريحا يليق به ، و يتسع لأهله و بنيه ، ولضيوفه الذين يتوافدون عليه ملتمسين عنده العلم ، والفتيا بعد أن يفرغ من الحلقات ...

ووعدها خيرا ، غير أنه لم يستطع ، فقد كان ينفق عن سعة على أهل بيته ، ويحسن إكرام ضيوفه ، و يتصدق بما بقى ، ولايدخر شيئا على الإطلاق .

ثم أصابت دمشق أزمة ، فهبطت الأسعار، وقل المال ، أعنت الناس عنتا شديدا ... وصارت البيوت الواسعة بما حولها من البساتين تباع بثمن قليل .

فجاءته امرأته وطلبت منه مرة أخرى أن يشترى بيتا واسعا بحديقة وجمعت مصاغا لها وقالت :

ــ اشتر لنا بهذا بستانا .

فأخذ المصاغ و باعه ، وتصدق بثمنه .

فلما عاد إلى زوجته استقبلته فرحة :

ــ ياسيدى .. اشتر يت لنا بستانا !

ــ نعم ، بستانا فى الجنة . ! إنى وجدت الناس فى شدة فتصدقت بثمن المصاغ .

ــ جزاك الله خيـــــــــــرا .

وكان الناس يتسامعون بفضل الشيخ عز الدين فيزداد مكانةً واحتراما ، ولقد علم الأشرف صاحب دمشق بكثرة صدقاته ، فطلبه ، وحاول أن يقدم إليه مالا ليتصدق به ولكنه رد السلطان ، وأفتاه أنه من الخير أن يتصدق السلطان نفسه بالمال ! ..

وقارن السلطان الأشرف بين هذا الرجل يرفض عطاياه الخفية ، و بين الآخرين الذين يرتشون ويجهرون بالإلحاح فى طلب المزيد من الهدايا والأموال والمناصب ! !

ودخل السلطان الأشرف إكبار خارق لعز الدين ، وأدرك أن أخاه الكامل ملك مصر على حق ، فمثل هذا الشيخ جدير بالإحترام . وإن له لهيبة !

ولاحظ السلطان الأشرف أن الشيخ عز الدين لايطالب مقابلته على خلاف الآخرين ، وكانت سيطرة عز الدين على قلوب الشباب وسائر الناس تقوى يوما بعد يوم ، وهو لاينفك يهاجم خصومه من الفقهاء لجمودهم وتمسحهم بأصحاب السلطان ، ولايكف عن نقد أخطاء الحكام .

ورأى الأشرف أن من الحكمة أن يصطنع الشيخ لنفسه و يدنيه من القصر ، فأخذ يمدح الشيخ عز الدين فى كل مكان ، و يطلبه لمجالسته فيتثاقل عنه الشيخ إلى حلقات الدرس ومجال الفتيا ، ولا يبادله مدحا بمدح .

وانتهز خصومه الفرصة ، فزعموا للسلطان الأشرف أن الشيخ عز الدين قد غره حب الناس له والتفاف الشباب حوله ، فسولت له نفسه الأمارة بالسوء أن يتعالى على الجميع حتى على السلطان نفسه !

وفى الحق أن السلطان الأشرف ، كان يشعر بحرج لموقف الشيخ عز الدين منه ، وكان يحس فى أغوار نفسه أن الشيخ لايضمر له من الإحترام مايجب على المحكوم للحاكم ! ! ...

وكان فى حاشية السلطان نفر من فقهاء الحنابلة المتشددين المضيقين ، وكان الشيخ عز الدين ينكر عليهم غلظتهم مع مخالفيهم ، و يتهمهم بالحمق والجمود وفساد الرأى ، و بالإساءة إلى صاحب المذهب الإمام أحمد بن حنبل ، الذى كان فقيها جليلا عميق النظر واسع الأفق رائع الحكمة .. والذى ترك تراثا عظيما يحمل كل طاقات التجديد .

ولكن هذا النفر من فقهاء الحنابلة ، كانوا قد خالطوا السلطان الأشرف منذ كان حدثا صغيرا ، وصاغوا عقله على رأيهم الجامد المتحجر حتى « أختلط هذا بلحم السلطان ودمه وصار يعتقد أن مخالفه كافر حلال دمه »

وقد أتاحت لهم منزلتهم عند السلطان . ونفوذهم عليه أن يصنعوا فى البلاد كما يشاءون ، فكانوا إذا خلوا بمخالفيهم من الشافعية أو الأشعرية آذوهم وضربوهم !

وما كان ليغمض لهم جفن وهم يرون السلطان الأشرف يخطب ود الشيخ عز الدين بن عبد السلام .

وغدوا إلى السلطان ليوقعوا بالشيخ عز الدين ، قبل أن يتقارب الرجلان ، فزعموا للسلطان أن العز عز الدين يخالف السلف و يقول فى القرآن قولا عظيما .. ويخطىء من يقول فى القرآن بالحرف والصوت ، وأنه يعتنق رأى الأشعرى : أن الخبز لايشبع والماء لايروى والنار لاتحرق !! .. وهذا كله كفر !!

وكان الأشرف قليل الحظ من الثقافة وعلوم الدين والاطلاع على آثار السلف .. فما تعلم إلا ماعلمه ذلك النفر المحيطين به من أراذل فقهاء الحنابلة الذين ينافقونه !

ولم يصدق السلطان أول الأمر أن الشيخ عز الدين يقول هذا وهو العالم الورع عظيم التقوى .. وزجرهم السلطان .. ولكنهم وعدوا السسلطان أن يقدموا له الدليل الحاسم .

وأجمعوا أمرهم ، وجاءوا عز الدين عبد السلام فقدموا إليه ورقة فيها فتيا بأن القرآن حرف وصوت ، وطلبوا من الشيخ أن يكتب رأيه فى هذه الفتيا ، وكان قد علم بكيدهم وهم لايشعرون !

قال لهم الشيخ عز الدين : « هذه فتيا كتبت امتحانا لى . والله لاأكتب فيها إلا ما هو الحق . »

و بدأ الكتابة بتسفيه الفتيا ، وتأكيد أن الإمام أحمد بن حنبل لا يعتقد أن القرآن حرف وصوت ، وقولهم هذا إنما هو جهل فاضح برأى الإمام أحمد .. واستطرد الشيخ عز الدين فكتب أن الإمام أحمد بن حنبل برىء من كل مايدعون . وأن فضلاء الحنابلة أبرياء منهم . وكذلك سائر السلف : فهم لايقولون بالحرف والصوت . فالإمام أحمد بن حنبل وغيره من فقهاء السلف الصالح . لايعتقدون أن وصف الله القديم القائم بذاته هو عين لفظ اللافظين ومداد الكاتبين . مع أن لفظ الله قديم ، وهذه الأشكال والألفاظ حادثة بضرورة العقل وصريح النقل . قال تعالى : ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث . والعجب ممن يقول إن القرآن مركب من حرف وصوت ثم يزعم أنه فى المصحف !! وليس فى المصحف إلا حرف مجرد لاصوت معه !! وإنما أتى القوم من قبل جهلهم بكتاب الله وسنة رسوله وسخافة العقل و بلادة الذهن فإن لفظ القرآن يطلق فى الشرع واللسان على الوصف القديم ، و يطلق على القراءة الحادثة ، والقراءة غير المقروءة ، لأن القراءة حادثة والقرآن قديم وهؤلاء القوم يذمون الأشعرى لقوله أن الخبز لايشبع والماء لايروى والنار لاتحرق . وقول الأشعرى كلام أنزل الله معناه فى كتابه : فإن الشبع والرى والإحراق حوادث انفرد الرب بخلقها . فليس الخبز هو الذى يخلق الشبع ، ولم

يخلق الماء الرى ، ولم تخلق النار الإحراق ، وإن كانت أسبابا فى ذلك . فالخالق هو المسبب دون السبب كما قال تعالى : ومارميت اذ رميت ولكن الله رمى « فقد نفى أن يكون رسوله خالقا للرمى وإن كان سببا فيه .» ...

وعندما ظفروا بجواب الشيخ تمايلوا من الفرح ، وأيقنوا أنها القاضية عليه !

وأوحوا إلى السلطان أن يدعو جميع الفقهاء والعلماء إلى سماطه على الإفطار ــ وكان الوقت رمضان ــ ففعل ، وذهبوا بما كتبه الشيخ عز الدين الى السلطان الأشرف ، فانفجر سخطه على الشيخ .. ! سخط عنيف هائل ينبع من أعماق نفس امتلأت بالحب والاكبار لشخص رفضت فيه كل الوشايات والأقاويل ، ثم إذ بها تكتشف بغتة أن هذا الآخر ، كان يخدعها و يسخر منها ، و يظن بها الغفلة ! ! .. واختلط غضبه على الشيخ بضيقه المتراكم من سيرة الشيخ معه . ، فهو كلما أدناه ابتعد ، وكلما قربه هجر ، وكلما تألفه نفر .. !

وعلى سماط الإفطار ، ظلت صيحة السلطان تندد بالشيخ عز الدين : « صح عندى ماقالوه عنه ! .. هذا رجل كنا نعتقد أنه متوحد فى زمانه فى العلم والدين ، فظهر بعد الأختبار أنه من الفجار ... لا .. : بل من الكفار» ! ..

ولم يستطع أحد من الفقهاء أو العلماء أن يرد على السلطان الأشرف .. وظل صوته يدوى بالوعيد فى بهو الطعام بقصره السلطانى . وضيوفه يمضغون طعام الإفطار على مهل ، و يزدردون المضض ، وقلوبهم تدق ! !

مامن صوت واحد يرتفع إلا أنفاس تلهث ، وصراخ السلطان يتصاعد كحيوان جريح يوشك أن ينقض ليفترس ، بكل ضراوة الألم والإهانة وغريزة البقاء ! !

وبعد لأى تجرأ أحد الفقهاء فقال فى تذلل : « السلطان أولى بالصفح والعفو ، ولاسيا فى مثل هذا الشهر ، شهر رمضان . فلم يرد السلطان ، وهمهم آخر ملتمسا مغفرة السلطان .. !

ولم يرد السلطان .. وانصرف الفقهاء والعلماء ، وكان معهم على مائدة الإفطار ، عدد من العلماء والفقهاء من كل الأقطار .

وتناقل العلماء والفقهاء ماحدث ، ولاموا أنفسهم على الصمت فى حضرة السلطان ، وهم يعلمون أنه على الباطل ، وأن الشيخ عز الدين على الحق الذى يؤمنون به هم أنفسهم ! .

وتحفز الطلاب والمعجبون !

ماعسى أن يصنع السلطان بشيخهم عز الدين ؟!

أيتهم السلطان الأشرف وهو جاهل بأصول الدين ، شيخهم العالم الورع التقى بالفجر والكفر؟ !! .. أتراه ينزل به عقاب الفجار والكفار وهم ينظرون !!

واشتعل التوتر فى دمشق . وأصبح الناس ومامن شيخ من الذين حضروا المأدبة بالأمس ، يستطيع أن يمشى فى الأسواق !

احتشد الطلاب حول باب الشيخ عز الدين ، وتعهدوا أن يمنعوه إذا حاول السلطان أن ينزل به أى مكروه .

ولاذ أراذل شيوخ الحنابلة من حاشية السلطان بالقصر ، غير أن شيخ المالكية عمرو بن الحاجب عذبه صمته وصمت الفقهاء الآخرين أمام السلطان ، فركب بغلته وأخذ يطوف المدينة ، حتى جمع العلماء فى الجامع الأموى بعد صلاة العصر وانقض عليهم بعنفهم : « العجب أنكم كلكم على الحق وغيركم على الباطل ، ومافيكم من نطق بالحق . وسكتم وماانتصرتم لله تعالى والشريعة المطهرة » .

ولما تكلم متكلم منكم قال : السلطان أولى بالعفو والصفح ولاسيا فى مثل هذا الشهر ! ! وهذا غلط يوهم الذنب ، فإن العفو والصفح لايكون إلا عن جرم وذنب ... أما كنتم سلكتم طريق التلطف باعلام السلطان بأن ماقاله ابن عبد السلام مذهبكم ومذهب أهل الحق وأن جمهور السلف والخلف على ذلك ، ولم يخالفهم فيه إلا طائفة مخذولة يخفون مذهبهم و يدسونه على تخوف إلى من يستضعفون علمه وعقله ، ومنهم السلطان الأشرف ؟ ! لقد قال الله تعالى : « ولا تلبسوا الحق بالباطل وأنتم تعلمون » .

ولام ابن الحاجب لأنه سكت . ، وأعلن الندم والتوبة .. ثم اقترح عليهم أن يكتبوا فتيا بموافقة الشيخ عز الدين بن عبد السلام .

وكتبوا الفتيا ووقعوها ، وذهبوا الى بيت العز عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام ، وخاضوا اليه زحام الناس الذين رابطوا عند بيته .

وقبل أن يتدافع الناس لادانتهم على موقفهم أعلن ابن الحاجب ، أنهم جاءوا الشيخ بفتيا موقعة منهم توافق رأيه . وهذا هو اعتذارهم له عما فرط منهم أمام السلطان فى حق الشريعة وحق أبن عبد السلام .

وفرح الشيخ بموقف ابن الحاجب ومن معه من العلماء والفقهاء

فأرسل الشيخ إلى السلطان يعلمه بفتيا الشيوخ ، وأنهم « إذا كانوا قد سكتوا ولم يعلنوا رأيهم على سماط الإفطار بالأمس ، فما ذلك إلا لأن السلطان لم يمكنهم من الكلام لما ظهر من حدة غضبه » !

وأنهى رسالته طالبا من السلطان أن يعقد مجلسا للشافعية والحنابلة يحضره المالكية والحنفية وغيرهم من العلماء لتدور المناظرة أمام الجميع بينه و بين خصومه من فقهاء رجال الحاشية !

وأنهى رسالته إلى السلطان بقوله : « والذى نعتقده فى السلطان أنه إذا ظهر له الحق رجع اليه ، وأنه يعاقب من موه بالباطل عليه ، وهو أولى الناس بموافقة والده السلطان الملك العادل . فإنه عزر جماعة من أعيان الحنابلة المبتدعة تعزيرا بليغا رادعا ، و بدع بهم وأهانهم . »

وذهب ابن الحاجب إلى السلطان وسلمه الرسالة ، ولم يقرأها السلطان أمامه ، ووعده السلطان خير وودعه خيرا وداع . .

وعندما خلا السلطان الأشرف إلى رجال حاشيته من الفقهاء الحنابلة وقرأوا الرسالة أوجسوا خيفة من مجلس المناظرة الذى اقترحه الشيخ عز الدين ، فما كانوا يطيقون مواجهته أمام سائر الفقهاء والعلماء . وخلصوا نجيا وأجمعوا على ألا تكون مناظرة ، ثم وسوسوا فى صدر السلطان ألا يقبل عقد المناظرة ، فقد يهينه ابن عبد السلام !

وكتبوا ردا فوقعه السلطان . واستدعى رسولا يحمل الرسالة إلى الشيخ عز الدين ليأتى فى الوقت برده .

وفض الشيخ رسالة السلطان وقرأها بصوت مرتفع ليسمعها ضيوفه .

« بسم الله الرحمن الرحيم . وصل الى ماالتمسه الفقيه ابن عبد السلام أصلحه الله من عقد مجلس وجمع المفتين والعلماء ، وقد وقفنا على خطه وماأفتى به ، وعلمنا من عقيدته ماأغنى عن الاجتماع به . ونحن نتبع ماعليه الخلفاء الراشدون الذين قال صلى الله عليه وسلم فى حقهم : عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى . وعقائد الأئمة الأربعة فيها كفاية لكل مسلم يغلب هواه ، و يتبع الحق ، و يتخلص من البدع ، اللهم إلا إن كنت تدعى الأجتهاد ، فعليك ان تثبت ليكون الجواب على قدر الدعوى ، ولتكون صاحب مذهب خامس . وأما ماذكرته عن الذى جرى فى أيام والدى تغمده الله برحمته ، فذلك الحال أنا أعلم به منك ، وماكان له سببه إلا فتح باب السلامة لأمر دينى

وجرم جره سفهاء قوم

فحل بغير جانيه العذاب

ومع هذا لقد ورد فى الحديث : (الفتنة نائمة لعن الله مثيرها) . ومن تعرض إلى إثارتها قاتلناه مما يخلصنا من الله تعالى ، ومايعضده كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . »

وعندما فرغ الشيخ من قراءة الرسالة طواها وقال للرسول : « قد وصلت وقرأتها وفهمت مافيها فاذهب بسلام . فرد الرسول : « لقد تقدمت الأوامر السلطانية بإحضار جوابها . »

والطلاب ومؤيدو الشيخ مازالوا خارج الدار ينتظرون مايكون ، وقد استبد بهم التوتر والقلق منذ دخل رسول السلطان !

وفى داخل الدار يجلس مع الشيخ ابنه عبد اللطيف ، و بعض الأصدقاء ، وأحد العلماء الفضلاء ممن يغشون مجالس السلطان ، وقد أقبل يتوسط بين السلطان والشيخ .. ولكنه لم يكد يسمع الرسالة حتى تغير لونه وأيقن أنه لاجدوى من وساطته ، ودخل فى نفسه أن الشيخ يعجز عن الجواب ، وأنه هالك لامحالة !

غير أن الشيخ كتب للسلطان مترسلا بلا توقف وهو يقرأ مايكتبه : « بسم الله الرحمن الرحيم . فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون . أما بعد . حمدا لله الذى جلت قدرته وعلت كلمته . فإن الله تعالى قال لأحب خلقه إليه وأكرمهم عليه : « وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن ، وإن هم إلا يخرصون » . وقد أنزل الله كتبه ورسله لنصائح خلقه . فالسعيد من قبل نصائحه وحفظ وصاياه . واما طلب المجلس وجمع العلماء فما حملنى عليه إلا النصح للسلطان وعامة المسلمين ، وقد أديت ماعلىّ فى ذلك . والفتيا التى وقعت فى هذه القضية يوافق عليها علماء المسلمين من الشافعية والمالكية والحنفية والفضلاء من الحنابلة ، ومايخالف فى ذلك إلا رعاع لايعبأ بهم ! وأما ماذكر من أمر الاجتهاد والمذهب الخامس فأصول الدين ليس فيها مذاهب ، فإن الأصل واحد ، والخلاف فى الفروع . والحمد لله وحده . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .. »

وختم الرسالة بتوقيعه وطواها وسلمها رسول السلطان .

وقال له العالم الذى جاء للوساطة بينه و بين السلطان : لو أن هذه الرسالة التى وصلت اليك وصلت الى قس بن ساعدة لعجز عن الجواب ، وعدم الصواب ، ولكن هذا تأييد من الله .

وتليت الرسالة على السلطان ، فألقوا فى روعه أن الشيخ يتحداه محتميا بالعامة والطلاب وسائر العلماء ! فلينزل بالشيخ عقاب الفجار والكفار!

ولكن السلطان لم يستطع فقد وجد كل العلماء حتى فضلاء الحنابلة يؤيدون الشيخ ! فما يقف

السلطان إلا بعض رجال الحاشية من فقهاء الحنابلة وهم الذين أسماهم الشيخ فى رسالته : الرعاع ، والجهال . واتهمهم بالبلادة والإساءة إلى الإمام أحمد بن حنبل !

وفكر السلطان مليا ، ثم استدعى وزيره واسمه خليل ليشاوره فى الأمر، وكان الرجل من الذين يحبون الشيخ عز الدين ويحترمونه . ومازال الوزير يحاور السلطان و يوضح له سوء عاقبة البطش بالشيخ حتى هدأ السلطان .

وذهب خليل وزير السلطان إلى الشيخ العز يبلغه أمر السلطان : « ألا لا يفتى ، وألا يجتمع بأحد ، وأن يلزم بيته » .

وحاول الوزير خليل أن يهون على الشيخ عز الدين . فهذا العقاب أخف مما كان معدا له .

غير أن عز الدين ابتدره باسما : « ان هذا العقاب من نعم الله الجزيلة على ، الموجبة للشكر على الدوام . . أما الفتيا فإنى كنت والله متبرما منها ، وأعتقد أن المفتى على شفير جهنم . ومن سعادتى لزومى لبيتى وتفرغى لعبادة ربى ، والسعيد من لزم بيته ، و بكى على خطئه ، واشتغل بطاعة الله . »
وأراد الشيخ أن يقدم هدية للرسول شكرا على هذه الرسالة السارة ، فلم يجد غير سجادة صغيرة :

ولما عاد خليل يروى للسلطان ماقاله الشيخ عز الدين قال السلطان محنقا : « قولوا لى ماأفعل به ؟ ! .. هذا رجل يرى العقوبة نعمة . أتركوه . بيننا و بينه الله . »

على أن الذين أحاطوا بدار الشيخ العز عز الدين لحراسته أنكروا عليه طاعته لأمر السلطان ، وكلموه فى ذلك فقال لهم إن مصلحة قيام الشرع تقتضى وجود السلطان ، ومتى وجد وجبت طاعته وإلا تعطلت الأحكام ! ! ولكن لا طاعة للسلطان إذا خان عهد الله وأهدر مصالح المسلمين وأمر بمعصية الخالق . أما فيما عدا ذلك فالطاعة واجبة .

وعجب له محبوه ،

فأمرهم بالحسنى أن ينصرفوا إلى شئونهم و يدعوه وشأنه ، فسيعتكف للعبادة .. أما وجودهم حول الدار فسيتيح لأعدائه أن يتهموه بإثارة الفتنة !

غير أنهم انصرفوا إلى الزاوية الغزالية التى كان يدرس بها ، وأقسموا ألا يستمعوا لشيخ غيره . !

وجلسوا فى حلقته الفارغة متربصين ! ولم يجىء إليهم أستاذ غيره يعلمهم مكانه ! !

على أن سائر العلماء والفقهاء أضمروا السخط على ماأصاب الشيخ ، ولكنهم رضوا به لأنهم كانوا

يتوقعون عقابا أشد ودعوا الناس الى الصبر. وقضاء أخف من قضاء ! !

أمـا الشيخ جمال الدين الخضيرى شيخ الحنفية فما كان ليستطيع على ماجرى صبرا .. ! وكان عالما ورعا فاضلا صاحب نفوذ على قلوب الناس جميعا ، وكان السلطان يحسب له ألف حساب !

ومـاهـى إلا ثلاثة أيام قضاها عز الدين فى بيته ، متمثلا للأمر السلطانى ، ممتنعا عن لقاء من سعوا إلـى لـقائه ، حتى كان الشيخ الخضيرى يركب حماره إلى السلطان ، ومعه ابن الحاجب شيخ المالكية . ولم يكـد السلطان يعلم أن الشيخ الخضيرى شيخ الحنفية قادم إليه حتى أمر كبير وزرائه وكبار حاشيته أن يستقبلوا الشيخ خارج القصر ، وأن يدخلوه القصر راكبا حماره تكريما له .

ودخـل الشيخ ساحة القصر ، فاستقبله السلطان وأنزله بنفسه عن حماره ، وأدخله القصر وأجلسه الى جواره وهش له ، وجلس ابن الحاجب وفى يده ورقة فيها توقيع العلماء على تأييد موقف الشيخ عز الدين ابن عبد السلام ..

وحين أذن لـصـلاة المـغرب و بسطت المائدة للإفطار، أم الشيخ الخضيرى السلطان والحاضرين فى الصلاة !

و بـعـد الـصـلاة دار الشراب عليهم وهم جلوس قبل أن ينتقلوا لمائدة الطعام . وكان الحاضرون هم حاشية السلطان من أراذل فقهاء الحنابلة أعداء العز بن عبد السلام ..

وقـدم الـسلطان للشيخ قدح الشراب ، فنحاه بإشارة غاضبة قائلا : « ماجئت إلى طعامك ولا إلى شرابك »

فقال السلطان. : « يرسم الشيخ ونحن نمتثل لمرسومه . »

الشيخ : إيش بينك و بين ابن عبد السلام ؟ .. هذا رجل لو كان فى الهند أو فى أقصى الدنيا كان ينبغى على السلطان أن يسعى فى حلوله فى بلاده ، و يفخر به على سائر الملوك . »

الـسلطـان : عـندى خطه باعتقاده فى فتيا ، وخطه أيضا فى رقعة جواب رقعة سيرتها إليه . فيقف الشيخ عليهما و يكون الحكم بينى و بينه .

فلما قـرأ الـشـيـخ الخـضـيـرى رسـالتى عز الدين بن عبد السلام رد الورقتين للسلطان وقال : « هذا اعـتـقـاد المسلمين وشعار الصالحين ، وكل مافيهما صحيح ، ومن خالف مافيهما وذهب الى ماقاله الخصم مـن إثـبـات الحـرف والـصـوت فـهـو حمـار ! » . وبهت الجميع فالشيخ يتهم السلطان بأنه حمار.. وريع

السلطان من حدة الشيخ الخضيرى ، ونظر إلى أبن الحاجب المالكى و فقدم إليه ورقة يؤ يد فيها العلماء رأى ابن عبد السلام ! ونظر إلى الحاشية من فقهاء الحنابلة فوجدهم قد اسودت وجوههم وعراهم الأضطراب . فقال السلطان الأشرف : « نحن نستغفر الله مما جرى ، ونستدرك الفارط فى حقه ! .. والله لأجعلن ابن عبد السلام أغنى العلماء . »

وقاموا إلى الإفطار، ثم أرسل السلطان إلى الشيخ عز الدين ، فترضاه وأجلسه إلى جواره وسأله أن يطلب ماشاء ترضية له ، فلم يطلب عز الدين شيئا . ولكن السلطان ظل يستعتبه و يسترضيه ، حتى رضى الشيخ وعاد إليه مرحه .. وانزوى الأراذل من خصومه ، وأذن للعشاء فأمهم الشيخ عز الدين لصلاة العشاء استجابة لدعوة الخضيرى وأبن الحاجب .

وقبل أن ينفض المجلس أمر السلطان ألا يخوض أحد فى الكلام فى أمر الخلاف مرة أخرى .

وفى اليوم التالى عاد الشيخ عز الدين إلى الزاو ية الغزالية بالجامع الأموى يدرس و يفتى ، وأستقبله محبوه هاتفين .. « الله أكبر .. الله أكبر .. ظهر الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا . »

وعلم الملك الكامل سلطان مصر بما كان ، فأرسل يسأل العز و يبدى استعداده لنصرته ، .. فشكره الشيخ ولم يحك له ماجرى .

وجاء الملك الكامل سلطان مصر، لز يارة أخيه الملك الآشرف سلطان دمشق . وسأل الملك أخاه عما حدث من خلاف بين الشافعية و بعض الحنابلة فقال الأشرف أنه قد أمر الفر يقين بأن يكفا عن الكلام سدًّا لباب الخصام . فقال الملك الكامل ناهرا أخاه الأصغر: « والله مليح .. ! ما هذه إلا سياسة وسلطنة .. !! تساوى بين أهل الحق وأهل الباطل ، وتمنع أهل الحق من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؟ كأن الطر يق أن تمكن أهل السنة من أن يلحنوا بحججهم ، وأن يظهروا دين الله تعالى ، وأن تشنق من هؤلاء المبتدعة عشر ين نفسا ليرتدع غيرهم ، وأن تمكن الموحدين من ارشاد المسلمين وأن يبينوا لهم طر يق المؤمنين » . وذاب الملك الأشرف خجلا ، وظل يعتذر عما بدر منه . فاتهمه أخوه الأكبر بالجهل ، ونصحه أن يجلس إلى الشيخ عز الدين ليعلمه أصول الدين ، ومازال به حتى أقنعه بصحة رأى الأشعر ية وفساد رأى حاشيته . وأوصاه بعز الدين خيرا فأرسل الأشرف فى استدعائه . وأخذ الملك الكامل يتلطف مع عز الدين أمام أخيه الملك الأشرف ، و يسأله أن يتمنى عليه مايشاء ، وعز الدين يشكره ويحمد الله إليه ولايطلب شيئا ...

ووقع الأشرف مرسوما بتعيين الشيخ عز الدين خطيبا للجامع الأموى ليز يد النفع بعلمه .

وقال الأشرف لأخيه الكامل : لقد غلطنا فى حق الشيخ عز الدين بن عبد السلام غلطة عظيمة .

ولكنى أترضاه ولن أعمل إلا بفتاويه . »

أقتنى السلطان الأشرف رسالة كتبها الشيخ عن مقاصد الصلاة ، فكانت تقرأ عليه فى اليوم ثلاث مرات ، ولايدخل عنده أحد إلا طلب منه أن يقرأها لينفعه الله بها . وكان يقول لبعض خاصته : « أنسخوها وطرزوا بها مجالسكم . »

إطمأن الكامل إلى أن أخاه الأشرف قد أصلح عقيدته ، وأبعد من حاشيته الفقهاء المتملقين المنافقين البلداء المرتشين من أراذل الحنابلة .

وأصبح له مجلس أسبوعى من فضلاء الحنابلة وعلماء المذاهب الأخرى يتدارسون فيه الفقه وأصول الدين .

وجاءه الشيخ عزالدين مستجيبا لدعوته ، وكان من قبل لايجيبه ، فاقترح عز الدين أن يرفع السلطان الضرائب التى تثقل الصناع والتجار والفقراء ، وأن يعوضها بضرائب على الأغنياء ، وأقترح عليه أن يغلق المواخير والحانات ودور الفساد ، فاستجاب السلطان الأشرف من فوره لما طلبه الشيخ .

أشار الكامل على أخيه الأشرف أن يعين عز الدين قاضيا للقضاة ليصلح له أمور الرعية ، فتردد الأشرف ، على الرغم من أن اشارة أخيه الأكبر كانت أمرا بالقياس إليه . !

وقال الأشرف أنه يخشى من عناد عز الدين وشدته إذا هو تولى أمر القضاء وأصبحت أحكامه واجبة النفاذ ! ! .. فضحك الملك الكامل ، وأمر أخاه ألا يثق بأحد من العلماء إلا هؤلاء الذين يأخذون الكتاب بقوة ، الأشداء الأتقياء الورعين الذين لايخافون فى الله لومة لائم . لأن هؤلاء هم أعمدة الأمة ومنارات العدل ، وهم أحرى بأن يجعلوا السلطان قويا وفاضلا ومحبوبا عند الرعية ، وهم على أية حال خير من الفقهاء والعلماء الضعاف المستخزين المنافقين طلاب المنافع الذين يذهبون بجلال الملك ويزورون بهيبة الدين ! !

وروى الكامل لأخيه قصته مع قاض مصرى ورع شديد فى الحق . ذلك أن الملك الكامل وهو الملك المهاب الصالح ، كان قد هفا قلبه إلى مغنية قاهرية بارعة الجمال ذات صوت لم يسمع أعذب منه اسمها عجيبة . وكانت عجيبة تذهب إلى الملك ، فتغنى له ولخاصته حتى قبيل الفجر ، على قرع الدف ، ورنة عود تتقن العزف عليه . فعرضت أمام القاضى دعوى كان أحد طرفيها رجل من خاصة الملك يسمع معه إلى غناء عجيبة وجواريها . وأراد الملك أن يشهد فى تلك القضية . فرفض وقال للكامل : « السلطان يأمر ولايشهد . » ولكن الملك الكامل لم يقتنع برأى القاضى ، وعاد يطلب منه أن يؤدى الشهادة ، وكرر القاضى الاعتذار ، وأدرك الكامل أن القاضى لايقبل شهادته ، فسأله : « أر

أن أشهد . أتقبلنى أم لا ! » فقال القاضى : لا . ماأقبلك . وعجيبة المغنية تطلع إليك كل ليلة ، وتنزل ثانى يوم بُكرة تتمايل سكرا على أيدى الجوارى . »

فغضب الكامل وقال له : ياكنواج « وهى شتمة فارسية » فقال القاضى : « مافى الشريعة ياكنواج ! أشهدوا على أنى عزلت نفسى . » ومضى ينشد فى الناس :

وُليت القضاء وليّت القضاء ... لم يك شيئا توليتهُ
وقد ساقنى للقضاء القضاء ... وماكنت قبل تمنيته

وفكر الملك فيا عسى أن يقول الناس عن سبب عزل القاضى . فأرسل إليه يترضاه ، وعدل عن طلب الشهادة . ولم يعد يستقبل المغنية ولايقيم مجالس طرب . وسار فى رعيته منذ ذلك اليوم سيرة تقية فاضلة ، وهكذا أصبح وعظه ورع قاض حازم عادل ، فأصبح الملك باتعاظه مهابا محبوبا ..

وروى الملك الكامل لأخيه الأصغر الملك الأشرف هذه الحكاية ، وأقنعه أن وجود عالم فاضل عادل قوى الى جوار الملك إنما هو أقوم للسلطان والرعية جميعا .

ولكن السلطان الأشرف وعد بتعيين الشيخ عز الدين قاضيا للقضاة ، ثم تراخى ،

وأراد الملك الكامل أن يؤكد لأخوية الأشرف والصالح اسماعيل ، ماللشيخ العزمن مكانة وتقدير. فدعاه فى حضورهما و بالغ فى حسن استقباله ، وأجلسه إلى جواره وأخذ يستفتيه . وكلما أفتى الشيخ أبدى الملك أعجابه بالفتيا ، وسأله الرضى والدعاء . ثم قال له مشيرا إلى اصغر الأخوة الصالح اسماعيل : « إن هذا له غرام برمى البندق ، فهل يجوز له ذلك ؟ » فقال الشيخ : « بل يحرم عليه . فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنه لأنه يفقأ العين و يكسر العظم ويحرم عليه » والبندق كور صغيرة من الرصاص أو الحجر تستعمل فى الصيد .

وعاد الملك الكامل الى القاهرة ، ومرض الملك الأشرف ، فأناب عنه ولى عهده الصالح اسماعيل . وكان الشيخ عز الدين كما تعود من قبل لايغشى مجالس السلطان ولايزوره ، ولكنه عاده فى المرض ، فبلغ التأثر من نفس السلطان اعظم مبلغ حتى بكى ، وسأل الشيخ أن يعفوا عنه لما فرط منه فى حقه ، فدعا له الشيخ وأمر السلطان وأمر ولى عهده الصالح إسماعيل ألا يستفتى غير الشيخ عز الدين وأن يستهدى بآرائه .

غير أن الصالح إسماعيل ، لم يقرب الشيخ ولم يدعه إليه .. ففتيا الشيخ بتحريم الرمى بالبندق آلمته !

على أنه أهدر هذه الفتيا منذ أصبح سلطانا ، وجمع حوله خصوم الشيخ من الأراذل والبلداء الذين

ينتحلون الفقه الحنبلى و يشوهونه !

وأقصى الصالح إسماعيل عنه الفضلاء من العلماء الحنابلة ، وانصرف إلى اللهو، وأعاد ماأبطله أخوه من المنكرات : ففرض على التجار والصناع وأرباب الحرف والفقراء كثير من المكوث والضرائب التى كان أخوه الأشرف قد رفعها عنهم !

وأحاط به النخاسون الكبار وأغنياء تجار الرقيق ، فأعاد فتح الحانات والمواخير! .

وأحيا كل المفاسد والبدع التى كان أخوه الأشرف قد أماتها استجابة لطلب الشيخ عز الدين .. !

وكان الصليبيون الفرنجة والتتار الطامعون فى الاستيلاء على أرض العرب قد عرفوا ولع الصالح اسماعيل بالنفائس و بالتحف الفاخرة والخمر الغالية والجوارى الحسان ، فطفقوا يقدمون إليه الهدايا النادرة ، حتى بادلهم الهدايا ونشأت بينه و بينهم ألفه ومودة .. ولقد دسوا إليه من الجوارى الحسان من أصبحن عيونا عليه ، فكن لايبرحن مجالسه فى لهو أو جد ، و يطلعن على كل أسراره ، وهو بهن سعيد !

وفسد الأمر فى دمشق ، فأرسل أهل الغيرة فيها يشكون الملك الصالح اسماعيل إلى أخيه الأكبر الملك العادل سلطان مصر. فسار على رأس جيش إلى دمشق ، وأبطل المفاسد ورفع المكوس والضرائب الظالمة عن كاهل الصناع وأرباب الحرف والفقراء والتجار، وعين الشيخ العز عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام قاضيا ، صونا للعدل ، وحفظا للشريعة ، وضمانا لصلاح الأمر، وأذعن الأشرف لأمر أخيه الأكبر.

وكان على الشيخ عز الدين ، أن يضع على رأسه أكبر عمامة فى الدولة : عمامة قاضى القضاة ، صاحب أكبر منصب ونفوذ .. الرجل الذى يلزم بأحكامه كل أولياء الأمر حتى السلطان نفسه !

ورأى الشيخ عز الدين أن يتحلل من التقاليد ، فطرح العمامة كبيرها وصغيرها ، ووضع على رأسه طاقية من لباد مصر وهى غطاء الرأس الذى لا يستعمله إلا فقراء الناس فى مصر والشام . وكان من قبل عندما عين خطيبا للجامع الأموى ، قد طرح الرداء الأسود الذى ألف خطباء الجامع ارتداءه ، وعدل عن صعود المنبر بالسيف ، وعن ترصيع الخطبة بالسجع .

ها هو ذا الشيخ عز الدين ، يجمع كل وسائل النفوذ وأدواته : فهو خطيب الجامع الأموى ، وأكبر المفتين ، وهو شيخ حلقة ، يقنع الناس بوضوح الدليل ونصاعة البرهان وقوة الحجة ، ثم هو إلى كل ذلك قاضى القضاة ، فعلى رجال الدولة تنفيذ ما يقضى به ، وإلا أثموا شرعا ، واختل ميزان الأمور، فتهرأت الدولة !

والشيخ يجد و يصطنع الاجتهاد فى دروس الفقه والأصول بالزاو ية الغزالية فى الجامع الأموى ، و ينشط فى قضائه وفتاو يه لاستنباط الأحكام من القرآن والسنة وإجماع الصحابة ، والقياس الصحيح وتحرى مصالح الأمة التى هى مقصد الشر يعة ، حتى لقد صح عند الشيخ ابن الحاجب المالكى وهو واحد من أفقه علماء دمشق أن يقول : « لم نعرف منذ الأئمة الأر بعة من هو أفقه من الغزالى ، إلا الشيخ العز عز الدين عبد العز يز بن عبد السلام » .

وظل الشيخ عز الدين يعمل على إماتة البدع ، وإحياء السنن فى كل ما يصدر من أحكام ، وما يلقى من دروس وخطب ، وما ينشىء من فتاوى . وقال : « طوبى لمن ولى أمرا من أمور المسلمين ، فأعان على إماتة البدع وإحياء السنن » .

وكان الصالح إسماعيل عندما أحس أن أخاه سيعزله ، قد لاذ بالشيخ عز الدين معلنا التو بة ، متعهدا بحسن السيرة إن هو بقى على عرش دمشق . وما زال بالشيخ يستعطفه و يستشفعه والشيخ يشترط عليه شروطا حتى قبل الشيخ أن يتوسط له ، وضمنه الشيخ عند الملك الكامل فأبقاه سلطانا على دمشق

ولكنه لم يكد يستقر على العرش حتى عزل الشيخ عز الدين عن منصب قاضى القضاة .. فقد مات الملك الكامل !! ...

وخلف الملك الكامل على ملك مصر أخ له ، ولكنه أساء السيرة فى الناس ، وخضع لحاشية من الجوارى والمماليك والعلماء ، وغلبه الضعف ، ولعبت به الأهواء ، فوثب عليه أخوه نجم الدين وهو رجل صارم وتولى ملك مصر باسم الملك الصالح نجم الدين أيوب .

مابرح التتار والصليبيون يراقبون فى يقظة كل مايجرى فى دولة صلاح الدين التى حولها ورثة من الأبناء وأبناء الأخوة ضياعا خاصة لهم ، فوهنت وتداعت وتمزقت ! فطمع التتار فى العراق ، وخطط الصليبيون للاستيلاء على مصر والشام وفلسطين ، و بصفة خاصة بيت المقدس ! .. واضمحلت برقة والجز يرة العربية ..

وحصن الملك الصالح نجم الدين أيوب أبواب مصر وسد ثغورها بعسكر كثيف ، ودعم فيها القلاع ، وأرسل إلى عمه الملك الصالح اسماعيل صاحب دمشق ، يطالبه بأخذ العدة لمواجهة ما عسى أن يفعله الصليبيون الفرنج ، ولكن إسماعيل كان مشغولا بمراسلتهم وتبادل الهدايا معهم ، والاستمتاع بأموالهم وجواريهم .. فأنفذ الملك الصالح نجم الدين أيوب حملة إلى الشام ليضمها إلى مصر .

وهرع إسماعيل سلطان دمشق إلى الفرنج ، فحالفهم وفتح لهم دمشق ليشتروا منها السلاح ، وكان

سلاح دمشق معروفا بأنه أمضى سلاح ــ مضى إلى سائر أمراء الشام ليضمهم إلى حلفه ضد ابن أخيه ملك مصر ، فحالفه صاحب حمص ..

واضطرب الناس فى دمشق مذ رأوا الصليبيين يدخلونها و يتجولون فى أسواقها يشترون السلاح . وترك الشيخ عز الدين حلقته فى الجامع الأموى ، ومضى يخوض فى الشعب المتزاحم فى الطرقات و يفتيهم أن بيع السلاح للفرنجة حرام ، وكل بيع لهم حرام . فمن ارتكب من ذلك شيئا فقد خان الله والرسول ولا ذمة ولا عهد له ، ودمه مهدر، وماله مباح ! ..

ومضى الشيخ ابن الحاجب المالكى يفتى بمثل ذلك . وطفق الشيخان يحرضان التجار على الامتناع عن البيع للفرنجة ، ويحرضان الناس على قتال من يبيعهم السلاح فأصبح الفرنجة وهم لا يجدون من يتعامل معهم من تجار دمشق ، وحتى الذين تعاملوا معهم من قبل آثروا العافية ورفضوا التعامل بعد .. !

وغدت دمشق ذات صباح تتناقل أنباء ما صنعه سلطانها مع الفرنج ، فقد جيش معهم الجيوش ، وقرروا أن يسيروا معا إلى مصر ليكسروا الحملة التى أنفذها الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وأن يواصلوا الزحف فيستولوا على مصر كلها .

وفى مقابل مساعدة الفرنج لسلطان دمشق ، نزل لهم عن صيدا وقلعة الشقيف و بعض مدن فلسطين واقتسم معهم مدنا أخرى .. !!

وعندم تحققت هذه الأنباء ، وقف الشيخ عز الدين يخطب الجمعة فأعلن خيانة سلطان دمشق ومن والاه من أمراء الشام . وختم خطبته داعيا :

« اللهم أبرم لهذه الأمة إبرام رشد تعز فيه أولياءك ، وتذل فيه أعداءك ، و يعمل فيه بطاعتك و يُنهى فيه عن معصيتك » .

وهدرت حناجر المصلين : « آمين .. ! آمين » .

والتقى الشيخ عز الدين بالشيخ ابن الحاجب ، فأصدرا فتيا بخيانة السلطان و بخلع طاعته

ولم يطلبا من أحد التوقيع معهما على الفتيا حفظا لسائر العلماء من أن يؤذيهم السلطان .. اذ كان قد أنذر مخالفيه بعذاب عظيم ، ووعد مؤيديه بحسن الجائزة و وفرة المال وعلو الشأن . ! على أن الخطباء والعلماء امتنعوا عن الدعاء للسلطان من على المنابر بعد خطبة الجمعه . وهكذا تجاهلوا وجوده .. !

وأرسل بعض حاشية السلطان إليه وهو غائب عن دمشق بما كان من أمر الشيخ العز والشيخ ابن الحاجب ، فأمر بسجنهما وأمر حاشيته من أراذل الحنابلة باسقاط شأنهما فى عيون الرعية .

وسجن الشيخان ، وأصدر بعض هؤلاء الأراذل فتيا ضد الشيخين وأتهموا كليهما بإثارة الفتنة ، وطالبوا الرعية بإطاعة السلطان لأن معصيته خروج على الشرع ، وهو أدرى فيما يأخذ وما يدع بمصالح المسلمين . ! واتهموا الشيخين بالغرض والحسد وسوء النية والحقد على السلطان : فأما الشيخ عز الدين فلأن السلطان عزله عن منصب قاضى القضاة ، وأما الشيخ ابن الحاجب فلأنه طمع فى المنصب ولم ينله .. !! .. فكلاهما موتور لأنه حرم من المنصب الكبير والراتب الوفير .. !

ولم يكن أى الشيخين يملك الدفاع عن نفسه فهو السجن ، ولكن الناس لم يصدقوا ، واشتعل غضبهم على السلطان وحاشيته ، ومضوا يسألون فى الأمر شيوخهم ، فأيد الشيوخ بما فيهم الحنابلة ، رأى الشيخين ، لم يشذ عنهم أحد ، إلا البلداء منتحلو الفقه الحنبلى من أراذل حاشية السلطان !

وعاد السلطان إلى دمشق بجيش كبير، فوجد عددا ضخما من الناس يحيطون بالسجن ويحاولون تحرير العز وابن الحاجب من وراء الأسوار ، فأمر بإطلاقهما ، وملأ طرقات دمشق وأسواقها بالعسكر ، و بث الجواسيس فى كل مكان حتى المساجد !

وهدأت الثورة عن السلطان ، فأمر بإقالة العز من كل مناصبه ، من التدريس والخطابة ، وأمره « بملازمة داره ، وألا يفتى ، ولايجتمع بأحد البتة » .

وتقدم أحد العلماء من أصدقاء السلطان والعز معا فاستأذن للعز « فى صلاة الجمعة ــ وكان العز لا يترك صلاة الجماعة ــ وفى أن يعبر إليه طبيب أو مزين إذا احتاج إليهما ، وأن يعبر إلى الحمام ، فأذن له السلطان »

وكان العز فى معتقله بداره يقرأ القرآن و يكرر تلاوة قوله تعالى : « ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها . »

فأرسل إلى السلطان صديقهما المشترك ، وهو ذات الصديق الذى حاول أن يصلح بينه و بين السلطان الأشرف خلال فتنة الحنابلة . أرسل العز هذا الصديق إلى السلطان ليأذن له بمغادرة دمشق ومملكته جميعا .

وأطربت السلطان فكرة الخلاص من الشيخ ، ولكنه لم يستجب لطلبه بسهولة ، وذهب الوسيط وعاد مرات فى ذات اليوم ، والسلطان يتشدد و يلين و يشترط و يتنازل ، حتى أذن آخر الليل للشيخ بالهجرة ، على أن ينهض من فوره فيكون خارج دمشق قبل الفجر ! !

ورشق السلطان جنوده و بث عيونه فى كل الطرقات المؤدية إلى دار الشيخ وإلى خارج دمشق

تحرزا من معرفة الناس بهجرته والاحتشاد لوداعه .

وأحضر الصديق للشيخ بعض الدواب ، فحمل عليها أهله وكتبه ، وركب فى الطريق إلى القاهرة .

ولقى الشيخ فى سفره هذا نصبا وكثيرا من الخطوب . فقد مر ببلاد يحكمها حلفاء للسلطان من أمراء بنى أيوب ، و بلاد أخرى يحكمها أنصار لملك مصر نجم الدين أيوب

كابد الشيخ في رحلته صنوفا من الإنكار والتهديد ، وألوانا من الحفاوة والترحيب . وهو لا يفتأ كلما اجتمع بأحد من الخصوم والأنصار قائما يدعو إلى الجهاد فى سبيل الله ضد الصليبيين الفرنج وحلفائهم من الأمراء المسلمين ، منكرا موقف صاحب دمشق ومن والاه من الأمراء ، ودور منتحلى الفقه ، مزر يا بصمت الصامتين عن هذا كله ، متهما إياهم بالبلادة والخور والنذالة !

و يصف ابنه الشيخ عبد اللطيف ما كان من أمر أبيه : « أنتزع منها » دمشق إلى بيت المقدس ، فوافاه الملك الناصر داود فى الفور فقطع عليه الطريق ، وأخذه وأقام عنده بنابلس مدة ، وجرت له معه خطوب ، ثم انتقل إلى بيت المقدس حيث أقام مدة . ثم جاء الملك الصالح اسماعيل والملك المنصور صاحب حمص ــ حليف اسماعيل ضد نجم الدين أيوب ــ ، وملوك الفرنجة بعساكرهم وجيوشهم إلى بيت المقدس ، يقصدون الديار المصرية ، فسير الصالح إسماعيل بعض خواصه إلى الشيخ بمنديله وقال له : تدفع منديلى إلى الشيخ ، وتتلطف به غاية التلطف ، وتستنزله وتعده بالعودة إلى مناصبه على أحسن حال ، فإن وافقك فتدخل به على ، وإن خالفك فاعتقله فى خيمة إلى جانب خيمتى ، فلما اجتمع الرسول بالشيخ شرع فى مسايسته وملاينته ثم قال له : « بينك و بين أن تعود إلى مناصبك ما كنت عليه وز يادة أن تنكسر للسلطان وتقبل يده لا غير» . فقال الشيخ : « والله يا مسكين ما أرضاه أن يقبل يدى فضلا عن أن أقبل يده . . ! » يا قوم أنتم فى واد وأنا فى واد . والحمد لله الذى عافانى مما ابتلاكم به ، فقال : قد رسم لى أن توافق على ما يطلب منك وإلا اعتقلتك . فقال الشيخ : افعلوا مابدا لكم . فأخذه وأعتقله فى خيمة إلى جانب خيمة السطان . وكان الشيخ يقرأ القرآن والسلطان يسمعه فقال يوما لملوك الفرنج : « تسمعون هذا الشيخ الذى يقرأ القرآن » . قالوا : « نعم ، قال هذا أكبر قسوس المسلمين ، وقد حبسته لإنكاره تسليمى لكم حصون المسلمين ، وعزلته عن الخطابه بدمشق وعن مناصبه ، ثم أخرجته فجاء إلى القُدس ، وقد جددت حبسه واعتقاله لأجلكم . فقالت ملوك الفرنج : « لو كان هذا قسيسنا لغسلنا رجليه وشربنا مرقتها » .

ثم جاءت العساكر المصرية ، ونصر الله الأمة المحمدية ، وقتلوا عساكر الفرنج .

أطلق سراح الشيخ ، فانطلق فى طريقه إلى القاهرة فبلغها عام ٦٣٩ هـ بعد عام كامل من الأهوال والخطوب فى الطريق إليها .

كان مقدم الشيخ عز الدين إلى القاهرة يوما من أيام الزينة . فقد احتشد الناس الذين سمعوا به فى أبهى ملابسهم ، وأمر السلطان أمراءه وقادة الجيش أن يرتدوا حلل العيد ، وخرج فى أبهته على رأسهم يستقبلون الشيخ على الباب الشرقى للقاهرة ، وقد أعدوا له الخيل المطهمة يمتطيها هو وأهله وأبناؤه بدل المطايا المنهكة .

وعجب الناس للشيخ عز الدين : فهذا العالم الذى تحدى أمراء بنى أيوب وملأ أطباق الأرض بآرائه وفتاواه ، ليس ضخما ولا مخيفا بل هو نحيل خشن الثوب ، وما على رأسه عمامة الفقهاء والعلماء بل اللبدة التى يرتديها العامة والفلاحون فى مصر ! إنه لشديد الحياء خفيف الصوت .. !

وسار الموكب يزف الشيخ بالتهليل والتكبير ، والسلطان إلى جواره ومن خلفه أمراء الدولة والأعيان والعلماء .

وانتهى الموكب إلى حديقة واسعة غناء فيحاء تتوسطها دار فسيحة .

وودعه السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب قائلا : « هذه هى دارك ياشيخ عز الدين بن عبد السلام . وهى ليست هبة منى ولا من بيت المال ، ولكن أهل مصر اشتروها لك نفعهم الله بك ، ونفع بك الإسلام والمسلمين أيها الإمام . »

وتجولت الزوجة فى الدار وهى لا تستطيع أن تغالب فرحها . !! .. أخيرا هاهو ذا البستان التى حلمت أن تعيش فيه .. ولكنه أجل مما حلمت به وأفسح . وهو بعد يقع على النيل !! ..

وفرح الجميع بالأثاث الفاخر ، ورقائق الزجاج الملون ، والمصابيح الجميلة المتناثرة .

وشعر الشيخ أن هذا المكان الهادئ ، يمكن أن يمنحه من صفاء الذهن وراحة البال ما يتيح له كتابة مالم يستطع أن يكتبه فى دمشق .

أستراح فى البيت يوما وليلة .. ثم بدأ يستقبل الزوار .

وتعرف على علماء مصر وفقهائها وشيوخها ، وتبادلوا الرأى

وجاءه رسول السلطان يبشره بصدور الأمر بتعيينه إماما وخطيبا لجامع عمرو . فأثنى الحاضرون على قرار السلطان . وكان جامع عمرو قد أصبح منذ عهد صلاح الدين بديلا للأزهر الذى عطل صلاح

الدين التدريس فيه فى حربه على الشيعة الذين بنوا الأزهر.

وخلال زيارة رسول السلطان للشيخ العز بحضور عدد من الفقهاء والعلماء منهم شيوخ المذاهب الأربعة قال الشيخ المنذرى مفتى مصر للحاضرين : « كنا نفتى قبل حضور الشيخ عز الدين ، وأما بعد حضوره فالفقه متعين فيه ولايفتى أحد وهو بيننا » .. وهكذا أصبح الشيخ عز الدين مفتى مصر .

وأراد السلطان أن يعينه قاضيا للقضاة على أن يختار الشيخ نوابا له . فطلب الشيخ أن يمهله بعض الوقت حتى يحسن التعرف على العلماء والقضاة وأحوال الناس فى مصر . ولكن السلطان كان يلح عليه . و بعد فترة وجيزة قبل الشيخ منصب قاضى القضاة وعين نوابه بنفسه .

ولم يكد يتولى المنصب حتى لاحظ أن أمراء البلاد وقادة الجيش ليسوا من أهل مصر ، وليسوا أحرارا على الإطلاق ، بل هم مجلوبون ، اشتراهم السلطان من بيت المال وهم صغار فتعلموا اللغة العربية وعلوم الدين ، وفنون الفروسية والحرب والرياضيات ، وعندما شبوا عينهم فى مناصبهم . فهم أمراء مماليك أرقاء إذن ، وليس لهم حقوق الأحرار . ولهذا فليس لهم أن يتزوجوا بحرائر النساء وكانوا قد تزوجوا من حرائر نساء مصر ، وليس لهم أن يبيعوا أو يشتروا أو يتصرفوا إلا كما يتصرف العبيد ! .

و بدأ قاضى القضاة يطبق عليهم من أحكام الشريعة مايطبق على العبيد !

وبهت الملك مما صنعه الشيخ ، فذهب إليه يسأله أن يعدل عما أخذ فيه ، فطلب منه الشيخ ألا يتدخل فى القضاء فليس هذا للسلطان ، فإن شاء أن يتدخل فالشيخ يقيل نفسه . !

وكان السلطان رجلا قوى الشكيمة ، ولكنه لم يعرف ماذا يفعل بالأمر ! ..

لقد أبطل الشيخ كل ما أبرمه الأمراء المماليك من عقود : عقود البيع والإجارة .. وحتى عقود الزواج !

واضطرب الأمر بالمماليك : فالزوجات يهجرون فراش الزوجية ، و يعاملن أزواجهن كالغرباء ، والتجار يعودون فى الصفقات ، والصبية يطاردون الأمراء المماليك بكل هيبتهم و يعيرونهم بأنهم عبيد ! .. وكان الناس يذوقون الأهوال من صلف الأمراء !! .

وصف السيوطى « فى حسن المحاضرة » تلك الحال بقوله : « تصدى ـ الشيخ عز الدين ـ لبيع أمراء الدولة من الأتراك ، وذكر أنه لم يثبت عنده أنهم أحرار وأن حكم الرق مستصحب عليهم لبيت مال المسلمين ، فعظم الخطب عندهم ، والشيخ مصمم لايُصحّح لهم بيعا ولاشراء ولانكاحاً (زواجا) ، وتعطلت مصالحهم لذلك ، وكان من جملتهم نائب السلطنة ، فاستثار غضبا ، فاجتمعوا وأرسلوا إليه

فقال الشيخ : « نعقد لكم مجلسا وننادى عليكم (بالبيع) لبيت مال المسلمين ، فرفعوا الأمر الى السلطان ، فبعث إليه فلم يرجع ، فأرسل إليه نائب السلطنة بالملاطفة فلم يفد فيه ، فانزعج النائب وقال : (كيف ينادى علينا هذا الشيخ ، ونحن ملوك الأرض ! والله لأضربنه بسيفى هذا ، فركب بنفسه فى جماعته ، وجاء إلى بيت الشيخ والسيف مسلول فى يده ، فطرق الباب ، فخرج له ولد الشيخ فرأى من نائب السلطام مارأى ، وشرح له الحال ، فما اكترث لذلك ، وقال : « ياولدى . أبوك أقل من أن يقتل فى سبيل الله » ، ثم خرج فحين وقع بصره على النائب ، يبست يد النائب ، وسقط السيف منها ، وأرعدت مفاصله ، فبكى وسأل الشيخ أن يدعو له .

وقال : « ياسيدى إيش تعمل » ؟ .

— أنادى عليكم وأبيعكم ويحصل عتقكم بطريق شرعي .

— فيم تصرف ثمننا ؟

— فى مصالح المسلمين .

— من يقبضه ؟

— أنا .

انصرف نائب السلطنة إلى السلطان حيث كان جميع الأمراء قد اجتمعوا عنده ، فروى لهم نائب السلطان ماكان بينه و بين الشيخ .

ولم يذعن السلطان ، فأرسل إلى الشيخ من يتلطف له ويحاول صرفه عن بيع الأمراء ، وأخبره الرسول بعد حوار طويل أن السلطان لن يسمح ببيع الأمراء ، وأمر السلطان واجب ، وهو فوق قضاء الشيخ عز الدين ! وعلى أيه حال فليس للشيخ أن يدخل فى أمور الدولة فشئون الأمراء لا تتعلق به . بل بالسلطان وحده !! .

وأنكر الشيخ تدخل السلطان فى القضاء وقام فجمع أمتعته و وضعها على حمار ، و وضع أهله على حمير أخرى ، وساق الحمير ماشيا ! . .

إلى أين ياشيخ ! ؟ ...

قال : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ ! . .

فيم المقام بأرض يستضعف فيها أهل الشريعة ، و يعتدى فيها على القضاء ؟ !

وتجمع الناس وراءه .. وكلما سار فى طريق تزاحم الناس عليه يحاولون منعه من الهجرة ، فهو

أملهم في مواجهة مظالم الأمراء المماليك ، فلكم عانى التجار والصناع وسائر الناس من صلفهم ، وهاهم أولاء يرون فيهم يوما من أيام الانكسار على يد هذا الشيخ الجليل عز الدين بن عبد السلام ! .. فلماذا يتركهم الشيخ ؟ ! .. ولمن يكلهم ؟ ! .. إلى هؤلاء الأفراد العبيد المتغطرسين من جديد ؟ !

أحاط الناس بموكب الشيخ وهم يتوسلون باكين ألا يتركهم ، فقد عرفوا في قضائه قوة الانتصار للمظلوم ، وهيبة العدالة ، خلال تلك الأشهر القلائل التي ولي فيها المنصب ..

ولكن الشيخ مضى في طريقه لايبالي ..

سار الشيخ أميالا خارج القاهرة والناس من ورائه يرجون ملحين ساخطين حتى امتلأت بهم الأرض الفضاء إذ لم يتخلف عن اللحاق به « امرأة ولا صبي ولا رجل ولا سيما العلماء والصلحاء والتجار وأمثالهم . »

وبدأ أن هذه الجموع ستذهب في تحدي السلطان إلى أبعد مدى ! .. ولئن هي رجعت بغير الشيخ ليثيرن الدنيا على السلطات حتى الذين هم تحت التراب !

وعلم السلطان بما يجري ، وقال له أحد ناصحيه : « تدارك ملكك وإلا هب بذهاب الشيخ »

فأسرع السلطان إلى فرس سريع فامتطاه على عجل وانطلق حتى أدرك الشيخ عز الدين ، وشهد الناس من حوله وعاين سخطهم ، فنزل عن فرسه ، وتقدم متلطفا معتذرا إلى الشيخ عز الدين ، وقال له : « لا تفارقنا . عد يا أمام واصنع مابدالك . » .. وقدم للشيخ فرسا فامتطاه وعاد الشيخ .

وعاد الشيخ والناس يهللون من حوله ومن خلفه .

وجمع السلطان كل الأمراء في القلعة بأمر الشيخ ، ثم عرضوا في مزاد ونادى الشيخ عليهم وغالى في ثمنهم . حتى إذا امتنع الحاضرون عن المزايدة في الثمن لارتفاعه الفاحش ، تقدم السلطان فدفع ثمنا أزيد من ماله الخاص لا من بيت المال ، حتى اشترى جميع الأمراء المماليك وأعتقهم لوجه الله ، فأصبحوا أحرارا .

وصحح الشيخ عقودهم بما فيها عقود الزواج .

أما ما قبضه الشيخ الفاحش من ثمنهم فقد وزعه على الفقراء وأصحاب الحاجات وبصفة خاصة أهل العلم وطلابه ، وأقام به مكاتب لتعليم القرآن والخط وعلوم اللغة .

وازدادت مكانة الشيخ في قلوب الناس ، وتزاحموا عليه وما كانوا يتركونه بعد صلاة الجمعة في

جامع عمرو حتى يؤذن لصلاة العصر .

أما السلطان ، فقد أضمر أن يتخلص من الشيخ ، فقد خافه على ملكه ! .

إن هذا الشيخ الخجول النحيل ليستطيع أن يحرك الناس ضده كيفما يشاء !

على أن أمراء المماليك لم يعودوا بعد لصلفهم واستبدادهم بالناس كما كانوا من قبل بيعهم فى المزاد !

واستمر عز الدين فى القضاء حازما حاسما لايخشى إلا الله ولا يأبه إلا بالحق ، ولايراعى إلا مصلحة الأمة . لقد تأتيه الدعوى من أحد الأفراد على أحد خواص السلطان ، فيسوى بينهما فى المجلس ، و يتحرى العدل وحده .. ولكم أدان خواص السلطان ! ..

لم يعد السلطان يتوقع منه مجاملة ، وتمنى أن يزيحه من مكانه ، ولكنه خشى غضب الناس !

كان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، سلطانا قويا واسع الحيلة ، ولكنه وجد نفسه مع الشيخ عز الدين بلا حيلة !

وفى الحق أن الشيخ عز الدين ، لم يجهر بعداء السلطان ، ولاحتى بنقده ، ولكنه مضى فى طريقه : يفتى ، ويخطب الجمعة فى جامع عمرو ، و يقضى بما يهديه إليه فهمه لنصوص الشريعة أو اجتهاده إن لم يجد حكما فى النصوص ، ثم يخلص إلى بيته ليكتب .. ولكنه على انفساح بيته وهدوئه وجماله لم يكن يجد الوقت الكافى للكتابة ، فالناس يتزاحمون حيث يكون ، ومنهم من لح عليه بالزيارة .. !

ولم يشأ أن يتخذ حاجبا يمنع عنه الناس ، كما كان يصنع الفقهاء من قبله حين يخلون إلى الكتابة ..

وكان كثير الصدقات ينفق معظم رواتبه خفية على أصحاب الحاجات ، فكان كثير من أصحاب الحاجات يطرقون بابه .

وكان يلح بالدعوة إلى المعروف والنهى عن المنكر، و يعتبر القيام بهما واجبا شرعيا يأثم تاركه ، فيأتيه الناس يستفتونه فى المعروف والمنكر.

ووجد بعض الأقوياء الظالمين يغتصبون حقوق المستضعفين ، فأفتى أن من واجب المستضعفين أن ينتزعوا ما اغتصب منهم ، ولا عقاب عليهم ، فهذا حقهم الشرعى

فإن هم وجدوا السلطان عاجزا عن رد أموالهم المغتصبة ، فعليهم استردادها بأنفسهم ، وإلا أثموا شرعا !

وأثارت هذه الفتيا عددا من الأمراء الذين ألفوا أن يستضعفوا! بعض التجار والصناع والحرف ، و يغصبون منهم خفية بعض البضائع أو الأجور! !

وكان يعتبر من الحقوق المغصوبة إنقاص أجر العامل ، أو قهر البائع أو تخو يفه فيبيع بثمن أقل من الثمن المعروف ! ثمن المثل !

وسخط السلطان نفسه عليه ، فقد رآه فى أحكامه وفتاو يه يفرض أوامره على الشرطة ، وليس هذا لأحد غير السلطان ، فإن لم تستجب الشرطة حرض الناس على الدولة ! !

ثم اصطدم الشيخ عز الدين بأقرب أعوان السلطان وأعزهم عليه . وهو أستادار أو أستاذ دار السلطان : الرجل الذى يتولى شئون مساكن السلطان وسائر حوائجه الخاصه .

ذلك أن « الأستادار» فخر الدين بن شيخ الشيوخ كان مولعا بالغناء والرقص ، فعمد إلى مسجد وسط حديقة واسعة مطلة على النيل ، فصعد إلى سطح المسجد فافتتن بجمال المنظر، فبنى فوق المسجد « طبلخانة » أى خانا أو دارا للطبل والغناء ، وتعود السهر فيها مع صحبه يسمعون إلى الجوارى المغنيات الراقصات .. !

ولم يجرؤ أحد على أن يشكوا الأستادار إلى قاضى القضاة ، ولكنه ذهب حتى تحقق مما سمع ، فعاد وعقد مجلس القضاء ، وأصدر الحكم بإزالة البناء .

غير أن الشرطة لم تنزل الملهى من على سطح المسجد ، فنهض الشيخ عز الدين يقود أبناءه و بعض الشباب من مر يديه ، وأخذوا المعاول والفئوس ، وأزالوا البناء ... ثم أعلن الشيخ أنه يقيل نفسه من منصب قاضى القضاة ، فما عاد يطيق أن يقضى بقضاء فتنتظر الشرطة إذن رئيس الشرطة أو السلطان لتنفذ الأحكام ، وقد لا تنفذها .. !

ولم يكد السلطان يسمع بما حدث من الشيخ حتى اضطرم غيظا ، ثم جاءه من يخبره بأن الشيخ قد أقال نفسه ، فصفق السلطان طربا ، وحمد الله لأن الشيخ أعفاه من حرج كبير، فأقال نفسه بنفسه ! وأرسل السلطان رسولا إلى الشيخ بموافقته على استقالته ، ففرح الشيخ ، وحمل سجادة من على أرض بيته وأهداها رسول السلطان تعبيرا عن الفرح ، معتذرا إليه بأن لايجد هدية أثمن منها .. !

ها هوذا عبء ثقيل انزاح عن قلب الشيخ !

صمم الشيخ على أن يخصص أكثر وقته للتأليف ، ضاع منه عمر طويل وما كتب بعد شيئا . ! غير أن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب زاره وطلب منه أن يدرس الفقه الشافعي فى المدرسة الجديدة التى أقامها السلطان الفقه على المذاهب الأربعة فقبل الشيخ ونهض بتدريس الفقه ، والتفسير. وكان هو أول من ألقى دروسا فى التفسير بمصر منذ عهد بعيد . ولقد قام الشيخ بتدريس الفقه الشافعى فى هذه المدرسة .

وخطط دروسه لكى تكون كتبا ينتفع بها الناس ، فدرس أصول الفقه والتصوف ، بهذه المدرسة الجديدة التى أسماها السلطان باسمه .. المدرسة الصالحية .. وحزن الناس لأن الشيخ ترك القضاء وما عرفوا فى زمانهم قاضيا أكثر حسما وأعمق نظرا ولا أنهض منه للأمر ، ولا أشد تقى وورعا وروعة من هذا الشيخ العز عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام !

وعبر عن ذلك شاعرهم الجزار:

سار عبد العزيز فى الحكم سيرا
لم يسره سوى بن عبد العزيز « يعنى عمر بن عبد العزيز»
عمنا حكمه بعدل وسيط
شامل للورى بلفظ وجيز

لقد أراح الشيخ واستراح . ولكن حكمه على « الاستادار» قد وصم الرجل فى مصر وسائر بلاد الإسلام . فقد جاء فى كتاب « حسن المحاضرة » بعد الحديث عن حكم الشيخ فى أمر الملهى ، كما جاء فى تاريخ ابن إياس وظن فخر الدين وغيره أن هذا الحكم لايتأثر به فى الخارج ، فاتفق أن جهز السلطان رسولا من عنده إلى الخليفة المستعصم ببغداد ، فلما وصل الرسول إلى الديوان ، ووقف بين يدى الخليفة ، وأدى الرسالة له ، خرج إليه ، وسأله :

ــ هل سمعت هذه الرسالة من السلطان ؟

ــ فقال الخليفة لا . ولكن حملنيها عن السلطان فخر الدين بن شيخ الشيوخ استاداره .

ــ فقال الخليفة : إن المذكور أسقطه ابن عبد السلام . فنحن لانقبل روايته .

فرجع الرسول إلى السلطان حتى شافهه بالرسالة ، ثم عاد إلى بغداد ، وأداها .

استقر الشيخ فى داره ، يؤلف الكتب ، مستفيدا من كل ما مر به : ألف نحو أربعين كتابا فى

الفقه والتفسير وأصول الفقه والتصوف حصاد تجاربه وقراءاته وتأملاته وفتاويه

على أن الشيخ لم يكد يسيطر على وقته وينظمه ، ويستقر فى داره ليكتب ، حتى هاجمه جماعة من الأشقياء ذات ليلة مظلمة فتسوروا عليه الحديقة ، وتقدموا إلى باب الدار يحاولون كسره ، والشيخ مستغرق فى عمله لا يشعر بهم .. !

وهب أهل الدار من نومهم فزعين ، خاف كل من فى الدار إلا الشيخ !

وحاول أحد أبنائه أن يخرج من باب خلفى فيستدعى العسس ، ولكن الشيخ رفض وتقدم نحو الباب الذى حاول اللصوص اقتحامه ، فتأخروا إلى الحديقة ، وتقدم هو إليهم قائلا : « أهلا بضيوفنا » .

وعلى ضوء النجوم تبين الشيخ أنهم جماعة من الفتاك ممن كان يستأجرهم بعض أمراء المماليك للفتك بأعدائهم ! ! وتعرف على رئيسهم ، وتذكر أنه وثيق الصلة بأمير كان يصرخ ويبكى ويتوعد الشيخ عندما نادى على الأمراء فى المزاد ! .. وكانت تفلت من الأمير حركات أنثوية !

وكان هذا الفاتك يدلف إلى الأمير ويهون عليه .. فأبديا من آيات المودة والتعاطف المريب ما أثار سخرية الذين شهدوا المزاد ! ! .

مثل أمامه هذا الفحل الفاتك فيما بعد متهما فى نهب المتجر ، وشهد الأمير له زورا ، وأثنى عليه فى رقة .. فحكم الشيخ عز الدين على الأمير بغرامة لشهادة الزور ، وبمبلغ من المال تعويضا للتاجر المعتدى عليه ، وحكم على الناهب بالسجن . غير أن الشرطة لم تسجنه وزعمت أنه فر إلى جبل فى صعيد مصر !

إن الشيخ يعرف أن هذا الأمير وغيره يتخذون من بعض السوقة ضعاف العقول أشداء الأجسام ، عصابات يؤدبون بها من يرفض لهم طلبا ، فإذا سقط أحدهم فهو مصرى اعتدى على مصرى ولا شأن للأمراء المماليك بالأمر كله !

وطلب الشيخ عز الدين عشاء لضيوفه ، فالضيف ينبغى أن يكرم فى أى وقت جاء . وذهل رجال العصابة .. ! ثم أخذ يعظهم ، حتى ألقوا تحت قدميه ما أخفوه وراء العباءات من أسلحة . وفاض الدمع من أحدهم فاعترف من خلال الدمع أن ذلك الأمير المخنث الشرس حرضهم على قتل الشيخ ونهب بيته ووعدهم بأموال طائلة ، وقد أقسم ألا يبقى الشيخ على وجه الأرض ، بعد أن نادى على الأمراء المماليك فى المزاد العلن وهم ملوك الأرض كما ينادى على الجوارى والعبيد ! !

فدعا الشيخ لضيوفه وللأمير بالهداية بعد الضلال . وقام الفتاك ، فقبلوا يد الشيخ ، وظلوا يقبلونها حتى غسلوها بدموع الندم ! .. وطلبوا منه الدعاء ، فطلب منهم أن يتوضأوا ليصلى بهم . وحين فرغوا من الوضوء أمهم الشيخ فى صلاة توبة على خضرة الأرض ، تحت شعاع النجوم ! .. وطلب أبناء الشيخ منه أن يبلغ السلطان ، فأبى .

حتى إذا جاء يوم العيد ، وخرج السلطان فى أبهة الملك إلى القلعة ، وحوله الأمراء يتشامخون ـــ وفيهم ذلك الأمير ـــ واجه الشيخ سلطانهم بما روع الأمراء وألقى الهيبة من الشيخ فى قلوبهم . و يصف السبكى ذلك المشهد فى طبقات الشافعية : « طلع شيخنا عز الدين مرة إلى السلطان فى يوم عيد إلى القلعة ، فشاهد العسكر مصطفين بين يديه ومجلس المملكة وما السلطان عليه يوم العيد من الأبهة ، وقد خرج على قومه فى ز ينة على عادة سلاطين الديار المصر ية ، وأخذت الأمراء تقبل الأرض بين يدى السلطان فالتفت الشيخ إلى السلطان وناداه :

(ياأيوب . ماحجتك عند الله إذا قال لك ألم أبوئ لك ملك مصر ثم تبيح الخمور ؟)

فقال السلطان : « هل جرى ذلك ؟ »

قال : « نعم الحانة الفلانية تبيع الخمور وغيرها من المنكرات وأنت تتقلب فى نعمة هذه المملكة . »

وأخذ الشيخ يناديه كذلك بأعلى صوته والعساكر واقفون :

فقال السلطان : « ياسيدى هذا أنا ما عملته . هذا من زمان أبى . »

فقال الشيخ : « أنت من الذين يقولون أنا وجدنا آباءنا على أمة ؟ ! »

فأمر السلطان باغلاق الحانة .

و بعد أن انصرف سأله أحد تلاميذه عما فعله فقال الشيخ :

ـــ رأيته فى تلك العظمة فأردت أن أهينه لكيلا تكبر نفسه فتؤذى .

فقال التلميذ :

ـــ أما خفته ؟

قال الشيخ :

ـ « والله يابنى لقد استحضرت هيبة الله تعالى فصار السلطان أمامى كالقط . »

وكان هذا التلميذ هو تاج الدين الذى أصبح فيا بعد .

وعاد الشيخ من القلعة ، فطاف ببيوت بعض أصدقائه وتلاميذه يهنئهم بالعيد ، ثم عاد إلى بيته يستقبل المهنئين .

اهتم الشيخ عز الدين بوضع أصول للفقه ، فألف كتابه قواعد « الأحكام فى مصالح الأنام » وقد ضمنه كثيرا من القواعد الفقهية . وقال فى أوله : « الشريعة كلها إما درء مفاسد أو جلب مصالح . فإذا سمعت الله تعالى يقول : باأيها الذين آمنوا فلا تجد إلا خيرا يحثك عليه أو شرا يزجرك عنه أو جمعا بين الحث والزجر. وقد أبان الله تعالى ما فى بعض الأحكام من المفاسد فحث على اجتناب المفاسد وما فى بعض الأحكام من المصالح فحث على إتيان المصالح . »

ثم يقول : أما مصالح الدارين « الدنيا والآخرة » وأسبابها ومفاسدها وأسبابها فلا تعرف إلا بالشرع . فإن خفى طلب بأدلة الشرع وهى الكتاب والسنة والإجماع والقياس والاستدلال الصحيح . أما مصالح الدنيا وأسبابها ومقاصدها فمعروفة بالضرورات والتجارب والعادات والظنون المعتبرات . فإن خفى شىء من ذلك طلب من أدلته . ومن أراد أن يعرف المصالح والمفاسد فليعرضها على العقل

فهو يدعو إلى إعمال العقل فى استنباط الاحكام ، وفى التعرف على المصالح . وهو يرى ان الأحكام إن لم يمكن استنباطها من الكتاب أو السنة أو الإجماع أو القياس ، فيجب استنباطها بما يحقق مصلحة و يدرأ مفسدة . والعقل هو أداة هذا الاستنباط .

و يقول : « إن الطب كالشرع وضع لجلب مصالح السلامة والعافية ولدرء معاطب الأسقام . والذى وضع الشرع هو الذى وضع الطب فإن كل واحد منهما موضوع لجلب مصالح العباد ودرء مفاسدهم . »

وتأسيسا على هذا النظر، استنبط كثيرا من الأحكام :

ـ فنهى عن تعمد المشقة فى العبادات والمعاملات . فلا مصلحة فى المشقة : « قد علمنا من موارد الشرع ومصادره أن مطلوب الشرع هو مصالح العباد فى دينهم ودنياهم . وليست المشقة مصلحة ، بل الأمر بما يستلزم المشقة بمثابة أمر الطبيب باستعمال الدواء المر البشع . فإنه ليس غرضه إلا الشفاء ، ولو قال قائل كان غرض الطبيب أن يوجد مشقة ألم مرارة الدواء لما حسن ذلك فيمن يقصد الأصلاح

وقيل فى بعض كتب الله : « بعينى ما يتحمل المتحملون من أجلى » .. فلا يصح التقرب بالمشاق .

ومن آرائه أنه من الممكن تأخير بعض المصالح لما لتأخيرها من مفاسد فقد أخر الله إيجاب الصلاة والصيام ، « ولو عجل بهما لنفروا من الدخول فى الإسلام » .

ـ فى تحصيل المصالح يراعى الأفضل فالأفضل لقوله تعالى : « فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » . وقوله « واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم » .

وعلى ذلك :

ـ فإنقاذ الغرقى مقدم على أداء الصلوات لأنه أفضل عند الله من أداة الصلاة والجمع بين المصلحتين ممكن بأن ينقذ الغريق ثم يقضى الصلاة . ومعلومٌ أن ما فاته من أداء الصلاة لايقارب إنقاذ نفس مسلمة من الهلاك .

ـ لو رأى الصائم فى رمضان غريقا لايتمكن من تخليصه إلا بالتقوى بالفطر فإنه يفطر و ينقذه . لأن فى النفوس حقا لله تعالى وحقا لصاحب النفس ، فقدم ذلك على أداء الصوم .

ـ لايتقدم فى ولاية الحرب إلا أشجع الناس وأعرفهم بمكائد الحرب والقتال ، وقد جاء فى الحديث الشريف : « من ولى من أمَر المسلمين شيئا ثم لم يجهد لهم ولم ينصح فالجنة عليه حرام . »

ـ الأئمة « الحكام » البغاة لا ولاية لهم . وإنما نفذت تصرفاتهم وتوليتهم لضرورة مصلحة الرعايا ، وأنه مع غلبة الفجور عليهم لا إنفكاك للناس منهم . وأما أخذهم الزكاة فإن صرفوها فى مصارفها أجزأت ، وإن صرفوها فى غير مصارفها لم يبرأ الأغنياء منها . ومصالح الفقراء أولى من مصالح الأغنياء لأنهم يتضررون بعدم أخذ نصيبهم من الزكاة ، ولا يتضرر به الأغنياء من تثنية الزكاة .

ـ دفع المشقة واجب فيجوز لبس المخيط فى الحج وكذلك الطيب والدهن وقلم الأظفار .

ـ يجوز التيمم للمشقة كالخوف من حدوث المرض من ماء الوضوء أو خوف إبطاء الشفاء . أو إذا غلا ثمن الماء وأصبح الحصول عليه مشقة أو إذا احتاج الإنسان إلى ثمنه فى سفر أو نحوه .

ـ يجوز للمرأة أن تتيمم بدلا من الوضوء بالماء إذا كان الماء يؤذى جمال وجهها . كأن يظهر عليه من أثر الوضوء فى الشتاء مايشين هذا إذا كان الوضوء يؤثر على جمال المرأة فى وجهها أجاز لها الشافعى أن تتيمم وهذا

ـ من أطلق لفظا لايعرف معناه لايؤاخذ بمقتضاه كمن لفظ بكلمة الخلع أو الطلاق وهو لايعرف

أحكامها فلا يترتب حكم على ما قال .

ـ لو عم الحرام الأرض بحيث لا يوجد فيها حلال ، جاز أن يستعمل من ذلك ما تدعو إليه الحاجة ، ولا يقف تحليل ذلك على الضرورات لأنه لو وقف عليها لأدى ضعف العبد واستيلاء أهل الكفر والعناد على بلاد الإسلام ... و يقتصر على ما تمس إليه الحاجات دون أكل الطيبات وشرب المستلذات وشرب الناعمات .. « ولو دعت ضرورة واحدا إلى غصب أموال الناس لجاز له ذلك بل يجب عليه إذا خاف الهلاك لجوع أو برد ، وإذا وجب هذا لإحياء نفس واحدة ، فما الظن بإحياء النفوس . فثورة المغصوبين على الغاصب واجبة . »

ـ إذا سرق إنسان مالا سرقة موجبة لقطع اليد لم يجب عليه الإعلام أى الاعتراف بالسرقة ، بل يخير مالك المسروق بأن له عليه مالا ، و يرده إليه أو يعوضه عنه إن كان قد تلف . ولايتعرض لذكر السرقة

فإن رد السارق المال أو عوضه أبرأه منه المسروق فقد برئ السارق ، وإلا وجب قطع يده فهو حد من حدود الله .

ـ الوسائل تسقط بسقوط المقاصد . فلا يجوز ضرب الصبى للصلاة إذا لم يثمر الضرب . فهذا الضرب ينفره من الصلاة

إذا اختلف الزوجان فى متاع البيت فادعاه كل منهما ، أو ادعى أحدهما الاشتراك فى الجميع فإن الشافعى يسوى بينهما نظرا إلى الظاهر . و بعض العلماء يخص كل منهما بما يليق به نظرا إلى العادة الغالبة . وهذا أصوب فإذا كان الزوج جنديا وادعت الزوجة ملكية السلاح والخيل أو ادعى هو ملكية أدوات زينتها ، فإن ما يختص بالرجال يصير للزوج وما يختص بالنساء لا يصير للمرأة . على خلاف ما يقول الشافعى .

ـ إذا اختلف الزوجان فى النفقة فالشافعى يجعل القول قول المرأة لأن الأصل عدم قبضها ، ومالك يجعل القول للزوج لأنه الغالب فى العادة وقول مالك أحسن .

ـ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر . فهى تحقق مصلحة للأمة ، والصلاة التى لاتحقق هذه المصلحة لا جدوى منها ولا يقبلها الله . فالصلاة أمر بالسيرة الحسنة ومكارم الأخلاق .

ـ الكذب حرام ولكنه جائز لتحقيق مصلحة .. كالإصلاح بين الناس أو الكذب على الزوجة لتقويمها .

ولاحظ الشيخ أن بعض المشعوذين ينسبون أنفسهم إلى الزهد والتصوف و يسيئون إلى الشريعة

ذلك أنهم اقترفوا المنكرات ولبسوا المرقعات ، وادعوا أنهم قد سقطت التكاليف عنهم فليس عليهم صلاة ولاصيام ولا زكاة ولا حج ..

وتصدى لهم فسفه سلوكهم ، ومدح الأقطاب الكبار من أئمة الصوفية ، وكانت له صلات مودة أو معرفة بآراء بعضهم كالشاذلى والعباس المرسى وإبراهيم الدسوقى والسيد أحمد البدوى .

وكان يحترم هؤلاء ويحض تلاميذه على الأفادة منهم فيقول : « اسمعوا كلامهم فهو قريب العهد بنبع الحقيقة . » وكانوا هم يقولون عنه : « مامن مجلس فى الفقه أبهى من مجلس الشيخ عز الدين عبد السلام . »

وشرع وهو يعلم تلاميذه أن الزهد ليس هو مايفعله عامة الصوفية الذين يسيئون إلى التصوف : لاهو تعذيب النفس ولا لبس المرقعات . « وليس الزهد هو خلو اليد من المال ولكن هو خلو القلب من التعلق بالمال . فليس الغنى بمناف للزهد » . وقد كان عبد الله بن المبارك والليث بن سعد وهما من أغنى الأغنياء من أزهد الناس .

وسمى التصوف علم الحقيقة وهى معرفة أحوال الباطن ، والشريعة تستغرقه لأنها تتناول الظاهر والباطن جميعا . « فكل حقيقة لاشريعة لها فهى عاطلة ، وكل حقيقة لاشريعة لها فهى باطلة . وليست الحقيقة خارجة من الشريعة بل الشريعة طافحة بإصلاح القلوب بالمعارف والأحوال . فمعرفة أحكام الظواهر معرفة لجل الشرع ومعرفة أحكام البواطن معرفة لبعض الشرع ولاينكر ذلك كافر أو فاجر .

وهكذا أحسن التوفيق والمزاوجة بين الغصون والشريعة والتصوف . وقال : الشريعة مجاهدة والحقيقة مشاهدة ولا تباين بينهما إذ الطريق إلى الله سبحانه وتعالى لها ظاهر و باطن . فظاهرها الشريعة و باطنها الحقيقة .. والحقيقة والشريعة يجمعهما كلمتان هو قوله : إياك نعبد وإياك نستعين فإياك نعبد شريعة وإياك نستعين حقيقة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « العلم علمان علم باللسان وعلم بالقلب . »

وفرق بين الإسلام والإيمان : « فالأسلام هو قيام البدن بوظائف الأحكام ، والإيمان هو قيام القلب بوظائف الأستسلام . والإحسان أن تعبد الله كأنما تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك فتكون قائما بوظائف العبودية مع شهوده إياك . »

وكتب عن المحبة الألهية شعرا جاء فيه :

نار المحبة أحرقت أحشائى ... ومدامعى تنهل كالأنواء
فأنا الحريق بأضلعى وأنا الغريق بأدمعى ، ... يامنقذ الغرقاء !

ومن العجائب أن نار تحرقى ... تزداد وقدا عند فرط بكائى !
فالنار والماء القراح تآلفا ... هذا لعمرى أعجب الأشياء !

فالمحبة تكمن فى ذات المحب وتسلبها صفاتها كما تكمن النار فى ذاتية الماء الحار فأنت تظنه فى الصورة ماء يغرق وهو فى الحقيقة نار تحرق ، فإن قلت أن المحرق هو النار فأين الماء ؟ ! وإن قلت المغرق هو الماء فأين النار؟ !

وللشيخ سبحات صوفية عديدة أودعها كتابه « حل الرموز ومفاتيح الكنوز» . وقد عنى فيها بشرح الغامض من أقوال شيوخ الزهد والتصوف . واستشهد ببعض أقوال الإمام على كرم الله وجهه وهو إمام الزاهدين : « سئل على رضى الله عنه هل عرفت الله بمحمد أو عرفت محمدا بالله ؟ فأجاب لو عرفت الله بمحمد ما عبدته ولكان محمد أوثق فى نفسى من الله . ولو عرفت محمدا بالله لما احتجت إلى رسول الله . ولكن عرفنى نفسه بلا كيف كما شاء و بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بتبليغ أحكام القرآن و بيان معضلات الإسلام والإيمان وإثبات الحجة وتقويم الناس على منهج الإخلاص فصدقت بما جاء به . »

و يعلق الشيخ على هذا : « يستحيل الوصول إلى شيء من معرفة الله بغير الله ولا سبيل إلى معرفة الله إلا بالله .

و يكتب دروسه فى التفسير ، فتحس فيها آثار الفكر الأشراقى الذى تعلمه فى صباه عن السهروردى .. ومثال ذلك تفسيره للآية الكريمة : « الله نور السماوات والأرض . » قال الشيخ : جاء فى الحديث الشريف إن الله خلقهم من ظلمة ثم رش عليهم النور فمن أصابه ذلك النور اهتدى ، ومن أخطأه ضل . و يضيف الشيخ : معرفة العبد لربه هو نور الله الذى يقذفه فى قلب عبده فيدرك بذلك أسرار ملكه و يشاهد غيب ملكوته و يلاحظ صفات جبروته ثم تنزل قوة إدراكه على مقدار ما أفيض عليه من ذلك النور.

ثم يفسر سورة العصر بظاهرها فالناس خاسرون إلا فى اجتماع فيه أربع أوصاف : الإيمان ، والعمل الصالح ، والتواصى بالحق ، والتواصى بالصبر.

وقال إن الصحابة كانوا إذا اجتمعوا لم يفترقوا حتى يقرءوا : « والعصر. إن الإنسان لفى خسر، إلا الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر. »

وتحدث فى التفسير عن أنواع المجاز فى القرآن من مجاز الحذف كحذف القسم أو المبتدأ أو الخبر أو بعض حروف الجر ثم أنواع المجاز المعروفة فى علوم البلاغة والبيان ، ثم تحدث عن الكناية فى القرآن

وضرب لكل ذلك أمثلة بآيات القرآن مرتبة حسب المصحف . وضمن ذلك كتابه « الاشارة إلى الإيجاز فى بعض أنواع المجاز» .

وقد ذهب بعض مؤرخى المتصوفة إلى أن العز تصوف ، ولكن الأستاذ محمد حسن عبد الله ينفى ذلك عنه و يذهب إلى أن التصوف يخالف طبيعة الشيخ عز الدين .. وهذا حق فقد كان بعض التصوف فى عصر الشيخ هروبا من الواقع ، وكان الشيخ من أشد الناس جسارة فى مواجهة الواقع ، وأنشطهم إلى تغييره . فقد ظل يواجه عصره و يقاوم مفاسده و يصك المجتمع بمواقف رائعة ، وكان إلى كل ذلك زاهدا من أولئك الزهاد العظام الذين يفرضون بالقول والموقف والسيرة قيما شريفة فاضلة على مجتمع تمتهن فيه الفضائل و يشقى به الشرفاء !

ومهما يكن من أمر الشيخ فقد كتب فى التصوف وشرح أحوال الصادقين من المتصوفة ، ودافع فى شعر له عن سماع الأذكار وأناشيد الصوفية فى حلقات الذكر..

وما كان يمكنه أن يتجاهل تيارا يجتاح العصر ، ولكنه رد التصوف إلى أصوله النبيلة فى مجاهدة النفس لتتطهر من الهوى فلا تمتلىء إلا بالحقيقة ونور الحق ، وتناضل فى سبيل الخير وتعمر الدنيا بالحب والعدل والجمال والحرية .

وللشيخ فى التصوف شعر حسن

من ذلك قوله :

أيها العاشق معنى حسننا … مهرنا غال لمن يطلبنا
جسد مضنى وروح فى العنا … وجفون لا تذوق الوسنا
وفؤاد ليس فيه غيرنا … فإذا ماشئت أدّ الثمنا
فافن إن شئت فناء سرمدا … فالفنا يفضى إلى ذاك الغنى
وأخلع النعلين إن جئت إلى … ذلك الحى ففيه قد سنا
وعن الكونين كن منخلعا … وأزل مابيننا من بيننا
وإذا قيل من تهوى فقل … أنا من أهوى ومن أهوى أنا

ومن ذلك قوله فى تجلى الله على قلب عبده المؤمن « يشاهده بعين يقينه ، ويجليه ببصر بصيرته من غير حلول ولا تحيز ولا انفصال ولا اتصال » :

ولما تجلى من أحب تكرما … وأشهدنى ذاك الجمال المعظما

تعرف لى حتى تيقنت أننى
أراه بعينى جهرة لا توهما

وفى كل حال أجتليه ولم يزل
على طور قلبى حيث كنت مكلما

وماهو فى وصلى بمتصل ولا
بمنفصل عنى وحاشاه منهما

ومن شعره فى العشق الألهى :

شربت حميا حبكم مذ عرفتكم
على ظمأ منى فزاد تلهبى

فلا مورد للعالمين كموردى
ولا مشرب للعاشقين كمشربى

فلى رتبة تعلوعلى كل رتبة
ولى منصب يسموعلى كل منصب

وهو يعنى رتبته من الزهد ، وانشغال قلبه بغير الدنيا ، مما جعله فوق الطمع والرغبة فى الدنيا ، فما يخاف ولا يخاف ولا يرجو إلا الله تعالى ، وهذا هو منصبه الدينى وهو أعلى من كل منصب دنيوى .

وقــــال :

حبه راحتى وروح حياتى
وكذا ذكره بلاغى وزادى

وإذا مامرضت فهو طبيبى
كلما عادنى بلغت اعتمادى

وإذا ماضللت أو ضل ركب
عن حماه فوجهه لى هادى

ياعذيرى فكن عليه عذيرى
أو فقل لى ماحيلتى واعتمادى

إن تلمنى أولا تلمنى فإنى
حبه مذهبى وحسن اعتقادى

وقــــال :

فلو شاهدوا معنى جمالك مثلما
شهدت بعين القلب ماأنكروا الدعوى

خلعت عذارى فى هواك ولم يكن
خليع عذار سره فى الهوى نجوى

ومزقت أثواب الوقار تهتكا
عليك وطابت فى محبتك البلوى

فما فى الهوى شكوى ولو فرق الحشا
وعار على العشاق أن يعلنوا الشكوى

وكم كنت من خوف الهوى أتقى الهوى
ولكنما حكم الهوى غلب التقوى

وقال من قصيدة طويلة :

لئن كان جزؤك جزءا صغيرا
ففيك انطوى العالم الأكبر

وقال يلوم الذين أساءوا إلى التصوف فى عصره ، من لابسى المرقعات ومرتكبى المنكرات :

ليس التصوف عكازا ومسبحة
وكلا ولا ... ...

وأن تروح وتغدو فى مرقعة
وتحتها موبقات الكبر والسرف

وتظهر الزهد فى الدنيا وأنت على
عكوفها كعكوف الكلب فى الجيف

وقال فيهم ، وفى المخلصين من أهل التصوف :

ذهب الرجال وحال دون مجالهم زمر من الأوباش والأنذال
زعموا بأنهم على آثارهم ساروا ولكن سيرة البطال
قطعوا طريق السالكين وأظلموا سبل الهدى بجهالة وضلال
عمروا ظواهرهم بأثواب التقى وحشوا بواطنهم من الأدغال
إن قلت قال الله قال رسوله همزوك همز المنتهى المتغالى
تركوا الشرائع والحقائق و اقتدوا بطرائق الجهال والضلال
وترصدوا أكل الحرام تخادعا كتخادع المتلصص المحتال
فهناك طاب المخلصون وأصبحوا متسترين بصورة الأشكال
عملوا بما علموا وجاءوا بالذى وجدوا ومابخلوا بفضل نوال
وعيونهم تجرى بفيض دموعهم مثل انهمال الوابل المطال
تاهوا على كل الملوك وإنهم لهم الملوك بعزة الإقبال
بوجوههم أثر السجود لربهم وبها أشعة نوره المتلالى
لاينظرون إلى سوى محبوبهم شغلوا به عن سائر الأشغال
واخيبة الآمال إن أقصيتنى عن قصدهم ياخيبة الآمال
فهم إليك وسيلتى ياسيدى هلا وصلت حبالهم بحبالى

كان الشيخ يكتب الكتب بخطه أو يمليها على تلاميذه . وقد جاءه فى مصر عدد كبير من علمائها وسمعوا دروسه ، ولازموه معجبين بعلمه ومواقفه وغيرته للحق ، ودفاعه عن الشريعة وأحكامها لايبالى فى ذلك بشىء ولايريد إلا وجه الله فأطلق عليه أحد علماء مصر ومتصوفيها وهو ابن دقيق العيد . « سلطان العلماء » . وقال عنه لقد تحرر من سلطان الفقهاء السابقين ، وقاوم سلاطين الزمان فهو السلطان . ! .. وسماه آخرون شيخ الإسلام .

وتمر السنوات بالشيخ وهو فى عمله مطمئن البال آمن السرب يدرس ويخطب و يكتب .. ولكن قارعة تنزل ، فتنتزع الشيخ من كل هذا .. فقد أنتشرت فى القاهرة أخبار غزوة صليبية تتجه إلى دمياط بقيادة لويس التاسع . فوقف الشيخ تاركا كل أعماله ليدعو كل أفراد الأمة إلى الجهاد .

ولم يعد صوت يرتفع من على منابر المساجد إلا بالدعوة إلى الجهاد .. وهجر الشيوخ كتبهم وحلقاتهم وذهبوا جميعا إلى دمياط للاشتراك فى الجهاد المقدس ، وانتقل السلطان إلى المنصورة ليكون قريبا من ميدان المعركة .. وزحف الفرنج إلى المنصورة وهناك انتصر المصريون على الصليبيين الفرنج

وأسروا قائدهم لويس التاسع ملك فرنسا .

ومات السلطان فى المنصورة ثم تولى مكانه ابنه طوران شاه ، فقتله مماليك أبيه حرقا وغرقا . وتولت شجرة الدر، وقتلت ، وتوالى أمراء المماليك بعد سقوط بنى أيوب كل يقتل صاحبه و يتولى مكانه !

وعاد الشيخ إلى القاهرة وعاد الشيوخ إلى حلقاتهم والجميع يطالبون ملوك المسلمين فى كل البلاد بأن يتحدوا ليواجهوا خطر الفرنج وخطر التتار، ولكن بلا جدوى ! فما كان يشغل الملوك المسلمين غير ذهو السلطان وأبهة الملك !

وذات صباح روعت الدنيا باستيلاء التتار على بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية وألقوا بمكتبتها العامرة فى ماء دجلة لتختلط الكتب بأشلاء العلماء والفقهاء وآلاف الضحايا الذين قتلهم التتار فى وحشية لم يعرف لها التاريخ مثيلا من قبل .

ومن جديد يطلق الشيخ عز الدين صيحته إلى الملوك والأمراء العرب والمسلمين أن يتفقوا فما استباح التتار أرضهم وأعراضهم فى العراق إلا لأنهم تفرقوا .. !

وذهبت النداءات المخلصة أدراج الرياح .. فزحف التتار إلى الشام واستولوا على حلب فى طريقهم إلى مصر !

وكان السلطان قطز على عرش مصر ، فجمع الأمراء والأعيان والعلماء ليتشاوروا فى أمر غزو التتار. ورأى قطز أن الحرب تقتضى مالا كثيرا وخزانة الدولة خاوية ، فلا بد من فرض ضرائب جديدة على الرعية لتجهيز جيش قوى يصد زحف التتار.

ووافق الأمراء المماليك على فرض ضرائب جديدة . إلا أن العز بن عبد السلام قال : « إذا طرق العدو بلاد الإسلام وجب قتالهم . وجاز أن لايبقى فى بيت المال شىء من السلاح والسروج الذهبية والفضية والمزركشات ... وأن تبيعوا مالكم من الحوائص « أحزمة الخيل » الذهبية والآلات الفضية . و يقتصر كل الجند على سلاحه ، ومركوبه و يتساووا هم والعامة .. وأما أخذ الأموال من العامة مع إبقاء الأموال والآلات الفاخرة فى أيدى الجند ، فلا » .

واقتنع السلطان بهذا الكلام فكان الأمر كما قال الشيخ ، ولم يقرر السلطان ضرائب جديدة ، و بيعت الأشياء الثمينة التى يمتلكها الأمراء والجند المماليك وجهز بثمنها جيشا ضخما .

كان الشيخ فى الثمانين ، مضنى من مقارعة الخطوب والمكاره ومن السن ، فلم يستطع أن يخرج مع الجيش كما خرج إلى دمياط ، ولكن شباب العلماء والقادرين خرجوا مع الجيش ، والتقى الجمعان فى

عين جالوت فأوقع الجيش المصرى بقيادة قطز بالتتار هزيمة منكرة لم تقم لهم بعدها قائمة !

وفي طريق العودة وثب الظاهر بيبرس على قطز فقتله وتولى مكانه ، واستأثر هو بكل ما منحته الجماهير لقائد الجيش المنتصر من إعجاب وترحاب .. !

عاد الظاهر بيبرس إلى مصر يتلقى البيعة ، فلم يبايعه الشيخ عز الدين بل قال له : « ما أعرفك حرا لأبايعك . وما أعرفك إلا مملوكا للبند قدار . (والبندقدار هو الذى يحمل كيس البندق للسلطان أثناء الصيد) . فأنت عبد لا تصلح لتولى الأمر . فالشرط أن يكون ولى الأمر حرا » .

وأثبت الظاهر بيبرس أنه أعتق وأنه قد أصبح حرا ، فبايعه الشيخ آخر الأمر بعد أن تأكد بكل الطرق الشرعية أن السلطان حر..

لم يستقر الظاهر بيبرس على عرشه إلا بعد أن بايعه الشيخ العز عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام وهو يقترب من الثالثة والثمانين ، وقد كبر أبناؤه وأحفاده وأصبح ابنه عبد اللطيف أحد علماء مصر .

هاهو ذا الشيخ يخطو وئيدا إلى الثالثة والثمانين ، وقد تخرج على يده أئمة ، وأرسى تقاليد للقضاة والفقهاء والعلماء ، وترك ميراثا عظيما من جسارة المواقف .

ومهما يكن حظه من الفقه ، فقد كان داعية إلى التجديد ، عدوا للتقليد يعيب على أتباع المذاهب تجمدهم عند مذاهبهم حتى حين يبدو لهم الخطأ فى بعض الفروع أو الأصول .. وكان يقول لهم : إننا لم نؤمر بتقليد الصحابة فكيف نقلد الأئمة أصحاب المذاهب ؟ ..

وكان هو نفسه شافعيا ولكنه لم يتقيد بالمذهب الشافعى ، وخالفه وأخذ بغيره أو اجتهد رأيه بقدر ما استطاع ، و بقدر ما سمحت له ظروف عصره .

وفى الحق أن دعوته أثمرت فعدل بعض المقلدين عن التقليد ..

وإنه الآن ليطرق أبواب الثالثة والثمانين .. لكم مر به من أهوال فى قراع الباطل ، ومصاولة البغى ، وفى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ! ..

وآن للشيخ أن يستريح .

مرض وغلبه الوهن ، فأدرك كل من عرفوه أنه مفارقهم ، وحدثهم أنه سيفارقهم إلى جوار الله عندما يبلغ الثالثة والثمانين ، كما تنبأ لنفسه من قبل .

وعاده السلطان الظاهر بيبرس في مرضه ، ورآه يشرف على التلف ، فاستأذنه في أن يعين أبناءه مكانه في مناصبه ، فقال له الشيخ : « ما فيهم من يصلح ، والمدرسة الصالحية للقاضى تاج الدين . »

وكانت أخبار كراماته قد ذاعت ، وكان هو يكذب أن له كرامات .

فحين أشرف الشيخ على الموت أذاعوا عنه أنه عندما قدم الصليبيون دمياط بقيادة الملك لويس التاسع ، وهبت الريح لصالح سفائن الفرنج ، دعا الشيخ ربه أن يغير اتجاه الريح ، فتغيرت لصالح المسلمين وكان هذا هو سبب الانتصار.. !!

وحكوا أن صديقا من ريف مصر اسمه البلتاجي تعود أن يهديه هدايا من خيرات الفلاحين ، فأهداه حمل جمل من الهدايا وكان فيها إناء جبن ، فسقط فى الطريق فانكسر ففسد الجبن ، وأخذ حامل الهدية يصرخ ، فجاءه رجل رومى فسأله فحكى له أن الجبن قد فسد ، فقال له الرومى أنا أعطيك خيرا منه ، وأعطاه إناء جبن . وعندما وصلت الهدايا إلى الشيخ تقبلها ورد إناء الجبن قائلا أنه عرف فيه ريح الخنزير فقد صنعته امرأة رومية متنجسة

وكان الشيخ وهو على فراشه يسمع حكايات أخرى عن كرامته ، فيغضب و ينكر ما يسمع ، و يستغفر الله لنفسه وللرواة ، و يطالب الناس ألا يبالغوا فيما يحكون عنه فما هو إلا عبد فقير لله عمل جهده ليفيد الناس و يقيم الشريعة و يدافع عن السنة ويميت البدعة و يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر.. و بلغ الثالثة والثمانين ، فطلب إلى أبنائه أن يسندوه إلى المدرسة الصالحية التى تعود أن يدرس فيها .. وكان شديد الضعف من المرض ، فحاولوا أن يثنوه ولكنه صمم .. !

وساندوه إلى المدرسة ، فألقى الدرس ..

وكان درسه الأخير، فقد مات فى المدرسة وهو يفسر الآية الكريمة : الله نور السموات والأرض .

فاضت روحه .. لتعود إلى نور السموات والأرض ، التى نعمت من فيضه طوال الحياة

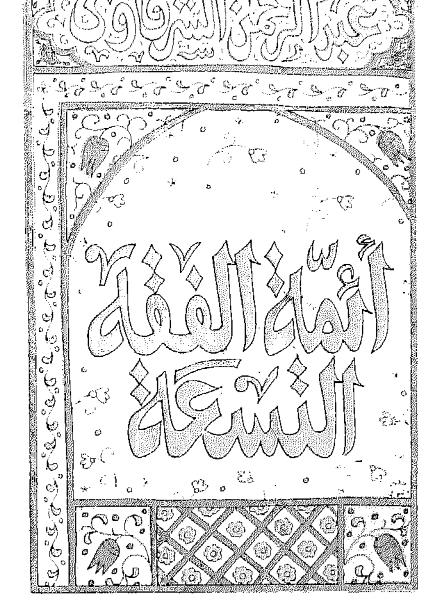
وشيعته مصر كلها برجالها وأطفالها ونسائها .. وأمر السلطان الأمراء أن يحملوا نعش الشيخ ، واشترك معهم السلطان نفسه فى حمل النعش .

وأقيمت له فى دمشق جنازة ضخمه وصلوا عليه صلاة الغائب .

وحين استقر جثمان الشيخ آخر الدهر تحت سفح المقطم ، وعاد السلطان الظاهر بيبرس إلى قصر ملكه تنفس الصعداء وقال : « الآن استقر أمرى فى الملك لأن هذا الشيخ لو كان يقول للناس : أخرجوا عليه لانتزعوا الملك منى »

لقد صدق الظاهر بيبرس ! !

فقد كان الشيخ سلطانا فوق السلاطين ! . كان سلطان العلماء !



أثر الإسلام على نحو ما، في جميع الذين يعيشون على أرض الإسلام، فهو ميراثهم العظيم مهما تكن دياناتهم .. فقد ترسبت قيمه الفاضلة في نفوسنا وشكلت عدالته مجتمعات كثيرة عبر التاريخ.

وقد زحف الفرسان الأوائل ليحرروا الشعوب المستعبدة في الامبراطوريات القديمة ورأوا رعايا تلك الامبراطوريات يدخلون في دين الله أفواجا، تخليصا للنفس من الهوان، وذل الاستعباد، وآلام الظلم.

وكان أولئك الفرسان المسلمون محاربين بواسل وكانوا أيضا دعاة عدل وحضارة وحرية، وكانوا علماء وما فتحوا البلاد باحثين عن مغانم، ولكن محررين ورعين وحملة مبادئ نشروها بين الناس. وكان هذا كله ميلاد لعصر جديد. وجاء من بعدهم خلف عظيم، من أهل الجزيرة العربية أو من أهل البلاد المفتوحة، أحسنوا نشر التعاليم وبرعوا في استنباط الاحكام الشرعية الجديدة محترمين الأعراف والعادات السائدة عندما لاتتعارض مع نصوص الشريعة الإسلامية أو روحها السمحة.

وقد نشأ من أهل البلاد المفتوحة علماء وفقهاء أثرى بهم الفقه الإسلامي.

وهاهي صفحات من نضال هؤلاء العلماء والفقهاء تتقصى مواقفهم من الحياة والناس، وترسم صورا لهم، عسى أن نجد فيها المثال الحي وأن تثير همة المسلمين في هذا العصر علهم ينهضون ببعض ما نهض به السلف الصالح.

دار الشروق
القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٣٤٨١٤
بيروت : ص . ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣